نورالدين زازا

حياتي الكوردية

أو

صرخة الشعب الكوردي

ترجمة

روني محمد دُمِلّي



دار ئاراس

للطباعة والنشر

السلسلة الثقافية

صاحب الامتياز: شوكت شيخ يزدين

رئيس التحرير: بدران احمد حبيب

*

الكتاب: حياتي الكوردية أو صرخة الشعب الكوردي

مذكرات: نورالدين زازا

ترجمة: روني محمد دُملِّي

تنضيد وتصحيح وتنقيح: شاخوان عبدالرحمن

من منشورات دار ئاراس- رقم: ٤٥

الطبعة العربية الأولى - اربيل ٢٠٠١

رقم الايداع في المديرية العامة للثقافة والفنون في اربيل ١٤ لسنة ٢٠٠١

مطبعة التربية ـ اربيل

***

1
كوردستان تركيا - من السحر الى الرعب

- الولادة والطفولة حتى سن العاشرة
- الحياة اليومية لعائلة كوردية
- الجنة الأرضية العائلية
- العادات الكوردية في تركيا
- وضع كورد تركيا في عهد الإمبراطورية العثمانية، وفي عهد مصطفى كمال
- القمع والإضطهاد

في عهد الإمبراطورية العثمانية، تفتحت عيناي في مدينة تشتهر بالنحاس عند منابع نهر دجلة في بلاد جبلية رائعة : كوردستان تركيا.

مسقط رأسي، الذي يشطره الى شطرين وادٍ فسيح وعميق، هو (مادن) الذي يعني بالعربية (معدن)، وأذكر أن الجو كان دوماً مثقلاً بروائح المناجم، كما أذكر أن تلك المعادن المختلفة (حيث كان هناك الى جانب النحاس، الرصاص والكروم والذهب) كانت تلوّن مياه السواقي بالأخضر والأصفر والأزرق الفيروزي، وأنني كنت أمكث ساعات طوال أتأمل السواقي المتلونة بهذه الألوان قبل أن تصب في دجلة. كما لاتفارقني مناظر الشتاء، حيث أن مدينة مادن وبحكم وقوعها على جبال طوروس وعلى إرتفاع ألف متر كانت تتميز بشتاء قطبي، حيث البرد القارس يبدأ مع منتصف تشرين الثاني، ترافقه ريح الشمال، ويجمد الينابيع والسواقي والبحيرات والأنهار.

وفي شهري كانون الأول والثاني، كانت البلدة والجبال المجاورة تغطى بطبقة ثخينة من الثلج الذي لايكاد يتوقف عن السقوط، وريح الشمال تأتي على شكل زوابع تجتاح الجبال وأعاصير تخترق الوديان وتجاويف الأشجار وحتى جدران المنازل، أما في شباط (الذي كان يسمى المجنون لبرودته الشديدة) فقد كان البرد يتضاعف فيه شدة الى ضعفين وثلاثة. وكانت درجات الحرارة تهوي الى ٣٠ أو ٤٠ درجة تحت الصفر المئوي. وكانت العواصف الثلجية القادمة من سيبيريا والمارة عبر بلاد القوقاز تجتاحنا لأيام متتالية.

أذكر أنه في أحد أشهر شباط القاسية غمرت الثلوج المتساقطة بيوتاً بأكملها. ولكي نعود الى دارنا الواقعة على هضبة المدينة العالية والى شجرة التوت ودار الضيافة كان علينا أن نمر

عبر نفق ثلجي، كان والدي قد حفره ليوصلنا الى دار الضيافة، كان ذلك شتاءً نادراً ومتميزاً بقساوته ودوامه، وكان قد تسبب في هلاك نصف المواشي في كوردستان، وبلغ الجوع بالأبقار في بعض المناطق حداً دفعها لأكل روثها.

في إحدى ليالي شباط المجنون إلتقت عيناي نور الحياة. كانت آلام الوضع قد أرهقت والدتي (التي كانت تشكو من إضطرابات قلبية منذ سنوات) فكان نبضها يتسارع وحالتها الصحية تتدهور. ورغم أن عدد سكان مادن كان يتجاوز عشرين ألفاً حينها فإنه لم يكن في البلدة طبيب مختص، وكان شقيقي الأكبر يدرس الطب في أسطنبول ليصبح أول مادني يحصل على شهادة الدكتوراه في الطب.

كانت مدينتنا تفخر بأبنائها من القوابل والدايات ومجبري الكسور. وكان أشهر هؤلاء الداية (نار خاتون) التي تنحدر من الطائفة اليونانية العظيمة والمزدهرة التي نزحت الى مادن وسكنت بها في نهاية القرن الثامن عشر. وبعد أن كانت قد ساعدت في ولادة إخوتي وأخواتي الأربعة، قبلت (نار خاتون) رغم كبر سنها المجيء من أجلي ايضاً. لكن كيف لها أن تصل الى دارنا في عاصفة ثلجية شديدة وعلى طبقة ثلجية بلغ سمكها خمسة أمتار، وهي العجوز الضعيفة التي نال منها الكبر.

لم تكن مادن قد عرفت التزلج على الثلج ولا نعال الثلج[١] الذي يستخدم بكثرة في أقصى مناطق شمال كوردستان. كان الوقت يمضي مسرعاً، وأخيراً حُملت (نار خاتون) على ظهر (كوسما) الذي كان أقوى خدمنا. وفُرشت على الثلج قطعة من اللباد السميك، عرضها متر ونصف وطولها تسعة أمتار، كان الرجال يدحرجونها ويفرشونها أمام (نار خاتون) لتسير عليه. كانت عملية دقيقة وخطرة مع الظلام الدامس، حيث كانت الساعة حوالي الثانية بعد منتصف الليل، والعاصفة الثلجية لم تفقد شيئاً من شدتها وعنفوانها.

وأخيراً وصلت الداية دارنا في الثالثة صباحاً منهكة متعبة. هرع جميع من في الدار (من خدم وجيران وعمات وبناتهن) لتدفئة الداية. وهكذا ولدت في الخامسة صباحاً.

لم يجرؤ أحد على إيقاظ والدي وإبلاغه، ولم يعرف بولادتي إلا عندما جاء يستخبر عن صحة والدتي، حينها رفعت والدتي طرفاً من لحافها لتريه الوليد الأشقر الغارق في نوم هادىء بجانب أمه. مسح بإصبعه على خدي، وقبّل جبين والدتي وأسرع الى دار الضيوف، وفي المساء أعطى أمي قطعة ذهبية مربوطة بخاتم.

كان ذلك كل شيء، في حين كانت ولادة إخوتي قد أحيت أعياداً وأفراحاً دامت سبعة أيام بلياليها... كان يستدعي فيها أبي الموسيقيين والراقصين، وينظم مهرجانات الفروسية، ويعد الولائم لآلاف الضيوف. لكن تلك الأحداث كانت قبل الحرب العالمية الأولى، حيث كانت مادن بصورة عامة، وعائلتنا بصورة خاصة تغرق في الثروة والسعادة. أما أنا فقد ولدت غداة

السنوات الأربع من الحرب المدمرة، حيث الإمبراطورية العثمانية مجزأة ومصير كوردستان غامض.

في محادثات ڤيرساي، كان وفد كوردي بقيادة (شريف پاشا) يكافح لإرغام الدول المتناحرة على قبول تأسيس دولة كوردية. أما مصطفى كمال فقد كان يحرص على تحرير منطقة إيجة من قبضة اليونانيين وإبعاد الإنگليز والفرنسيين والطليان عن تركيا التي كانوا يحتلون قسماً منها، حيث كانت تلك الدول قد إحتلت أجزاء من جنوب وجنوب غرب تركيا، والفرنسيون يحتلون جزءً من منطقة كيليكية ومناطق مرعش وعينتاب وأورفا التي تقطنها أغلبية ساحقة من الكورد، أما كيليكية فقد كان يسكنها الأتراك. كان الفرنسيون المتأثرين بالأرمن المهاجرين الى سورية يفكرون في إقامة دولة أرمنية. وكانت سياسة مصطفى كمال تقلق الكورد وتحيّر مطامع الأرمن في شمال كوردستان، ومع ذلك أبدى بعض القوميين الكورد الإستعداد للإتفاق مع التنظيمات الأرمنية للعمل على إنشاء دولتين أرمنية وأخرى كوردية. حتى أن ممثليهم إتفقوا على عرض مطالبهم في معاهدة (سيڤر) حيث الإستعدادات تجري لمناقشة مصير الشعوب الخاضعة لسيطرة الإمبراطورية العثمانية[٢].

لم تكن الحركة القومية الكوردية آنذاك قوية بما يكفي[٣]، وأدرك مصطفى كمال، القائد العسكري والعبقري الميكياڤيلي، على الفور المنافع التي يمكن أن يجنيها من ظروف وآمال الكورد، فهوّل من الخطر الكبير المحدق بالخليفة، وبيّن له التواطؤ الكوردي- الأرمني في پاريس واصفاً إياه بالخيانة، وأغراه بفكرة دولة كوردستان المستقلة ضمن إطار الجمهورية التركية الحديثة المحررة من المحتلين الأجانب، وكان يرى أن الإنگليز سيعينونه في هذه المهمة.

كان مصطفى كمال يعلم تمام العلم أن قواته المسلمة المتطوعة تتألف أساساً من كورد أرضروم وقارس وبدليس، المدن التي يطمع فيها الأرمن، فجمع حوله حوالي ستين من زعمائها جعلهم في مواجهة القوميين الكورد الساعين الى حل دولي للمسألة الكوردية والمعتمدين على الدعم الإنگليزي، حيث لم يكن مشروع تأسيس دولة كوردية يزعج إنگلترا... التي كانت قد إحتلت كوردستان العراق (الغنية بالنفط) مسبقاً ومنحت العرب بعض الوعود وأبرمت إتفاقات مع الفرنسيين لتقاسم الشرق الأوسط.

في الحقيقة لم تكن إستراتيجية النفط والشرق الأوسط تهم غير إنگلترا. أما روسيا التي كانت قد نجحت للتو في ثورتها البلشفية فكانت تدعم حركة مصطفى كمال بكل قوتها. ولما كانت فكرة التوسع السوڤيتي في هذا الجزء من العالم لاتسر إنگلترا (ولا فرنسا والولايات المتحدة) فقد كان السؤال الذي يشغل بال الكورد أكثر من غيره: هل أن إنگلترا ستساعد في تحقيق مبدأ "حق الشعوب في تقرير مصيرها بأنفسها"؟

كانت كوردستان، لدى ولادتي، تعاني من أوضاع مأساوية حقيقية. فمناطق الشمال، التي

كانت ساحات معارك ضارية بين الروس والعثمانيين، كانت مدمرة تماماً، وتوجب على سكانها النزوح الى جنوب وغرب البلاد، أما بقية مناطق كوردستان فكانت تعاني من الضيق التام، فقد توقفت مناجم إستخراج النحاس وتنقيته في مادن وإنتشرت البطالة، والعاطلون عن العمل في المناطق المجاورة يتدفقون على مادن لإيجاد ملجأ عند أقربائهم أو يهرعون الى أماكن أخرى بحثاً عن عمل، وإزداد عدد المعوزين كل يوم رغم أنهم لم يكونوا يُظهرون حاجتهم بدافع الإباء وحفظ الكرامة. وجرت العادة في تلك الفترة أن يحدد الوجهاء المحرومين، من مرضى ومعاقين وأرامل وأيتام، ويقدموا لهم المساعدة سراً.

فكان والدي (الذي عُرف عند الناس بالولي) يحمل عند حلول الظلام أكياس الطحين ويضعها على أبواب الأسر الفقيرة والبائسة ولازم هذه العادة حتى يوم وفاته.

في عام ١٩٣٣، عمدت السلطات التركية التي كانت تدوّل كل الثروات المعدنية للبلاد الى التقنيين لتوفير تكاليف إستخراج وسبك النحاس في مادن.

كان أبي في أغلب الأحوال هادئاً صموتاً لايبدي الإكتراث، لكنه كان ذا مشاعر إنسانية مرهفة وكريماً جداً، فكان يعطف على الحيوانات بقدر ما يعطف على الناس، فكم مرة رأيته يرفع قدمه لئلا يدوس على نملة ويسحقها! وبينما كانت البورجوازية الأرمنية المتعطشة للدراسة تتأثر بكل ما يأتي من أسطنبول وأوروبا، كان والدي قلما يتأثر بذلك، وظل محتفظاً بفكره الناقد، كان مولعاً بالأدب الكلاسيكي الإتباعي والفارسي وشيء من الأدب الصوفي، ولهذا شجعنا كثيراً على الدراسة، رغم أن ذلك لم يضع حداً لتحفظاته تجاه بعض سمات الحضارة. قال ذات يوم، بعد تعرضه لحادث سيارة: إن السيارة من إختراع الشيطان. ولم يُر بعد ذلك قط وهو يركب سيارة. كانت الغرفة التي يشغلها في الطابق الثاني من المنزل تتمتع بهيبة وقدسية المزار الحقيقي، ولم يكن يحق لنا دخولها في غيابه.

ذات يوم وأنا في الثالثة أو الرابعة، وأنا أتحدى الزجر والمنع، تسللت الى غرفته وسرقت منها خنجراً كان في صندوق رائع. لا شك أن والدي لاحظ إختفاءه، لكنه لم يصرّح بذلك أبداً لإشمئزازه من التخاصم ولأنه نادراً ما كان يوجه الكلام لأولاده، حتى أنه كان يأكل معنا على المائدة لكن بصمت وسرعة دون أن ينظر الينا ليعود مسرعاً الى دار الضيافة ليرعى أمرها.

كان الضيف شخصاً مقدساً لدى أسرتنا. وبما أنه لم تكن في مادن فنادق، فقد كان المسافرون يطعمون ويبيتون عند من يرغب في إيوائهم من الأغنياء الذين لديهم دار ضيافة. كانت دار ضيافتنا تبعد بضع مئات من الأمتار عن دارنا. كان في صدرها أريكة شرقية مغطاة بالسجاد، وكان والدي يجلس في أقصى اليمين منها، ويمكث هناك ساعات يقضيها مسبحاً بمسبحته منصتاً الى ضيوفه، أو متحدثاً اليهم.

كانت الفرش ممدودة على الأرض والضيوف يتبوأون مواقعهم حسب وضعهم الإجتماعي

وأعمارهم بعد أن يخلعوا نعالهم أمام الباب، والخدم والأطفال يجلسون دوماً على البسط، ولم يكن لدى الخدم وقت يستريحون فيه، وكانوا ينشغلون بإعداد الشاي والقهوة والطعام بينما والدي وضيوفه يتبادلون الأحاديث عن السياسة والفلسفة. وفي هذا الوقت كان النسوة يعملن في المطبخ. ولمواجهة الأعداد الكبيرة من الضيوف (القادمين مع خدمهم وجيادهم) كان نساء الدار يلجأن الى الإستعانة ببنات العم والجارات في أداء أعمالهن.

أما أنا، فلم أكن أتردد كثيراً على دار الضيافة ومع ذلك أذكر أني سمعت هناك رواية ثلاثة من الكورد عادوا من مصر بعد أن ذهبوا اليها لزراعة القطن، وكان يُخيّل إليّ أنهم عائدون من كوكب آخر... وأذكر أن والدي سألهم عن ظروف المعيشة وعن سياسة الملك وعن الشعب المصري.

أما أخواتي فكنّ ينمن في غرفة بالطابق الثاني، أما أنا فقد كنت أبيت مع والدتي في غرفتها. كانت أمي جميلة للغاية بعينيها السوداوين الواسعتين وشعرها الحريري الناعم، لكنها كانت قاسية شديدة على أولادها، لاسيما أنا، فقد كنت أصغرهم وأحبها حباً جماً. وعندما كانت تذهب للنوم في كل ليلة كنت أنزع عنها الوشاح الذي يغطي رأسها، وأطويه على صدري على شكل كرة وأمسك به بكل ما أوتيت يداي الصغيرتان من قوة حتى الصباح حيث تستيقظ وتأخذه مني.

وقد سمعتها يوماً تقول لإحدى شقيقاتي: إن هذا الصغير يحبني كثيراً وسيموت حباً وشوقاً إليّ... بالقرب من غرفة أمي كانت هناك غرفة أخرى أحب رائحتها الزكية، فبالإضافة الى اللحف والفرش المخصصة للضيوف، كنا نحفظ فيها الرمان والتفاح.

أما أعمامنا وعماتنا والطفلة الأرمنية (جاجو) التي كان أهلي قد أنقذوها من مذابح الأرمن فقد كانوا يسكنون الطابق الثالث. والخدم كانوا يبيتون في حجرة دار الضيافة.

وفي الشتاء حينما يكون الطقس شديد البرودة ولم تكن حرارة المدافيء الخشبية الموجودة في كل غرفة تكفي لتدفئتنا كنا نجتمع حول المنقلة ، موقد الجمر، التي لم أكن أحب حرارتها الخانقة.

كنت أحب شتاءاتنا، والله وحده يعلم كم كانت شديدة البرد.

وبالرغم من كثرة الثلوج التي كان يبلغ سمكها أحياناً ثلاثة أو أربعة أمتار، لم نكن نتزلج عليه لكننا كنا دوماً نجد وسيلة التزلج حيث نجلس على أطباق نحاسية واسعة نتزلج بواسطتها، كما كنت أحب تنظيف السطوح من الثلوج المتراكمة، بإستخدام مجارف خشبية كبيرة.

واذا كان فصل الشتاء فصلي المفضل، فإنني كنت أستقبل يوم (نوروز) بصيحات الفرح والسرور، ففي ذلك اليوم كان الجميع صغاراً وكباراً، شيوخاً ومرضى يغادرون البلدة ليحتفلوا

بالعام الجديد في الريف... وكان الشتاء يدوم في بعض الأحيان حتى ١٥/آذار، لكن في ٢١ منه كان سقوط الثلج يتوقف حتماً وتشرق الشمس لتذيب الثلوج.

كان نوروز بالنسبة لنا نحن الصغار، وبعد شتاء طويل، فرصة للقاء الريف لاسيما الحمير والخيل التي كنا في منأى عنها خلال الشتاء... وفي حزيران كنا نغادر البلدة الى الريف للوقوف على أملاكنا وأراضينا، وكان ذلك يدوم عدة أيام، وكانت بغالنا المسكينة في محنة قاسية وكانت كلابنا التي يرعاها المزارعون ترافقنا بعد ذلك حتى تشرين الأول، وكانت كلاباً مرعبة وضارية... وكان والدي يقول: ربما لا أقايض أياً من تلك الكلاب بعشرة من رجال الشرطة.

كنت أرى(گورکين) وهي إحدى كلابنا، هذه الحارسة العجيبة فقد كانت تدور في كل ليلة حول أرضنا لوحدها سبع مرات لتثبط عزيمة أي متجول غريب، وقد ذاع صيتها بحيث منعت أي غريب من المجازفة بالإقتراب من أرضنا، وكانت تحب التجوال في الجبال وذات يوم تعرضت الى هجوم خنازير برية إلتهمتها. أما الكلب (پولات) الذي كان حارساً جيداً فقد تشرد وآثر التسكع في شوارع مادن على حراسة أملاكنا. لكنه عاد يوماً ونبش في الأرض قليلاً ليخر بعد ذلك صريعاً. فقالت عمتي لقد سمم كلبنا، حيث أنها رأت الزبد الأخضر يخرج من فمه. أما نحن الصغار فقد بكينا پولات كما بكينا گورکين في السابق.

كما أذكر أن الكلبة القاسية (گورا) عثرت ذات يوم على قط وحشي وصممت على تعذيبه فطاردته عشرة أيام وفي مساء اليوم الأخير نزل القط منهك القوى من شجرة من الأشجار التي كان يلوذ بها فوثبت عليه (گورا) ومزقته إرباً. كما أننا كنا نتخذ قططاً من قطط وان المشهورة ذات الشعر الطويل الناعم.

كانت لدينا ايضاً حارسة رائعة ترافق جيراننا حتى عتبة بابهم قبل أن تعود الى الحقل برشاقة. لكنها لم تكن محظوظة ففي ظهر يوم صيفي رأيناها تعود من البستان حاملة في فمها حية صفراء لكن رغم صراخنا وطلبنا اليها أن ترمي بالحية جانباً، فإنها لم تسمع إلينا، وربما لم تفهم قصدنا، والتهمت الحية ثم أرضعت صغارها، وبعد سويعات ماتت كما لفظت صغارها أنفاسها الأخيرة.

الحياة في الحقول لم تكن تعني لي مجرد أحداث حزينة متفرقة، بل كانت بالنسبة إليّ: نزهات في الجبال وصيد الحجل والإستحمام على ضفاف الأنهار (في البحيرات الصغيرة التي تتشكل عن الأنهار) كما تعني لي الحرية.

إننا نعيش على الجنة الأرضية هذه بفضل آبائنا وأجدادنا، فقبل قرن من الآن استدعي جدنا الأكبر، وهو إبن رئيس قبيلة (شاديان) وعين وكيلاً على مسؤوليات مادن ومنح لقب (أفندي) الذي كان حصراً على الأمراء والعلماء ثم أصبح المحافظ الإداري للمدينة. ولما وصل الى مادن

وجدها تعاني الضعف، كانت مادن في عهد الإمبراطوريات الحيثية والآشورية والميدية والفارسية والسلجوقية وغيرها مجرد ضيعة صغيرة يبلغ عدد سكانها حوالي ثلاثة آلاف.

كانت المشكلة الأكثر إلحاحاً لدى وصول جدنا هي تشغيل مناجم النحاس غير المستثمرة منذ قرون، فبحث جدنا عن العمال والمختصين في ضواحي مادن ومدن أخرى بعيدة جداً عن كوردستان، ولكن عبثاً فالغزوات المغولية والتركمانية ومقاومة الولايات العنيفة للتدخل البيزنطي ثم العثماني كانت قد أدت الى تدمير وإخلاء وزوال كوردستان، حينئذ أُخبر جدي بأن عائلات يونانية غنية من (تريبيزون) متحدرة من مستعمرة (سينوب) التي بنيت في القرن الثالث عشر قبل الميلاد واشتهرت بصناعة النحاس كانت مستعدة للهجرة الى مادن والإستثمار في مناجمها الغنية. وبمساعدة السلطات العثمانية أسرع الى هناك لينظم ترحيل وإسكان (٥٠٠) عائلة يونانية في مادن. وكان من بين النازحين مهندسون وبناءون ومشيدو جسور وطرق وخياطون وحذّاؤون الى جانب المختصين في النحاس.

فعمروا على الفور منازل متينة من طابقين وثلاث طوابق على الطراز المادني القديم من الحجارة والبلاط المرمري المخضّر، واستخدم إبراهيم أفندي معارف وقدرات العمال الكورد القادمين من القرى المجاورة في بناء البيوت والمدارس والطرق والجسور.

وفي عام **١٧٩٢** استخرج النحاس وصهر وبيع من خلال مشاريع خاصة، وخلال سنوات أصبحت مادن تبيع آلاف الأطنان من النحاس الشديد النقاء فكبرت البلدة وزاد إتساعها فبلغ عدد سكانها أربعين ألفاً يتمتعون بحياة إقتصادية وثقافية عالية المستوى، فأثارت مادن الإعجاب بشعرائها ومفكريها وموسيقييها ونحاتيها، وكانت نظافة حماماتها الشعبية، وكرومها وبساتينها التي غطت سفوح الجبال الجرداء في السابق تلفت إنتباه السواح والمسافرين.

لكن النجاح الباهر الذي حققه جدي أثار الحساد والمنافسين الذين سارعوا الى إنذار الباب العالي، فأُنذر إبراهيم أفندي عام ١٨٣٠ رسمياً بالذهاب الى أسطنبول، ولتمتعه بالدعم الشعبي الواسع فإنه رفض التخلي عن منصبه فأصدرت السلطات مرسوماً بمصادرة أمواله وتهديد عائلته فجاء الى مادن جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل مدججين بالمدافع، ولغرض إفشال تلك المهمة غادر جدي مادن متنكراً في زي الدراويش ليفلت بذلك من أمر السلطان (محمود) ويصل الى اليمن حيث مات وحيداً متخفياً.

بعد شهرين من رحيله عن مادن وضعت زوجته التي كانت باقية هناك إبنه (مصطفى) الذي رباه واعتنى به جده لأمه، كان مصطفى ذكياً وشجاعاً تمكن من إحياء عمل أبيه وإكمال ما بدأه وإغتنى ثم إشترى الممتلكات التي صودرت من والده.

كاد مصطفى أن يصبح رجلاً أسطورياً فقد كان بناءً جيداً منذ الطفولة وإكتشف طريقة

جديدة لصهر النحاس، وكان ضخم الجثة كتمثال ضخم ويقال أن طربوشه كان يمكنه أن يضم رأسين... أما جدي إبراهيم (ابن مصطفى) الذي أصبح حاكم مادن فقد كان سيداً لايرتدي الا ربطات العنق وأزرار الأكمام والقمصان التي كان يأتي بها من فرنسا ودعا معلماً لخدمة والدي، ولم يكتف فقط بأن يكون مجرد عضو فعال في مجلس الإدارة بل برع في فن استخدام الأسلحة ونال شهرة واسعة في الفروسية، واستطاع جمع الطوائف الكوردية واليونانية والأرمنية والتركية التي تعيش في مادن في وفاق وإزدهار، لكن لدى نشوب الحرب العالمية الأولى حطمت سياسة الشباب الأتراك للسلطة في أسطنبول والمتحالفة مع سياسة الدول التي عزمت على دك حصون الإمبراطورية، الوحدة والتآلف بين طوائف مادن. وفي عشية الحرب العالمية الأولى كان الأرمن قد قرروا مساعدة الروس على كسب الحرب، الأمر الذي أدى الى إصابة الألمان بالجنون.

أعد الألمان بمساندة الشباب الأتراك خطة لإبادة الأرمن الذين يعيشون داخل حدود الإمبراطورية العثمانية، وبدأ العمل بالخطة في عام ١٩١٥ واستمر حتى عام ١٩١٨ حيث لجأت سلطات أسطنبول الى مختلف السبل الشيطانية لإنجاح عملية إبادة جماعية لشعب بأسره. وكان كل مرؤوس عثماني يظهر أقل كراهية لهذه السياسة يعد خائناً ويستحق أشد العقوبات... ورغم ذلك بذل الكثير من الكورد أموالهم وأنفسهم في سبيل حماية الأرمن الموجودين في مدنهم أو مناطقهم أو قبائلهم.

كان أبناء مادن من بين الذين عملوا على حماية الأرمن في مدينتهم من وحشية الجنود والعساكر والدرك ومجرمي القانون العام الذين يطلق سراحهم في مثل هذه الظروف، وفي عام ١٩١٩ ساعد الكورد الأرمن في اللجوء الى سورية، وفي ذلك التاريخ إحتضن أهلي الفتاة الأرمنية اليتيمة (جاجو) التي كان إسمها الحقيقي (ماجدة)، وبعد رحيل الأرمن عن مادن تحول حيهم الى كومة من الأنقاض، أما الطائفة اليونانية فقد ظلت في مادن حتى التوقيع على معاهدة (لوزان) التي بتت في إنتقال السكان بين تركيا - التي أصبحت كمالية- واليونان وبلغاريا ورومانيا ويوگسلافيا.

ونتيجة لذلك التنسيق توجب على يونانيي مادن مغادرة منازلهم الجميلة وحقولهم وبساتينهم الرائعة في ضاحية مادن الى جانب مغادرة أصدقائهم الكورد وراءهم.

ذهب البعض للعيش في اليونان بينما فضل آخرون التوجه الى أمريكا أو بلاد أخرى. وكان على سايسنا (كوسما) أن يغادر ايضاً، وكان جميع أفراد العائلة، خاصة نحن الصغار، نحبه كثيراً، ونحب فروسيته، وقد دهشنا لما علمنا بأنه سوف يهاجر أسوة بأي يوناني آخر في مادن، وكانت دهشته أكبر فهو لم يكن يريد الذهاب الى اليونان، ذلك الوطن الذي لم يكن يعرفه.

– كوسما، كوسما، إبق معنا! إذهب واختبئ في الجبال حتى ينسوك، وسنخرج لك بطاقة شخصية جديدة... إبق معنا يا كوسما!

في عشية رحيل الطائفة اليونانية عن مادن، ذهب كوسما متنكراً بزي كوردي الى أعالي الحقول ليختبئ بين الأشجار حيث نقضي فصل الصيف، لكن رجال الدرك الأتراك ما لبثوا أن عثروا عليه وأجبروه على الإنضمام الى القافلة الراحلة، وطلبنا من الدرك ونحن نذرف الدموع أن يتركوا لنا كوسما: إنه يريد البقاء معنا فلم ترغمونه على الرحيل دعوه وشأنه! إلا أن توسلنا لم يلق آذاناً صاغية وتوجه كوسما الى القافلة مرغماً وهو يطلق زفيراً غريباً، ولم نسمع عنه شيئاً منذ ذلك اليوم.

ترك لنا جدنا ثلاثة بساتين إثنان منهما على ضفتي دجلة يمتدان حتى مجرى النهر ويلتقيان في مسافة محدودة، والبستان الأقرب من المدينة يقع على الضفة اليمنى ويدعى بستان الطاحونة، ويبلغ طوله كيلومترين وعرضه أكثر من مئتي متر، وكانت إحدى القنوات تفصله عن الكروم وتسقيه بسخاء، وكان يصلح لمختلف أنواع المزروعات.

في كوردستان كانت أشجار الحور(٤) مصدراً وفيراً للموارد بالنسبة للفلاحين والملاكين وتجار الجملة، وأذكر أن غابة الحور كانت تقطع أشجارها وتقشر في الصيف، وفي الربيع عند فيضان الماء كانت الأخشاب تنقل بواسطة الماء حتى بغداد، فكانت مياه دجلة تمتليء بالخشب في شهري نيسان وآيار، وأحياناً كانت الجذوع تتجمع عند تعرجات النهر الضيقة لتشكل حواجز ضخمة.

في ذلك الحين كان العمال المختصون بهذا النوع من النقل يظهرون ويركضون على الجذوع المغمورة وفي أيديهم عصى طويلة يستخرجون بها الجذوع. وكانوا يطلقون صيحات غريبة ترعبنا ونحن نسمعها للمرة الأولى. لكن المنظر كان يثير إعجابنا، وكنا نمضي ساعات طويلة في تأمل الجذوع العائمة فوق النهر.

كان بستان الطاحونة مؤجراً مبدئياً لخمسة أعوام لرجل يعمل طحاناً وبستانياً في آن واحد. كان رجلاً قصيراً وبديناً ذا لحية طويلة، شعره وكتفاه مغطيان بالطحين دوماً، وكان على الدوام منهمكاً في العمل، له ثلاثة أبناء ذوي بنية قوية يعملون بلا إنقطاع في قطف الثمار أو بيعها في سوق مادن. وكان بستان الطاحونة يتباهى بتوته الأبيض(٥).

أما بستاننا الآخر الواقع على ضفاف دجلة وأعاليه، فكان يُعرف ببستان نوافير المياه، وكان الجبل الذي ينبع منه النهر وتُسقى منه الحديقة وعراً جداً، وكان أجدادي قد نجحوا في تقسيم النبع الى عشرات النوافير التي يبلغ إرتفاعها أكثر من متر. هذه النوافير كانت تزين حوضاً كبيراً يزينه المرمر ويثير الفضول بجمال منظره. ولما كان طريق مادن الرئيسي يمر قريباً ويربطه ممر ضيق بنوافير المياه فقد كان المسافرون في الصيف يسلكون الممر الضيق ليرتووا ويشفوا

غليلهم ويستريحوا تحت ظلال أشجار الدلب المحيطة بالنوافير.

كانت هذه الحديقة تشتهر بحقل التين الممتد على صفين لمسافة مئتي متر، وكان هذا الحقل قد أُجر ايضاً ولكن بشروط خاصة جداً، فالى جانب الإيجار السنوي كان المستأجر ملزماً بأن يأتينا كل مساء بكمية من الفواكه (لاسيما عندما كنا نستقبل عدداً كبيراً من الضيوف). كما كان يُسمح لنا نحن الأطفال بدخول الحديقة وقطف الثمار التي نرغب فيها، هذه الميزة التي كانت محظورة علينا في حديقة الطاحونة.

أما الحديقة الثالثة فكانت مصيفاً لعائلتي وتقع على ثلاثمائة متر شمال شرق حديقة نوافير المياه، وتشرف على الطريق الرئيسي لمادن والحدائق الممتدة بين الطريق وبين نهر دجلة. في هذه الحديقة كنا نمضي كل فصول الصيف، كان فيها حوضان كبيران أحدهما قرب النبع المقسم الى قسمين لتغذيتهما بالماء محاطاً بالخضرة والأزهار. كانت أرض الحديقة وعرة جداً في بعض منها وتنتهي في الأعلى بكتل من الصخور العمودية، وبإستثناء شجرتي دلب قديمتين كانت كل أشجار الحديقة أحدث وأصغر من بقية الحدائق، وكانت تحتوي كل أنواع الأشجار المثمرة، كانت شجرتا الدلب الكبيرتان تغطيان منزلنا والحوض وفناء الدار، وكنا نضع أسرّتنا تحت إحدى هاتين الشجرتين العملاقتين، وكان سريرنا نحن الأطفال خشبياً عالياً نستخدم سلماً لإرتقائه، ولدى سقوط المطر كان السرير يغطى بخيمة كبيرة، وكم كنت أتمتع بصوت قطرات المطر الكبيرة وهي تسقط على نسيج الكتان...

وعلى بعد مائة متر من المنزل كان دار الضيافة حيث كان والدي يقضي السهرة مع ضيوفه على سطحها الفسيح، وعند موعد النوم تمد أسرة الضيوف هناك وفي بعض الأحيان تكون الأسرة مجرد فرش بسيطة توضع على الأرض مباشرة، أما الضيوف الذين لم يكونوا يحبون أن تصيبهم الشمس بأشعتها فكانوا يستيقظون باكراً ليجدوا مأوى داخل الدار حيث الأشجار المحيطة بها لم تكن من العلو بحيث تظلهم بظلالها.

أما دواب الضيوف فبعد أن تعلف من الشعير الممزوج بالتبن أو البرسيم المجفف كانت تستريح قرب أشجار التوت. وبينما كان الضيوف يتركون دوابهم في الحديقة للذهاب الى المدينة سيراً على الأقدام، كان ذلك بمثابة عيد لي، فاذا لم أجد أبناء عمي كنت أنادي رفاقي من الحدائق المجاورة لأقترح عليهم نزهة على خيول جميلة سريعة. وبحجة إرواء الحيوانات في دجلة كنا نختار شاطئاً مناسباً لسباقات الخيل التي كانت تؤدي أحياناً الى إنهاك الدواب. ولإخفاء الأثر كنا نغطسها في النهاية في النهر ونجففها وننظف بالفرشاة آثار الرشح والعرق عنها.

كما كنا نحب اللعب بالجمال التي كانت تأتي في الخريف من (گاوران)[٦] وهو سهل فسيح يقع قرب دياربكر وكنا نملك فيه عشرة آلاف هكتار من الأرض، وكان فلاحونا يأتون كل سنة

بعد الحصاد لبيع جزء من المحصول في مادن، وبعد إفراغ حمولتها كان الفلاحون يأتون الى بيتنا بجمالهم فيربطونها عند المكان المخصص. للوهلة الأولى، كنا نخشى الإقتراب من الجمال ثم عندما وجدناها مسالمة ووديعة ذهب عنا الرعب واستطعنا ركوبها مقلدين الصيحات التي كان الحمالون يطلقونها. وذات مرة كانت الجمال مقرفصة فصعدنا الى ردفها وأرغمناها على النهوض، وحينما كانت راكعة ترفع أقدامها الخلفية فجأة قبل أن تنتصب على أقدامها الأمامية وهي تسبل مؤخرتها تدريجياً كان الإنحناء شديداً جداً حتى أوشكنا على السقوط منزلقين على طول الردف، كان إنطباعنا الذي كان مزيجاً من الخوف والجرأة والفرح مذهلاً جداً، وكررنا العملية عشرات المرات... وذات يوم هاج أحد الجمال وحاول أن يعض ذراعي لكن لحسن حظي لم يتمكن إلا من تمزيق جزء من قميصي وإقناعي بأن أتركه وشأنه.

كانت عندي إهتمامات أخرى من بينها (الكيلر) أو بيت المؤونة وهو نوع من القبو كنا نحفظ فيه المؤن الضرورية لأشهر الشتاء القاسية التي ننقطع خلالها عن العالم الخارجي، ويا له من مكان غريب! كانت الجرار والقوارير مرتبة فيه ترتيباً فنياً رائعاً، كانت الجرار تحتوي (كسمه) وهو نوع من الحلوى، والدبس، والعسل، والخيار المخلل، والفليفلة المملحة، والجبن الأبيض المغمور في الماء المالح. أما القوارير المصنوعة من التراب الرملي الوردي، فقد كانت تحفظ الملبن والعقودة وبعض الأطعمة الكوردية الأخرى التي كنا نشتهيها. وكانت القوارير توضع على رفوف خشبية على طول الجدار وبإرتفاع متر ونصف عن الأرض.

واذا رغبت الحصول على شيء منها، كان عليك إستعمال سلم صغير وحينما تصل الى حافة الرف كان عليك أن تمد يدك بعد رفع غطاء القارورة الخشبي، وكلما نقص محتواها كان عليك أن تمد يدك أكثر فأكثر، كان ذلك سهلاً على الكبار ولكن شاقاً على الصغار، لكنني إعتدت على ذلك، وذات مرة وجدت باب الكيلر مفتوحاً دخلته دون إستئذان جاجو ووضعت السلم الصغير أمام القارورة التي تحتوي (ملبني) المفضل وغمرت يدي أولاً ثم أتبعتها بيدي الأخرى فوقعت في قعر الجرة وشعرت بالإختناق فصرخت: النجدة، النجدة!

كان الهواء يقل شيئاً فشيئاً، وأحسست بضيق شديد فهل سأموت داخل الجرة دون أن يأتي أحد لنجدتي، أخيراً إستجمعت قواي وصرخت: جاجو، جاجو!

وما أن أطلقت صرختي الأخيرة بصعوبة حتى شعرت بأني أسحب من ساقي، لقد كانت جاجو قد سمعت صرخات قادمة من وراء القبو وقالت: لقد فُقد شخص ما بالتأكيد تحت الثلج... فخرجت لتتأكد لكنها دهشت دهشة كبيرة حين رأت ساقيّ خارجتين من الجرة. كنت على وشك الإختناق فأخذتني بسرعة الى الحديقة ثم ذرفت دموعاً غزيرة.

لم يكن مطبخنا المجاور لبيت المؤونة أقل سحراً وجمالاً، فقد كان أحد جدرانه مغطى تماماً بخزانة كبيرة، على شكل خزانة كتب، كنا نحفظ فيها آلاف الكيلوغرامات من الطحين في

قدور، وبما أن الحرارة المنبعثة من المواقد والمدخنة العالية لم تكن كافية لتدفئتنا فقد كنا نتناول طعامنا في الطابق العلوي اذا لم يكن عددنا كبيراً، أو في غرفة الطعام. وفي أحيان كثيرة كان صحن الأولاد يسحب فجأة ونحن نتأهب لتناول الطعام:

– لقد وصل بعض الضيوف...

كان علينا حينئذ أن نترك اللحم والأطباق المخصصة لنا ونكتفي بوجبة بسيطة. قلّما كان اللحم يستهويني، ومن جهة أخرى، منذ قصة (الجدي) كنت أتغذى على الثمار فقط، ففي أحد أيام الصيف وصل دارنا ضيف كبير معه ستة عشر رجلاً، فتساءلت والدتي:

– ماذا علينا أن نقدم لهم؟ فقد كان زادنا ذلك اليوم بلا دسم ولا دهن، تذكر أحدهم فجأة الجدي الصغير الذي كان والدي قد أهداني، وحاولوا بمختلف الحيل إبعاده عني. فقال لي (جمال) البغّال: هيا، دعه وشأنه، سآخذك على ظهر الحصان.

على الحصان، لم أسمع إلا هذه الكلمة فتبعت صديقي جمال مطيعاً. وحين رجعت لم يكن الجدي موجوداً فقد ذُبح لتصنع منه وليمة، فصرخت وركلت الأرض بقدمي.

– لا، لا ماذا فعلتم بجديي؟ لِمَ قتلتموه؟ أريد جديي.

لكن المؤسف أن دموعي وصراخي لم يغيّرا من الأمر شيئاً، وعندما وضع لحم الجدي أمامي إزدادت شهقاتي وزفراتي واشمئزت نفسي بشكل لايطاق، ومنذ ذلك اليوم لم أتناول قطعة لحم حتى بلغت السادسة عشرة، فقد كنت أنتظر بفارغ الصبر فصل الفواكه والخضار التي كانت وحدها تكفي لإرضائي.

كانت بساتيننا مثل جنات عدن تنمو فيها فواكه غريبة. وفي مكان آخر من كوردستان هناك ٣٢ نوعاً من العنب والتوت الأسود والأبيض، والحلو والحامض، بالإضافة الى أنواع عديدة من الجوز والبندق والتين واللوز وكانت لكل نوع خصوصياته، وكم كنت أود لو أقضي أوقاتي بينها وأركض حول أشجار الدلب العريقة وأستنشق كل هذه الروائح العطرة وآكل الكثير من الفواكه وأتلذذ بطعمها!

ولكن الجنة الأرضية لطفولتي بأشجارها وكرومها، بدروبها الصغيرة وسواقيها، لم تكن غريبة جداً دون حيواناتنا: (٥٠) بقرة و(٤٠) من الماعز، وقطط وكلاب وبغال وحمير وخيل. كانت مهمة المزارعين العناية بالمواشي، بينما كان الرعاة المختارون من بينهم يرعون الماعز والأغنام. أما أنا فكنت أحرس صغارها الجميلة المطيعة، ولما بلغت الخامسة رأى والدي بأني جدير بالإهتمام بحمار فأعطاني جحشاً صغيراً رائعاً أسميته (بوزو) بسبب لونه الرمادي، وأصبح بوزو منذ ذلك اليوم شغلي الشاغل، فقد كانت كل إهتماماتي ومشاعري تنصرف نحوه، ففي كل مساء وقبل الذهاب الى النوم كنت أتأكد من أنه في مأوى جيد وأنه شرب وأكل بما فيه الكفاية، وأنه لن ينزعج أثناء الليل، ولم يكن يحق لأي كان أن يركبه أو يلمسه،

وكنت في بعض الأحيان أغضب لأننا نأكل الرز بينما لايحق لبوزو أن يأكل غير الشعير الممزوج بالتبن، وفي مرات كثيرة كنت أختلس طنجرة كاملة من الرز لأعطيه كمية منه.

ولما كان صوته يصبح مبحوحاً أو يجد صعوبة في النهيق كنت أقلق كثيراً وأسرق بيضاً ليشربه نيئاً لكي يعود صوته الى حاله، ثم ركبته بنصيحة من بغّالنا جمال الذي كان صديقاً لي، وفي الصباح أستيقظ باكراً لأندس في سرير جمال، ورغم أن جسمه كان مشبعاً بعرق غزير لكني كنت أرغب كثيراً الإقتراب منه، فقد كان هذا الفارس الجليل ذو الشارب الكبير والذي يرعى البغال ويقودها بطلي، وكانت والدتي توبخني وتقول:

– كن حمّاراً، كن بغّالاً!

لكني لم أكن أبالي بالإنتقادات تلك، وأتابع نزهتي على ظهر بوزو لأني كنت أحبه محبة كبيرة حتى اليوم الذي عثرت فيه على حصان.

كنت في التاسعة وكان الفصل صيفاً وكنت ووالدي نذهب الى (بيرماز) وهو سهل صغير بين مادن وإيلازيغ، يقع على إرتفاع ١٢٥٠ متراً تحيطه الجبال وفيه بحيرة مالحة، كان والدي يمتطي حصاناً أما أنا فقد كنت على ظهر الحمار.

وعندما كنا نتوقف تحت أشجار الحور في إحدى القرى، جاء رجل وقدّم لوالدي مهراً رائعاً ذا ثلاثة أعوام، وبعد أن تفحصه والدي من كل الجهات، سألني:

– أتريد الإستغناء عن بوزو وتحصل على هذا المهر؟

– أحب الإحتفاظ ببوزو، ولكني أعتقد أني كبير بما يكفي لركوب الحصان. إن هذا المهر يعجبني.

– حسناً، خذ بلجامه واذهب الى منزل عمك الأكبر ليعطيك سرجاً وخطاماً.

كان عمي ذا وجه صغير، وعينين زرقاوين مرحتين بريئتين كعيني طفل. تجاوز الخمسين لكنه يحتفظ بشبابه ونضارته. لم يكن يفارق سيفه الطويل المرصع بالأحجار الكريمة أبداً، وكان يشتهر بالدعابة والمرح. كان يسكن قرية (گره سورـ التلة الحمراء) حيث كان يعكف على تربية الأغنام الى جانب الزراعة، وكان يملك بضعة آلاف رأس من الأغنام يرعاها فوق الهضاب المرتفعة المخضوضرة في شمال شرق كوردستان. وفي الشتاء كان يحفظ الأغنام في الإسطبلات. وكانت لديه ست حجرات للخيول وغرف للكلاب الأصيلة، التي كان نباحها كفيلاً بطرد الذئاب التي تحاول مهاجمة قطعان الأغنام. كان أحد تلك الكلاب يقاوم الجندرمة خاصة عندما كانوا يقتربون من القرية والبنادق الألمانية الطويلة على أكتافهم. وذات يوم مر أحدهم أمام منزل عمي فأرعبه الكلب لدرجة أنه حاول إطلاق النار عليه لكن الكلب كان أسرع فطرحه أرضاً وهرع الرعاة لإنقاذ الجندرمة الجريح... إشتكى الجندرمة الى القاضي المختص ودُعي عمي للمثول أمام المحكمة مع كلبه وحُكم عليه بغرامة مالية، وأطلق سراح الكلب الذي خضع منذ

ذلك اليوم لحراسة دقيقة...

في ذلك اليوم الصيفي وجدت عمي الأكبر جالساً تحت ظل شجرة صفصاف على ضفة قناة ري، محاطاً بعدد كبير من الفلاحين بعضهم جالس والآخرون واقفون. ولما إقتربت منه رفع رأسه نحوي ونظر بإزدراء الى المهر نظرة فاحصة، ثم قال:

– أخبرني يا باشا، هل هذه الفلوة الجميلة لك؟

– نعم لقد إبتاعها لي والدي.

– لقد قام يوسف بتجارة رابحة. ولكن إنتبه إنها أصيلة لكنها عصبية نوعاً ما. وحين تمتطي ظهرها، خذ حذرك دوماً وإلا فستحدث مفاجآت غريبة.

– لاتقلق يا عمي سأعرف كيف أجامله.

كُلف أحد الخدم بتجهيزي بما أريد، ثم إلتقيت بوالدي وتابعنا المسير عبر الحقول والدروب المؤدية الى طريق مادن المعبد. كان الطريق واسعاً كما لو كنا نسير في سهل فسيح، لكنه ضاق وتعرّج فجأة بمجرد خروجه من ممر دجلة. ولم نصادف في طريقنا الى بداية الممر غير بضعة حمّارين.

وجدنا الحقل خالياً، فأسرعت لأسبق والدي حيث كنت في قمة السعادة بسيطرتي على دابتي، وكنت بعيداً تماماً عن العالم الخارجي أركض سريعاً وسط الطريق المعبد، وحينما دوّى صوت قوي خلفي لم أجد الوقت لألتفت الى مصدره، أدهشت هذه الضجة الغريبة دابتي فهاجت وبدأت تقفز وترفس بشكل جنوني، فشددت على جنباتها وسحبت لجامها بكل قوتي، وسمعت والدي يقول:

– نورو، نورو، إنتبه!

فشددت من إمساكي بفلوتي ولم أيأس وسحبت لجامها قليلاً، وتشبثت بعرف فلوتي وتمكنت من البقاء هكذا عدة كيلومترات حتى اللحظة التي كسر فيها المحزم في أحد المنعطفات المفاجئة للطريق، واقتلع السرج معي فسقطت حتى أسفل الهوة على بعد مائة متر من الطريق، وغمر جسدي في مياه دجلة وسكن رأسي على دكة رملية.

ولما إعتقد والدي أني فُقدت، صاح ثانية ثم أودع حصانه لدى فلاح. وكان سائق السيارة الذي تسبب في هذا الحادث قد أخذه في سيارته بحثاً عني ووجدا المحزم واللجام على الطريق لكنهما لم يجدا الفارس الصغير ولا المهر! وسمعت فجأة نواحاً في الوادي، كنت فاقد الوعي، وعندما فتحت عيني ثانية وجدت نفسي راقداً في مشفى مادن، وكان شقيقي نافذ آنذاك رئيس البلدية ورئيس أطباء المشفى ينشقني الهواء، بينما كنت أهذي:

– أين الفلوة؟

بعد بضع دقائق حُملت على نقالة الى دارنا بمادن ثم الى البستان حيث عدت في المساء الى عافيتي وبدأت أركض وأقفز كأن شيئاً لم يكن. لم تكن طفولتي حافلة باللهو والتسلية، فبعد لهيب تموز كانت الأمطار تبدأ بالهطول في أواسط آب، وفي تشرين الأول تهب ريح الشمال بقوة، وكان قطاف العنب دليلاً على العودة الى المدرسة، وكنت في الخامسة عندما أرسلني أهلي إلى مدرسة خاصة.

في المدرسة كان التلاميذ يجلسون على سجادات على الأرض مشكلين نصف دائرة حول الخوجه (المعلم) الذي كان يجلس بإرتياح على منصة مغطاة بسجادة رائعة. كنت أعجب بصور الطيور المنقوشة على السجادة، تلك الصور التي كانت في أحيان كثيرة تصرفنا عن الإنتباه الى دروسنا. كان معلمنا رجلاً مسناً ذا وجه بشوش مغطى بلحية رائعة تمنحه المزيد من الهيبة والوقار. وكان أهلي يكافئونه على تعليمه لنا ويشاركون في تدفئة قاعة الدرس ويصرفون له نفقات شراء الحطب. كان معلمنا رجلاً طيباً، وكان يتهدد من يصدر ضجيجاً أو يزعجه منا بعصا طويلة ويضربه ضرباً خفيفاً على قمة رأسه ضربة ملؤها الرأفة. وعندما يذهب بعض التلاميذ المعاقبين الى أهلهم يشكونه، كان جواب الأهل:

- بارك الله في يده! فليخلد في الجنة!

كان الأهالي جميعاً يعتبرون المعلم شخصية مقدسة. فقد كان لديه العلم، وكانت رسالته نقل العلم الينا، لقد علمنا الحروف الأبجدية دون كلل أو ملل على الطريقة المتبعة في الكتاتيب القديمة، جعلنا نغني معاً بإيقاع سابغ مرتب وشجيّ. كان رفاقي في الدراسة من الأتراك، أبناء الموظفين، والكورد. ففي ذلك الوقت كان من الطبيعي أن يكون المرء كوردياً، وكان الجميع عثمانيين وقلما يتم التمييز بين العرب والأتراك والكورد.

كنا أطفالاً لانفكر بغير اللعب واللهو، وفي خريف تلك السنة تدهورت صحة والدتي، التي كانت تعاني أصلاً من المرض، ولم يُدخر جهد لمعالجتها وشفائها. لكن الأحداث المأساوية التي زعزعت كوردستان عامة، وعائلتنا بصورة خاصة، لم تكن لتهديء من روعها. لقد خضع الشرق كله لميكياڤيلية مصطفى كمال الإنتهازية.

فبفضل المساعدة الجماعية الكوردية هزم مصطفى كمال اليونان والفرنسيين والطليان قبل أن يقنع إنكلترا بالتواطؤ معه. وفي مقابل مساعدة الكورد له كان أتاتورك قد وعد بإعلان حكم ذاتي كامل ضمن إطار الجمهورية التركية في إحتفال رسمي. ولكن في عام ١٩٢٣، وبعد إستبدال معاهدة سيڤر بمعاهدة لوزان، قلب ظهر المجن وتبنى موقفاً عدائياً صريحاً تجاه تحركات الإستقلاليين الكورد. وكان الشعار المشهور "تنتمي تركيا الى أمتين: الأمة الكوردية والأمة التركية" قد أصبح في طي النسيان. وتم سحب ومنع أشرطة الكاسيت التي تمجد وتشيد ببسالة وشجاعة الكورد، في حين كان يجري الإستماع الى تلك الأشرطة داخل برلمان

أنقرة في أيام حرب الإستقلال. ثم حُل المجلس النيابي ليحل فيه، بعد ذلك، نواب أتراك عن المناطق الكوردية، وأغلقت المدارس الكوردية، وأعتقل عدد من النواب الكورد وقدموا الى المحكمة العرفية العليا، وأصبحت السلطة التابعة لأنقرة قاسية ومتشددة في المناطق الكوردية.

أقلقت عودة الشباب الأتراك الى إعتناق الأفكار الطورانية لما قبل الحرب، الوطنيين والشخصيات الكوردية البارزة لاسيما الذين كانوا قد عاونوا مصطفى كمال . ولكي يقف في وجه هذه السياسة العنصرية، كان تنظيم المقاومة الكوردية يفرض نفسه على الساحة بشكل حتمي.

كان (خالد بيگ جبري) أحد سادة قبيلة جبران القوية في منطقة (موش) قد تعلق بعزم بهذه المهمة، فأحاط هذا الرجل المثقف القومي المتحمس نفسه بالمثقفين والضباط، وفي وقت قصير جداً إستطاع الإتصال بصفوة المجتمع من الوجهاء والشخصيات المشهورة في أجزاء كثيرة من كوردستان، وكان رسله يجوبون أطراف البلاد الأربعة لتحشيد أكبر عدد من الأنصار.

حُدد موعد إنطلاق الثورة بالسادس عشر من آذار١٩٢٥، لكن قبل إتمام الإستعدادات، سبقت المفاجأة الأحداث، وإنطلقت الثورة في السابع من شباط إثر مناوشات بين مفرزة تابعة لسلطات أنقرة ورجال الشيخ سعيد، وهو من (پيران) كان رجلاً حكيماً وقوراً له مكانته في شمال وشمال غرب كوردستان ويسكن أرضروم وأصله من (بالو) ويذهب كل ربيع لزيارة مقبرة أجداده، وكان قد أقسم يمين الولاء للزعيم (خالد بيگ). وكانت أسرته التي تشكل قطباً هاماً للطريقة النقشبندية تحظى بإحترام قسم كبير من الكورد بحيث تستطيع تعبئة جيش جرار، وعند مغادرة الشيخ سعيد أرضروم كان الموكب الذي يرافقه يزداد في العدد حتى يصل الى عشرة آلاف لدى وصوله الى (بالو).

في تلك السنة عسكر الشيخ سعيد ورجاله في پيران التي تبعد خمسين كيلومتراً عن دياربكر ومائة كيلومتر عن بالو، وكانت الحشود قد توجهت اليه حاملة الهدايا، فيما كان الذعر منتشراً في صفوف القوات التركية التي كانت على علم بإستعدادات الكورد. وحاول قائد الجندرمة إيقاف هؤلاء الرجال لإعتقالهم بحجة أن بعض رفاق الشيخ سعيد كانوا قد هاجموا حكومة أنقرة علناً، وما أن خرج أولئك الرجال من المعسكر حتى قام قائد الجندرمة بتكبيلهم وأمر رجاله بضربهم بالسياط، كان الشيخ سعيد عازماً على عدم التدخل لكن البلبلة والفوضى دبت في معسكره وهاجم عدد من أنصار الزعيم الكوردي قوات الجندرمة، ومن جانبه رأس الشيخ عبدالرحيم، الشقيق الأصغر للشيخ سعيد، وفداً من عشرة رجال للتفاوض مع قائد الجندرمة التركي، لكن القائد التركي هدد بإعتقالهم، فرد عليه الشيخ:

– يجب أن تكون لديك أسباب مشروعة لإعتقال الناس.

فأجاب القائد التركي المتغطرس، مشيراً الى جنوده بإحتجاز مخاطبه:

– إنها براهين الدولة.

وقبل أن يتحرك الجنود كان رفاق عبدالرحيم قد صرعوا المهاجمين، فما كان من القائد التركي إلا أن يطلق ساقيه للريح، ليخبر أنقرة بأن:

–الثورة الكوردية قد بدأت.

وبسماع هذا النبأ، غادر مصطفى كمال النساء والخمر، وأفاق من غفلته وجمع أعضاء وزارته ليأمرهم بإتخاذ إجراءات تعسفية لقمع "قطاع الطرق" من الكورد، رفض رئيس الوزراء في ذلك الحين (فتحي أوكيار) أن يلطخ يديه بدماء الأبرياء من الشعب الكوردي الصديق. لذا كان مصطفى كمال بحاجة الى رجل حازم قاسي القلب ينفذ له مايريد، ولم يكن أمثال أولئك الرجال قلة في حاشية أتاتورك.

وفي الحقيقة لم يكن الكثير من المدنيين يحلمون بغير المناصب الهامة، وأثبتت إحدى تلك الشخصيات الإنتهازية، وهو لواء ودبلوماسي محنك، قيمتها وإمكانياتها، وكان في السابق قد حقق إنتصارات عسكرية ودبلوماسية، ذلك هو عصمت إينونو من مدينة ملاطية بكوردستان، وكان إنتصاره على اليونان قد أضفى عليه شهرة عائلته. أما النصر الدبلوماسي الذي حققه، وهو الأهم، فكان تغيير معاهدة سيڤر بمعاهدة لوزان التي أهدرت كافة آمال الكورد في الحكم الذاتي، فشغل إينونو منصب رئيس وزراء بين عامي ١٩٢٣ و١٩٢٤، ثم إبتعد عن منصبه بسبب إرتباطه العائلي وإشمئزازه من سهرات الفجور والمجون التي دأب عليها الدكتاتور.

كان إينونو يُنعت بنعوت كثيرة من بينها عصمت الأطرش، لكن صممه كان دبلوماسياً محضاً، وكان يُقال أن سبعة ثعالب تدور في رأسه دون أن تلتقي أبداً. وكان حقوداً وجشعاً. وبما أنه كان رئيس الوفد التركي في معاهدة لوزان، فقد صرّح:

"إن تركيا تنتمي الى الشعبين التركي والكوردي"، و"أن لهذين الشعبين نفس الحقوق والواجبات في هذا البلد". كانت هذه كلمات جميلة في الواقع، لكن هدفها كان تناسي معاهدة سيڤر وإلتزاماتها الرسمية في إنشاء دولة كوردستان المستقلة، وهذه هي الخيانة التي كافأه عليها مصطفى كمال بجعله على رأس الحكومة التركية لقمع الكورد، فأنذر الشعب التركي ودعاه الى حمل السلاح، وأرسل الى البرلمان يقول:

– إن تركيا في خطر، وإن إنگلترا تدعم الكورد وتمدهم بالمال والعتاد.

حينذاك باشر رئيس وزرائه العمل على إستئصال "الفساد" الذي كان يهدد كيان الدولة

التركية، وأمر والي بدليس بدعوة خالد بيگ الى بيته بحجة مناقشته بشأن "مستقبل كوردستان" ليعدمه رمياً بالرصاص في ساحة قصره. لم يتردد خالد بيگ الواثق من عدالة القضية التي يدافع عنها، والمقتنع باللهجة الصادقة لرسالة الوالي، في متابعة رجال الدرك العشرة الذين جاؤوا ليواكبوه دون أن يخطر بباله إصطحاب عدد من حرسه، كما لم يكن يعلم بما حدث في (پيران) ولا بما تدبره أنقرة ضد الكورد، ولدى وصولهم الى باحة القصر إنبرى رقيب أول الحراسة ليخبر عن وصوله.

فأمر الضابط المكلف من قيادة الفصيل بتنفيذ حكم الإعدام قائلاً: أخرج ليدخل وحده، فدخل خالد بيگ لوحده ساحة القصر القديم، الذي كان ملكاً للأمراء الكورد من سلالة شرفخان، وإنتظر إستقبال الحاكم له، لكن عندما أغلقت البوابة الكبيرة خلفه سار بضع خطوات تجاه مركز الساحة حيث جال بنظره أبراج السور ليرى المدافع مصوبة تجاهه من كل جانب، عندها أدرك أنه وقع في كمين وهم بالعودة بإتجاه البوابة، لكن ما إن تحرك حتى بدأت عشرات البنادق تطلق عليه النار فخرّ خالد بيگ صريعاً على الساحة المرمرية، ثم دفن في اليوم نفسه سراً دون أن تراه أسرته.

كان مصطفى كمال يقود بنفسه الفيلق الرابع الموجود في دياربكر وسار به الى پيران لسحق الثورة الكوردية "التي قامت بتحريض من الأجانب" معلناً بذلك التعبئة العامة، وبعد الحادث الذي أدى الى مقتل إثنين من الجندرمة الأتراك، أدرك الشيخ سعيد أن الحكومة لن تكتفي بهذا القدر وأنها ستسعى لمعاقبته مع رجاله، فتحول الشيخ سعيد من زعيم يبلغ الثمانين لطائفة دينية الى زعيم سياسي وعسكري. وبما أن معظم رفاقه كانوا مسلحين، فإن الشيخ لم يجد صعوبة تذكر في تنظيمهم ضمن تشكيلات عسكرية يقودها رجال مدربون عرفوا بشجاعتهم وصفاتهم القيادية، لم يتمكن أي ضابط من الإنضمام الى الشيخ سعيد فقد كان بعضهم قد أرسل من قبل خالد بيگ عبر كوردستان الى غرب تركيا، والبعض الآخر موجودين داخل أسوار دياربكر، المعروفة بأسوارها العملاقة وعدم إتصالها بالعالم الخارجي إلا من خلال أربعة أبواب، وفي أوقات الخطر كانت الأبواب تغلق ويجري الإستعداد للدفاع عن المدينة خلف وفوق الأسوار، وفي اليوم الذي وقعت فيه مناوشة بين الدرك ورجال الشيخ سعيد سارعت السلطات العسكرية في دياربكر الى إعادة رجالها الى المدينة وإغلاق أبوابها وحظر الدخول والخروج على أي شخص، وبذلك حرم المئات من الضباط والأطباء والمهندسين والمحامين والمثقفين الكورد من الإنضمام الى الحركة الوطنية المسلحة، وبالرغم من الظلم الكبير في (پيران) كانت المواجهات المسلحة بين القوات التركية والكوردية لصالح الأخيرة، وإنسحب الجيش التركي بسرعة الى دياربكر تاركاً قتلاه وذخائره وراءه في أرض المعركة، وإتخذ موقف الدفاع واضعاً مدافعه الثقيلة على أسوار دياربكر، وخلال أكثر من خمسة أشهر زعزعت هذه القوات كيان المدينة بفرقعاتها وأصوات نيرانها وبعد هزيمة الفيلق التركي الرابع إستولت

القوات الكوردية على كافة المقاطعات الفرعية التابعة لولاية دياربكر وإيلازيغ، ودخل الشيخ عبدالرحيم مادن، وقبل وصوله بقليل تنكر الحرس والموظفون الكبار من الأتراك بزي الفلاحين الكورد وفروا نحو الغرب عبر دروب دجلة الضيقة، بينما إلتجأت عوائلهم الى دور وجهاء المدينة، وإمتلأ منزلنا بالنساء وهن يبكين ويتوسلن الى والدي للتوسط لدى الشيخ عبدالرحيم بشأن أزواجهن، وكان البعض منهن يتشبثن بأطراف معطفه ويسجدن بين قدميه ويصرخن:

– إحمنا يا أفندي، نتوسل إليك لاتدعنا نُذبح من قبل رجال الشيخ سعيد.

وكان والدي يحاول تهدئتهن، ويقول:

– لا أحد يريد أن يؤذيكن، لقد أخطأ أزواجكن بالتخلي عن وظائفهم وفرارهم. كان عليهم أن يبقوا في مكاتبهم ويتابعوا عملهم. إن الكورد مسرورون جداً لذلك العمل ولايضمرون أي حقد للشعب التركي، واذا ثاروا فإنهم يريدون بذلك إرغام أنقرة على إحترام إلتزاماتها المتعلقة بالحكم الذاتي لكوردستان ضمن إطار الدولة التركية.

كان والدي يتحدث بلهجة هادئة ومطمئنة، وفي الحقيقة كان والدي يعاني من صراع لأنه ظل (عثمانياً)(٧) في ضميره خاضعاً لدولة مشتركة كانت لاتلتفت الى أية أقلية عرقية أو قومية. كما أن الطريقة التي إتبعتها الثورة الكوردية كانت لاتسره. كانت الثورة بحاجة الى قادة أكفاء، أما المقاتلين الذين كانوا مؤلفين أساساً من المتطوعين فكانوا لايجيدون فنون القتال وإلا لصمدوا في وجه كل فكرة تحاول النيل منهم، وشيئاً فشيئاً ومع توالي إنتصارات الثورة إنضم الى صفوفها عدد من العناصر المشبوهة من الدساسين والنهابين الذين إنتشروا هنا وهناك لنهب المخازن وإستعمال القسوة والأخذ بالثأرات الشخصية وقتل الضباط والجنود الأتراك الذين إستسلموا طوعاً، هذه الحوادث المزعجة كان تثير قلق والدي الذي كان متمسكاً بالعدل والنظام أيما تمسك، وكان إختيار المسؤولين لإدارة شؤون القرى والمدن المحررة يتعلق برغبتهم في ذلك بشكل جدي.

كان محافظ مادن (قدري أفندي) رجلاً معروفاً بإنتهازيته وحبه للمكائد والدسائس والإعجاب بالنفس والطبع المتقلب، وكان يرتجل الشعر (كان الناطق بإسم القومية الكوردية) وذهب الى حد المطالبة بالإستقلال التام لكوردستان وإلغاء كل ما كان يمثل تركيا.

بعد سحق ثورة الشيخ سعيد حكم على قدري أفندي ايضاً بالإعدام. وفي الوقت الذي وضع فيه الجلاد الحبل حول رقبته، صاح بأعلى صوته "عاشت الجمهورية التركية!" لكن ذلك لم ينقذه من الموت. وقد أسفر تهور أنقرة في إثارة العداوة بين الأتراك والكورد عن جعل الكثير من الكورد يرتكبون أخطاء لاتعد ولاتحصى.

هكذا، عزم المستشارون العسكريون للشيخ سعيد على إحتلال دياربكر، بعد النجاح في إحتلال المدن الصغيرة في ولايتي إيلازيغ ودياربكر. وخلال أشهر حشدوا خيرة قواتهم حول

أسوار المدينة بنية إرغامها على الإستسلام وإيجاد وسيلة للدخول اليها وإحتلالها من الداخل، كل ذلك دون مدافع ولا دبابات ولا طائرات في مواجهة قلعة يحميها محترف مزود بجميع أنواع الأسلحة الخفيفة والثقيلة! أما المتطوعون الكورد الذين إستطاعوا الدخول الى القلعة فقد ألقي القبض عليهم وقطعت رؤوسهم، ولإبراز هيبته وتثبيط عزيمة السكان، وضع الجيش التركي الرؤوس المقطوعة على أوتاد طاف بها الجنود المدينة عدة أيام.

وهكذا، وبدلاً من أن يُخضع الكورد بقية كوردستان لإرادتهم، وإقامة إدارتهم الخاصة فيها، فقد أُنهكت قواهم أمام أسوار دياربكر، وكان مصطفى كمال وعصمت الأطرش يعملان ببراعة للتغلب على الثوار. وكان السلاح الأقوى والأخطر الذي إستخدماه تحريض الكورد بعضهم ضد بعض. وكان العثمانيون قد لجأوا الى التكتيك ذاته في مواجهة الكورد ومطالبهم.

كان مصطفى كمال مطلعاً تمام الإطلاع على الكورد وكوردستان، وفي سرية تامة إتصل بزعماء كبرى القبائل الكوردية وأرسل اليهم رسائل الود التي خاطبهم فيها بـ"إخوتي الأعزاء[٨]". وأقنعهم بأن الشيخ سعيد عميل لإنكلترا "هذا العدو الدنيء" الذي بذل كل ما في وسعه لإفناء وتمزيق الإمبراطورية العثمانية. وإمتدح فيهم نبلهم وإرتباطهم بالإسلام وقدم لهم وعوداً سخية مبالغاً فيها بمكافأتهم على دعمهم لنضاله ضد "الخائن الدنيء" ويقصد بذلك الشيخ سعيد. وكان من البلاغة بحيث تمكن من ضم عدد كبير من زعماء القبائل اليه وسلّحهم ووضعهم في مواجهة قوات الشيخ سعيد. وفي هذه الأثناء تصالح مع فرنسا التي كانت سلطة منتدبة في سورية، وإتفق معها على نقل قواته عبر الخط الحديدي الذي يشكل الحدود بين تركيا وسورية، رغم أن معاهدة أنقرة لعام ١٩٢١ بين فرنسا وتركيا تمنع قطعاً إستخدام ذلك الخط لأغراض عسكرية.

وهكذا تم نقل عشرات الآلاف من الرجال الى أورفا وماردين، ثم أرسلوا من هناك الى مناطق القتال وسوح المعارك، ليجد الكورد أنفسهم مطوقين من كل الجهات، في حين أنهم كانوا يفتقرون الى موظفين محترفين والى العون الخارجي، لذا لم يقاوموا غير بضعة أشهر إقتنعوا بعدها أنهم قد هُزموا، واستسلموا تباعاً الى القوات التركية.

في الفترة التي بدأت بتشرين الثاني١٩٢٥، عرفت كوردستان تركيا أحلك أيام تاريخها، لقد هدمت كوردستان[٩] بالحديد والنار، وعُذّب الرجال وقتلوا، وأحرقت القرى وأتلفت المحاصيل، وخُطف النساء والأطفال وأغتيلوا. وقد ذبح أتراك مصطفى كمال الكورد بوحشية وفظاظة كالتي أظهرها أتراك السلطان في تعذيب اليونانيين والأرمن والبلغار. وأقام مصطفى كمال محاكم عسكرية خاصة اطلق عليها محاكم (الإستقلال) فشنقت ونفت واعتقلت الآلاف بسرعة كبيرة. أما النساء والأطفال الذين قاوموا الجيش التركي كثيراً فقد زُجوا في أفنية المنازل وأطلقت عليهم نيران الرشاشات من قبل الجنود الموجودين على سطوح المنازل، وكان مصير المثقفين الذين تعاطفوا مع الثورة مأساوياً حيث تم تقطيع العشرات منهم إرباً ووضعوا

في أكياس وأُلقوا في بحيرة وان.

في مادن تم إعتقال حوالي ثلاثين شخصاً من بينهم والدي وأخي الأكبر وعمي وإبنه عثمان أفندي الذي كانت جريمته أنه تمنى "نجاحاً طيباً" للشيخ عبدالرحيم لدى وصوله الى مادن. وفي ليلة شديدة البرودة تم إقتيادهم الى پيران ولدى وصولهم الى هناك مكبلين في قيود وسلاسل حديدية طويلة تم إقتيادهم الى الساحة العامة حيث جُمع الأهالي بالإكراه ليعترفوا بتعاون هؤلاء ودعمهم للثورة، وليشتموا الشيخ سعيد. إلتزم الجميع الصمت ولما طالب الضابط بإتهامهم بجريمة القدح في الذات الملكية، ودعاهم لإهانة الشيخ سعيد، لم يتمالك إبن عمنا عثمان أفندي نفسه وصرخ بأعلى صوته:

- المجد والخلود للشيخ سعيد وثورته!

دُهش الضابط لرد الفعل هذا، وكان يخشى تظاهرة شعبية فأمر بإعادة السجناء الى السجن فوراً، حيث ضُربوا واهينوا. كان الوقت ليلاً حين ربط الضابط عثمان بجذع شجرة في باحة السجن وأمر الجنود بسكب دلاء الماء على جسده حتى تبتل ثيابه تماماً ولا يلمسوه أبداً، في ليلة كانت درجة الحرارة قد بلغت ٣٥ درجة تحت الصفر، وهكذا لم يكن عثمان عند الصباح غير كتلة من الجليد.

أذهل نبأ هذا الموت الفظيع سكان مادن. وخاصة عوائل السجناء، الذين باتوا يقلقون على ذويهم: هل أن مصيرهم جميعاً سيكون مثل مصير عثمان أفندي؟ هل سيعدمون بطرق شنيعة ايضاً؟

تلك كانت بداية الجحيم، ولم أكن أدرك كنه كل شيء حيث كنت في السادسة، إلا أني لم أكن أسمع غير ما يثير الرعب، كانت والدتي تبكي ليل نهار، ولم يكن أحد يجرؤ على الحديث عن كوردستان. وكنت أشك أن أموراً غير طبيعية وخطرة كانت تحدث.

وفي المدرسة كنا نجبر على أن نقول بأننا "أتراك"، وفي المنزل توقفت المناقشات السياسية، وكنا نخاف حد الرعب على والدي وأخي وعمي. هل أنهم عُذبوا وأُهينوا وأننا لن نراهم أبداً؟

كان هذا الإحتمال يدور في رأس كافة أفراد الأسرة، ولم نكن نسمع غير أخبار عن كورد مقتولين، فهناك قرى أحرقت بالكامل، وهناك تم العثور على جثث أطفال صغار. أذكر أنه في إحدى الليالي إستيقظنا على صوت صراخ مرعب لايُطاق. فتساءلنا: أي حيوان يمكن أن يعذّب بهذه الطريقة الوحشية؟ وفي الصباح تجلت الحقيقة فقد كانت تلك صرخات الكورد الذين كانوا يُعذبون، وكانت أصواتهم تصل ألينا رغم أن وادياً كبيراً يفصلنا عن القصر الحكومي فقد كانت قطع حديدية مسخنة تغرز في خدود أولئك المعذبين لإجبارهم على البوح بأسماء رفاقهم.

كان كل صباح يحمل معه نصيبه من الأخبار السيئة(١٠)، وظهر عامل آخر من عوامل إثارة

الرعب، فقد طالبت السلطات كل الكورد بتسليم كل ما يمتلكون من أسلحة، رغم أن إقتناء السلاح لم يكن ممنوعاً. شاهدت جدران الغرفة الأبوية مغطاة بالبنادق القديمة والسيوف الذهبية والفضية ذات المقابض المرصعة بالأحجار الكريمة، وكانت من بين الكنوز التي إحتفظت بها عائلتي منذ قرون والتي كنا نحفظها بعناية فائقة مثلما نحفظ عيوننا. ومع ذلك أرغمنا على الإفتراق عن بعض إستجابة لأوامر الحكومة، ثم سُن على الفور قرار رسمي آخر يقضي بإعتقال أي كوردي يحوز ولو طلقة واحدة ثم تعذيبه ونفيه. وكاد الجنون يصيبنا عندما عثرت شقيقتي (گلچين) على مخازن طلقات بندقية عندما كانت تقوم بتفتيش البيت، فأسرعت الى إلقائها في مدفأة الحطب، وما أن تذكرت والدتي أن تلك المخازن لم تكن قد أستعملت، حتى صاحت بنا: إستلقوا أرضاً.

كنا ننتظر إنفجار المخازن والبيت معها، لكن المخازن لم تنفجر لأن الكبسولات كانت قد أحرقت قبل الأوان، ولم نسمع غير صوت خافت، وكان ذلك كل ما في الأمر!

كان منزلنا حينها مشغولاً ومنهمكاً مثل خلية النحل. فالنساء والأطفال والأهل والأصهار والجيران والأصدقاء الساكنون في الأحياء البعيدة يتوافدون جيئة وذهاباً بإستمرار. ورأيت زوجة عمنا السجين كبيرة عظيمة محاطة ببناتها الخمس تمسك إبنها الوحيد في يدها. كانت تصعد درج مدخل منزلها بصعوبة، كان النساء يطلقن صيحات الضيق والإستغاثة ويقلعن شعورهن:

– ما الذي سيحصل يا إلهي إن سجن حماتنا ومدافعونا؟

– كيف يمكن تنغيص الحياة وقتل إنسان مثل يوسف أفندي؟

– إنه لم يؤذِ أحداً قط، ولم يقتل ولو نملة. إنها نهاية العالم، إنها حقاً نهاية العالم، كن ينُحن ويتأوهنَ.

وبهذه الكلمات كان البعض من صديقات العائلة الأكثر هدوئاً يسرعن لتهدئة روع أمي:

– يا خانم، إن زوجك ليس في نفس وضع عثمان أفندي، لقد كان دوماً يحرص على الإبتعاد عن الأحداث، حتى أنه آوى في بيته أولاد الموظفين الأتراك، ثم أنه يتمتع بمكانة إجتماعية مرموقة، وسيطلق سراحه خلال عشرة أيام وسيعتذر إليه الأتراك.

فكانت والدتي تجيب: إن لم يجدوا شيئاً ينسبونه اليه فإنهم سيفعلون ذلك لمكانته الإجتماعية. وكان قتل عثمان قد زعزع كيانها بشكل جدي. وهكذا كانت الأيام تمضي ببطء شديد في هذه الأجواء القلقة والحزينة.

وبسبب ألمي على ما آل إليه وضع والدي فإنني قررت زيارته فوراً، فعلوت صهوة جوادي (بوزو) متجهاً الى السجن، أذكر ذلك جيداً وكأنه حدث بالأمس... فتح الحارس الباب الثقيل قليلاً فظهر والدي، ولما رآني وحيداً حزيناً وصغيراً إغرورقت عيناه بالدموع، فهممت بتقبيله

لكن الحارس منعني، وإنغلق الباب الثقيل ثانية دون أن يتمكن أبي من التفوه بكلمة، فإنطلقت قافلاً على ظهر (بوزو) وأنا أشهق بكاءً... وفي المنزل لم يكن قد بقي من الرجال (عدا الخدم) إلا واحد، هو عمنا الباسل (نافي) الأخ الأصغر لوالدي، كان خجولاً متحفظاً قليل الحنكة في الأمور الإدارية والسياسية، ومع ذلك كان عليه أن ينهض بكل أعباء والدي ويناقش ايضاً المؤامرات الشيطانية للحكومة.

كان هول محاكم الإستقلال يتضخم يوماً بعد يوم، وخلقت الأحكام الإستبدادية لهذه المحكمة الإستثنائية، وأغلبها أحكام بالإعدام نفذت حال صدورها، جواً من الرعب والهلع.

وكان علي صائب، رئيس محكمة الإستقلال في دياربكر، يتباهى في المقابلات الصحفية بأنه "زيّن المشانق بجماعة المتمردين" ولم يكن كلامه هذا مجرد إدعاء، فقد شنق ٥٥ من زعماء الثورة بعد شهر من إعتقالهم، ومن بينهم الشيخ سعيد، زعيم الثورة المسلحة البالغ من العمر ثمانين عاماً، وبدلاً من أن تسلّم السلطات التركية جثث الشهداء الى أسرهم، فقد كدّست الجثث في حفرة في بستان قريب من المشانق ومقابل موقع يسمى (باب الجبل). وكانت المحاضر القديمة وتقارير الشرطة والجواسيس تكفي لتصدر المحكمة حكمها بقطع رؤوس الأطباء والمحامين والشعراء وعلماء الدين[١١].

والشهيدان اللذان يجلّهما الشعب الكوردي، ولازالت ذكراهما خالدة في ذاكرة هذا الشعب، كانا الدكتور فؤاد من دياربكر، والمحامي حاجي آختي من ليجه، وقبيل إعدام الدكتور فؤاد كان قد تمنى لقاء زوجته في غرفة معزولة بالسجن وكان منحه تلك الفرصة بمثابة معروف أسدي اليه. أما بالنسبة للمحامي آختي، فقد خاطب السلطات التركية بهدوء لدى مثوله أمام المشنقة قائلاً:

– إنكم بقتلنا تقضون على العلاقات التاريخية والعاطفية بين الكورد والأتراك. إنكم ترتكبون خطأ عظيماً واعلموا أن الشعب الكوردي لن يتأخر في الأخذ بالثأر.

ولما وضع الجلاد الحبل حول رقبته، صاح يقول:

– عاشت كوردستان!

فطعنه الجنود بحرابهم، لكن آختي تغلب على آلامه واستجمع قواه ليصيح:

– عاشت الجمهورية الكوردية المستقبلية، تسقط...

لكن قبل أن يكمل الجملة كان الجلاد قد سحب الكورسي من تحته، وبقي آختي معلقاً في الفراغ. وليس من شك أنه لو تابعت محكمة الإستقلال عملها على نفس الوتيرة لواجه العديد من الكورد المصير نفسه، الشهادة. لكن ردود الفعل التي أثارتها عمليات الإعدام بلا محاكمة والمواقف الجريئة للضحايا دفعت مسؤولي أنقرة الى الكف عن ذلك والتفكير في الأمر، فصدرت تعليمات سرية الى علي صائب تقضي بألا يدين أي كوردي دون أدلة وبأن

يخفف من قسوته وصرامته...

كان لتغيير تلك السياسة تأثيره، فلم تُشاهد المشانق في دياربكر بعد ذلك. لكن تم الحكم على المثقفين المدانين بنفس تهم الدكتور فؤاد والمحامي آختي بالسجن خمسة عشر عاماً أو بالأشغال الشاقة المؤبدة.

ومع هذا التخفيف دب الفساد والإختلاس والإرتشاء في صفوف هيئة القضاء، فجمع علي صائب ثروة ضخمة مقابل إخفاء المحاضر والمستندات أو إلقاء التهم على أناس أبرياء تماماً. فهل سيجد علي صائب ما يعاتب به أخي الأكبر الذي رفض دوماً الإنخراط في أي تنظيم كوردي(١٢). ورغم أن السلطات التركية منعت بموجب التعليمات الواردة من أنقرة إعتقال القوميين الكورد أو ممارسة العنف ضدهم فقد إستمرت بعض التجاوزات، فقد كان القوميون الكورد يعتبرون خطيرين يجب إبعادهم أو زجهم في السجون أطول فترة ممكنة دون مبرر أو عذر. فحاول قاضي التحقيق في محكمة الإستقلال إختلاق تهم لا أساس لها وإجبار القوميين الكورد على الإعتراف بأنهم إرتكبوها، ومن هذه التهم تزويد الشيخ سعيد بالسلاح والمشاركة في الثورة وإغتيال الضباط الأتراك. ولما رفض والدي وشقيقي وعمي الإعتراف بأي من تلك التهم حاول الموظفون الأتراك إيجاد شهود زور، حتى أن والي مادن هدد أخي (ريزو)(١٣) البالغ ١٨ عاماً لإجباره على أن يشهد ضد والدنا لكن هذه الوسيلة أخفقت ايضاً، مما أضطر الأتراك الى ممارسة الترهيب والرعب فنقلوا أخي المعتقل في دياربكر الى سجن پيران الذي اشتهر بقساوة وسادية القائمين عليه، فكانوا في أوقات متأخرة من الليل يخرجون السجناء فجأة الى باحة السجن ويعصبون عيونهم ويوجهون اليهم فوهات بنادقهم ويهددونهم برميهم بالرصاص فوراً ما لم يقروا بجرائمهم وفي بعض الأحيان كانوا يطلقون النار في الهواء قريباً من السجناء ومع ذلك لم يستسلم السجناء.

نُقل السجناء المادنيون الى دياربكر ليواجهوا السجناء الذين حكم عليهم سابقاً بالأشغال الشاقة لإرتكابهم جرائم مدنية. وكان نائب رئيس الجمهورية قد وعد بإعادة النظر في أحكام أولئك المساجين إن إستطاعوا الحصول على براهين تثبت تعاون المادنيين مع الثوار، ويبدو أن أولئك السجناء قد صدّقوا ذلك الوعد وكرسوا أنفسهم لأداء تلك المهمة. ولكن فجأة ساد صمت مطبق السجن بحضور السجناء المادنيين، ولم يكن من أولئك غير إطلاق الشهقات والزفرات. كان ذلك فشلاً آخر منيت به السلطات التركية، وبعد عشرة أشهر من وصول المادنيين الى سجن دياربكر، نُقلت محكمة الإستقلال الى إيلازيغ، مركز المحافظة الواقع الى الغرب من مادن، وتقرر تحويل كافة السجناء غير المحكوم عليهم الى سجن إيلازيغ المركزي.

كنا في شهر شباط الشديد البرودة، عندما إنتشر نبأ مفاده أن ثلاثين سجيناً يرافقهم خمسون من الجنود توقفوا في سجن مادن، أثار هذا النبأ هيجاناً غير إعتيادي في صفوف السكان سواء كانوا من الأسر المعنية أو غيرها، ودبت حركة مستمرة في دار ضيافتنا، وكان

أخي ريزو يخرج منه مسرعاً الى المنزل ليجلس في مواجهة والدتي لفترات طويلة، وذات مرة فاجأته في زاوية مظلمة من مسكننا وهو يتهامس مع شباب العائلة، خاصة حسن الذي كان يعمل بغّالاً لدينا وكان شاباً قوياً، وفي وقت مبكر من صباح أحد الأيام رأيت حسن يسلك الطريق الجبلي المؤدي الى إيلازيغ سيراً على الأقدام، كان الطريق مغطى بطبقة سميكة من الثلج الطري يبلغ سمكها مترين، وتولد عندي هاجس أنه ربما يدبر أمراً خطيراً(١٤). لكنني لم أكد أجرؤ على الحديث عن ذلك لأي شخص، وفي يوم ١٨ شباط ١٩٢٦ إنتظرت مادن عودة وجهائها الأسرى عبثاً، وكانت النساء قد هيأن للأسرى العائدين ضلوع الخراف المحشية والرز المطبوخ باللوز والبقل والكثير من الأطعمة الأخرى، فدب الإرتباك في عوائل الأسرى بسبب علمها بتهور الحكومة فتعددت التساؤلات: هل كانت السلطات تنوي قتل السجناء في الطريق، أم أنها ستعلقهم بأعواد المشانق المصفوفة سلفاً في إيلازيغ؟ حاولت والدتي التي جن جنونها سلوك الطريق بنفسها لتتأكد من مصير زوجها وإبنها الأكبر وكانت مستعدة للسكن في إيلازيغ وأن تفعل كل ما في وسعها لمساعدة أقاربها في السجن وتوفير إحتياجاتهم هناك الى جانب محاولة الإفراج عنهم. ورغم صحتها المتدهورة وخطورة الأزمة القلبية التي واجهتها مؤخراً فإنها لم تلتفت لا الى صحتها ولا الى أموال أسرتها كل ذلك لإنقاذ الذين كانوا أغلى وأعز مَن عندها في العالم كله.

لكن هذا الفصل من السنة وحالة الطرق ووسائل النقل لم تكن لتساعد على سفر سيدة مريضة. وأخيراً وبعد بذل جهود جبارة تمكننا من إقناعها بتأجيل رحيلها والسماح لريزو بالذهاب في مهمة الى إيلازيغ، ووعد أخي بإستئجار منزل بجوار السجن، في حال كان الحكم بالسجن المؤبد، لتتمكن والدتي من السكن هناك، وغداة ذلك الإجتماع العائلي غادر متدثراً بمعطف من الفرو السميك ممتطياً أجمل وأحسن حصان عندنا متجهاً الى إيلازيغ. عاد أخي بعد أسبوع وعندها علمنا بأن والدتنا ستذهب للسكن في إيلازيغ وستصحب معها مجموعة من الطهاة والخدم الذين سيجهزون الأطباق المفضلة لوالدي وأخي الأكبر.

أثناء غياب والدتي كنت أعلم أن أختي الكبرى گلچين التي تكبرني بعشر سنوات هي التي ستعتني بي، إنها فتاة حنون ومثقفة وموهوبة بحس تربوي فطري، وكنت أبتهج بذلك، لكن والدتي لم تغادر فوراً فقد كان عليها التزود بما يكفي من المال الذي بحثت عنه في خزانة والدي وعند المدينين لنا ومستأجري مخازننا وعقاراتنا ومستودعاتنا ومستثمري طواحيننا وبساتيننا وحقولنا، وبعد جمع المبلغ الكافي فكرت والدتي بزيادته عن طريق بيع مجوهراتها.

لم تكن المشكلة المالية المشكلة الوحيدة التي تقلق والدتي، فقد كانت تقلق علينا وتهتم لأمرنا كثيراً ولكي تتأكد من أن كل شيء سيكون على ما يرام أثناء غيابها، لم تتوقف عن إستشارة أبناء وبنات العم من الكبار والأصدقاء المقربين والحكماء في الحي. وقدمت الكثير من النصائح والتوجيهات لأختي الكبرى ولعمي نافي وبقية أعضاء الأسرة. وكانت تؤكد على

گلچين القول: كوني حكيمة وجديرة بمسؤولياتك، ولاتنسي أنك في سن الزواج، فردت گلچين، وهي تهديء من روعها: نعم، إهدأي وكل شيء سيكون على ما يرام.

الخطوة التالية كانت العثور على حوذي أمين عليها وعلى عربتها وخيولها وهي تخاطر بنفسها في هذه الفترة من السنة على طريق مادن- إيلازيغ، فهو طريق ضيق كثير التعرجات يحاذي الوديان والمهاوي ويمر بالعديد من الجسور الخشبية المؤقتة المعروفة بحوادثها. فطالب الرجل القوي الذي عثرنا عليه بخمسة أمثال الأجرة العادية كما فرض إتخاذ عاملين يقومان بإزالة الثلوج من الأماكن الأكثر إزدحاماً بها. قبلت والدتي كل شروطه دون تردد، وفي يوم مشمس علمت لدى عودتي من المدرسة أن والدتي رحلت بصحبة ريزو وجمال في عربة تجرها أربعة جياد دون أن تودعني أو تقبلني... بكيت وركضت نحو غرفتها وناديت جاجو بكل ما أوتيت من قوة لتفتح لي الباب فوراً، بدت لي اللحظات التي إنتظرتها لتصعد الى الطابق الثاني لحظات أبدية سرمدية لانهاية لها. وصلت أخيراً وفي يدها حزمة المفاتيح فصرخت وأنا أضرب الأرض برجلي وأقول: إفتحي الباب حالاً، فقالت لي برقة وحنان إهدأ واصغ إليّ جيداً، لقد رحلت والدتك أثناء وجودك في المدرسة لأنها كانت لاتطيق الألم والبكاء عند فراقك، لقد كان بالها مشغولاً عليك وأوصتنا بالإهتمام بك إهتماماً بالغاً، فقلت: لا أريد أن أعلم ما قالت أود فقط مشاهدة غرفتها.

- حسناً، حسناً، سأفتح لك الباب ولكن عدني بأن لاتأخذ من الغرفة شيئاً.

- هذا وعد، دعيني أدخل فقط.

فتحت جاجو الباب ودخلت غرفة والدتي ولما وجدت سريرها شاغراً أسرعت اليه ورفعت الأغطية وانبطحت على السرير أشم عطر الأغطية والوسائد علّني أجد رائحة أمي، وبحثت يائساً عن الخمار الذي إعتادت أن تغطي به رأسها وكنت أضمه الى قلبي عند النوم، وعندما لم أجده أخذت بطرف الغطاء وضممته إليّ، لا أعرف كم بقيت على تلك الحال. وأذكر أني ذرفت دموعاً ساخنة على الأغطية، وصرخت: ماما، ماما، عودي إلينا بسرعة يا عزيزتي! ولما هدأ روعي نهضت وركضت لألعب أمام المنزل.

مرت بضعة أشهر دون حدوث شيء يذكر، وكنت مجداً ومثابراً في المدرسة، وكان المعلمون الذين تخرجوا حديثاً من دور المعلمين في غرب تركيا يبذلون كل ما في وسعهم لترسيخ الفكرة الكمالية في أذهاننا: الجمهورية التركية التي أسسها مصطفى كمال، أعظم بطل في التاريخ، هذا البلد أكثر بلاد العالم ديمقراطية وتطوراً، ولا يسكنه غير الأتراك. وكانوا يقولون لنا: أنتم لستم كورداً لأن الكورد ليسوا سوى همجيين وقطاع طرق يعيشون في الجبال. وكنا مرغمين على القول بأننا أتراك وأن لانتكلم بغير التركية. وبما أن الأهل عموماً كانوا ينصحون الأولاد بطاعة المعلمين والإنصات لكل ما يقولون دون مناقشة، لم يجرؤ أي تلميذ على معارضتهم.

ورغم أن معظم التلاميذ كانوا ينسجمون مع المعلمين فإنهم ظلوا كورداً في قرارة أنفسهم، وكان هناك تلاميذ في الصفوف العليا يتلقون نظريات معلميهم بحماس كبير ثم أصبح أولئك من أنصار مصطفى كمال وتم تشجيعهم من قبل إدارة المدرسة على التخلي عن رفاقهم الذين يتكلمون الكوردية والذين يذكرون مصطفى كمال بسوء(١٥). لكن من حسن الحظ أن أولئك التلاميذ كانوا مكشوفين ويعاملون بإحتقار حتى أن رفاقهم كانوا يضربونهم في بعض الأحيان، لكن المدرسة كانت دوماً تهرع لنجدتهم ولم تتورع أبداً عن إتخاذ إجراءات ضد المنصفين والتسبب لهم في القلق والإزعاج. أما بالنسبة إليّ فلم أكن أتفوه بكلمة عما يجري في المدرسة عندما كنت أعود منها.

مر الوقت وكانت عائلتي تفعل كل ما في وسعها لتجعلني فرحاً مسروراً. وبين فترة وأخرى كانت أخبار سيئة ترد لتبث الشقاق والخلاف في صفوف الأسرة، فقد علمنا أن محكمة الإستقلال كانت تتابع عملها في إيلازيغ وأنها أرسلت المئات من الكورد الى المشنقة. وسمعنا ايضاً عن (علي حيدر) وهو نقيب شاب كان من الحرس الخاص لمصطفى كمال وأرسل الى كوردستان ليهين ويعذب الكورد الذين يشكلون خطراً على الحكومة، وكان هذا الجلاد قد إعتاد على شتم وإهانة السجناء السياسيين، فكان يختار المعروفين والشيوخ من السجناء ليبصق في وجوههم ويصفعهم ويرميهم أرضاً ويدوس عليهم، كنا نخشى من فكرة أن هذا الرجل عديم الضمير والذمة قد يفعل ذلك بأهلنا وذوينا ايضاً.

بدأت العطلة الصيفية لكن لم تعد أمي، وكان بعض الفواكه التي أحبها، كالكرز والخوخ الأخضر والمشمش والتوت الأبيض ذي البريق اللؤلؤي والطعم العسلي، في طريقه الى النضج، وكانت رغبتي العظمى في تلك الفترة هي أن أتسلق الأغصان العالية من أشجار التوت الضخمة لأجني منها التوت، وفي إحدى أمسيات تموز الرائعة وبعد أن ركضت وقفزت وسبحت وأكلت الفواكه حد الشبع بصحبة إبن عمي نزلت الى أسفل الحقل لأعود الى مادن، ولما هممت بركوب حماري هرع جارنا (حسن أفندي) نحوي وصاح بي:

- إنتظر يا باشا، إنتظر، فلدي خبر هام أبلغك به!

سلمت الحمار لإبن عمي، وما إن أصبحت بين يديه حتى ضمني إليه فجأة وقبّل جبيني، وقال:

- إن عضواً من أسرتكم رفع رأسنا وأعاد لنا شهامتنا، إذهب الى البيت وقل أن أخاك الأكبر، الدكتور، قد هزم علي حيدر شر هزيمة، ولن يجرؤ (علي) بعد هذا أبداً على مضايقة وإساءة معاملة السجناء. أسرع في الوصول الى مادن والله يحميك!

بوصولي الى مادن، وجدت أن الخبر قد إنتشر إنتشار النار في الهشيم، واطلع الجميع في دارنا على الخبر وفرحوا فرحاً عظيماً، لكن أياً منهم لم يطلعني على تفاصيل الخبر التي لم

تفسر لنا إلا بعد أسابيع عدة:

قبل الحادث بيوم كان علي حيدر قد هاجم والدي وأوقفه أمامه وجرّ لحيته وأهانه بهذه الكلمات:

– أنت بمظهرك الدال على أنك سيد عظيم، وبهدوئك الجليل تبدو وكأنك تتحدانا دوماً، إني أحذرك من أنك لن تفلت من أيدينا وسنأتي عاجلاً أم آجلاً بأدلة تثبت عداءك للأمة التركية ونشاطك التخريبي. فأجابه والدي:

– لو إمتثلت للحقيقة فلن تجد أي دليل يدينني. فقال الضابط التركي، وهو يغادر المكان:

– صه أيها الكوردي القذر.

هاج أخي وقلق من تصرف علي حيدر وقرر الإنتقام منه، واستطاع الحصول على قضيب حديدي قرر أن يقتل بواسطته العسكري الجلاد إن عاود الهجوم على والدي. فأخفى القضيب الحديدي في مكان دله عليه رفاقه السجناء الذين رأوا أنه ليس من الحكمة قتل ذلك العسكري. وفي الغداة هاجم علي حيدر والدي ثانية فور وصوله الى السجن، ولما شعر أخي بأن المشهد قد يتكرر خرج من بين الصفوف خلسة ليبحث عن سلاحه، ولما لم يعثر عليه استشاط غضباً وهرع نحو الضابط وصفعه صفعة قوية ألقت بمبعوث مصطفى كمال أرضاً، وعلى الفور هاجم السجناء جميعاً علي حيدر وأشبعوه ضرباً، ولم يتدخل الجنود والحرس في المعركة، حيث كانوا جميعاً من الكورد وبعضهم من مادن، إلا في اللحظة الأخيرة لينقذوا مسؤولهم من الموت الحتمي.

ولدى التحقيق في أمر الحادث، ألقى الجنود الذين احضروا كشهود مسؤولية الحادث على علي حيدر واصفين إياه بالجلاد المعذب والسادي، وتمكن أخي بفضل مساعدة الحرس من إرسال برقيات الى مصطفى كمال والى رئيس المجلس والجمعية الوطنية في أنقرة. وكان للضرب التأديبي لعلي حيدر وتلك البرقيات نتائج مفيدة، فلم يأت علي حيدر الى السجن أبداً، وبعد أشهر عادت محكمة الإستقلال لتستقر مجدداً في دياربكر. وأدى ذلك التغيير الى نقل سجنائنا من إيلازيغ الى دياربكر، وفي هذه المرة كان موعد مرورهم عبر مادن معروفاً تماماً وبشكل مسبق، في منتصف تشرين الثاني عند الظهر، وفي اليوم المذكور توجه قسم كبير من الأهالي سيراً على الأقدام لإستقبال الموكب.

وحين وصلنا الى أعلى بستان "نوافير الماء" منعنا الجنود من الذهاب أبعد من ذلك وأفهمونا بأن السجناء قد يتوقفون على حافة مسبح الحديقة الكبير، فأسرعت للقائهم لأني كنت أريد مشاهدتهم عن كثب ومحاولة إنقاذ والدي وأخي، وفي الساعة المحددة ظهر عدد كبير من الجنود الخيالة المدججين بالسلاح وهم يحيطون عربات ثقيلة ذات مقاعد مكشوفة. تعرفت على والدي من بين السجناء وبدأت أصرخ بكل قواي وألوّح بيدي: بابا، بابا!

كنت آنذاك في السادسة والنصف من العمر. واقترب مني الضابط الذي كان يتقدم الموكب فأمرني بإلتزام الصمت قائلاً وهو يدمدم ويشد على أسنانه:

– لا مظاهرات من هذا النوع، وإلا سأقيد يديك ايضاً بالسلاسل.

كان منظره وأسلحته وطريقة كلامه عدائية جداً لدرجة أني لزمت الصمت وبدأت أشهق. ولدى إقتراب الموكب أمر الجنود الجمهور بعدم الإقتراب من السجناء والوقوف على بعد مئات الأمتار من المجموعة، ومنعوا الأطفال من تقبيل آبائهم وإخوتهم وأحبائهم. إلا أن ذلك لم يصدنا عن رؤيتهم موثقين في السلاسل إثنين فإثنين وكل واحدة من تلك السلاسل مربوطة بأخرى يمسك بطرفها أحد المراتب من الجنود. ونزلوا هكذا، مقيدين الى البستان عبر الدرب الصغير المؤدي الى المسبح، ولم تسلم الأطعمة والهدايا التي جلبتها عوائل السجناء لذويها، لأن الجنود خافوا أن تحتوي مواداً خطيرة. ولم يستلموا سوى الأشربة والأطعمة التي كان الوالي وقائد الدرك قد جهزاها في مادن على شرفهم، وبالطبع كان هؤلاء فوق الشبهات. وبعد ساعة أنذرونا بمغادرة المكان والعودة الى منازلنا... وطارد الحرس المتمردين على الأمر والذين كانوا يسيرون ببطء حتى أنهم ضربوا النساء والفتيات بالسياط. وأخيراً عزم الناس على العودة الى دورهم مهمومين قلقين يذرفون الدموع الغزيرة.

بعد مرور شهر عادت والدتي الى مادن وقد إزداد وضعها الصحي سوءً. وبعد أن أخذت قسطاً من الراحة نادتني وهي تتأملني من رأسي حتى أخمص قدمي وقبّلتني ثم قالت هل إهتموا بك جيداً يا صغيري، إني سعيدة جداً لرؤيتك في صحة جيدة. لقد كانت أختك أهلاً للثقة التي أوليتها إياها، ولا يسعني إلا أن أثني عليها وأمدحها وأشكرها لإهتمامها البالغ بكل شيء... وما أن لفظت هذه الكلمات حتى شعرت بيديها تفارقانني وقد تجمعت قطرات صغيرة من العرق على وجهها الذي غدا قرمزياً وسقطت بهدوء على الأريكة وأغمي عليها. فهرعت عمتي وأختي الكبرى ونساء أخريات لدلك يديها ورجليها وقلبها وحملها على تنشق الهواء، وبعد ساعة إستعادت وعيها فقالت أن إغماءاتها أصبحت منذ فترة متكررة وطويلة ومستمرة. لقد أحزننا ذلك الوضع وأثقل الجو الذي كنا نعيش فيه، ومضى الشتاء ثم الربيع ونحن نعاني من الهم والقلق والخوف.

لجأت لجان القضاء والشرطة، التي كانت مقتنعة تماماً ببراءة أبي وأخي، الى الإبتزاز بالتهديد لتختلس منا شيئاً، فباعت والدتي وشقيقاتي وعمتي مجوهراتهن وكان علينا أن نتخلى عن خيلنا بحزن ومرارة، لكن الأهم من كل ذلك كان جمع مبلغ كبير من المال يكفي لإنقاذ حياة أبي وأخي. في غضون ذلك كان مصطفى كمال يقوم بتغيير العادات والتقاليد من أجل غربنة تركيا. فبعد أن منع إرتداء الطربوش جعل وضع القبعة، أو البرنيطة، إجبارياً، ثم عزم على زعزعة كيان المجتمع الكوردي من خلال مهاجمة أحد تقاليده المهمة جداً فمنع إرتياد دور الضيافة، كانت هناك تضحية عجيبة من جانب الشعب الكوردي بهدف مخالفة أوامر

أنقرة وإستمرار دور الضيافة على عاداتها مهما كان الثمن.

لكن وضع أسرتنا لم يكن يسمح لنا بمخالفة المراسيم التي يوقعها مصطفى كمال، فسارعنا الى إغلاق دار ضيافتنا ومنحنا الخدم المكلفين بخدمتها وتنظيفها إجازة. أما الناس الذين إعتادوا على إرتياد دار ضيافتنا، فلم يقبلوا رد فعلنا ذلك وإخلالنا بالواجب وإستكانتنا وحتى "خيانتنا" وأنّبنا الكثير منهم لما وجدوا باب دار ضيافتنا مغلقاً.

ومن بين ما أذكر من ردود الفعل تلك رد فعل (قرك آغا) المندفع والذي كان من وجهاء قرية (گره سور) كان نبيلاً معروفاً بشهامته وشجاعته وخصوماته الكثيرة مع الحكومة، وكان عندما يأتي الى مادن يبيت أسابيع في دار ضيافتنا، كان رجلاً صادقاً وطبيعياً، وكانت رصاصة قد إخترقت حلقه في إحدى خصوماته مع أنداده، إلا أن جراحاً ماهراً من إيلازيغ أنقذه من الموت لكن صوته أصبح أجش وهو السبب في تسميته (قرك آغا) أي الآغا ذي الحلق الصغيرة وكان إسمه الحقيقي (عزت)، فذات يوم كنت ألعب أمام دار الضيافة ورأيته يدفع الباب الكبير المطل على باحة الدار ولما وجده موصداً، وهو لم يعتد على ذلك، حاول كسره ودخول الدار عنوة لكنه لم يتمكن من ذلك، فإستدار نحونا وعرفني من بين بقية الأولاد، وسألني:

- أخبرني يا صغيري الأفندي، ألا يوجد أحد هنا؟

- لا (قلتها منزعجاً).

- هل الخدم هنا ليفتحوا الباب؟

- لا، لقد رحلوا.

- رحلوا! كيف ذلك؟

- لقد صرفناهم.

- هل فعلوا أمراً سيئاً؟

- كلا، ولكننا أغلقنا دار الضيافة بأمر من الحكومة.

- ماذا تقول لي يا أفندي؟ أغلقتم دار ضيافتكم؟ ألا تستقبلون الضيوف؟ هذا مستحيل، يبدو أنكم فقدتم صوابكم.

- لايجب أن أغيظك يا قرك آغا، ما باليد حيلة، فالحكومة هي التي أمرتنا بذلك.

- مادامت أسرتكم باقية، لايجب أن تُغلق دار ضيافتكم، حتى لو كان ذلك بأمر من الله، إن هذا ضعف وجبن منكم، أما أنا فسأكسر الباب وأدخل.

أسند صدره العريض والقوي الى الباب ودفع بكل قوته وهو يرفع القبضة الحديدية الكبيرة. لكن جهوده ذهبت أدراج الرياح، فقد كان كسر الباب، ذلك النصب الهائل الذي صنعه نجار

أرمني من دياربكر، يستلزم عشرة رجال أقوياء مثله. واصل قرك آغا جهوده تلك بضع دقائق أخرى لكن دون جدوى، فاستدار ليرحل وهو يعبر عن تذمره وسخطه، ويقول:

– إنه جبن! لو كان يوسف أفندي حراً طليقاً لما أذعن لقرار أنقرة السيء. إن دار الضيافة هي مأوى أجدادنا، فهي كبيوت الله لايمكن أن تغلق. إبتعد عنا وهو يردد تلك الكلمات... أما أنا فقد تأثرت برد فعله وعزفت عن اللعب، وتركت رفاقي لأذهب وأروي ما حدث لأمي التي إستمعت اليّ بهدوء قبل أن تنفجر باكية:

– قرك آغا مصيب فيما فعل ولكننا لانستطيع شيئاً، أرجو أن يلقى مضطهدونا العقاب الذي يستحقون عاجلاً أم آجلاً. وكفكفت دموعها وهي تتحسر.

في نهاية الربيع وصلتنا أخبار سارة مفاجئة، حيث ظهر أن الفدية الباهظة التي دفعتها والدتي لرئيس محكمة الإستقلال ورجاله قد فعلت فعلتها، حيث أبلغونا بأنهم سيعيدون النظر في محاضر أبي وأخي الأكبر وعمي وسيحاكمون في أقرب فرصة محاكمة متساهلة، وربما تتم تبرئة الثلاثة. وفي حوالي منتصف حزيران، بعد أن كنا قد إنتقلنا كعادتنا كل سنة الى الحقل، كنا نمضي أيام الصيف الجميلة في قلق بالغ: هل سيحاكم سجناؤنا؟ لم لا يطلق سراحهم؟ متى سنراهم ثانية؟ كان شهراً ملؤه التساؤلات، أخيراً وفي العاشر من تموز وردتنا برقية من أخي ريزو يخبرنا فيها أنه ثبتت براءة أبي وأخي وعمي وأنه قد تم إطلاق سراحهم، وأن الجميع سيكونون في مادن في ١٥ تموز، مرت تلك الأيام الخمس ببطء شديد حتى خيّل إلينا أنها لن تنتهي أبداً.

جعلت فكرة أننا سنشاهدهم من جديد سالمين أحراراً قلوبنا تخفق من الفرح وصدّتنا عن النوم. وفي صباح ١٥ تموز ودون أن أرى أحداً إمتطيت صهوة فرسنا البيضاء وسلكت طريق دياربكر، ولما قطعت مسافة حوالي ١٥ كيلومتراً من مادن ولم ألتقِ أحداً قررت التوقف والبحث عن مرعى لدابتي، فلمحت بعضاً من نباتات صغيرة فاسترجلت ولذت بظل شجرة صفصاف[١٦] نجت من شراهة الماعز، فجلست أرقب الفرس وهي ترعى العشب الطري بلذة عندها سمعت صوت محرك أرعبني وجعلني أرتجف لاشعورياً إتجهت صوب الطريق بسرعة لكن السيارة كانت قد إختفت خلف الطرق المتعرجة. إنها السيارة التي تقل أبي، كنت متأكداً من ذلك. فانطلقت على الفور في أثر السيارة وبعد عشر دقائق فرمل السائق وخرج رجل من السيارة. إنه أبي، أبي العزيز، أبي الذي غاب عني ثمانية عشر شهراً في السجن، فارتمى على عنقي وقبّلني طويلاً واغرورقت عيناه بالدموع وهو يحاول أن يكفكفها، وسألني بمرارة: هل أتيت وحدك للقائنا؟ فقلت بصوت خافت: نعم بابا، لأن أمي حرصت على أن لايعلم أحد بوصولكم، فقد كانت تخشى أن تغضب السلطات لإستقبال الجماهير لكم. فأجاب مبتسماً: آه، نعم. ثم نزل شقيقاي من السيارة ليقبلاني، ولاحظت أن ريزو كان متعباً جداً وازدادت نحافته وبدا وجهه شاحباً. فقد بذل الكثير من الجهد أثناء إعتقال أبي وأخي وهو يكافح

لمساعدتهما وإنقاذ حياتهما في مهمة شاقة جداً على شاب لم يتجاوز الثامنة عشرة. ثم دعاني لأجلس مكانه في السيارة لأنه أراد تنشيط ساقيه وهو يمتطي الجواد. ولم أكن أتمنى أكثر من مرافقة أبي وأخي الأكبر. ثم رحلنا بصمت، وعند وصولنا الى الدرب المؤدي الى بستاننا فوجئنا بجمهور كبير هرع من البساتين المجاورة، فتساءلنا كيف عرفوا نبأ وصول أهلنا. كان هناك الرجال والنساء والأطفال في ملابس زاهية كملابس العيد وهم يصيحون بأعلى صوتهم:

– يعيش يوسف أفندي، عاش الدكتور نافذ، أهلاً وسهلاً بكم!

كان أبي يحييهم رافعاً يديه محاولاً إفهامهم أن التظاهرة قد إتخذت وجهة أخرى وأن الأفضل أن يسكتوا ويتفرقوا. لكن حماس الجمهور ظل يزداد ووصل ذروته عندما إخترق إثنان من جيراننا هما (باليل و مندو آغا) وهما يمسكان بقرون كبشين كبيرين فتقدم أحدهما نحو والدي والآخر نحو أخي، ولدى وصولهما الى مسافة بضعة أمتار منهما أشارا على القصابين الجاهزين اللذين رافقاهما لذبح الكبشين أمام الناجين من حبل المشنقة. وبلمح البصر مد الرجلان الكبشين على الأرض ووضعا أقدامهما على بطنيهما وسيطرا على رأسيهما وأخرجا سكينيهما الكبيرين ووضعاهما على حلق الكبشين فغمر الدم الأرض، وعوضاً عن أن يفرح أبي لذلك فقد إغتم كثيراً لمشاعر الفرح هذه، التي كان يعتبرها همجية، فصاح بالناس قائلاً:

– ما من داعٍ لذلك.

خلال هذه الفترة كانت والدتي تنتظر زوجها وإبنها المدلل بفارغ الصبر، وذهبت الى نهاية ساحة الدار وعانقت والدي على الطريقة الكوردية وقبّلت الأكتاف بإحترام، لكن العناق لم يدم طويلاً حيث سارعت أمي في ضم مولودها الأول (نافذ) الى صدرها، أما نافذ فقد قبّل خديها وذرف دموعاً ساخنة، بينما تتمتم أمي قائلة: آه يا نافذ، نافذ! أنت حي وبقربي! لاتغادرني يا ولدي، فلم يبق من أيامي غير القليل، دع أيامي الأخيرة تكون مليئة بالسعادة، إبق في مادن، إبق بيننا!

– لاتبكي يا أمي العزيزة، لاتبكي. سأرى إن كنت أستطيع البقاء في مادن، وإن لم أتمكن فليست دياربكر بالبعيدة، ورغم سوء حالة الطرق سآتي الى مادن كل خمسة عشر يوماً.

– كلا أريد أن أراك الى جانبي كل يوم (قالت ذلك متوسلة اليه).

– نعم يا ماما هدئي من روعك، ودعيني أمسح دموعك، فعيناك الجميلتان قد خلقتا للضحك وبث الفرح وليس للغم والحزن، هيا فلنضحك الآن ولندع الزمن يتكفل بالباقي.

هدأت والدتي وانتبهت الى الوضع، كان عليها الإشراف على إعداد الطعام والإعداد لإستقبال الزوار والمهنئين المشتاقين لرؤية أبي وأخي، وكان البعض ينتهز الفرصة لطلب المشورة

الطبية من أخي والبعض يطلب منه البقاء في مادن، وكانت الفرصة لي ذهبية لأختار من بين خيول الضيوف أفضلها وأنزل الى الطريق المعبد لإمتطائها والعدو بها. ودعوت أصدقائي في البساتين المجاورة للمشاركة في هذه الصولات والجولات، واستمر توافد الضيوف لأكثر من خمسة عشر يوماً، وبعد فترة أعلن أخي عن نيته العودة الى دياربكر حيث عيادته وحيث يشغل منصب الطبيب الرسمي للبلدية، وبعد شهر من رحيله طرأت على البلاد تغييرات سياسية كبيرة حيث عزم مصطفى كمال وبضغط من بعض معاونيه على دمقرطة النظام وإنتهاج أساليب غير القوة والقمع لتتريك الكورد، فصدرت قوانين إنتخابية جديدة وفي الخامس والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٢٧ جرت الإنتخابات البلدية في أنحاء تركيا وتحولت مادن من مقاطعة فرعية الى ولاية وتقرر إعادة تنظيم إستثمار النحاس في أقرب وقت، وأُلحقت مدرسة داخلية بالمدرسة الإبتدائية بهدف إستقبال الأطفال الكورد القرويين من الذين لم يسمعوا في حياتهم أية كلمة تركية، لكن هذه التجربة لم تدم غير بضعة أشهر حيث واجهت السلطات الأمر الواقع وإتضح لها أنه ليس بالإمكان تحويل الناس الى أتراك بين ليلة وضحاها، حيث تعلم التلاميذ التركية بسرعة لكنهم تابعوا التكلم بالكوردية وكانوا محصنين تجاه غسيل الدماغ اليومي.

أما بالنسبة للإنتخابات البلدية فقد إتفق الناس منذ أن سمعوا بها على إستدراج أخي الأكبر الذي كان يبلغ حينها الثانية والثلاثين للترشيح لمنصب رئيس بلدية مادن، فرشح أخي نفسه دون إرادته وبقي في دياربكر ولم يشارك في الحملة الإنتخابية التي كانت حماسية جداً، فكان أن فاز أخي في الإنتخابات واضطر للمجيء الى مادن الأمر الذي سر والدتي كثيراً، وفي ليلة من ليالي تشرين الثاني أيقظنا من النوم ومعه فتاة سوداء مكتنزة أثارت الرعب فينا، فسألتها أختي (عفت) التي تكبرني بثلاث سنوات وكانت أكثر جرأة مني في مثل هذه الظروف، سألتها بلهجة ملاطفة:

- من أنت، ومن أين تأتين؟ فاسترخت الشابة السوداء وابتسمت إبتسامة عريضة كشفت عن صفين جميلين من الأسنان البيضاء، وأجابت بحياء وبلهجة تركمانية دياربكرية:

- أُدعى بيرلانت وأنا قادمة من دياربكر.

- هل هناك الكثير من الشابات السوداوات في دياربكر؟

- نحن حوالي عشرة، والجميع من العائلة نفسها، ويقال أننا من أصل سوداني.

فسألتها بدوري: هل ستبقين عندنا؟

- أنا لاأترك الأمير الدكتور (دكتور بيگ) أريد مرافقته حتى نهاية حياتي، لقد كنت أشرف على الموت فأنقذني، وسأبقى في خدمته ما دام يريدني، وإن سكن معكم ها هنا فسأهتم بك ايضاً لأنني أحب الأطفال كثيراً. كانت بيرلانت تريد متابعة حديثها لكن أختي

الكبرى (گلچين) دخلت غرفتنا وهي تقود سيدة بدينة تبلغ حوالي الأربعين، ذات عينين واسعتين لامعتين وقسمات وجه منتظمة ووجه منير.

- وها هي طباخة أخينا، إسمها الأخت مقبولة، إنني أعرف مسبقاً أشياء كثيرة عنها. ستفرحون كثيراً لو أخبرتكم أنها مختصة في المفتونة (طعام دياربكري أساسه الباذنجان ولحم الضأن وسلطة متبلة بالثوم المفروم) والنوريا (نوع من الحلاوة المشهورة في دياربكر. بعد ذلك ظهر بأن مقبولة متمكنة جداً من صنعتها فعهدت اليها أمي مسؤولية المطبخ ولم تكن هذه الوظيفة سهلة بسبب كثرة الضيوف والزوار أما بيرلانت فقد أصبحت رفيقتنا في اللعب لما تتمتع به من خفة دم وصبر وقوة.

والى جانب إنتخاب الشعب لأخي رئيساً للبلدية، فقد كلفته السلطة بتولي إدارة مستشفى مادن وباشر عمله فوراً. كان كل شيء في مادن يثير الشفقة، فالنشاطات المنجمية متوقفة تماماً وإستولت الدولة على كل ثروات المناجم لإستثمارها بالطرق الحديثة. فأنشأت "إدارة إستثمار النحاس في مادن" برئاسة أحد مهندسي المناجم والذي إستدعى مهندسين ألمان لإجراء دراسات، وكان والي مادن الذي أوفدته أنقرة رجلاً لطيفاً متسامحاً سليم القصد وبإلحاح منه قرر وزير الداخلية منح مبلغ كبير من المال الى بلدية المدينة وبدأ أخي حينها يتجه الى الأمر الأهم فاستخدم العمال في مواقع العمل واستدعى مجموعة من الموظفين الأكفاء لتنظيم المدينة والصحة وخدمة المياه، وفي ذلك الوقت كانت مدن أهم وأكبر من مادن بدون كهرباء ففكر أخي في إفادة المدينة من الكهرباء، لكن الدوائر العليا أفهمته أن تركيا تخصص مواردها القليلة لإستيراد المواد الضرورية جداً وكرس نافذ كثيراً من وقته للبحث عن مكان مناسب لبناء مشفى لأن المشفى القديم كان مهجوراً وغير ملائم، وأخيراً منح إبن قدري أفندي، الرجل الوطني الذي شنق في دياربكر، منزله الكبير ذي الطوابق الثلاثة لإقامة المشفى الجديد فيه. ووجد أخي معاوناً له هو الممرض المجاز (كمال) المشهور بطول أنفه. أما السيدة (ألف) فقد كانت أرملة جادة متعددة المواهب ثم أصبحت ممرضة. كما إستخدم أخي العريف السابق (علي المجبّر) معاوناً له في معالجة الخلوع والكسور، وكان علي ذا موهبة فريدة وحاسة فطرية في ذلك المجال. وذات يوم خلعت قدمي اليمنى فوضعها علي داخل حلقة من حبل وأدارها حتى عادت القدم الى وضعها الطبيعي فصرخت بقوة لكن بعد ساعات قليلة شعرت بأن الألم يزول وفي اليوم التالي كان الورم قد إختفى تقريباً، وبعد ثلاثة أيام كنت أركض وأقفز كعادتي. وقد ذاع صيت علي المجبر خارج مادن ايضاً. وقد كانت مآثر أعماله كثيرة جداً وشعر جميع أهل مادن بالفرحة لإسناد أخي مهمة طبية اليه.

والى جانب مشاغله كان نافذ يبذل جهده للكشف عن المواهب الخفية بين الكورد ويساعدهم بتعليمهم وتثقيفهم ليشغل كل منهم مكانه الذي يليق به في الحياة العامة، ولم يكن يضيع أية فرصة تتاح أمامه لخدمة بلده وشعبه، وبعد أن إلتزم عمل المشفى مساره المطلوب عزم على

تحسين أوضاع الينابيع وإنشاء عدد إضافي منها، وكانت البعض من الجسور القائمة على الوادي في القسم السفلي من المدينة متداعياً فأمر بترميم تلك الجسور وعمل على بناء جسر جديد. وكان المهندسون والبناؤون والعمال يعملون بهمة ونشاط عندما جمّدت الحكومة القروض، وبعد فترة تغير الوضع فأصبحت مدينتنا مقاطعة بعد أن كانت ولاية، وبأمر من أنقرة أُلغي تكليف رئيس البلدية المنتخب من قبل الشعب في المناطق الكوردية، أما بالنسبة للمدرسة الداخلية المخصصة لأبناء الفلاحين الكورد من أطراف مادن فقد أُلغيت هي الأخرى.

وفي بداية صيف عام ١٩٢٨ غادر أخي مادن ليستقر مجدداً في دياربكر، وكانت تلك ضربة أخرى وجهت الى مادن وأسرتنا، خاصة بالنسبة لأمي التي صدمت بشدة لما حدث، فقد كان حضور أخي وكثرة ضيوفه وولائمه أموراً أنستها مرضها. فقد كانت صحبتها لإبنها الأكبر أفضل دواء لها وخلال تلك الفترة لم نسمع أنها إشتكت من ألم أو مرض. ومع رحيل أخي تغير الوضع إذ عادت أمي الى النحيب والشهيق والإغماء، وبما أن أخي لم يكن موجوداً ليعالجها فقد إستدعينا بأمر خاص طبيباً ألمانياً كان ملحقاً آنذاك بالمستعمرة الألمانية للتقنيين والمهندسين في مناجم مادن، ولما رأيناه، أنا وأختي عفت، قادماً عبر البستان لم نتمالك أنفسنا من الضحك فقد كان ضخماً لدرجة أن الدابة كانت مختفية تحته. وكانت رجلاه تتدليان بإسترخاء وتكنسان الأرض، كان يجلس بشكل غير مريح على السرج ويتأرجح من طرف لآخر بشكل يوحي بأنه سيسقط من على الدابة وكان السائس الذي يرافقه يهرع بين لحظة وأخرى معتقداً أن الطبيب سيسقط ليساعده، ثم ذهبنا لنرحب به فوجدناه يتصبب عرقاً وكانت قطرات العرق تلمع على وجهه المحمر، كان شعره كستنائي اللون وعيناه زرقاوان زرقة السماء وكان يبدو مرحاً طيب الخلق، فرد علينا التحية وهو يبتسم، ولما وجدنا شقراوين تحدث إلينا بالألمانية ولما لم نفهمه سألنا بتركيته الركيكة:

- هل أنتما ألمانيان؟

- كلا نحن من مادن (أجابت عفت بسرعة).

فقال الطبيب الألماني وهو يتأرجح على الحصان الذي لم يسيطر عليه أبداً: حسناً. ثم تأمل أطراف المدينة وصاح فرحاً: عظيم بساتين جميلة! لايمرض الإنسان هنا!

- نعم، نعم (أجابت عفت)، لايجب أن يمرض المرء هنا، لكن والدتنا مريضة جداً وهي بحاجة إليك، أسرع لمشاهدتها وشفائها من فضلك!

- أمرك على رأسي!

ولما وصل الى الدار، أطلق صيحات إعجاب وهو يشعر ببرودة المسبح المظلل، حيث كانت أمي ممددة على أريكة في الإيوان الذي كان ماء النبع يجتازه ليصب في المسبح، توقف الطبيب لحظة على جانب المسبح حائراً وتأمل كل جوانب المكان بسرعة ثم سلم واقترب من

والدتي وفحص نبضها وصدرها وطرح عليها مجموعة أسئلة بلغته التركية التي يصعب فهمها، ثم وصف لها أدوية كان علينا أن نشتريها من دياربكر حيث لم تكن ثمة صيدلية في مادن، لكن ورغم شراء الأدوية واستعمالها حسب إرشادات الطبيب فإن صحة أمي ظلت تتدهور شيئاً فشيئاً، إذ إنقطعت عن تناول الطعام وباتت تحب العزلة ولم تكن لها أمنية غير أن ترى إبنها الأكبر الذي كان مشغولاً بمشاكل إقامته في دياربكر، فلم يكن يستطيع مغادرة تلك المدينة وكان يعتبر شخصاً غير مرغوب فيه من جانب السلطات التركية، والأطباء العاملون معه كانوا يعتبرونه منافساً يجب التغلب عليه.

وبإستثناء الإبن الأكبر لم يكن هناك من يعرف كيف يخدم أمي بدقة وعناية غير جاجو، لذا كانت جاجو الشخص الوحيد الذي تفرح أمي لوجوده الى جانبها، وجزاءً لها منحت أمي كل ما تبقى لديها من جواهر، قبل وفاتها، لجاجو. وأثار ذلك إنزعاج أختي الكبرى، وكانت أمي تقول لها ليس هناك سبب يجعلك تغارين وعليك أن تدركي أن هذه الفتاة تستحق أكثر مما تركت لها، وأتمنى أن يرتب لها والدك في يوم زواجها مهراً يليق بها، فهي من عائلة غير عائلتك. وفي الحقيقة كانت أمي متشددة للغاية مع گلچين التي كانت أحياناً تستبد في معارضتها لأمي.

وطوال صيف عام ١٩٢٨ كانت حالة والدتي الصحية تزداد سوءً، فقد تعرضت لنوبات عنيفة تجعلها في غيبوبة تامة لساعات، وكان جميع أفراد العائلة يعيشون في جو كئيب وقلق، كنا نتحدث معاً بصوت خافت كي لانزعج عزيزتنا المريضة وتزايدت لدينا مشاعر الحب والإحترام التي نكنها لها. وفي ذلك الصيف قطفنا العنب بهدوء وأعددنا المؤن إستعداداً للشتاء، وفي منتصف تشرين الأول غادرنا البستان عائدين الى مادن، حيث نقلت أمي بحذر شديد على نقالة، وفي صباح ٢٠ تشرين الأول تدهورت صحتها بشكل خطير فأبرقنا الى أخي ليعود بأسرع ما يمكن، لكنه كان يرعى مريضاً في مكان بعيد عن دياربكر يجعل وصولنا اليه مستحيلاً. وأتينا بالطبيب الألماني مجدداً لفحص أمي التي كان بصرها شاخصاً فأخرج الطبيب من محفظته محقنة وحقنها بها بهدوء ثم دلك قدميها وبعد دقائق أفاقت أمي وهي تتنفس بصعوبة وتقول:

-آه، نافذ، نافذ.

ثم أغمضت عينيها لتتمتع بسعادتها وهي مقتنعة بأنها تتوجه الى إبنها العزيز، وتابعت قائلة: شكراً لمجيئك يا ولدي! آه، كم أنا سعيدة برؤيتك، بالتحدث إليك ولمسك قبل أن أغادر هذه الدنيا!.

إقترب لأداعبك كما كنت أفعل وأنت صغير، أذكر أنك كنت تحب كثيراً أن أداعب شعرك، وأنك كنت تنام حالما ألمس شعرك وأنت على سريرك، أدنُ يا ولدي.

ولما أحست بأنه ليس ثمة من يجيبها بذلت جهداً كبيراً لترفع رأسها وتنظر حولها محدقة بعينيها، وإنزعجت بشكل رهيب لوجود الطبيب الألماني، وتلعثمت ببعض كلمات الإعتذار والشكر، ثم خارت قواها وسقطت. إرتبك الطبيب الألماني وحاول أن يسلي أمي بالقول:

– يا خانم إبنك صديقي، وقد إستحال عليه القدوم لذا طلب مني أن أحل محله وأعتني بك، لقد فعلت كل ما يسمح به علم الطب الحالي، والذي أريده منك الآن هو أن لاتنهاري، سأحافظ على روحك وسيكون كل شيء على ما يرام.

لقد كان لزيارة الطبيب الألماني وتوصياته تأثير جيد على صحة والدتي، حيث تفتحت شهيتها للطعام بعد أن لم تذقه لأيام، وكانت روح الدعابة قد عادت إليها، وفي الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر بدأ النعاس يغلبها فطلبت إلينا تركها لوحدها، وبقيت الى جانبها أتصفح بهدوء موسوعة للأطفال أرسلها لي أحد أصدقاء العائلة من أسطنبول. فجأة إستيقظت والدتي في الساعة الثانية مذعورة وهي تصرخ: الموت، الموت! إنه هناك على الخزانة. ثم واجهته ومدت يدها الى الخزانة وهي تخاطبه كما لو كانت تتحدث الى شخص ما وتقول بإلحاح:

– كلا، لاتأتي إليّ، دع لي فرصة كي أرى أولادي، ولاسيما نافذ.

ولما رأيت ذلك خرجت مسرعاً وناديت گلچين، عفت، جاجو، عمتي والآخرين، أن تعالوا بسرعة، ماما في حالة سيئة، ودون أن أنتظرهم عدت الى سرير أمي فوجدتها مضطجعة وعيناها شاخصتان وتلفظ كلمات مبهمة، صحت بكل قواي: ماما، ماما، لكنها لم تنتبه لندائي، ثم رأيت فمها يفتح كطائر جريح، ثم تأوهت بشدة وهي تنادي: نافذ، نافذ، نافذ، وتوقفت عن الحركة فألقيت بنفسي عليها باكياً مضطرباً وأنا أقول: لا، لا يا ماما، لاتذهبي، إبقي معنا يا ماما. ولا أدري كم بقيت بين ذراعي والدتي التي كانت قد إنتقلت الى جوار ربها، فجاءت جاجو وسحبتني من بين ذراعيها، وهي تقول: لو بقيت تبكي هكذا فستمرض أنظر الأولاد ينتظرونك ليلعبوا معك، هيا إلحق بهم ولاتفكر في أي شيء. وبدلاً من أن أطيع جاجو، هرعت لأخبر أبي في دار الضيافة حيث صرخت: بابا، بابا، لقد فقدت ماما وأصبحت يتيماً. فشهق أبي وتمتم: يا إلهي، لو أن والدتك ماتت فأنا من سيصبح يتيماً، يتيماً وبائساً حقاً. كانت تلك من بين المرات القليلة التي يوجه فيها الكلام إلي، ودون أن يهتم لي أسرع نحو البيت وهو يشد لحيته ويلطم صدره، ويقول: آه، يا إلهي، لقد ضعت، لقد هلكت، لقد كانت (مينا) دعامة البيت، أفوض أمري إليك، يا إلهي لاتتركني، ساعدني وخذ بيدي. ولما رأيت رد فعل أبي شعرت بالحيرة ولمت نفسي لأني نقلت إلى والدي ذلك الخبر الرهيب، وعلمت أن حزن ذلك الرجل الصارم الوقور على زوجته دليل حبه الكبير لها، ثم نسيت حظي من الشقاء وتلعثمت خائفاً وقلت: لن تبقى لوحدك يا بابا، نحن معك وستهتم گلچين بشؤون البيت. فلمس أبي الهمة في كلامي ذاك وتوقف لحظة ينظر اليّ بعينه اللتين إغرورقتا بالدموع

وإنحنى وقبّل جبهتي وقال: إنها الحكمة نفسها التي تخرج من فمك يا ولدي، لقد إستولى عليّ الإنفعال لكنك أرشدتني الى الحقيقة، كانت أمك رائعة ولكننا لن نستطيع شيئاً أمام القدر يجب أن تستمر الحياة، ولنبذل وسعنا لتكون جنازتها عظيمة ولتبقى ذكراها حية في نفوسنا. ثم تركني أمام المنزل وسارع الى غرفة أمي ثم نزل بعد لحظات وأرسل جمال ليأتي بالطبيب الشرعي، وبعد قليل وصلت إمرأتان مختصتين بغسل الموتى من النساء(١٧). ثم نُقل تابوت أمي الى دار الضيافة ووضع على طاولة في الصالون الكبير وتناوب عليها العشرات من قارئي القرآن يتلون عليها القرآن طوال الليل وحتى الظهيرة من اليوم التالي، حيث تجمع حشد كبير من الناس داخل وخارج دار الضيافة، ولم يُسمح لي أن أرى والدتي ثانية منذ أن أمرتني جاجو بمغادرة غرفتها ولكن قبل أن ترفع الجنازة لتُنقل الى المقبرة إقتربت منها وألقيت نظرة الوداع ثم أبعدني الخدم وأخذوني الى الدار ومن إحدى النوافذ تطلعت الى الخارج فوجدت نعشها يتموج على أكتاف الكثيرين من الذين كانوا يتعجلون تكريم الفقيدة وتقديم التعازي لأسرتنا والفوز بالأجر الإلهي وفق العادات والتقاليد، ثم إختفى موكب الجنازة عند تعرجات الشارع كموج هائج يحمل جثمان سيدة محبوبة ومبجلة تناهز الرابعة والخمسين، وبإختفاء موكب الجنازة تحول بكاء النساء والأطفال الى شهقات وصرخات مؤثرة.

بعد عودة المشيعين بدأت موجات المعزين تتوافد وكل يعبر عن مشاركته الوجدانية لحزننا ويقدم تعازيه. وخلال أسبوع وحسب العرف الكوردي(١٨) تعهد الأقارب والجيران والأصدقاء بتقديم الطعام لنا. بعد رحيل والدتي أصبح والدي كتوماً وأكثر حساسية تجاه آلام الآخرين وكان همه الأساسي إيجاد العوائل الفقيرة والمعوزة وتقديم المساعدة لها، كان يشعر بفرحة غامرة وهو يضع، في الليل، أكياس الدقيق والفاصوليا والبطاطا وقطع الحطب أمام أبوابهم، وكان في بعض الأحيان يحرمنا من بعض الأغذية المألوفة لنا كالزبيب والتين المجفف ليقدمها الى المحتاجين، ولما كان مخزوننا من هذه الأطعمة يشرف على النفاذ فقد حاولت لفت إنتباه والدي الى هذه المسألة، وقلت له: يأكل رفاقي في المدرسة الفواكه المجففة كما كانوا يفعلون في السنوات الماضية، ولاأدري لماذا لم نعد نملك منها شيئاً في هذا الشتاء. فأجابني بنظرة ساخطة ومخيفة: جرار الكيلر مليئة بأنواع مختلفة من الأطعمة اللذيذة، سيطر على أنانيتك وفكر قليلاً بالأطفال الذين يعيشون في فقر مدقع، لقد منحت الزبيب والتين المجفف لمن ليس لديهم من يعيلهم فابتهج بذلك ولاتأتي لتتذمر بهذه السخافات!

هذه الكلمات التي جاءت بلهجة هادئة وقوية أقلقت أفكاري فلجأت الى أختي گلچين لأحتمي بين ذراعيها، أختي التي أصبحت سيدة المنزل كانت تقول لي دوماً أنت هدية والدتنا إلينا فأنت آخر مولود في العائلة سأفعل كل شيء كي لاتنقصك المحبة وتكون سعيداً. إلتزمت گلچين بوعدها فعشت أحلى سنوات طفولتي لعام واحد، وكانت وصايتها عليّ ملائمة حتى بلغت العاشرة وتخرجت من المدرسة الإبتدائية وكان عليّ أن أكمل الدراسة الثانوية في

دياربكر حيث لم تكن في مادن مدرسة ثانوية.

في أيلول غادرت وأنا أبكي كل ما في البيت وأبكي مادن بكل ما فيها لأذهب الى أخي وأعيش معه في دياربكر، ولدى إقامتي هناك تسعة أشهر كتمت ذكرى الأيام المظلمة المجزأة بحالات إنفراج قصيرة. كانت دياربكر حينذاك على شكل جبل صغير محبوسة داخل أسوار عالية وكانت منازلها تشبه الحصون بأحجارها السوداء وشوارعها ضيقة متعرجة، حتى الأفنية الداخلية للبيوت كانت مبلطة بالحجارة السوداء وكانت المدرسة واحدة من الأبنية القليلة التي تقع خارج السور والى جانبها مدرسة دار المعلمين والمشفى الوحيد في المدينة.

كانت الأبنية الثلاثة تشرف على الإنهيار والتداعي وكان دجلة يسيل على بعد بضعة أمتار أسفل الأبنية التي كان مظهرها الخارجي أقل شؤماً من الأبنية الأخرى فقد كانت بيضاء ذات سطوح من القرميد الأحمر. كان الجو داخل المدرسة مضطرباً والتوتر بين أبناء الموظفين، المنحدرين من أصل تركي، وبين أبناء دياربكر وضواحيها شديداً جداً، كانت المدرسة تُخضع الكورد لسياسة التتريك الشاملة فكان يمنع النطق بكلمة كوردي وكذلك التحدث باللغة الكوردية. وفي يوم عبر أحد طلاب السنة الثالثة، ويدعى بحري، عن فكرته بالكوردية فإستدعاه المدير وقال له: ألم نبلغكم أنه يُمنع في تركيا التحدث بغير اللغة التركية وأن إستخدام أية لغة أخرى ممنوع بتاتاً؟

فأجابه بحري قائلاً: أعلم ذلك لكن الكوردية هي لغتي الأم ولن تستطيع قوة في الأرض أن تردعني عن إستخدامها، إنها أقوى مني ولن تحقق قوانين المنع شيئاً بهذا الخصوص. وفي جلسة طارئة قرر مجلس التأديب بالمدرسة فصل بحري من المدرسة فوراً. وكان من المعلمين كورد يدافعون عن الأتراك وتركيتهم أكثر من الأتراك أنفسهم.

كان معلمي المفضل أستاذ التاريخ العجوز الذي كان يحدثنا عن البابليين والآشوريين والفرس والشعوب الأخرى بأسلوب يشبه سرد الرواة وبلهجة تركمانية دياربكرية قوية. أما معلم الرياضيات (تحسين بيگ) فقد كان طويل القامة ضخماً متعجرف المظهر يضع يديه في جيوبه وسيگارته في فمه، وكان يبدو بمظهر الجلاد أكثر من مظهر المدرس، وكان من عادته أن يعطينا مسائل فوق مستوانا ويحرمنا من الإستراحة بين الحصص ومن طعام الغداء اذا لم نتمكن من حل تلك المسائل، وكان يتباهى بكونه من أنصار "التربية الحديثة" التي أدخلها مصطفى كمال في تركيا.

في عام ١٩٣٠، بدأ فصل جديد في حياتي، كان فصلاً حاسماً لعائلتنا والكورد ايضاً، فبناءً على طلب (ممدوح سليم) وهو كوردي من وان، مجاز في الحقوق والعلوم السياسية، أسس البعض من مثقفي تركيا تنظيماً سياسياً في سورية يهدف الى إستقلال كوردستان، وسمي التنظيم "خويبي بوون" أي الإستقلال. وفي السنة نفسها حاول أعضاء هذه الحركة

بالتحالف مع الأرمن العبور الى تركيا وتنظيم حركة مسلحة ضد تركيا.

واستطاعوا إرسال أحدهم، وهو إحسان نوري[١٩]، الذي كان ضابطاً سابقاً في أركان الجيش التركي بجبل أرارات، وكان شاه إيران، الذي كان في خلاف حدودي مع مصطفى كمال في ذلك الحين، قد سمح لإحسان نوري بالعبور عبر إيران الى السفح الغربي من جبال أرارات ليزعج السلطات التركية هناك. وكان نوري قد نجح في جمع عدد كبير من الزعماء الكورد الذين كانوا من ضحايا القمع الكمالي (نسبة الى مصطفى كمال)، وكان الفرنسيون من جانبهم قد وعدوا بتحمل تصرفات "خويبي بوون"، لكن كورد سوريا الذين تولوا مهمة مساعدة نوري على تحرير كوردستان لم يتمكنوا من بلوغ أهدافهم، وقلب الفرنسيون، الذين تصالحوا مع الأتراك، ظهر المجن. أما الشاه رضا الذي أقسم أن يلتزم الحياد بمجرد حل الخلاف الحدودي مع الأتراك فقد سمح للقوات التركية الدخول الى الأراضي الإيرانية لتطويق الكورد من هناك.

ومع سوء الحظ الذي أصاب (خويبي بوون) شعر مصطفى كمال بأنه بات حراً أكثر من أي وقت مضى ليفعل ما يريد ويعاقب الكورد بقسوة، فأحرق مئات القرى في المناطق الغربية من أرارات بسكانها، ونفى الآلاف من الكورد الى غرب تركيا حيث شتتهم ووزع كل خمس أسر في موضع واحد بعيد عن البقية ومنذ ذلك الحين أصبح كل مثقف كوردي يظهر التعاطف مع الحركة الوطنية الكوردية يستحق الضرب من قبل سلطات أنقرة. وتقرر بموجب مرسوم حكومي ترحيل جميع الموظفين الكورد رفيعي المستوى الى المناطق التركية. وسقط الكثير من الكورد الذين كانوا يمارسون الأعمال الحرة ضحايا لهذه السياسة. وأصبح أخي الأكبر العدو اللدود للسلطات التركية.

في ذلك العصر كانت كوردستان تركيا كأي بلد محتل آخر خاضعاً لإدارة خاصة، واتخذ المندوب السامي المرتبط بمصطفى كمال مباشرة من دياربكر مقراً له، وكان يدعى إبراهيم تالي وكان طبيباً وصديقاً شخصياً لمصطفى كمال وينتمي بإندفاع الى الأيديولوجيا الطورانية رغم كونه ينحدر من عائلة درزية من منطقة حلب. كان لايرحم أي كوردي يظهر مشاعر كوردية، وكان تحدث أي مثقف كوردي بلغته الأم أو الغناء بها أو الإصغاء للموسيقى الكوردية أو عدم الإنتماء الى "الأسرة التركية" كافياً لإتهام ذلك الشخص على الفور بأنه عدو للتركية أو قومي كوردي خطير يجب إقصاؤه في أقرب وقت. وقد نقل من بين من نقل موظفان من مادن، هما شوكت زلفي الذي درسني اللغة الفرنسية في ثانوية دياربكر وعارف عباس الذي كان مهندساً زراعياً ومديراً للشؤون الزراعية في جنوب شرق تركيا، الى غرب تركيا، وهما من أصدقاء والدي المقربين فقد نقل شوكت زلفي الى أدنه وعارف عباس الى أنقرة. وبما أنهما كانا موظفين فقد أرغما على الخضوع للأمر الصادر من وزارتيهما المعنيتين. كما هاج إبراهيم تالي على أخي واقترح عليه مغادرة دياربكر الى غرب تركيا، وقال له: سوف أعينك في منصب رائع في أية مدينة تختارها هناك. لكن أخي رفض ذلك وحاول إقناعه بأن بقاءه أفضل

له من المغادرة. فقال له تالي: إنها نصيحة أسديها اليك.

كان أخي حينها يسكن بيتاً كبيراً في دياربكر ذا باحة داخلية واسعة وبابين للدخول يطلان على شارعين متقاطعين. وبعد أيام قليلة من مقابلة المندوب السامي وضع شرطيان أمام بابي المنزل يترصدان ويتفحصان هوية كل من يزورنا، وكانا يحاولان صرف المرضى عن السعي لتلقي العلاج عند أخي، ويقولان لهم: لماذا تأتون الى هذا الطبيب ولاتذهبون الى طبيب آخر؟ فيجيب المرضى بأنه طبيب ماهر. وكان رجال الشرطة يلجأون الى التهديد ويقولون:

– حتى لو كان كذلك، لاتذهبوا اليه للمعالجة أبداً لأن الذهاب مجازفة بجلب الهموم لأنفسكم.

لكن ذلك لم يردع المرضى الذين ظلوا يراجعون أخي ويستدعونه للإستشارة. ولما كان أخي يتفقد أسر المرضى كانت الشرطة تتعقب أثره ويتم تسجيل إسم كل من يدعوه للإستشارة، وكان ذلك يزعج الناس أكثر من إخافتهم. لذا لجأت السلطات الى إجراءات أكثر وحشية حيث تم إعتقال العديد من المرضى وإستجوابهم لفترات طويلة وإجبارهم على التوقيع على تعهد بتغيير طبيبهم الخاص بهم. فكتب أخي رسالة الى سلطات أنقرة لإبلاغها بعدم شرعية الإجراءات تلك والإحتجاج على إنتهاك حرمة الدستور الجمهوري والحقوق الأساسية للإنسان، لكنه لم يلق أي جواب وإستمرت الإجراءات ضد مرضاه.

وبما أن الموقف كان يتكرر يومياً وبإستمرار فلم يكن بد من إختيار أحد أمرين إما الرد بالموافقة على مقترح إبراهيم تالي أو الفرار واللجوء الى دولة أخرى، وكانت سورية[٢٠] هي البلد الأقرب والأكثر ترحيباً.

لم يُعد الفرنسيون السلام الى منطقة الجزيرة التي تسكنها غالبية الكورد الحضريين، وإنما كانوا يَشجعون جميع معارضي النظام الكمالي بالمجيء إليها والإستقرار فيها وإستثمار أراضيها الغنية التي ظلت بوراً، فجاء عشرات الآلاف من الكورد والأرمن والكلدان والسريان واليهود الكورد الى أرض أجدادهم في المنطقة، بأموالهم وعلومهم، وكانت بضع سنوات فقط كفيلة بأن يجعلوا من الجزيرة كاليفورنيا سورية...

كان العرض الفرنسي مغرياً، لكن ما هي الحجة التي تمكن أخي من مغادرة تركيا والتنعم في بلد حملت إليه فرنسا الحرية والديمقراطية؟ بعد مناقشات طويلة مع صديقيه عارف عباس وشوكت زلفي حول فكرة الإستقرار في سورية، بدت الفكرة مغرية وعزم أخي على إجتياز الحدود وطلب حق اللجوء من الفرنسيين، وكان يفكر في تنفيذ مشروعه عندما بعث في طلبه المندوب السامي ليبلغه بأمر ترحيله بالقول:

– لايمكنك البقاء هنا أبداً، وإن كنت لاتريد أن تجلب لنفسك الهموم فغادر المناطق الكوردية من تلقاء نفسك.

– حسناً، أعطني منصباً في غرب تركيا وسأذهب الى هناك.

في اليوم التالي غادر أخي وأصدقاؤه الى إزمير مطيعين المندوب السامي لأنهم كانوا يتمنون إجتياز الحدود من هناك والتنعم بالحرية. أما أنا فقد كنت في العاشرة والنصف من العمر، ولم أكن مطلعاً على خططهم، وكنت أعلم من الموضوع ما يتعلق بنقلي الى مدرسة في أسطنبول فقط، وكنت أتساءل لماذا يبكي أخي ريزو؟ لكن مع مغادرة أخي الأكبر توقعت أن يحدث شيء غريب، لكن لم أستطع توقعه أو تقدير أهمية ما سيحدث. بعد بضعة أيام إلتقينا في قطار يتجه الى أسطنبول على الخط الحديدي الذي يمثل الحدود مع سورية، كان أخي وأصدقاؤه يختصرون الكلام بشكل غريب، أما أنا فكنت ألصق أنفي بالنافذة وأتأمل المناظر الجميلة وكأنني أدخل في عالم آخر. والرجال الذين كنت ألمحهم من بعيد يرتدون الطرابيش والكوفية والعقال، وهي ملابس غريبة عني، منعها أتاتورك ولم أكن أتلذذ بالنظر في وجوه أولئك الرجال الغرباء. أخيراً عند حلول الليل توقف القطار في إحدى المحطات وأوصلنا رئيس المحطة الأرمني الى المقصف حيث تبادل مع أخي وأصدقائه الحديث عن مؤامرة غامضة، وتنبأت بأنه يحيك مخاطرة تافهة دون أن أدرك كنه كل تلك الهمسات. ثم سألتني زوجة عارف عباس، التي لم تكن تشارك في الحديث:

– نورالدين، الى أين أنت ذاهب؟

– أنا؟ أنا ذاهب الى أسطنبول (أجبتها بهدوء وأنا أتناول شراب الليمون).

– آه، حسناً لقد وصلنا الى أسطنبول (قالت ذلك وهي تضحك بإضطراب). ثم إنفجرت في البكاء، وأنا ايضاً إنضممت اليها في البكاء لأني كنت قد أدركت من خلال ما سمعت من حديث أخي مع رئيس المحطة، أننا لم نصل الى أطراف أسطنبول بل الى القرب من حلب في سورية، فغضبت وقلت:

– كيف سنذهب الى أسطنبول وأنتم لاتذهبون اليها؟ أيها الكذابون، أنا أريد العودة الى المنزل! حاول أخي أن يقنعني ويخفف عني، فقال:

– ولكن سأضعك هنا في أفضل المدارس الفرنسية، وستتعلم اللغات وتتثقف وتصبح رجلاً!

لكنني لم أقتنع بما قاله قط، وشعرت بالحنان الى مادن والى بوزو والى حقلنا، وكنت حزيناً على أشجارنا وكرومنا وأبي[٢١] وشقيقاتي وأخي ريزو. والى جانبي زاد بكاء زوجة عارف شدة، وبعد بضع دقائق وبإشارة من الرجل الأرمني نُقلنا الى باص صغير متجه الى حلب التي وصلنا اليها في منتصف الليل، ولاأعرف كيف تمكنت من النوم ليلتها، وفي اليوم التالي أسمعني عارف من جهاز تسجيل كان معه أغنية نصفها بالتركية والنصف الآخر بالكوردية الممنوعة في تركيا، تقول الأغنية: "أيها الكورد الشجعان هذا يومكم، إسحقوا العدو، أطردوه من موطنكم" وبسماعي الأغنية نسيت ما كان بي من حزن وبدأت أردد الأغنية.

2

سورية

حلب ودمشق والجزيرة

- ظروف كورد سورية تحت الإنتداب الفرنسي
- نهضة القومية
- حياة كورد الجزيرة
- الصراع اليومي لطبيب كوردي ضد المشعوذين والجهل والمرض
- أولى النشاطات القومية الكوردية
- تسلل من قطار سائر عبر الأراضي التركية الى الأراضي السورية
- تجربة الزراعة

كانت مدينة حلب بلا ريب أقل جمالاً من مادن، فكانت تعوزها الأشجار والأنهار والخضرة وبوزو. إلا أن الحركة فيها كانت متاحة للكورد على نطاق واسع، فكان يحق لنا أن نغني ونصغي الى الألحان التي كانت ممنوعة في تركيا. وشيئاً فشيئاً رضخت للأمر الواقع واعتدت على جو حلب واعجبت بها، وكانت هيئة ملابس الناس في الشوارع تدهشني، فالبعض يرتدون أثواباً وآخرون يلبسون بناطيل فضفاضة مع عمامات متنوعة وأحذية حمراء ذات أطراف مقلوبة، ولقد أثارني تجمع الناس بأزياء مبرقشة في ساحة الفرج، وكان الباعة المتجولون يصيحون ليروجوا بضائعهم وكان العتالون يطلقون صيحات ليفسح الناس الطريق أمامهم، وكان سائقو العربات يحثون جيادهم على السير بضربها بالسياط. كان ذلك عالماً جديداً بالنسبة إليّ، وكانت أروع مفاجأة إكتشافي لشوارع حلب المعبدة، فلما إجتزت أحدها لم أستطع تمالك نفسي، وصرخت قائلاً:

– هذه مدينة للدراجات الهوائية! وبعد ذلك قضيت معظم أيامي أسير في شوارع حلب، وفي المساء كنت أرافق أخي وأصدقاءه ولم تكن نظراتهم القلقة تفوتني، لكنني كنت أجهل مصدر همهم. لقد كنا في بلد ننعم فيه بالحرية، دون أن نُلاحق أو نُعذب كما كان الحال في تركيا. وكنت أعتقد أن هذه هي الحياة الجميلة، وربما سنعيشها بأمان وإطمئنان، لكن الواقع لم يكن كذلك أبداً. فما أن وصل أخي وأصدقاؤه الى حلب حتى سارعوا الى مطالبة الفرنسيين بمنحهم حق اللجوء السياسي، ولم يكن لديهم أدنى شك في إستقبال فرنسا لهم بصدر رحب

وتقديم كافة التسهيلات لهم للإستقرار في سورية، وأن السلطة المنتدبة، التي يتخذ مندوبها السامي من بيروت مقراً له، سوف تساعدنا في مواصلة النضال لتحرير الشعب الكوردي. لكن السياسة الفرنسية تجاه الكورد كانت تتغير بإستمرار وفقاً لنوع العلاقة بين فرنسا وتركيا وكنا نحن نجهل ذلك.

بعد أسبوع من الإجراءات والمعاملات جاء الرد عجيباً ومخيفاً، وهو: يرفض المندوب السامي منحنا حق اللجوء السياسي، وقرر تسليمنا الى الأتراك "من أجل تعزيز العلاقات الطيبة بين الدولتين". فقد كانت أنقرة تطلب تسليم المجرمين إليها، وكان أخي يقول:

– كيف يمكن لسياسة دولة عظمى أن تسقط الى الهاوية وتراوح في مكانها بشأن المباديء الإنسانية المعروفة والمحترمة دولياً؟ لقد خدعتنا الإشاعات ووصف فرنسا بأنها أم الحرية والمساواة والأخوة. وكان أصدقاؤنا يتساءلون:

– ماذا سيفعل الفرنسيون بنا؟ هل سيجرؤون فعلاً على طردنا؟ فأجاب أخي:

– هناك قوانين دولية تحظر تسليم اللاجئين السياسيين.

هذا التهديد بالطرد أثر علينا لدرجة شديدة، وتدخل كورد سورية يساندهم الأرمن لصالحنا لدى المفوضية العليا الفرنسية. وأخيراً، إقتنع الفرنسيون بأن مغادرتنا لتركيا كانت لأسباب سياسية فسمحوا لنا بالبقاء في سورية. واستطعنا هذه المرة التمتع بحريتنا الى حد بعيد. لكن كان علينا أن نجد وسيلة لكسب قوتنا وكان وزير الصحة يرفض طلب أخي ممارسة مهنته في سورية، وكان أخي قد أكمل الدراسة الجامعية في أسطنبول ودمشق في عهد الإمبراطورية العثمانية (وكانت شهادته تؤكد أنه يستطيع ممارسة مهنة الطب في كل الإمبراطورية العثمانية ومن ضمنها سورية)، ألزم أخي بخوض إمتحان جديد، فرأيته ينفرد في غرفته عدة أيام يراجع المراجع التي أحضرها معه من تركيا ثم نجح في الإمتحان وحصل على إذن بالسماح له بفتح عيادة في أية منطقة من سورية. وبعد إستشارة أصدقائه الكورد والأرمن عزم أخي على فتح عيادة في حلب ووجد شقة في شارع الخندق، الشريان الرئيسي للمدينة، وعلق على مدخلها لوحة كبيرة كتب عليها إسمه وتخصصه "الأمراض الزهرية والأطفال" وتشير اللوحة ايضاً أن الكشف في العيادة سيكون مجانياً نصف نهار من يومي الجمعة والأحد بهدف مساعدة الفقراء، وأستأجرت عائلتنا منزلاً، أما أنا ولكوني تلميذاً داخلياً فقد أدخلت مدرسة (الأرض المقدسة) وهي مدرسة فرنسية يديرها الفرنسيسكان، الرهبان الفرنسيون، واشتهرت بأنها أفضل مدرسة في المدينة.

كان الدير القديم لمدرسة الأرض المقدسة يقع وسط السوق، وكان ديراً ومدرسة في آن واحد، ولكي يصل المرء اليه كان عليه المرور في العديد من الأزقة الضيقة المتعرجة ويجتاز الأسواق المغلقة والمكشوفة، وكان مبنى الدير يعود الى القرون الوسطى ويشبه سجناً قديماً، وقاعات

الدرس تقع في السراديب المظلمة. وفي الصباح كنا نرتشف قدحاً من الشاي مع قطعة من الخبز في قاعة الطعام، وعند الظهر والمساء كانوا يقدمون لنا معكرونة مغمورة بمرق عجيني فيه بعض القطع من اللحم المدهون، وكانت أول نظرة الى تلك الأطباق تفقدني شهيتي، في حين أن رفاقي كانوا يتدافعون على المائدة، فسألتهم:

– كيف تستطيعون تناول مثل هذه الأطعمة المنتنة؟

– حين تمضي شهوراً وسنوات هنا ستفعل مثلما نفعل.

– لا أعتقد أني سأكمل الشهر هنا.

لم يكن الطعام الشيء الوحيد الذي ينفرني من مدرسة الأرض المقدسة، بل كانت المدرسة كلها مصدر إزعاج لي، وبما أنني لم أكن أعرف الفرنسية فقد وضعت في صف تحضيري بين أطفال في الثامنة والتاسعة حيث كان عليّ أن أتلقى الدروس الأولية المقرفة من جمع وطرح وما شابه بهدف تقوية لغتي الفرنسية تحت إشراف معلم حلبي قديم يتكلم الفرنسية بصوت أجش غليظ وبلهجة حلبية. كنت أشعر بأني أضيّع وقتي. كما أني أصبحت ضحية مشرف المدرسة الأخ هنري ذي القامة الطويلة واللحية البيضاء الكثيفة والعصا الأسطورية التي تخيف تلاميذ المدرسة، وكان يجلد التلاميذ لأسباب تافهة حتى يدمي أقدامهم. وذات مساء وبينما كنا بالقرب منه ظهر وكأنه سمع شيئاً فرمى عصاه بإتجاهي وأصابني وسط ظهري وشعرت بأني قد جرحت فأطلقت صرخة أوقفت سير التلاميذ فصاح الأخ هنري بصوته الأجش وهو يلوّح بعصاه:

– تقدموا. لم يجرؤ أحد على محاولة معرفة ما يجري وتوجه الجميع الى فراشهم، أما أنا فقد كنت مشوش الفكر لأني لم أعتد على الضرب في المدرسة، فطوال حياتي المدرسية السابقة لم أتلقّ غير صفعتين من معلم الرسم في الصف الثالث الإبتدائي، الذي كان يكنى بعديم الإصبع فقد كانت سبابته مبتورة، فصفعني ذات يوم وأنا أرسم على السبورة، وبعد بضعة أيام كرر عديم الإصبع فعلته في باحة المدرسة، فعدت الى البيت على الفور ووجدت أمي في المطبخ وقلت لها باكياً:

– يجب أن تحموني من المعلم عديم الإصبع وإلا فسيقتلني يوماً، لاأدري ما الذي يريده مني، فهذه هي المرة الثانية التي يضربني فيها بلاسبب، إنه يحقد عليّ.

وبعد أن أصغت إليّ بهدوء صعدت الى غرفة والدي الذي نزل بسرعة معبراً عن سخطه، وهو يقول:

– آه، يريد أن ينتقم من ولدي لأنني رفضت أن أشتري منه اللوحة التي أراد أن يبيعها لي، سأريه كيف يربى المربون!

بهذه الكلمات أخذ بيدي وطلب مني مرافقته الى المدرسة حيث دخل مكتب المدير مباشرة

وطلب منه إستدعاء عديم الإصبع على الفور، فأجابه المدير بلهجة التوسل:

- إهدأ يا أفندي، إهدأ، ما الأمر؟

- لقد ربّيت أولاداً آخرين دون ضرب، واليوم يجعلهم الناس عبرة لغيرهم، بأي حق ولماذا تهجّم عديم الإصبع على ولدي؟ أريد أن يأتي ويبرر موقفه ويقدم معاذيره لإبني.

- لاأعلم ما المقصود يا أفندي، هدّيء من روعك وأخبرني ماذا جرى لإبنك.

فطلب والدي أن أروي للمدير مشاكلي مع معلم الرسم، فأصغى المدير إليّ ثم سأل والدي إن كان يعرف عديم الإصبع شخصياً.

- أعرفه معرفة سطحية منذ فترة، لكن يجب أن أخبرك بأني لم أره منذ اليوم الذي رفضت أن أشتري منه لوحته.

- آه، هذا هو مفتاح اللغز (صاح المدير متعجباً). إن عديم الإصبع فنان موهوب وجاد في الأمور، لكنه يدعي الكمال في كل ما يفعل ويكفي أن يُرفض له عمل ليشعر بأنه شُتم وانتقص منه وأهين، وسيحاول الأخذ بالثأر بطريقة ما ودون وعي، وبما أنه لم يستطع فعل شيء معك فقد تهجم على إبنك. إني أعرف طبعه المتشكك ولاأعتقد أن من الحكمة إستدعاؤه الى هنا. لكن أؤكد لك أنه من الآن فصاعداً سيتصرف بأحسن ما يكون مع ولدك. قبل أبي إقتراح المدير، وفعلاً أصبح عديم الإصبع كالحمل الوديع في تعامله معي. وبعد عام طلب نقله من المدرسة.

في تلك الليلة التي ضربني فيها الأخ هنري بالعصا تذكرت حادثة عديم الإصبع وبكيت، وكم تمنيت البقاء بالقرب من أبي كي يهب لنجدتي ويلقن هذا المربي درساً في التربية. لكن من المؤسف أني كنت سجيناً في مدرسة بعيداً عن مادن، وكان أبي بعيداً عني مئات الكيلومترات. وفي اليوم التالي أغاظني لامبالاة التلاميذ، فلم يأت أحد منهم ليسألني عن سبب صرختي بالأمس. كان معي تلاميذ كورد لكنهم تعربوا الى حد بعيد، وكان أحد أولئك حفيد إبراهيم باشا ملّي الرجل الشهير الذي إنتصر لعشائر الشمّر وكان يسخر مني كلما أعلنت له بفخر وإعتزاز عن هويتي الكوردية. وكان من بين أصدقائي تلميذ يكبرني سناً إسمه طلعت وكان ينحدر من أسرة كوردية معروفة في قامشلي، لكن سنوات دراسته في أسطنبول جعلته متأثراً بالأيديولوجيا الكمالية ومنذ ذلك الحين كان يرفض التنازل والإعتراف بأنه كوردي، لكنه رغم ذلك ساعدني كثيراً في تعلم الفرنسية، ولما حدثته عن حقيقة حادث الأمس هز كتفيه، وقال:

- لاتقلق لذلك فالكل هنا يمر بتلك المرحلة خاصة مع الأخ هنري.

- لكني لاأستطيع القبول بأن أضرب لاسيما اذا كان الضرب بلاسبب. (قلتها صارخاً والدموع تملأ مقلتي)

- آه، ستعتاد ذلك كبقية الطلاب.

بعد بضعة أيام، وعلى نفس الدرج، تحدث طفل أمامي، وبسرعة النسر المتربص جلدني الأخ هنري في ظهري فرفعت بصري نحوه محاولاً الإحتجاج، قائلاً:

- لست أنا، لست أنا...

فصرخ مهدداً بعصاه: إخرس وتقدم.

سكتت وتابعت السير وأنا أتأوه، وفي تلك الليلة كان يستحيل عليّ النوم. فتوسلت الى الله أن يساعدني على الخروج من هذا الجحيم في أسرع وقت، وكنت أحسب أني سأرى أخي وأخبره بشقائي، لكنه لم يأت، فسألت طلعت أن يعلمني هذه الجملة بالفرنسية: "مساء أمس ضربني الأخ هنري وهو يقودنا الى قاعة المنام"، حفظت الجملة عن ظهر قلب وذهبت الى غرفة المدير فقرعت الباب ودخلت فابتسم المدير وأصغى إليّ وأنا أتكلم، فقال مندهشاً للمدرس العلماني: ماذا يقول؟ فأعدت قراءة الجملة ببطء، حينها قال لي المدير وهو يراقبني من وراء نظارته المذهّبة: حسناً سأنظر في الموضوع.

نزلت وقد خف عني الألم، لأني أنجزت المهمة التي كنت أخطط لها. ومنذ ذلك اليوم تخلصت من ضربات الأخ هنري الذي ظل مع ذلك يحدق فيّ بنظرة ملؤها العداء، لكن المدرسة لم تصبح أكثر متعة من السابق. ففي أيام الأحد كان علينا الخروج على شكل أرتال كالجنود يرافقنا الرهبان، كنا نسير ثلاثة ثلاثة وعلى رؤوسنا قبعات تحمل شارات مذهبة نرتدي زياً موحداً ذا لون كحلي، لكن تلك النزهات لم تكن لتثير حماسي حيث أني لم أكن أعرف الفرنسية ولا العربية ولم يكن معي رفيق إعتاد على النزهة على ظهر الحصان أو الدراجة الهوائية. ومن حسن حظي أني تلقيت في الأسبوع الثالث زيارة من أخي ورفيقه شوكت زلفي، وما إن رأيتهما حتى إنفجرت باكياً، فسألني أخي قلقاً:

- ما الذي يجري؟

تلعثمت وقلت له من خلال دموعي: لاأريد البقاء هنا كتلميذ داخلي.

حاول زلفي التخفيف عني بالقول: لكنك في أفضل مدرسة بحلب، وكان الهدف من ضمك الى هذه المدرسة أن تتعلم الفرنسية بسرعة، وأن لاتضيع الكثير من الوقت لتصبح مؤهلاً للإنضمام الى الصف الدراسي الذي يعادل مستوى تحصيلك.

توسلت إليهم بالقول: لايمكن أن يتعلم المرء شيئاً في مدرسة يتعرض فيها للتجويع والضرب المستمرين ويدرس مع تلاميذ الصف الأول الإبتدائي. أخرجوني من هنا رجاءً وإلا سأهرب.

فإقترح عليّ أخي:

- إبق على الأقل حتى نهاية هذا الفصل، وسنبدأ من الآن في البحث عن مدرسة أخرى لك.

رغم ذلك لم تكف دموعي، وتابع أخي كلامه بلهجة حلوة ولكن حازمة:

- هيا، إصبر بضعة أسابيع أخرى، وستتعلم اللغة شيئاً فشيئاً وتعتاد على محيطك الجديد. وانظر الى كل هذه الهدايا التي أحضرناها لك وسنعود بطرود جديدة منها في الأسبوع القادم، إمسح دموعك وعد الى كتبك!

بعد بضعة أيام أصابتني نزلة معوية بسبب برودة المهجع غير المدفأ، وفي الليل عانيت آلاماً شديدة تصحبها حمى، وكان الشيء الوحيد الذي استطعت القيام به الهبوط من المهجع عدة مرات والذهاب الى المرحاض المنتن الموجود في باحة المدرسة الأمر الذي زاد من ألمي وعذابي، وفي الصباح رفضت بإصرار الخروج من السرير وطلبت طبيباً، فلاحظ الأخ الممرض أن حرارتي بلغت أربعين درجة فذهب مسرعاً ليبحث لي عن شراب من تحضيره وأوصاني بأن أشرب منه ثلاثة فناجين يومياً.

حثني توعك صحتي والخوف من تفاقمها والشروط السائدة في مدرسة الأرض المقدسة على الفرار، وكان المخرج الوحيد هو الباب الكبير، لكن كلما سنحت لي الفرصة للذهاب الى هناك وجدت الحراسة قائمة، فخطرت لي فكرة التجوال في أرجاء المدرسة للتعرف على كل مكان، وكم كانت فرحتي عظيمة عندما وجدت أحد مصراعي البوابة الكبيرة مفتوحاً ولاأثر للبواب، فقلت في نفسي:

- لقد تهافت الجميع على الطعام وعلى أقداح الشاي.

نزلت من الدرج بهدوء متجهاً الى الحرية، ثم وصلت الى الشارع دون أن يطاردني أحد، كما لم يهتم بي أحد من المارة! إبتعدت عن المدرسة شيئاً فشيئاً لأختفي وأصبح مجهولاً تماماً بين الجماهير في الأسواق المزدحمة. بعد قليل صعدت بهمة الدرج المؤدي الى شقة أخي ودخلت غرفة الإنتظار فوجدت فيها ممرضة، هي فتاة أرمنية كانت تعمل معه في دياربكر، وبما أن الغرفة كانت مظلمة فقد أدارت قاطع التيار الكهربائي وتفرست في وجهي، ثم قالت:

- إنك تبدو شاحباً ومنهكاً جداً، ما الذي أصابك في تلك المدرسة؟ أخبرني بسرعة يا صغيري!

- آه، ما من خطر، لقد أصابني البرد منذ عدة أيام.

- لاتقلق، سوف يشفيك أخوك فوراً. في هذه الأثناء دخل أخي علينا فاندهش وقال:

- كيف حدث هذا، ألم تكن في المدرسة، ألسنا في وسط الأسبوع؟

- أنا مريض منذ بضعة أيام، وبما أنهم لم يعالجوني جيداً في المدرسة فقد هربت.

- هكذا وتتجرأ ببساطة على القول بأنك هربت، إذن فاشرح لي ذلك!

بعد أن سمع أخي قصتي طلب إليّ العودة الى المدرسة فوراً، فقلت له:

- يجب أولاً أن تعالجني قبل أن ترغمني على العودة الى المدرسة. فقالت الممرضة:

- هذا صحيح، إن الطفل يتألم. وبينما توجهت الممرضة الى "الأرض المقدسة" تولى أخي معاينتي وكتب لي وصفة مركبة ثم ذهب الى الصيدلية ليركب لي الدواء بنفسه، ولدى عودته أعطاني من الشراب وأمرني بالذهاب الى السرير وأجبرني على تناول الشاي والرز بلا سمن. بعد ساعة عادت الممرضة وأخبرتنا عن إضطراب وقلق المدير.

أجري تحقيق لتحديد الأسباب الحقيقية لهروبي، وتعرض الأخ هنري والبواب الى عقوبات شديدة. ولما شفيت تماماً أمرني أخي بالعودة الى المدرسة كتلميذ داخلي فرفضت ذلك، مما أضطر أخي الى الذهاب للمدرسة مع صديقيه المادنيين ليشرحا وضعي لمدير المدرسة الذي إستجاب لطلبي لكنه تجنب دفع المبلغ المخصص للتلميذ الداخلي، وكان على أخي أن يهتم بي ليس في التعليم فقط بل في أوقات فراغي ايضاً، ولحسن الحظ لم يدم ذلك طويلاً فبعد شهر، وبإلحاح من الكورد في دمشق، قرر أخي مغادرة حلب والإستقرار في دمشق. وكان ثمة عامل آخر دفعه لهذا الإختيار وهو الحالة البائسة التي كان عارف عباس وشوكت زلفي يعانيانها بسبب من البطالة، حيث لم يجدا عملاً في حلب.

في ذلك الوقت ولحسن الحظ لم تكن تكاليف الحياة في سورية باهضة، وكانت الليرة السورية المضمونة من المصرف الفرنسي تساوي مائة قرش (أو عشرين فرنكاً) وكان الكيلوغرام الواحد من اللحم بإثني عشر قرشاً والخبز بثلاثة قروش والسكر بأربعة والرز بخمسة قروش، وكان معدل دخل العامل يتراوح بين ١٥ و٣٠ قرشاً في اليوم وكان راتب الموظف يتراوح بين عشرة الى خمس عشرة ليرة شهرياً وكان سعر الفحص عند الطبيب خمسين قرشاً، وكانت أعلى الرواتب هي رواتب الضباط السوريين في جيوش بلاد المشرق (وهي قوات مؤلفة من السكان الأصليين والمتطوعين من لبنان وسورية في عهد المفوضية العليا الفرنسية) حيث كان راتب الملازم الأول مائة ليرة شهرياً.

مع ذلك كله كانت النقود نادرة ويصعب الحصول عليها وقد كنا في الثلاثينيات نعاني أزمة حقيقية وكانت الأغلبية الساحقة من السكان من الفلاحين، والبورجوازية الإقطاعية لاتزال قائمة وتندر المصانع الضخمة. وقد وجدت الصناعات الحرفية العريقة صعوبة بالغة في منافسة المنتجات الأجنبية وتحول الكثير من الحرفيين الى عاطلين عن العمل.

كان القوميون السوريون والمقتصدون يقاومون السياسة الفرنسية بعنف، حيث كانت تلك السياسة تهدف الى تحويل سورية الى سوق للمنتجات الفرنسية، وكان سكان المدن الكبرى يعبرون عن معارضتهم بقيادة الجبهة القومية ويعلنون المعارضة غالباً لسياسة السلطة المنتدبة من خلال إغلاق مخازنهم وإيقاف كل نشاط إنتاجي وكافة وسائل النقل العام. وذات صباح في نهاية كانون الأول ١٩٣٠ ركبنا القطار متجهين الى (شاما شريف - أي دمشق المكرمة

حسب التسمية العثمانية) كانت الرحلة بمثابة حلم فرأيت أعمدة بعلبك العملاقة وشاهدت ايضاً وجه نظام الدين كيبار[٢٢] وهو عم ممدوح سليم الذي إستقبلنا في محطة دمشق، وسمعت أصوات حوافر الخيول التي تجر العربة التي أقلتنا الى الحي الكوردي، كان الوقت آنذاك يقترب من منتصف الليل. وهكذا وبعد كوردستان تركيا وحلب ستفتح أمامنا صفحة جديدة...

في الغداة وجدت أننا في منزل كبير وقديم تحيطه البساتين قرب نهر صغير، كان المنزل لرجل كوردي شريف هو علي آغا زلفو، كان رجلاً طويل القامة أشقر ذا عينين زرقاوين وحاجبين عريضين. وكان أحد الزعماء الكورد في دمشق، وكان المنزل يقع في الحي الكوردي[٢٣] على جبل قاسيون شمال شرق المدينة. وكان عدد سكان الحي في ذلك الحين يبلغ أربعين ألفاً، ولم يكن الساكنون في المنطقة الممتدة من الشرق حتى جسر النحاس يتكلمون غير اللغة الكوردية، ومن جسر النحاس الى ساحة شمدين آغا كانوا يعرفون الكوردية والعربية ويفضلون التحدث بالعربية، ومن شمدين آغا الى الشيخ محي الدين كان الناس الذين يفتخرون بأنهم كورد قد نسوا لغتهم تماماً ولايعرفون غير العربية. كان منزل علي آغا زلفو يقع بعد جسر النحاس أي في القطاع الذي ظل كوردياً بشكل رسمي. ولدى وصولنا كان الصالون يعج بالناس من المنفيين الكورد وعدد كبير من وجهاء الحي وضحايا السياسة الفرنسية ومن قبلها التركية، ومن بين الذين عرفناهم محمد وأكرم وقادر أبناء جميل باشا وهم من دياربكر وكانوا قد لجأوا الى سورية قبلنا ببضع سنوات. وعرفنا ايضاً حاجو آغا زعيم قبيلة (هرڤيكان) في كوردستان تركيا ومعه أبناؤه حسن وجميل وچاچان، وعرفنا ايضاً الأمير جلادت بدرخان[٢٤] وكان طويل القامة ذا لحية صغيرة ينحدر من سلالة أمراء الإمارة الكوردية الأخيرة في جزيرة بوتان بكوردستان تركيا.

كنا نبيت في الجناح الخاص بالضيوف وكان حاجو يسكن الجناح المجاور لنا والذي كان أصلاً مخصصاً لسكن أسرة علي آغا زلفو، وكان الخدم يجهزون الطعام لكافة المنفيين، وكان علي آغا ووجهاء الحي ينضمون الينا كل مساء في قاعة الضيوف حيث يحتسون القهوة أو الشاي ويتناولون الملبس الدمشقي ويأكلون الفواكه، ويتجاذبون أطراف الحديث عن علم اللغة والسياسة والفلسفة وعن موقف الفرنسيين من الكورد والأتراك والعرب.

خلال تلك الأمسيات الطويلة تيقظت الى الفكرة القومية الكوردية وبدأت أتعلم اللغة الكوردية من جديد وأنا أثور ضد الظلم الذي يلحق بشعبي، وخلال شهر دنوت من الكورد الرائعين ليلاً ونهاراً، حيث كان أحفاد الأمراء والباشوات والبورجوازية العليا والإقطاع الكوردي التقليدي يأكلون ويشربون جنباً الى جنب، وكان البعض منهم قد أكمل الدراسات العليا وطاف أنحاء العالم. وخاض البعض الآخر المخاطرات واللحظات المأساوية في السجون وأمام المحاكم التركية. ورأيت من بينهم حمزة بيگ من مدينة ميكس وهو كوردي من تركيا

كان قد أمضى عشر سنوات في السجن لنشره مؤلفات الشاعر الكوردي القومي العظيم أحمدي خاني، وهو شاعر من القرن السابع عشر، ورأيت ايضاً الأخوين أكرم وقدري جميل باشا(٢٥) اللذين كانا يدرسان في جامعات سويسرية لما دعتهما الإمبراطورية العثمانية للتجنيد الإجباري.

أما أغرب المنفيين فقد كان حاجو آغا وكان طويل القامة ذا بشرة نقية وعينين زرقاوين وحركات متزنة ووقورة، ينحدر من أسرة آغوية عريقة وهو من قبيلة هرڤيكان(٢٦) في منطقة مدياد شرق ماردين، وكان قد عاش ألف مغامرة ومغامرة، فقد قتل والده من قبل إبن عمه سرخان وهو لايزال جنيناً في بطن أمه، وكان چلبي، وهو والد القاتل، يحكم القبيلة، وبعد خمسة عشر عاماً عندما بلغ حاجو سن المراهقة قتل سرخان ليثأر لأبيه، وفر الى الجبال فطارده رجال چلبي واستمر ذلك خمس سنوات إستطاع حاجو خلالها تجنب ضربات مطارديه ومكائدهم. وأثناء شتاء قاسٍ شديد البرودة، لم يستطع تحمل البرد في الكهوف الجبلية، فعاد ذات ليلة الى قريته وسار الى جناح الضيوف في دار عمه (چلبي) وارتمى على قدميه ومد له رقبته، فاتجهت يد عمه فطرياً الى الخنجر لكن في اللحظة الأخيرة تأثر العم بشباب وجرأة إبن أخيه، وطلب من حاجو النهوض والجلوس بقربه وقال له: لقد خُلقت لتعيش لا لتموت، لقد عفوت عنك، وإني أزوجك إبنتي وستكون خليفتي لزعامة القبيلة، هيا لترى أمك التي لم تكف عن الصلاة من أجلك. وغداً ستأتي بصحبتها لنحتفل بمراسم الخطبة.

بعد ذلك أصبح حاجو زعيم قبيلة قوية جداً وذا شعبية واسعة، الأمر الذي دفع السلطات العثمانية الى الإستياء منه فقررت توقيفه ثم إبعاده عن المنطقة. كان حاجو أمياً تماماً فاستفاد من العامين اللذين قضاهما في السجن وتعلم القراءة والكتابة باللغة الكوردية. وفي بداية السنة الثالثة من سني السجن وجد وسيلة للهرب واستطاع الوصول الى قريته سيراً على الأقدام عبر الجبال. لقد أصبت بدهشة شديدة وأنا أصغي الى حاجو آغا(٢٧) وهو يروي بهدوء قصة شبابه.

كان هناك كوردي آخر أثار إعجابي واحترامي، وهو علي آغا زلفو، وكان نصير الأدباء والعلماء في الحي الكوردي، وكان قد جمع أسرته الكبيرة في مسكن صغير بحي الساروجة ليتمكن من إيواء المنفيين الكورد، كان فارع الطول ذا منكبين عريضين حباه الله نعمة المال والجمال، وكان أجداده الذين قدموا الى كوردستان تركيا في عهد الإمبراطورية العثمانية قد إغتنوا حين كانوا مزارعين رفضوا دفع الضرائب في المناطق الأكثر تمرداً من إقليم دمشق، وبمرور الزمن إمتلكت عائلة زلفو قرية غنية بالأراضي الزراعية الواسعة والخصبة، كانت مراعيها تكفي الآلاف من المواشي في الصيف والشتاء بسبب جوها المعتدل.

كان علي آغا زلفو رجلاً في غاية النزاهة والإخلاص لوطنه سورية الذي كان فوق كل مصالحه المادية(٢٨). وفي عام ١٩٢٥ عندما نهضت سورية في وجه إبتزاز السلطات المنتدبة

ترأس المتطوعين الكورد من أبناء حيه وكبد الفرنسيين خسائر فادحة، ولم يتوقف عن محاربة الفرنسيين إلا بعد أن حصل على وعود منهم. وقد كان يحق لهذا الإقطاعي الكوردي الدخول على أكبر الشخصيات السياسية في البلاد من السلطة والمعارضة على حد سواء. وقد أُرغم الفرنسيون على إحترام روح الفروسية عند هذا الرجل شبه الأمي وعاش عيشة هنيئة في منزله بالحي الكوردي.

بعد فترة من الإقامة في منزله استأجر أخي بيتاً في حي عرنوس، ودخلت مدرسة الأخوة الأبرشية، وانتهت نزهاتي الطويلة عبر دمشق ولم أعد أستطيع أن أتأخر في سوق الحميدية أو سوق الملبس والفواكه حيث أعجبتني صرخات الباعة المتجولين ولازالت. يقع حي عرنوس بين الحي الكوردي ومركز المدينة ولايبعد كثيراً عن مدرسة الأخوة الأبرشية، وكان المنزل الذي إستأجره أخي يحتوي خمس غرف ويتألف من طابقين وتحيطه باحة صغيرة مكشوفة، والى اليمين مضخة ماء تعمل باليد وكذلك حوض صغير نغترف منه الماء للغسيل والتنظيف وكانت البيوت الدمشقية التي تستفيد من المياه الجارية قليلة بل نادرة، وكان ثمة الكثير من النساء اللواتي يحملن الماء على أكتافهن في الشوارع.

في ذلك البيت أقمت أنا وأخي مع كل من عارف عباس وشوكت زلفي، لكن هذه المشاركة في السكن لم تدم طويلاً حيث وجد عارف عباس عملاً في الحسكة، مركز محافظة الجزيرة إذ أوفد اليها بإعتباره مختصاً في مكافحة الجراد ليتغلب على هذه الحشرة المدمرة، وكانت خبرته تلك نابعة من تجربته الطويلة في مكافحة هذه الآفة عندما كان في المناطق الكوردية من تركيا، وكان المكان الذي استدعي للعمل فيه مأهولاً بالكورد لأنه لم يكن مفصولاً عن الأراضي الكوردية إلا بحدود مصطنعة، وبعد رحيله بأسبوعين تبعه شوكت زلفي الى هناك ليشغل وظيفة أمين سر الجمعية الخيرية الكوردية في الجزيرة. فأعد أخي المنزل لنعيش فيه وحدنا واستخدم طاهية كوردية الأصل تدعى أم علي، كانت مطلقة ولها إبن وحيد، تمكنت أم علي من إضفاء مسحة من الحياة العائلية على بيتنا. كان لهذه السيدة والأم الرائعة هدفان: أن تخدم أخي، وتعلم إبنها ممدوح حتى يصبح رجلاً ذا شأن، وقد نجحت أم علي في تحقيق هدفيها، وخلال السنوات العشرين التي أمضتها عندنا إهتمت بي كأم حقيقية.

وقد فتح أخي عيادة أخرى إضافة لعيادته في ساحة عرنوس، وذلك في الحي الكوردي كان يأتي إليها بعد ظهر كل يوم. أما أنا فقد كنت أبتهج لفكرة التردد على المدرسة العلمانية (الثانوية الفرنسية) في دمشق والتي كانت بناءً ضخماً بني على شارع بغداد الكبير على بعد مئات الأمتار عن منزلنا، وكنت منهمكاً بالمناهج التربوية والمؤسسات الدينية، وفي حوالي منتصف آب انتهى بناء المبنى وبعد أسبوعين كنت طالباً في الثانوية الفرنسية، ومرت سنوات بسعادة وسلام.

ورغم أن معيشة أخي في دمشق كانت رائعة والعمل متوفراً فإنه لم يكن راضياً عن

مصيره، حيث أنه لم يغادر بلاده وأسرته وأصدقاءه من أجل تلك المصالح المادية بل من أجل مساعدة شعبه وكورد دمشق والجزيرة بصورة خاصة الذين كانوا كثيرين ويزدادون بؤساً وجهلاً ومرضاً ومظالم وكانت رغبته في الذهاب الى الجزيرة شديدة ويريد الذهاب اليها بكل حب وإندفاع، لكن لم يسمح له الفرنسيون ولا السوريون بالإقامة على الحدود التركية كطبيب مستقل لأنهم كانوا يتكهنون بتصريحات أنقرة والقوميين العرب.

ذات يوم جاء الى أخي رجل كوردي من دمشق يعمل في وزارة الصحة، وقال له:

- لك عندي نبأ سار، إن منصب الطبيب الشرعي في (عين ديوار) على الحدود السورية- التركية شاغر الآن، ولم يقبل أي طبيب بالذهاب الى هناك حيث أن الطبيب الشرعي السابق هناك قتل من قبل الأهالي لمحاولته إغتصاب إمرأة. رشح نفسك دون تأخير وأنا واثق أنهم سيقبلون ترشيحك على الفور.

لم يوافق أخي على الفكرة فوراً لأنه كان يعرف المنطقة مسبقاً فقد أنهى خدمته الإلزامية في الجزيرة قبل إلحاقها بسورية من قبل الفرنسيين، والجزيرة مدينة كوردية في تركيا قريبة من عين ديوار، وعندما قبل أخي بالفكرة تم قبول طلبه حيث لم يكن له أي منافس، وتحقق حلمه، ومنحته السلطات ثلاثة أشهر ليزور المنطقة ويتأكد من إحتياجاتها الطبية ووضعها الصحي، ثم باشر أخي تلك المهمة خلال العطلة الصيفية بعد أن أوصى أكرم جميل باشا برعايتي وكان رجلاً نشيطاً إستأجر في (سعسع) أراضي لأحد وجهاء الحي الكوردي، كان أكرم جميل باشا قصيراً وبديناً لكنه كان رياضياً ومرحاً وقبل الحرب العالمية الأولى درس في مدرسة الفنون في لوزان لكنه إنقطع عن الدراسة بسبب الحرب، ثم تابع الدراسة وأكملها بالمراسلة وشغف حباً بمطالعة الكتب في مختلف المجالات، وكانت المكننة الزراعية من بين إهتماماته الرئيسية، ولمنع الفرنسيين إياه من الإقامة في الجزيرة حيث كان يمتلك الكثير من الأراضي فإنه تفرغ للزراعة في ضواحي دمشق، وكان أول من أدخل الجرار الى سورية وكان الفلاحون يفرون من بعيد عندما يرون الجرار المجنزر يحفر الأرض بعمق ويحرثها. وكان مالك حقول سعسع قد وضع تحت تصرف أكرم بيتاً جميلاً. كان هناك نهر صغير ينبع من منحدرات جبل حيرمون ويجتاز حقول القرية ويشكل مستنقعات في بعض المناطق، وكنت أفرح بالركض عبر الحقول وركوب الحمير والخيول وصيد السمك وتسلق الجبال، وكنت أستذكر حياتي السابقة في مادن مع بوزو، وعشت حياة سعيدة في سعسع حتى اليوم الذي سقطت فيه من على شجرة وكسرت ساقي ونقلت من مشفى لآخر وكان ألمي يزداد يوماً بعد يوم حتى وصل أخي من الجزيرة فضمني بين ذراعيه ورأيت أن عينيه قد إغرورقتا بالدموع، وقال لي:

- أنا آسف لأني تركتك هنا وحيداً ولكن الرحلة كانت طويلة ومتعبة.

كان أخي قد قبل المنصب الذي عرضته عليه السلطات وصادف أصدقاء قدامى في عين

ديوار واستأجر منزلاً هناك. وتعرف ايضاً على الممرض الذي أعانه في مستوصف الدولة ووجدته متعجلاً للرحيل لمباشرة وظيفته الجديدة. أما أنا فقد كنت أتردد على مدرسة الرسالة العلمانية في دمشق، في ٢٥ حزيران طلب مني أخي الذهاب الى عين ديوار لقضاء العطلة الصيفية معه، في ذلك الوقت كانت السيارات العمومية الوسيلة الأكثر إختصاراً للسفر الى الجزيرة، حيث كانت تأخذ الناس الى حلب ومن هناك يستخدم القطار الذي يصل الى نصيبين آخر محطات خط برلين- أسطنبول- حلب- بغداد. وكان علينا أن نقطع المسافة، التي تبلغ ١٢٠ كيلومتراً، من قامشلي الى عين ديوار بالسيارات العمومية، لكن بما أن القطار كان يمر عبر الأراضي التركية، فقد كان من الخطر عليّ التفكير في الصعود الى القطار في حلب لذا لم يكن أمامي سوى أن أستقل الباص من دمشق الى دير الزور والمار بمدينة تدمر الأثرية. وكان الباص يقطع تلك المسافة في يوم ونصف وبمغادرة دمشق في المساء كنت تصل الى دير الزور على حدود الجزيرة ظهر اليوم التالي وكانت المسافة المعبدة من الطريق ثلاثين كيلومتراً فقط أما البقية فكانت أخدوداً يشق الصحراء رسمته عجلات السيارات والشاحنات وكان من الشائع أن تضل السيارات طريقها بسبب الرمال التي تغطي الطريق وتمحوه مما يعرض الركاب الى المخاطر الجسيمة، وكانت الطائرات الحربية الفرنسية تتدخل للعثور على التائهين. وعمليات الإنقاذ تلك كانت تنجح في بعض الأحيان وفي أحيان أخرى يهلك المسافرون بسبب الحر والعطش والجوع والبرد حسب فصول السنة ويتحولون الى ضحايا للعواصف الرملية الشديدة. أما أنا فقد خضت في ذلك الطريق دون أن ألاقي صعوبات وقد ضلت سيارتنا طريقها ذات مرة لكن إعرابياً من المنطقة كان مسافراً معنا أنجدنا مهتدياً بالنجوم وأرشدنا الى الإتجاه الصحيح، كانت المسافة بين دير الزور والحسكة، مركز محافظة الجزيرة، ١٦٠ كيلومتراً وبين الحسكة وقامشلي ٩٠ كيلومتراً. ولما كنت أصل الحسكة كنت أمر بدار عارف عباس الذي إستقر هناك وعمل في التجارة بعد أن خلص المنطقة من الجراد، كانت غالبية سكان المدينة حينها من السريان الأرثوذوكس والكاثوليك والأرمن، أما العرب فقد كانوا موظفين من دمشق ومزارعين من دير الزور وكانوا قلة وكانت القبائل العربية لاتزال تعيش حياة البداوة وتتنقل مع مجرى رافدي الفرات: الخابور وجنجغ، وما إن يخرج المرء من المدينة بإتجاه الشمال حتى يجد نفسه في قلب بلد كوردي.

كانت القرى مبنية فوق التلال ومبانيها من القرميد الخام[٢٩] والتي هدمت وأعيد بناؤها مراراً عبر القرون وكان الكثير من أراضي الجزيرة ذات التربة العضوية غير مستغل ويستخدم للرعي فتغدو الأرض في الربيع بساطاً أخضر موشحاً برسوم متعددة الألوان، وكانت قطعان الغزلان[٣٠] البرية التي يتم صيدها من خلال مطاردتها على الخيل أو السيارات تعيش بين الأعشاب العالية في تلك المراعي.

لنعد الى رحلتنا، فقد كانت ساعتان ونصف كافية في الصيف لقطع مسافة ٩٠ كيلومتراً

الفاصلة بين الحسكة وقامشلي، أما في الشتاء فكانت الطرقات تتحول الى وحل وطين، وكانت التضاريس تتخذ لوناً داكناً كلما إتجهت شرقاً نحو عين ديوار التي تبعد عن قامشلي[٣١] مائة كيلومتر، كان الطريق يمر بسهل قاحل ثم أرض وعرة تحفرها مجاري المياه وتغطيها الأحجار الضخمة، وكانت منطقة البراكين الخامدة هذه تخفي منذ أزمنة سحيقة موارد عجيبة[٣٢]، أما الهضبة التي كانت تخفي وراءها عين ديوار قرب الحدود التركية فقد كانت تسمى (دشتا هسنا- سهل الحديد) بسبب لون أرضها وإستثمار الحديد فيها في العصور الغابرة.

قبل وصول الفرنسيين لم تكن عين ديوار[٣٣] غير قرية كوردية صغيرة تقع على حافة أحد الأودية ولايتجاوز عدد ساكنيها الثلاثين. لكن الفرنسيين أرسوا قواعد المقاطعة الغربية لنهر دجلة لتبقى سليمة، وفي عام ١٩٢٦ شيّدوا أبنية إدارية وفتحوا الحدود بوجه الكورد والسريان والأرمن القادمين من تركيا وشجعوهم على الإستقرار في المنطقة والحصول على الجنسية السورية لكن الآلاف من السكان غادروا المنطقة لرفضهم ما يقترحه الفرنسيون، ومن بين هؤلاء كبار ملاكي الأراضي من الكورد الذين انتزعت قراهم من تركيا وألحقت بسورية، بعد فترة ليست بطويلة تحولت عين ديوار الى بلدة صغيرة فيها طبيب ومكتب بريد ومدرسة وسوق ومقهى ومسرح، كما نشأت مدينة هامة جداً في الشرق على طريق قامشلي- عين ديوار حملت إسم القرية التي قامت في محلها وهو (ديريك). كان في القرية دير وكانت تابعة إدارياً لعين ديوار ولكن بسبب قرب الثكنات العسكرية كانت أكثر حيوية ونشاطاً من عين ديوار.

في رحلتي الأولى الى عين ديوار وصلت اليها مساءً وكان الظلام قد لفها وكان باب منزل أخي مفتوحاً وسمعت النباح الأجش لكلب، حينها تذكرت أن أخي كتب لي في إحدى رسائله أنه حصل على كلب وأنه سيعطيني إياه كما حدثني عن جواد، وكنت أتلهف لرؤية هذه الحيوانات، أسرعت الى الباحة ونبح الكلب بكل ما أوتي من قوة منتصباً على قائميه وإنطلق الى أمام كما لو أنه يريد تحطيم قيده والإمساك بي من عنقي، ثم جاء أخي وبعد أن قبّلني أخذ بيدي وقادني على ضوء مصباح الجيب عبر باحة منزل صغير ثم إتجه نحو غرفة في اليسار وأنارها فرأيت دابة تتناول طعامها فرفعت رأسها نحوي وهي تطلق صهيلاً خفيفاً، فسألني أخي:

- أرأيتها. فقلت بقلب خافق: نعم إنها مهرة جميلة.

- سأنير الغرفة بشكل أفضل. ففعل وشاهدت مهرة رائعة عالية رشيقة وسريعة الإنفعال ذات بقعة بيضاء على طول جبهتها، فقلت:

- إنها تعجبني ولكن يجب أن أراها في وضح النهار وأمتطيها. إنها لنا، أليس كذلك؟

- لسوء الحظ، لكنها ستبقى هنا طيلة الصيف شرط أن تعتني بها جيداً وتنتبه حين تمتطيها، فهي منحة من أحد الأصدقاء.

بعد ذلك أمسك بيدي وقادني الى داره حيث كان أصدقاء له يتناولون الطعام، وكنت في نشوة غامرة وأرغب بالبقاء الى جانب المهرة طوال الليل، كان الحديث حول المائدة يدور بشكل خاص عن مدير منطقة عين ديوار الذي كان موظفاً شقياً بسيطاً رفعه الفرنسيون الى درجة مدير منطقة، وكان بخيلاً نادر البخل وقد صمم على إنفاق أقل ما يمكن من راتبه الكبير وكان قد إشترى لنفسه منزلاً أجره واستأجر لنفسه بيتاً بأقل من الإيجار الذي يتقاضاه عن منزله بكثير، وكان الضيوف يتحدثون عن إتفاق كافة الموظفين على أن يدعوا كل منهم الآخرين الى الطعام ففعلوا ولما جاء دور مدير المنطقة فإنه تهرب من واجبه بعد أن كان قد تناول الطعام عند الجميع فقرر الآخرون منذ ذلك اليوم إستبعاده من أية وليمة، لكن ذلك لم يمنعه من زيارة الآخرين في أوقات لاتسبق وجبات الطعام إلا بدقائق والمكوث حتى يضطر المضيف الى دعوته لتناول الطعام عنده. وذات مرة كان الموظفون والوجهاء قد رتبوا لنزهة في الهواء الطلق دعي اليها الجميع بإستثناء القائممقام (مدير المنطقة) الذي لم يتقبل بدوره ذلك الإبعاد فتدبر لنفسه جواداً ودليلاً يرافق ولديه، ولد في الثانية عشرة وفتاة في العاشرة، جاء الى مكان المهرجان بحجة أن إبنته قد لدغها عقرب وأنه يريد من أخي أن يعالجها، فكان أن لم يجد نافذ أي أثر للدغ وشخص الآثار التي شاهدها بأنها وخز إبر، وفي تلك الأثناء جلس الأب وإبنه على المائدة التي كانت عليها سمكة كبيرة مشوية. كان الجميع منهمكين بالأكل عندما وصل ضابط فرنسي، كان من المدعوين، فنهض الناس إحتراماً له وللترحيب به واغتنم القائممقام الفرصة وأشار على ولديه بالإنضمام الى الجمع وعدم إضاعة الفرصة.

هذه القصة والكثير من مثيلاتها التي كانت تروى بالتفصيل جعلتني أسهر حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، ولما غادر ضيوفنا صعدنا الى سطح المنزل للنوم على أسرة مغطاة بالناموسيات وكان الجو حاراً لدرجة أنني لم أتمكن من النوم.

في جنوب الجزيرة وكلما إقتربت من الصحراء كان البرد يشتد في الليل، لكن في الحدود التي تحاذي جبال كوردستان تركيا كان حر النهار يمتد الى الليل ولاتنخفض درجات الحرارة إلا بحلول الفجر. إستيقظت في الثامنة صباحاً وبعد ذلك ذهبت لأمتطي المهرة وأسبح في نهر دجلة الذي يبعد عن البيت حوالي كيلومترين، لكنني شعرت أن الحر يجفف جلدي تدريجياً ولما وجدت أنني لوحدي على الشاطيء لم أجرؤ على الغطس، ولما ركبت المهرة ثانية وجدتها قد تعرقت كما لو أنها شاركت في سباق طويل. وفي الأيام التالية إخترت الساعات المتأخرة من بعد الظهر للذهاب الى ضفة النهر لركوب الدابة أو للسباحة، وفي تلك الساعات المتأخرة كانت هضبة عين ديوار تبسط ظلها على قسم من النهر وضفتيه والحرارة تفقد شدتها وكان المكان يجذب اليه الناس للنزهة في تلك الأوقات، وكان أخي يأتي الى هناك أحياناً بصحبة

أصدقائه من الصيادين وكنا دوماً نعود من تلك النزه مبللين تماماً.

أما في البيت فلم نكن ننعم بالمياه الجارية فقد كان علينا أن نستخدم الماء بتقتير شديد إذ كان الماء يأتينا من النبع في قراب تحمل على ظهور الحمير وكان السقاؤون قلة والماء ثميناً وباهضاً. كانت عين ديوار في تلك الأيام وكبقية مناطق الجزيرة قد أتلفت أشجارها تماماً. وبسبب الخلافات المستمرة التي شجعها الأتراك العثمانيون بين القبائل الكوردية والعربية لم يكن الفلاحون يجرؤون على زراعة الكروم كما لم تكن زراعة القطن معروفة في المنطقة.

كان رئيس بلدية عين ديوار عبدالكريم ملا صادق وجيهاً كوردياً يملك عشرين قرية في ضواحي عين ديوار وقد تعرف عليه أخي في الجزيرة، كان رجلاً ذكياً ومثقفاً وكريماً لأقصى الحدود لكنه لايحب العمل ويقضي جل وقته في لعب الورق وقراءة الروايات والأكل والشرب، ومع ذلك تمكن أخي من إقناعه بتجميع مياه النبع في حوض وإنشاء روضة حوله، فانكب عبدالكريم أفندي على إقامة المشروع المذكور بعد أن إقتنع بنجاحه وفوائده حيث إستقدم أشجار فاكهة جديدة على المنطقة من دمشق وتركيا والعراق باسم البلدية وزرعها على جانبي الوادي، وبعد عامين كان الناس في عين ديوار يأكلون من ثمار تلك الأشجار التي كانت تضم كافة أنواع الفاكهة الموجودة في منطقة الشرق الأوسط. وبسبب إنبهارهم بما رأوا، سارع فلاحو المنطقة الى زراعة الكثير من تلك الأشجار وبعد بضع سنوات كانت ثمار تلك الأشجار تباع في أسواق عين ديوار وديريك وقامشلي. وفي عام ١٩٤٥ أدخل زراعة القطن الى الجزيرة، هذه الزراعة التي أصبحت اليوم تشكل واحداً من موارد الدخل الرئيسية للمنطقة.

لم يكن هذا النجاح الوحيد الذي حققه أخي نافذ فلكونه طبيباً حاز ثقة السكان الذين كان الفلاحون يشكلون ٩٠٪ منهم. لكن المجبّرين ورجال الدين على إختلاف إنتماءاتهم الطائفية كانوا يعادونه ويعملون على تنمية روح العداء للأطباء من جانب العامة. لكنه بفضل كفاءته وإخلاصه وصبره تمكن بالتدريج من إقناع الناس بأن علمه أكثر فعالية من علوم مغتابيه. ولدى وصوله الى عين ديوار حالفه الحظ وعثر فيها على مستشار له هو الملازم الأول الكورسيكي (ألف نسي) وكان نزيهاً إعتنى برسالة فرنسا الإنسانية خير عناية وتعاطف الرجلان وأقنع الكورسيكي نافذ بمساعدته وبعد أشهر من إستقرار أخي ثبّت العديد من حالات السفلس والملاريا لاسيما في القرى القريبة من القبائل البدوية وبفضل دعم ألف نسي تمكن من إستصدار أمر الى الأهالي من وكيل الوالي يلزم الجميع بالمجيء الى المستوصف لإجراء الفحوص الطبية. ولتنفيذ الأمر سافر أخي الى العديد من القرى خلال عدة أشهر فمكنه ذلك من تحديد الأمراض ونسب الإصابة بها بين السكان وكانت الأمراض الأكثر إنتشاراً هي الملاريا والتراخوما والسفلس، بعد ذلك المسح والفحص كان الواجب هو السعي لتوفير الأدوية، فسارع أخي لتنظيم قائمة بالأدوية المطلوبة مرفقة بتقرير مفصل وطلب مساعدة الملازم الأول ألف نسي وتوسطه لدى وزارة الصحة. بعد شهر من ذلك كان مستوصف عين ديوار مليئاً

بالأدوية المطلوبة، وتزامناً مع ذلك بدأ أخي يستخدم كل الوسائل الممكنة من نصائح وتحذيرات وحتى التهديدات والغرامات لدفع المرضى الى تلقي العلاج والتداوي، وبعد سنة كانت المعركة مع المرض قد إنتهت لصالح المصابين، حيث إختفى السفلس من القرى الكوردية رغم عدم تحقيق النصر النهائي في القضاء على المرض بين البدو الذي كانوا في تنقل مستمر ويصعب الوصول اليهم وتزويدهم بالدواء.

ظلت عين ديوار منذ ذلك الحين تستذكر المعروف الذي أسدي اليهم من جانب أخي والملازم الأول ألف نسي اللذين عملا المستحيل للقضاء على تلك الأمراض الرهيبة. وقد كان ألفونسي مقارنة ببقية المدنيين والعسكريين الفرنسيين العاملين في سورية ذا كفاءة خاصة وحريصاً على جلب المنفعة للفلاحين في المنطقة بالإستفادة مما جلبته فرنسا معها من الوسائل والمواد التي تخدم الإنسانية. وذات يوم طلب منه شاب كوردي، هو مصطفى البوطي، السماح بفتح مدرسة وتعليم اللغة الكوردية فيها، بدت الفكرة طبيعية للملازم الأول الذي لم يلجأ الى إستشارة المفوضية العليا في بيروت بل أعطاه الضوء الأخضر على الفور وبشّره بالقول:

- جد مكاناً ملائماً وباشر العمل فوراً ولاتنتظر الإذن الرسمي فسأستحصله بسرعة.

تشجع مصطفى البوطي بهذا الكلام وباشر العملية بإندفاع، وبعد أقل من شهر تسلم السيد ألفونسي الرد من رؤسائه في بيروت وكان سلبياً... فقد جاء فيه: أن الإلتزامات التي تعهّدت بها فرنسا لدول الشرق الأوسط تمنعها من أن تلقي بنفسها في مثل هذه المغامرة. فكان أن إعتذر ألفونسي لمصطفى البوطي وعيناه مغرورقتان بالدموع وهو يصيح قائلاً:

- هذا غريب، إنه شيء لايُصدق، كيف يمكن أن ترفض حكومتي تمتع كورد سورية بحق بسيط وطبيعي، وهو حق القراءة والتعلم بلغتهم؟

بعد ذلك الحادث شعر مصطفى البوطي بالإهانة وغادر المنطقة الى قرية صغيرة في شمال كوردستان الإيرانية حيث عمل كإمام مسجد، بينما واصل أخي إنتهاج نفس الأسلوب الذي بدأه في محاربة المرض وحث أرباب الأسر على إرسال أولادهم الى المدرسة الرسمية. وكان أخي يثير دهشة الكورد في عين ديوار بإصراره على أستخدام اللغة الكوردية، وأذكر جيداً أنه لما تكلم أحمد آغا وهو من زعماء قبيلة الآشتيين في منطقة قامشلي، وكان يرتدي الزي العربي مثل شيوخ العرب حيث كان يلبس دشداشة طويلة وعباءة ويحمل سيفاً فضياً طويلاً، تكلم مع أخي بلهجة عربية ركيكة، فقال له أخي بلهجة حازمة:

- تكلم باللغة الكوردية.

- كيف؟ هل هناك أطباء كورد في هذا العالم؟

- بالتأكيد، وأنا واحد منهم.

- اذاً، إنها هبة منحها الله لنا!

والى جانب إهتمام نافذ بمصير الشعب الكوردي ومحاولته تخفيف آلامه وشفاء أمراضه، فإنه لم يدخر وسعاً في خدمة أبناء الأعراق الأخرى، فذات يوم سمعت سيدة أرمنية تقول له:

- إنك طيب يا دكتور، أنت طيب كطيبة الله!

وكان مثل ذلك الثناء على أخي يأتي من كل من الكوردي والعربي والمسلم والمسيحي واليهودي.

ظل أخي في عين ديوار حتى عام ١٩٣٥ عندما نقل بصفته الطبيب الحكومي الدائم في قامشلي التي عمل فيها حتى عام ١٩٣٧ حيث إستقر وفتح عيادة خاصة له كما فعل سابقاً في كل من دياربكر وحلب ودمشق. ونظراً لشعبيته الواسعة فإن الفرنسيين لم يتجرأوا على التأثير فيه رغم إحتجاجات السلطات التركية بل أنهم كانوا يرسلون إليه مرضاهم. وكان نافذ يعاين يومياً مائة مريض ويمنح الفقراء والمعوزين الفحص والأدوية المجانية، حيث كان أولئك الفقراء يحصلون من أخي على وصفة طبية كتبت عليها عبارة (على حسابي) أما بقية المرضى فلم يكن يتقاضى منهم أكثر من خمس ليرات سورية. وعندما كان أصدقاؤه يسألون عن إنخفاض الأجر الذي يتقاضاه كان يجيب بصوت رخيم: إنني أدخل البهجة في قلوب المرضى ويضاف تأثير هذا السرور الى مفعول الأدوية التي أصفها لهم. لكن أصدقاءه كانوا ينكرون عليه ويقولون:

- لكن الأطباء القادمين من داخل سورية أو من لبنان يتقاضون خمسين ليرة سورية عن الفحص وعشرين ليرة عن إبرة واحدة.

- في السنوات التي تكثر فيها الأمطار في الجزيرة تجد بعوضة الملاريا أرضاً خصبة للتكاثر ونشر الملاريا، وبما أن المحصول كان وفيراً في تلك السنوات فإن الفلاحين كانوا يتعرضون للإستغلال من قبل أولئك الأطباء الإنتهازيين وعديمي الضمير.

- عليك أن تفكر في مستقبلك أيها الطبيب، فإن نظام عملك لن يكون أبدياً.

- كل يعمل حسب ما يمليه عليه ضميره.

ووقف أخي بقوة في وجه الدجالين من الأطباء الذين كانوا يسرقون الفقراء ويزيدون آلامهم وفي بعض الأحيان يتسببون في موتهم. ومن بين الأطباء الذين كان من الصعب التغلب عليهم الدكتور بوغوص، وكان أرمنياً ويعرف ببوغوص الحمامي نسبة الى حمام كان يملكه في قامشلي بجانب عيادته وكان يدر عليه الكثير من المال. وكان طبيب آخر قد حاول قبل أخي الحد من النشاط اللاشرعي للدكتور بوغوص لكن الأخير رد عليه بأن جعل المعاينة عنده مجانية، ولما هدده الطبيب بتطبيق القانون لجأ بوغوص الى طريقة أخرى فأرسل أحد رجاله ليلاً ليتغوط على باب الطبيب الذي ذعر واشمأزت نفسه من سوء المعاملة فأسرع عائداً الى دمشق. ولما وصل أخي الى قامشلي كان بوغوص قد تسبب في موت أحد الأغوات الكورد

المعروفين في المنطقة، فأجرى أخي تحقيقاً اكتشف فيه أن الطبيب الحمامي أجرى عملية للآغا المذكور ولأنه لم يقم بتعقيم أدواته الجراحية فقد أصيب الآغا بعدوى مفاجئة مات على أثرها، واستنتج أخي أن ذلك الرجل لم يكن الضحية الوحيدة لجهل الدكتور بوغوص فأنذره وطلب اليه التوقف عن تلك العمليات لكن بوغوص رفض الإذعان وجاء الى أخي وهو يحمل مسدساً ويهدده، فقال له أخي:

– إسمع أيها البارون الطبيب، لقد تمكنت بسبب الفوضى وأخطاء الأطباء الذين لم يشعروا بمسؤولياتهم من أن تعمل بحرية وتجمع الكثير من المال لكني لن أدعك من الآن أن تعمل وفق هواك، فإن كنت أرمنياً فأنا كوردي، فكر بما تفعله وأوقف هذه اللعبة. إن حمامك يدر عليك الكثير من النقود، أليس من الأفضل أن تعتني به وتجدده؟

غادر السيد بوغوص أخي وهو مقتنع تماماً بأن عليه أن يجعل نشاطه الطبي شرعياً فاتفق مع طبيب شاب من حلب وأعطاه عيادته التي تحمل إسمه، ثم بعد أسابيع غادر الطبيب الحلبي تاركاً وراءه اللوحة التي كانت تحمل إسمه وكفاءاته ليعمل بوغوص مستتراً بها. فعمد أخي الى إستدعاء السلطات القضائية التي لم تتأخر في كشف السر وإيقاف الطبيب الدجال عن العمل وحبسه ثم إطلاق سراحه بكفالة مالية بعد أن تعهد بأن ينصب إهتمامه فقط على حمامه وأمواله غير المنقولة في المدينة وضواحيها. وقد أفرح ذلك كافة سكان قامشلي وبضمنهم الأرمن الذين كانوا أصدقاء لأخي، وكان المرضى الأرمن الذين لايعرفون غير لغتهم يندهشون عندما يتحدث إليهم أخي بلغتهم. فكانوا يقولون بإستغراب:

– ولكن الطبيب أرمني!(٣٣)

رغم جهود أخي وأصدقائه لجعل حياتي في عين ديوار رائعة فإنني لاأحمل عنها ذكرى مؤثرة، فلأني كنت قد ترعرعت في قلب بلد جبلي كنت أجد صعوبة في تحمل أشهر الصيف الطويلة والحارة في تلك الهضبة الجرداء... وكانت مجموعة من الظروف والمصادفات تفصل هذا القسم من كوردستان عن القسم الملحق ببلد أنشيء من أجزاء متناثرة من قبل فرنسا ليصبح الدولة السورية، فقد فصلت الجبال والسهول المغطاة بالرياض عنا بخطة تخالف إرادة الشعب الكوردي وكانت تلك الفكرة تمزقني من الداخل. وكنت أقضي الساعات يومياً وأنا أتأمل ماجرى، وفي أحد الأيام سألت مستشاراً فرنسياً:

– لماذا لم تتقدموا بجيوشكم لتضموا هذه الجبال الشبيهة بجبالكم، جبال الألب الساڤوية، الى إمبراطوريتكم؟ وكنتم حينها ستضطرون الى تشكيل دولة كوردية تكون سنداً لكم في الشرق الأوسط.

– لأن كلمنصو لم يكن قد زار كوردستان.

لقد كانت الأوقات الأكثر تأثيراً تلك التي أمضيناها في الإستماع الى الأغاني والموسيقى

الكوردية والإعجاب بالرقصات الإيقاعية المختلفة لمختلف مناطق كوردستان. ففي بداية أيلول وعندما كان القرويون يبدأون بتجهيز مؤنهم لفصل الشتاء كان التراث الشعبي (الفلكلور)[٣٤] يتجلى، حيث الأعمال جميعاً، كتحويل القمح الى برغل، مصحوبة بأغانٍ ورقصات تدوم حتى الصباح. وكان المغنون والموسيقيون المحترفون يدعون أحياناً الى هذه السهرات الطويلة، حيث كان العزف على الطبل والمزمار، والعازفون على الناي يقلدون أصوات حوافر الخيل وصهيل الجياد والناس يرقصون على أنغام الزرناي والطبل. وكان المشاركون في الدبكات يمسكون بأيدي بعضهم أو خواصر بعضهم البعض ورقصاتهم تعبر عن مشاعر الفرح، وربما لم تكن غير تنفيس بسيط عن أنفسهم بعد العمل الشاق في الحقول تحت لهيب الحر. فكان يتراءى أمامي شعب أو بالأحرى أمة لها تاريخها وجغرافيتها المتميزة ولغتها وثقافتها وعاداتها وتقاليدها من جهة، والسياسة العنصرية اللاإنسانية المتبعة ضدها من جهة أخرى، كل هذه الأمور كانت تحثني بقوة للإهتمام بمصالحها. فلم يكن ثمة ما يدعوني للسكوت أمام تفتيت بلاد وتصدّع شعب وإخضاعه بالقوة لدول أُنشئت عنوة وفق المصالح الإقتصادية والسياسية للدول الكبرى.

لم يكن بإمكاني الوقوف مكتوف اليدين وقبول تقارب المخططات المتعددة التي تهدف الى تدمير هذا الشعب. كما لم يكن بإستطاعتي أن لا أشعر بالإهانة وأنا أرى حرمان الفلاحين الكورد من حقوقهم، فلا يحق لهم التعبير بلغتهم الأم أمام رجال الدرك والموظفين، وكانت الجماهير الفلاحية الكوردية تعاني من الجهل والقيود الإجتماعية العشائرية الصارمة وفرض الزعماء الدينيين سلطتهم الكاملة عليهم، الأمر الذي جعلها غير قادرة على إدراك مدى بؤسها المادي والمعنوي ومأساتها الوطنية وإيجاد السبيل للخروج منها. ولم يكن المثقفون يجرؤون على الإنضمام لأخي في سعيه لإخراج هذا الشعب من سباته.

رغم ذلك كان هناك المثقف الذي رفع لواء الوطنية ونادى الشعب علناً الى التحرر من نير التقاليد البالية والأديان والجمعيات الأخوية الدينية[٣٥]، كان (جگرخوين) الملا الذي ترك الرهبانية وكان شاعراً موهوباً ينشد القصائد في صالونات الأغوات والمقاهي وفي الساحات العامة ينادي الكورد للإتحاد في سبيل تحرير وطنهم.

فسح الفرنسيون المجال أمام جلادت بدرخان، حيث أنهم كانوا متسامحين مع الكورد لأنهم لم يهاجموهم مباشرة، بإصدار جريدة (هاوار)[٣٦] في دمشق لمدة دامت ثلاث سنوات وثلاثة أشهر وثلاثة أيام. حتى هاجمت سلطة الإنتداب الفرنسية الكورد نتيجة مساندة الكورد للقوميين السوريين سنة ١٩٣٧ في النضال من أجل إستقلال سورية، فإتخذت إجراءات قسرية ضد الكورد عامة والمثقفين منهم خاصة، فتم توقيف العشرات منهم ونفيهم الى دمشق وتدمر، ومن بينهم عارف عباس الذي كان يسكن في ديريك وكنت مقيماً عنده عندما نفي وطلب مني الإهتمام بأسرته، فكان المأجورون من السريان الفاسدين الذي كانوا مرتزقة للفرنسيين يعملون

على إرهابنا ويهددوننا بالقتل إن لم نغادر ديريك.

في أواخر صيف عام ١٩٣٧ جاء إليّ أخي واصطحبني معه في جولة بسيارة خاصة على طريق قامشلي، وفي الطريق أوقفنا ثلاثة من المسلحين، تعرف إليهم أخي، فسألهم ماذا تريدون. فقال زعيمهم ويدعى ستار بورو، وهو سرياني من أزاخ:

- إفسحوا لنا مكاناً في سيارتكم حتى قامشلي.

- للأسف ليس عندنا مكان.

فرد الآخران وهما يفتحان أبواب السيارة: آه، سنتدبر أمرنا.

كان يرافقنا رجل كوردي قوي هو عبدي تيلو، الذي كان معروفاً بشجاعته، وكان يحمل معه بندقية على الدوام. أما أنا فكنت جالساً في المؤخرة ومعي بندقية صيد لأخي، ولما رأى مهاجمونا أننا مسلحون توجسوا خيفة لكنهم حاولوا الصعود الى السيارة، فشهر تيلو سلاحه ففضل المشاغبون الإبتعاد معتذرين وأشاروا الى السائق بمتابعة السير، بعد أن سرنا بضعة كيلومترات سأل تيلو أخي:

- ماذا كان يجول في خاطرهم؟[٣٧]

- هذا بسيط، فذات مرة كنا في السيارة فأرغموا السائق على التوجه جنوباً في منطقة صحراوية وأطلقوا بضع رصاصات فوق رؤوسنا وتركونا فريسة للنسور وبنات آوى ثم إنصرفوا ليقبضوا مكافآتهم.

في عام ١٩٣٧ وإضافة الى هموم الكورد في الجزيرة برزت مجموعة قضايا سورية- فرنسية لتضيف مصائب منطقتين أخريين من كوردستان تركيا الى همومنا. فقد كانت المقاومة ضد القوات التركية قد إستمرت طوال إثنتي عشرة سنة في منطقة ساسون التابعة لمقاطعة سيرت، وكانت المقاومة بقيادة أسرة علي يونس[٣٨] لكنها توقفت بعد أن كبدت القوات التركية خسائر فادحة. ولجأت حوالي ستين عائلة الى سورية يقودها عبدالرحمن الإبن الأكبر لعلي يونس، وكان أمياً لكنه كان خبيراً بالخطط الحربية وسياسياً محنكاً وموهوباً حتى أن الأتراك كانوا يلقبونه بـ(معلم الفكر في ساسون) وبعد أن خسر إخوته الخمسة ونصف رجال قبيلته في معارك طاحنة تمكن من فتح ممر الى سورية نقل عبره النساء والأطفال وما تبقى من رجاله، ولما طلب حق اللجوء السياسي من الفرنسيين صُدم برفض سلطة الإنتداب منحه ذلك الحق فأبعده الفرنسيون الى دمشق وشتتوا رجاله في قرى الجزيرة.

بعد ذلك وجد عبدالرحمن نفسه محاطاً بالمثقفين الكورد الضليعين بلغتهم مثل عثمان صبري وبدأ يثقف نفسه شيئاً فشيئاً فكان في كل صباح وكأي تلميذ يجتاز شوارع الحي الكوردي الضيقة بهدوء حاملاً كتبه ودفاتره يذهب الى دار عثمان صبري وبعد بضعة أشهر كان متمكناً في الكتابة والقراءة باللغة الكوردية وفق الأبجدية اللاتينية التي وضعها الأمير

جلادت بدرخان. وبعد فترة قصيرة بدأ يكتب القصائد والقصص، بعد أن بلغ من العمر ٥٧ سنة.

بعد نهاية ساسون المحزنة بدأت وفي السنة نفسها مأساة ديرسم، المنطقة الجبلية التي تحتل قسماً كبيراً من شمال شرق كوردستان تركيا. وكانت تلك الجبال المغطاة بغابات البلوط المنيعة منذ آلاف السنين قد جعلت من ديرسم خلية مستقلة بعيدة عن التأثير المباشر للإمبراطوريات الكبيرة والدول التي تأصلت في الشرق الأوسط. فبعد الرومان والسلاجقة والبيزنطيين فشل العثمانيون مراراً في إخضاع المنطقة لنفوذهم مما أرغمهم على القبول بالحكم الذاتي التام للقبائل الإثنتي عشرة التي كانت تعيش هناك. أما مصطفى كمال وبمجرد إلغائه السلطنة وإعلان الجمهورية فقد لجأ الى المكر للحفاظ على ديرسم بعيدة عن الثورات التي إندلعت في مناطق أخرى من كوردستان. فدعا سعيد رضا وهو زعيم تحالف القبائل ورتب له إستقبالاً ملكياً ثم إصطحبه الى البرلمان حيث عرض عليه رئاسة المجلس النيابي.

إستمرت هذه المصالحة حتى عام ١٩٣٧ عندما حطم مصطفى كمال كل مقاومة كوردية، ففي نهاية السنة طلب من زعماء القبائل ولاسيما سعيد رضا، الذي كان قد بلغ السبعين من العمر، التوقف عن القتال في المواقع العسكرية الكثيفة المحيطة بديرسم وأرفق إنذاره بإغتيال العديد من المثقفين والقوميين الكورد، وتولى أتاتورك مسألة ديرسم بنفسه وسلّم السلطة العسكرية والإدارية في المناطق الكوردية الى أحد أكثر الجنرالات وحشية ووقاحة وأنانية (الجنرال عبدالله پاشا) الذي كان يقود كل الجيوش التركية والأجهزة المدنية في كوردستان تركيا، أقام عبدالله پاشا مقره العام في إيلازيغ وجمع فيه أكثر من مائة رجل مسلحين بأحدث الأسلحة في ذلك العصر لقمع الكورد.

كان الطيران الحربي(٣٩) يقصف القرى التي لم يبق فيها غير النساء والأطفال والشيوخ، وكان الجنود يقومون بسد مداخل الكهوف، التي لجأ إليها المئات من النساء والأطفال هرباً من القصف الجوي بالأسمنت وقد صرّح لي صحافي تركي إلتقيته في بيروت عام ١٩٦٣ ويعمل الآن دبلوماسياً في دولة أوروپية غربية بأنه إلتقط صورة لأحد أنهار ديرسم وهو مليء بالجثث، لكن صوره لم ترَ النور لأنه عندما كان نائماً قام نقيب في الجيش التركي بإتلاف الأفلام التي كانت معه. ولم يتم الكشف عن الفظائع التي أُرتكبت في ديرسم إلا من خلال (نوري ديرسملي)(٤٠) الذي فر من المذبحة ولجأ الى سورية، وكان نوري طبيباً بيطرياً ومن أصدقائنا. كما شجّع المسؤولون السوريون، الذين كانوا على خلاف مع الأتراك حول لواء الإسكندرونة، الصحف على نشر فظائع الجيش التركي والمقاومة البطولية لكورد تركيا، فقالت جريدة القبس: "الكورد جنود منذ نعومة أظفارهم".

نتيجة قلقي من الأحداث التي كانت تجري في كوردستان تركيا جهزت مذكرة حول السياسة التركية تجاه كورد تركيا بصورة عامة وأبناء ديرسم بصورة خاصة ثم ذهبت على رأس وفد من

الطلاب الكورد في الثانوية الفرنسية بدمشق وبعض الطلبة من الحي الكوردي الى بعض السفارات وسلمت كل واحدة نسخة من المذكرة. واستقبلنا مضيّفونا بمحبة ورحابة صدر واستمعوا إلينا ووعدوا بنقل شكاوانا الى حكوماتهم، ولكن في الحقيقة كان الناس جميعاً غير مكترثين بالمأساة الكوردية فإنگلترا، التي كانت دولة عظمى في ذلك الحين، كانت تريد الحفاظ على التحالف مع تركيا ضد ألمانيا الهتلرية الصاعدة والضغط على فرنسا للتخلي عن لواء الإسكندرونة لتركيا رغماً عن إرادة أغلبية سكان اللواء[٤١].

كان تشكيل وفد PDKS عبارة عن نقطة إنطلاق[٤٢] لأولى جمعية طلابية كوردية هي (هيڤي) أي الأمل التي تأسست في نهاية عام ١٩٣٧. ولم تكن الجمعية تضم سوى خمسة عشر عضواً ولم تدم سوى عام ونصف، ومع ذلك وبالإضافة الى المذكرات والملاحظات التي نشرتها الجمعية في السفارات وفي عصبة الأمم، فإنها أيقظت الشباب الكورد في سورية ونبهتهم الى ضرورة وجود تنظيم يجمعهم وحثت على إنشاء نوادي أدبية ورياضية وكذلك روابط وأحزاب سياسية سرية لتكون منطلقاً لتأسيس الحزب الديمقراطي الكوردي في سورية عام ١٩٥٧.

وخلال عامين خضعت ديرسم لحرب شاملة وتم إقتطاعها من بقية كوردستان وتعرضت للامبالاة دولية وأحرقت مئات الآلاف من الهكتارات من الغابات وذبح السكان المدنيون بلا شفقة ولارحمة، وفي نهاية آب من عام ١٩٢٨ لم يعد لديرسم المستقلة وجود ولجأت السلطات التركية الى أنواع جديدة من التعذيب، وأعدم الزعماء الكورد الذين تعاونوا معها، وامتلأت سجون المدن الكبيرة المجاورة مثل إيلازيغ وأرزنجان وسيواس وملاطيه بنخبة من المقاتلين الكورد. أما بقية السكان الذين كان عددهم يزيد عن المليون فقد تم نفيهم الى غرب تركيا وتم تشتيتهم بين المدن والقرى، وأطلقت على ديرسم صفة (منطقة محظورة) ولم يعد اليها سكانها المنفيون وأبناؤهم إلا بعد عام ١٩٥٠ بعد إنتصار الحزب الديمقراطي.

أما أنا فقد تأثرت كثيراً بالويلات التي حلت بشعبي، ولدى الإعلان عن بدء الحرب العالمية الثانية حرصت على أن أعيش بين الكورد محاولاً تثقيفهم وتنظيمهم لإستقبال اليوم الذي يتغير فيه الوضع في منطقة الشرق الأوسط حيث كان من الواضح أن خارطة الشرق الأوسط التي كانت مرتبطة بسلسلة متوالية من الظروف والتسويات الطارئة بعد الحرب العالمية الأولى ستتغير، وكانت تلك الظروف قد تكشفت وفجع بها الكورد الذين ضحوا بأنفسهم لصالح شعوب أخرى في المنطقة وعلى مذبح المصالح العليا للدول العظمى، وكان ما يهمنا هذه المرة هو أن لاندع أنفسنا نتعرض للمباغتة ونغتنم الفرصة لنفرض حقوقنا الأكثر شرعية.

أما أخي الذي حرص على أن أدرس الطب، ولم تعجبه طريقتي في رؤية الأمور والتصرف، فقد كان يريد مني أولاً أن أكمل دراستي قبل الإنخراط في السياسة، وبما أن قراري كان لارجعة فيه فقد رضي بذلك وهو ينصحني بالإعتدال وأن أقضي سنة بالقرب منه قبل العودة

الى الجامعة. في ذلك الوقت كانت المدارس الحكومية في قامشلي والمناطق المجاورة لها والتي تدرس بالعربية نادرة وفي المقابل كانت المدارس الإبتدائية والثانوية الخاصة بالأقليات الدينية لاسيما الطوائف الأرمنية والسريانية قد إنتشرت في الحسكة وقامشلي حيث تذهب الفتيات الى مدارس تديرها الراهبات لكن لم تكن هناك مدارس خاصة بالكورد ورغم ذلك فقد ولدت نواة صلبة من القوميين الكورد تجمعت حول الشاعر جگرخوين في قامشلي وفي القرى المجاورة بفضل تحريض الأغوات والملالي بالإضافة الى طلاب الفقه الإسلامي الذين كانوا يدرسون في الكتاتيب[٤٣]. وكنت أتعاون مع الشعراء الشعبيين والملالي والطلاب والشباب بهدف تحرير الشعب الكوردي وإخراجه من سباته، وكان تأثير أشعار جگرخوين[٤٤] قوياً على شعب غني جداً بالروايات الأدبية والفلكلورية، وكان جگرخوين يكتب قصائده بلغة سلسة على كافة مستويات الناس وكان يستظهرها ويغنيها على طريقة الشاعر (هوميروس). وكان الفلاحون الكورد الذين رأوه أول مرة واقفاً على كرسي وسط ساحة عامة يمجد ماضي الشعب الكوردي ويرثي حاضره ويتنبأ له بمستقبل زاهر اذا إتحد أبناؤه وناضلوا، يعتبرونه رجلاً مصاباً بمس من الجنون، وكم مرة سمعتهم ينتحبون ويقولون وهم يهزون رؤوسهم:

– من المؤسف أن يصاب شاب وسيم كهذا بالجنون!

وكان الشاعر يمثل بالنسبة للشيوخ الظلاميين والإقطاعيين خطراً عاماً يجب القضاء عليه والتخلص منه في أسرع وقت. لكن أمام الدعم الواسع من جانب الشعب إمتلأت الساحة بالود والإعجاب شيئاً فشيئاً، وإزداد عدد الذين يحفظون قصائد جگرخوين عن ظهر قلب. كما بدأ الشيوخ والنبلاء الريفيون يستمعون بشوق الى أبيات الشعر التي كانت تنتقد الطبع السيء للموظفين والقوميين العرب، وكان الفرنسيون يطلقون أيدينا للقيام بالنشاطات السياسية والفنية كما سمحوا لنا ايضاً بالتنقل في القرى الكوردية وبث نشاطاتنا القومية بين الفلاحين الذين كنا نقيم في منازلهم أسابيع طويلة ونشاطرهم زادهم القليل ونكابد ضيق حالهم وحرمانهم وآلامهم ونحاول توعيتهم ولفت إنتباههم الى الظلم القومي الذي يلحق بهم ونشجعهم على الثورة ضد الإستعباد، في البداية كانت ردود الأفعال بعيدة عن أن تكون إيجابية فلم يكونوا يبالون بالقصائد والأغنيات الوطنية لبعدهم عن أحداث العالم وضياعهم في الجهل. وكان البعض منهم يضحك من إيماننا بدولة كوردستان المستقلة. أما البعض الآخر فكان يغضب من كلامنا الجارح الموجه الى شيوخهم، وكان المتقدمون في العمر يقولون:

– أنتم يا شباب ومثقفي المدن، تحاولون خلق المشاكل لنا، إننا مسرورون لمصيرنا ونحن نملك لقمتنا اليومية وأحرار في تأدية صلواتنا الخمس، إننا سعداء هكذا ولانريد غير ذلك فلاتجلبوا لنا الهموم بأفكاركم المناهضة للدين والدولة. وكانوا يقولون:

– أنتم الحضريون لا أحد يلمسكم ولكننا نحن الفلاحون لو أظهرنا مشاعرنا القومية الكوردية فإننا سنجد على الفور مطرقة الدرك فوق رؤوسنا. فحاولنا أن نشرح ونبين لهم

فقلنا:

– إننا لسنا ضد الدين، إننا وببساطة نطلب تطبيق هذا الدين حرفياً وعدم إستغلاله من قبل الظلاميين الداعين الى الوقوف في وجه التقدم والمعرفة، في حين أن نبي الإسلام يقول "أطلبوا العلم ولو في الصين" أما أنتم فقد غرقتم في الجهل بإسم الدين. وبينما يقول القرآن الكريم "إنما المؤمنون أخوة" فإن دولاً تدعي الإسلام تبذل كل ما في وسعها للقضاء على الكورد مسلمين كانوا أم غير مسلمين. أما بالنسبة للدولة السورية فقد أنشئت إصطناعياً من قبل دولة أجنبية فرضتها على الكورد بالقوة ورغم ذلك فليست لدينا النية في العمل من أجل تقويضها لكننا نطالبها بأن تحترمنا وتقر بوجودنا وتعترف بهويتنا وتحترم حقوقنا الشرعية ولانريد غير ذلك، ولم يكن لدى معارضينا سلاح يواجهون به منطق الشعوب فكانوا يلوذون بالصمت أو يقولون:

– نعم، ربما أنتم على حق، أنتم شباب أما نحن فقد إنتهى أمرنا ودنا أجلنا وصرنا على حافة القبر. ولسنا جديرين بإتباعكم تابعوا عملكم وسنصلي من أجلكم.

هكذا ورغم تهديدات الأغوات المتواطئين مع السلطات بدأت أعداد الفلاحين الكورد العائدين الى رشدهم لمعرفة شخصيتهم القومية ويقتربون منا تزداد يوماً بعد يوم. وكان الحي الكوردي في دمشق والذي يقطنه عدد كبير من المثقفين والطلبة ميداناً مناسباً فنشأت فيه الروابط الثقافية والرياضية حيث كان الأدباء والنحويون الكورد يُعلمون اللغة الكوردية بحرية.

وفي عام ١٩٣٩، شهدنا أيضاً تشكيل فريق لكرة القدم يسمى (فريق كوردستان) الذي إشترك بشكل منتظم في المباريات التي نظمتها نوادي دمشق الرياضية وحصل على البطولة عام ١٩٤٠، وكان فريقنا يثير حماساً شديداً، حيث كان الجمهور يأتي من قامشلي لتشجيع اللاعبين. لقد كان ذلك حدثاً عجيباً، حيث تُسمع أصوات آلاف المتفرجين في قلب دمشق يصيحون بأعلى أصواتهم (هيا ياكوردستان، أهجم يا كوردستان، عاش كوردستان). والصحافة التي كانت تهتم بالمباريات كتبت على عناوينها الكبيرة (كوردستان المنتصر)، لم يكن من الضروري إثارة شراسة السفارة التركية في دمشق. فقد وضعت كل ثقلها لدى السلطات الفرنسية والسورية لوضع حد للمظاهرات المعارضة لتركيا التي تثير مسألة تمجيد كوردستان، فأسرع السوريون والفرنسيون لإرضاء سلطات أنقرة وأرغموا جميع روابطنا على إيقاف نشاطاتها، ولم تكتف أنقرة بهذا النصر فبعد أن كشف الأتراك عمق المشاعر القومية الكوردية في جبل الكورد في شمال حلب أسرعوا بإدخال ضابط الخدمات الخاصة إليه، متنكراً بزي زعيم ديني كوردي وتحت إسم (الشيخ إبراهيم) الذي إستطاع أن يجمع حوله عدداً كبيراً من المريدين (الأتباع)، وأعلن حرباً ضارية ضد أغوات المنطقة وأسرهم وأنصارهم. وبعد بضعة أشهر، دخل الجبل كله، الذي يسكنه أكثر من (٢٥٠) ألف نسمة، في لهيب الحرب المدنية.

وبدلاً من تدخل السلطات الفرنسية حينها لوقف المجزرة، فقد كلف رجال الدرك السوريين بهذه المهمة. ولقد إنسحب هؤلاء الدرك بسرعة من ساحة المعركة وقد خُذلوا تماماً لأن عددهم لم يكن كافياً، كما إن تسليحهم لم يكن مناسباً، تاركين الطرفين يتذابحان بلا شفقة أو رحمة. ولقد دامت حرب الأخوة هذه التي نشبت في بداية عام ١٩٣٩، أكثر من عامين وأدت الى مقتل (١٠) آلاف شخص ودمرت منطقة مزدهرة وزرعت بذور الحقد الشديد بين الأهالي. أما بالنسبة للشيخ إبراهيم، فحينما إنتهى من مهمته إختفى بصورة غامضة دون أن يترك أثراً. ولم يُعرف أبداً ما إذا كان شيخاً حقيقياً أو ما آل إليه أمره...

بعد أن غرقت الثورات الكوردية في كوردستان تركيا في الدماء بوحشية، كان نظام الحكم في أنقرة يراقب في كل مكان أدنى حركة لهيجان كوردي ويتدخل لذلك في غير ما يجب بشكل مباشر أو غير مباشر. نتيجة هذا الحدث، كان المناضلون الكورد الذين نزحوا من تركيا بالإضافة الى المناضلين السوريين، يجازفون في كل لحظة لأنه أُخبر عنهم وطاردتهم الحكومة التركية تحت إسم (مجرمي الحكومة المشتركة)، كانوا قد طوردوا وخُطفوا وأغتيلوا. وكان أجدادنا يسدون النصائح إلينا بأن ننتبه ونكون يقظين وحذرين. وكانوا يوصونني بعدم السفر بالقطار من قامشلي الى حلب أو العكس لأن الخط الحديدي كان تحت المراقبة التركية على مسافة كبيرة. كنت أتعرض للخطر حين أجد الهموم فيه، وذات يوم، قادتني الظروف لإختيار القطار للعودة من حلب الى قامشلي، كان ذلك في ٢ نيسان ١٩٤٢، حيث وجدت نفسي محجوزاً عشرة أيام في أحد فنادق حلب.

كنت قادماً من بيروت[٤٥] عن طريق دمشق وأنا أحمل عدة حقائب مليئة بالثياب والكتب والصحف والمجلات والصور والهدايا، وكان يجب أن أكون في قامشلي في أسرع وقت ممكن. وكانت سيارات الخدمة والباصات تعمل حينئذ على خط حلب والجزيرة مروراً بدير الزور على نهر الفرات، لكن الأمطار التي كانت تهطل منذ شهر، حوّلت الطرقات غير المعبدة الى مستنقعات موحلة بالإضافة الى برك الماء التي كانت تغمرها دون أن تفتح ممراً للسيارات. وقد نصحني عدة سواق من معارفي بالسفر بالقطار لأنهم لم يستطيعوا السفر من حلب. وكان في فندقي عدد كبير من أهالي قامشلي جاؤوا لقضاء أعمالهم في حلب، جاء البعض ليبيعوا فيها المنتجات الزراعية والماشية الموجودة في الجزيرة، والبعض الآخر لتجديد بضاعة مخازنهم بالأقمشة والأحذية والشاي والبن والسكر والصابون. ولم يكن معظم هولاء المسافرين (الكورد والسريان والأرمن والعرب واليهود) غرباء عليّ. وكان البعض منهم على علاقة وثيقة بأخي ومن بينهم شاب سرياني كاثوليكي يدعى (جورج إزميرلي) الذي كان يسكن مع عائلته بجوارنا في قامشلي. وكان إزميرلي يهتم بتربية الدواجن وبيع المواشي فكان كل شهر ينقل البعض منها في بعض عربات القطار الى حلب ليبيعها الى تجار الجملة. ولدى وصولي الى الفندق، كان إزميرلي قد جاء بالفعل للقيام بتجارة كبيرة، وبحوزته رزمة كبيرة من الأوراق

النقدية السورية في كيس وكأنه يستعد للعودة الى قامشلي بالقطار ويلح عليّ كي أرافقه، فقلت له:

– ليست لدي أية رغبة لأعاني ألاماً شديدة كبقية الكورد في السجون التركية.

– صدقني، سيمضي الأمر دون متاعب. في المرة الأخيرة لم تطلب مني الشرطة التركية بطاقتي الشخصية فلو أنها عن طريق الصدفة، أرادت أن تخلق لك المشاكل، فإنني سأضع تحت تصرفك نقوداً كثيرة كما ترى. نستطيع أن نشتري هؤلاء الموظفين ببضع عشرات من الليرات أو حوالى مائة ليرة.

– لكني أحمل في حقائبي كتباً ومجلات باللغة الكوردية تتعلق بالكورد ، فإن كشفوها ماذا سيكون رد فعلهم؟

– ليس لديهم الوقت لقراءة الكتب ولايعرف معظم عناصر الگمارك القراءة والكتابة إلا بصعوبة، ومع ذلك بما أنك تملك عدة حقائب لا كتباً أخرى، أدخلها بين هذه الكتب فإنها ستغطي حروفها اللاتينية تماماً.

إن حجج جورج إزميرلي بالإضافة الى إستعجالي الوصول الى قامشلي أدت الى أن أقرر القيام بسفر مغامر.

وكان القطار بعرباته القديمة، ذات الزجاج والمصابيح الداكنة تقريباً باللون الأزرق، ذا هيئة متشائمة وقبيحة ويقال بأنه إجتاز ساحات المعارك لأنه قديم جداً.

وجدنا مكاناً في عربة من الدرجة الثانية تشبه عربات أفلام الغرب الأقصى. وجلست مع جورج مقابل رجل وزوجته، عرفنا بعد ذلك أنهما معلمان، كانا يأتيان من (كيسبري)، ليذهبا الى وظيفتهما في ديريك، وهي إحدى المقاطعات الفرعية لمدينة ماردين في كوردستان تركيا. وفي الساعة الرابعة بعد الظهر أعطت إشارة الإنطلاق من ورائنا قاطرة بخارية تدخّن وتنفخ وتطلق صفيراً وتهز القطار في صرير الحديد الذي يصم الآذان. وبعد جسر الفرات وصلنا الأراضي التركية وكان الليل قد حلّ وكانت المصابيح المدكّنة بالأزرق القاتم قلما تنير مقصوراتنا. ودخل المفتشون الأتراك فوراً الى العربات مزودين بمصابيح جيب طويلة. وكان يرافق موظف الأمن والگمركي دركي يحمل موزراً (بندقية تحمل إسم مخترعها الألماني). وحينما وصل موظف الأمن بالقرب منا عرف صاحبي، فأخرج جورج من خُرجه سيگارة من علبة الدخان الإنگليزي وقال له:

– لك عندي هدية، فأجاب بفرح كبير:

– أحقاً؟ شكراً سآخذها بعد ذلك. وكنت قد أخرجت سابقاً بطاقتي الشخصية وأعطيتها له ليبرزها بدوره للمفتش ولكنه إكتفى بهز رأسه قائلاً:

– حسناً، حسناً، شكراً. وحينما وجد بأننا نفذنا منهم بشيء زهيد جداً، جئنا فوراً الى عربة المطعم وطلبنا الطعام الأفضل. والإنارة الطبيعية في عربة المطعم ونظافته ومعاملات موظفيه الجيدة الذين كانوا من يونانيي إسطنبول ساعدت على فتح شهيتنا للطعام، وكانت المقبلات والأطباق الأولى من الطعام واللحوم والجبن والتحلية المروية بخمر (تراس) تتتابع بهدوء وتتخللها القصص والنوادر. وحينما كنا في المطعم إقترح رفيقا سفرنا المعلمان أن يجلسا الى مائدتنا، فحاولنا أن نشاركهما الحديث ولكنهما كانا صامتين لدرجة أننا أردنا إرغامهم على الكلام، وتغير الوضع شيئاً فشيئاً فالشراب الذي قدمناه لهما حل عقدة لسانهما. فطرح علينا المعلمان عدداً كبيراً من الأسئلة حول نشاطاتنا والحياة الإقتصادية في سورية وأسعار المواد الموجودة، وكانا يقارنان تلك الأسعار بالتي هي في تركيا فإندهشا لأنها كانت أسعاراً زهيدة جداً وأنه ليست هناك مجاعة في سورية بالرغم من وجود الجيوش الفرنسية والإنكليزية فسألا بسذاجة من يجهل حقيقة معروفة على طول الحدود السورية التركية:

– لهذا كان المئات من الجنود والفلاحين الأتراك يجتازون الحدود الى سورية يومياً لعلهم يجدون شيئاً يقتاتونه.

– لماذا هذه الدهشة، هل هناك مجاعة في تركيا؟ فأجابت المعلمة قائلة:

– لسوء الحظ، وبالإضافة الى التعبئة العامة التي أدخلت عام ١٩٣٩ والتي حرمت الأرياف من الأيدي العاملة فإن زراعة الحبوب في الشرق قد أتلفت من قبل حشرة (السونة)[٤٦] في السنوات الأخيرة.

لم أستطع أن أتمالك نفسي فسألت قائلاً:

– ماذا تقصدين بالشرق؟ أجابت المعلمة قائلة:

– الشرق هو جزء من تركيا يضم محافظات ملاطية، إيلازيغ، دياربكر، ماردين، أورفه، سيرت، هكاري، وان، ومحافظات أخرى. فسألتها ثانية:

– وماذا جرى لهذه المحافظات خصوصاً؟ فقطع زوج المعلمة الكلام بعصبية وقال:

– لاشيء مطلقاً فهي كبقية محافظات بلدنا.

– يبدو إنه تاريخياً وحتى في عهد الإمبراطورية العثمانية كان يطلق إسم خاص على هذه المناطق أليس كذلك؟ فأجاب المعلمان بصوت واحد قائلين:

– إنها تشكل دوماً جزءاً مكملاً لتركيا إلا أنه في السابق كانوا يسمونها (الولايات الشرقية) واليوم يقال بكل بساطة (الشرق) (جنوب وشرق البلاد). فقلت لهما وأنا أرفع صوتي رغماً عني:

– ولكن على الخرائط العثمانية، رأيت (كوردستان أيالتلري) مكتوبة بالحروف الكبيرة،

وكل الناس يعلمون أن الشرق والجنوب الشرقي يشيران الى كوردستان لأن هذه الأراضي مأهولة بالكورد. فرد محاورانا على الفور قائلين:

- لاتوجد كلمتا (كورد وكوردستان) في معاجمنا إنهما من إختلاق أعداء الأمة التركية الواحدة التي لاتنقسم أبداً، وأضافا كذلك أراد الدساسون المدفوعون من قبل الدول الأجنبية أن يستغلوا هذه العبارات، ولكننا لقناهم دروساً لاتنسى واليوم بلادنا في مأمن من أية مؤامرة من هذا النوع، فتجرأت على أن أسأله قائلاً:

- نعم ولكن غداً وبما أنكما معلمان في ديريك ستتعاملان مع الأطفال الذين لايتكلمون سوى اللغة الكوردية، فكيف يمكنكما أن تخدما بلدكما وأنتما تنكران مثل هذه الحقائق؟ فقال الزوج بلهجة علمية:

- هذه الكوردية التي تتحدث عنها ليست سوى لهجة تركية مثل بقية دول العالم، هناك في تركيا لغة رسمية ولهجات ولغات بالإضافة الى لهجات محلية وإقليمية وستختفي جميعها بتعميم الثقافة. فحاولت أن أشرح له قائلاً لو كانت اللغة الكوردية فعلاً لغة متحدرة من اللغة التركية الأدبية والرسمية، فإنها ستختفي بلا شك كما تدّعي، ولكن في الواقع إن اللغة الكوردية مختلفة تماماً عن التركية فلها قواعدها وتراثها الشعبي وأدبها الخاص بها، وبهذا العمل لن تستطيع إفناءها بسهولة أو إستبدالها باللغة التركية. وطالما تمسكت بهذه اللغة التركية ستصطدم بمقاومة وعداء الشعب.

وبهذه الكلمات توقف القطار، حيث وصلنا الى محطة (تل أبيض). فنهض المعلم وهو يحدّق إلي بعينيه الزرقاوين المائلتين الى الخضرة، قائلاً:

- إنه لأمر مؤسف حقاً، إنك تتكلم باللغة التركية بشكل رائع ولكنك تدافع عن قضية سيئة جداً. ثم أمسك يد زوجته وخرج من عربة المطعم، فعاتبني صديقي (جورج) قائلاً:

- كان عليك ألا تتكلم بهذه الطريقة مع هؤلاء الناس، أولاً؛ كان جدالاً عقيماً وبعد ذلك نحن لسنا في سورية بل في تركيا، فقلت له:

- يجب أن نهز كيانهم وإلا فإن السياسة التي رسمها مصطفى كمال ستكون بمثابة إنجيل لهم.

- نعم، أنت على صواب، ولكن على المرء أن يتوخى الحذر.

بعد ذلك طلبنا مشروبات أخرى لننسى هذا الحدث ونجدد متعتنا وسرورنا، إلا أننا لم نخرج وتأخر القطار عن الرحيل. وعاد جورج الى مقصورتنا ليرى ماجرى للمعلمين. وقال له مسافر من قامشلي بأنه رآهما يتجهان الى أبنية المحطة من الجهة التركية.

لكن لماذا ذهبا الى هناك، لقد كانا يريدان أن يبدلا قطارهما في الدرباسية للعودة الى

ماردين ومنها الى ديريك. وكانت جميع هذه التساؤلات مثيرة للقلق.

كنا نشرب لكننا لم نجد الراحة كما لو أننا نشعر بمصيبة. كانت الثواني والدقائق تبدو طويلة وثقيلة، فلم يتابع القطار سيره بعد. أخيراً وبعد توقف دام حوالي أربعين دقيقة، تحرك القطار وبدأ يسير. ولما لم يعثر جورج على أي أثر لهما في عربتنا، قرر متابعة البحث في عربات أخرى، وأثناء غيابه جاء رجل ذو هيئة سليمة جداً وجلس خلفي وإستدار إلي موجهاً لي الكلام: أرجو المعذرة إن كنت قد أزعجتك، يبدو لي إني إلتقيت بك سابقاً في مكان ما لكنني لاأستطيع تحديد ذلك المكان، ربما يكون في قامشلي؟ إنك تسكن هذه المدينة أليس كذلك؟ كنت أتذكر حينها أنني قلت للمعلمين بأنني أسكن في قامشلي فإستحسنت ذلك محاولاً أن أكون ساذجاً قدر الإمكان وقلت:

– في الواقع هي مدينتي، فأضاف الرجل قائلاً:

– إذاً رأيتك هناك بالتأكيد.

فمنذ سنة كنت في مهمة في (نصيبين) وكنت أمر في أغلب الأحيان بقامشلي حيث أتناول الطعام في مطعم (گربيس).

– من المحتمل جداً، إنني أذهب إليه في أغلب الأحيان.

وتابع حديثه قائلاً: ألم تلق فيها السنة الماضية خطاباً مثيراً باللغة الكوردية بمناسبة عيد النوروز؟

– في الواقع، نعم.

– آه نعم، شاهدتك هناك. وأُقرُّ بأن الجماهير حيّتك بهتافات حماسية وأعطيتني إنطباعاً عنك كخطيب محنك إعتاد على الكلام الى الجمهور وإلقاء الخطب عليه. لم أخطيء أليس كذلك؟

– من وقت لآخر كنت أخطب للجمهور.

– أليس لك أخ طبيب أيضاً، وإن لم يخب ظني فهو ذائع الصيت جداً في قامشلي؟

– نعم ولكن أخبرني إلى أين تريد الوصول بأسئلتك؟

– آه، لاشيء بما إن شخصيتك لاتبدو لي غريبة، فإنني سمحت لنفسي بالإقتراب منك للحصول على فؤادك النقي، سامحني إن كنت قد أزعجتك. الى اللقاء، والى لقاء آخر في مطعم گربيس في قامشلي ربما!

وبعد أن حياني على طريقة الجنود الألمان، أسرع في الخروج من عربة المطعم، وبما أنني كنت مقتنعاً أن الشرطة التركية كانت تدبر مؤامرة ضدي، فقد رأيت مغادرة القطار على الفور وإيجاد وسيلة للمرور الى سورية دون أن تراني السلطات التركية. وفي الموقف القادم،

أسرعت نحو أحد أبواب الخروج الذي يحرسه دركي تركي يحمل بندقية بحربة، فمنعني من مغادرة العربة وقال لي (ممنوع). فهرعت الى المخرج الآخر ووجدته مغلقاً أيضاً بشرطي مماثل دفعني الى الداخل وهو يبصق ويقول (ممنوع)، وهي كلمة مشهورة لدى العسكر التركي فلم أجد بداً من العودة الى مكاني وإنتظار نتيجة الأحداث بقلب منقبض. وبعد بضع دقائق من سير القطار، عاد إليّ جورج وهو محاط بضابط وجنديين مسلحين. وأمرني الضابط بأن أتبعهم الى مقصورتنا وأنزل أمتعتي وأتبعهم الى مكان بعيد. فتوقف أمام غرفة البريد وطلب من المستخدم الشاب أن يخرج منها جميع الحقائب. فتلعثم هذا المستخدم وهو يرتعد قائلاً: ولكن أين سأضعها؟

- ضعها حيثما شئت، ما عليك إلا أن تدبر نفسك.

- نعم، نعم، سيدي الضابط، سأبحث عن مكان آخر وأعتقد أنني سأجده في الغرفة المجاورة.

وبعد أن أوقف الضابط الجنديين أمام باب غرفتنا، باشر بتفتيشنا فوجد مع جورج رزمة من الأوراق النقدية التي صادرها على الفور. ثم فتش جيوبي ربما لإعتقاده بوجود سلاح ناري فيها. وبعد أن خاب ظنه، إطمأن، وإكتفى بأخذ بطاقتي الشخصية السورية بالإضافة الى بطاقتي كمذيع كوردي في إذاعة بيروت.

وحينما كان يفتش جيوبي قبل تفتيش بناطيلي، وقعت يده على قداحة رائعة تعمل بالبنزين، وكانت هدية لي من صديق في دمشق. فتأملها الضابط بشوق ثم أعادها إلي وشاهدها أيضاً مستخدم البريد من الممر، وبعد أن غادرنا الضابط جاء يتوسل لأبيعها له.

فقلت له بحزم: إنها هدية والهدية لاتباع. فلم يلح أكثر من ذلك، لكنه لم يفقد الأمل بالحصول عليها.

كان جورج جالساً في غرفة البريد وهو ينتظر ويفكر، أما أنا فقد بقيت واقفاً متكئاً إلى النافذة أنظر الى الممر. كان الجنديان المنتصبين ومستخدم البريد الشبيه بالطفل الصغير، يحلمون جميعاً بقداحتي. إستعدت رشدي شيئاً فشيئاً وأنا أتأمل هذه اللوحة حول خطورة الوضع وتذكرت المحنة الشديدة التي أصابت (رشاد) بدياربكر.

رأيت حالته الهزيلة جداً لدى عودته الى قامشلي فقلت في نفسي: كلا، لايجب أن أصل الى ذلك الوضع، عليّ أن أتحرر من براثن (الگستابو) التركي، وتعني البوليس السري النازي، قبل فوات الأوان وقد أمضى رشاد أربعين يوماً حيث يُضرب يومياً في سجن دياربكر، وكان في السجن حارس من أصل كوردي يعطف عليه ويساعده على الصمود في حدود إمكاناته حينما كان يدس له الخبز تحت باب حجرته المنفردة وعبر شقوق أرضية الحجرة. وفي اليوم الذي جاء الوالي لتفتيش السجن، دهش لسماع صيحات مرتفعة جداً، وطلب

مشاهدة هذا الرجل الذي يصيح بأعلى صوته وأشاروا له على ذلك الرجل إنه رشاد كان قد ضُرب كثيراً، حتى إن جسمه لم يبق فيه سوى الجلد والعظم، وإسودّ من الضرب. لقد فكرت به كثيراً ذلك اليوم وفي مجابهة الشرطة التركية. إذاً كنت أخشى من إعادتي الى تركيا التي غادرتها إضطراراً حينما كنت في العاشرة من العمر، وكنت أخشى أيضاً من المعاملة نفسها ولكن كيف سأتخلص من هذه الكماشة التي أحس أنها تضيق حولي شيئاً فشيئاً؟

بعد أن بحثت جميع الوسائل الممكنة. والقابلة لتصوري، إرتأيت أن الحل الوحيد المعقول يكمن في أن ألقي بنفسي من النافذة أثناء سير القطار. لقد كنت شاباً رياضياً ومعتاداً على الصعود والنزول من الحافلات الكهربائية أثناء السير حتى ولو سارت بسرعة فائقة وبالصدفة في ذلك اليوم كنت أنتعل حذاء ذا كعب مطاطي لين، ففكرت بإلقاء نفسي من القطار متشبثاً بحافة النافذة ومتأرجحاً في الهواء ثم وضعت قدمي بكل قواي على العربة وألقيت بنفسي الى الخلف ووقعت على رجلي. في الحقيقة تمت مغامرتي بسرعة فائقة لم أكن أتوقعها. وبعد أن قررت الهرب وضعت يدي خلف ظهري وفحصت وضع النافذة وبعد قليل أخبرتني يداي أن نافذة حجرتنا كانت بمصراعين ينفتحان يمنة ويسرة. ويكفي سحبهما بهدوء لتنفتح دون مقاومة، بهذا الإكتشاف فرحت فرحاً كبيراً. وعزمت على الفرار فسحبت المصراعين بهدوء وتركتهما نصف مفتوحين، وبفضل الظلام المخيم على الحجرة لم يلاحظ أحد حركتي والآن كان يجب إيجاد وسيلة لشل حركة الجنديين الحارسين أمام غرفة البريد خلال بضع ثوان. فراودتني فكرة التضحية بقداحتي وأشرت الى مستخدم البريد قائلاً:

- لقد غيرت فكرتي وأنا مستعد لبيعك هذه القداحة. فأجابني وهو لايصدق ما يسمع:

- هل تمزح؟

- لا، لا، إفرح ها هي ذي فإستولى عليها المستخدم وهو مبتهج وطلب مني سعرها. فقلت له: أرى أنك معجب بهذه القداحة ومستعد لدفع الثمن الذي أطلب منك. ومع ذلك فإنني لن أستغلك. وكان بالقرب منا في الصالون ركاب سوريون عرفوها بالتأكيد، إذهب وإسألهم عن سعر القداحة من هذا النوع وسأعطيك إياها بالثمن الذي يحددونه لك وربما بسعر أخفض. ولكي يعود المستخدم الى الصالون كان عليه أن يجتاز الممر أي يمر أمام الجنديين الحارسين وهذه هي اللحظة الحاسمة التي إخترتها لأقفز من القطار. لكن عقلي الباطن قرر عكس ذلك.

وبعد بضعة أيام أخبرني جورج بأنني فتحت النافذة قبل أن ألقي بنفسي في الهواء وكان رأسي في البداية كما لو أنني أستعد للغطس في مسبح أو بحر. والجنديان اللذان ذهلا من خفة حركتي تدافعا ليعدوا خلفي وحاول أحدهما أن يجرني الى الأعلى ولكن الآخر ردعه عن ذلك وقال: دعه لمصيره فقد قتله الله قبلك!

حينما وقعت على يدي ورأسي، نهضت بعدئذ وهرعت لكي أبتعد عن القطار الذي كان

يسير بسرعة ٨٠ كيلومتر، ثم توقف وتراجع الى المكان المحدد لسقوطي. إن إكتشاف ساعتي التي وقعت في لحظة السقوط سهل مهمة الشرطة التركية ومن هناك الى ضوء الكشافات. كان الجنود والشرطة والدرك قد إنطلقوا لمطاردتي في غضون ذلك كنت قد إبتعدت عنهم مسافة كبيرة. وأثناء هربي الجنوني بدا لي فجأة أنني أسمع أصواتاً وأعتقد أنني أرى أشباحاً بالقرب مني، فإنبطحت بشكل عفوي خلف الأدغال. وحينما هدأ كل شيء وأصبح معتماً، نهضت وبدأت أسير كإنسان آلي، وبعد وقت قصير بدأ دماغي يعمل تدريجياً لكن الأشياء كلها كانت لاتزال غامضة بالنسبة لي وكنت أتساءل، أين كنت؟ لماذا كنت أتنزه تحت المطر وسط الظلام في هذه الحقول بينما كنت أنام سابقاً في سريري؟ "آه، كنت في قطار حجزني الأتراك في حجرة وهربت من هذا القطار بإلقاء نفسي من النافذة. أما الآن وفي هذه الساعة أين أنا؟ في سورية أم في تركيا؟ وفي أي منطقة من هذين البلدين؟ وحينما كنت أتساءل وجدت درباً، فتبعته وكانت مطرة ربيعية ناعمة قد رطّبت الليل دون أن أتبلل كثيراً فساعدتني على الإستيقاظ من غفلتي، وبعد بضع دقائق، بدت لي بيوت وأشجار ودنوت من مدينة، أية مدينة هي؟ لم أتأكد بعد بأنني في سورية وبدأت أشعر بالخوف لكنني لم أوقف سيري، وفجأة صرخ أحدهم: من هناك؟ تحدث بالعربية، فأجبته قائلاً:

- أنا.

- حسناً، يمكنك المرور ففهمت حينئذ أنني في سورية، والبلدة كانت (عامودا) التي تبعد حوالى (٣٠) كيلومتراً عن قامشلي، وحينما دخلت الى مجمع سكني، تأكدت أنني في عامودا، وهي مدينة كوردية صغيرة كان لنا أصدقاء كثيرون فيها من بينهم كنا نفضل (عائلة شيخ موسى) التي إشتهر أفرادها بشرفهم الرفيع وطيبتهم النزيهة. كنت أعرف بيوتهم جيداً، ولكن في تلك اللحظة لم أكن قد أستعدت صحوتي بعد فسألت أحد المارة ليقودني إليه. ولكنه دُهش تماماً حينما رآني في هذه الساعة المتأخرة في شوارع عامودا وسألني:

- ماذا جرى لك إذن؟ يقال بأنك ضُربت. إن بيت عمي هو أمامك تماماً. هيا إليه بسرعة وستروي لنا مغامرتك.

كان الباب موصداً والصمت يخيم على الدار وكان علينا أن نقرع وننادي فجاء (محمد علي) وفتح لنا الباب، وحينما رآني دُهش، وأدخلني بسرعة الى صالون الضيوف وجهز سريري، وبعد أن إستيقظت من النوم حاولت أن أشرح له ولأهله ماجرى لي، ولكن السقوط كان قد زعزعني بشكل كبير، فجاءتني الحمى وبدأت أهذي. كان الأتراك يبتهجون بالقبض علي ولكنهم لم ينالوا ماكانوا يتوقعون ولن يظفروا بنا. لقد إنتصرنا عليهم صدقوني! لقد ظلت كلماتي محبوسة مدة لابأس بها. ثم بدأت أغفو وقبيل الصبح أيقظتني ضوضاء وأنا مذعور. كان أخي وعشرات من أصدقائه الأرمن والكورد والآخرين قد أسرعوا الى الصالون الذي كنت أرقد فيه ليطمئنوا تماماً أنني مازلت على قيد الحياة. وإرتموا على عنقي وقبّلوني

طويلاً وهم يذرفون الدموع.

ورأيت أخي وصاحب المطعم الأرمني (گربيس) يذرفان الدموع كالأطفال ويديران ظهرهما لي لمسحها سراً كما لوكان ذلك قد وقع بالأمس. فقلت لهم:

- مامن داع للبكاء، ترون جيداً أنني في أحسن حال.

بهذه الكلمات قفزت من السرير، ولكن لسوء الحظ إرتخت ساقاي وسقطت خائر القوى. فأجلسوني على السرير. ففحصني أخي ليتأكد من عدم وجود كسر في ساقي. وكان رأسي ويداي لازالت ملطخة بالطين، وكانت قبضات يدي وأصابعي تؤلمني. وفحصني الدكتور نافذ فحصاً دقيقاً ولم يكشف أي كسر أو صدع، كنت أشكو من رضوض بسيطة، فبالنسبة للأصدقاء الذين كانوا يحيطون بي، فإن نجاتي من ذلك الحادث كان بفضل العناية الإلهية. لقد كانت تلك معجزة تستحق قرباناً.

ووعد (گربيس) بتقديم قربان الى الله، فقام بشيّ خروفين لتلك المناسبة ولكن النهار أوشك على الطلوع وكان علينا أن نعود الى قامشلي. وبالرغم من أن الحادث جرى ليلاً، فإن جمهوراً غفيراً من الناس تجمعوا أمام منزلنا وأرادوا رؤيتي ومصافحتي. وبعد فراري بفترة، سارع الأتراك بإعلام السلطات الفرنسية والإنگليزية في قامشلي بأن جاسوساً ألمانياً خطيراً قد ألقى بنفسه من القطار وإتجه الى الأراضي السورية، كان يجب إغلاق الحدود والقبض عليه قبل أن يرتكب أعمالاً تخريبية.

وبعد يومين، جاء رجال الأمن الفرنسيون والإنگليز لإستجوابي عن هذا الحادث. وحينما قصصت عليهم روايتي، ضحكوا ووعدوا بتقديم مذكرات إحتجاج الى السلطات التركية لأنهم خرقوا حقوق المسافرين السوريين وتعهدوا أيضاً بأن يحاولوا المستحيل لإستعادة أمتعتي التي لم أرها أبداً. أما بالنسبة لرفيقي في السفر (جورج إزميرلي) الذي لم يكن عضواً في الحركة القومية الكوردية، فقد نقل الى (ماردين) حيث ظل هناك ثلاثة أيام وبعد أن فرض عليه الأتراك غرامة مالية قدرها (٥٠٠) ليرة سورية، أعادوه الى قامشلي. وخلال شهور طويلة كان الناس في الجزيرة وعلى طول الحدود التركية يتحدثون عن هروبي من القطار. وفي ربيع عام ١٩٤٢، عزمت على الإنخراط في مجال الزراعة لأكون على إتصال بالشعب الكوردي ولأكسب قوت يومي.

حتى عام ١٩٤٥ لم تكن للأرض أهمية كبيرة في الجزيرة وكان من الممكن الحصول عليها بشروط ملائمة جداً. وكان مكتب الحبوب، التي يمكن خبزها، الذي أنشأته وأدارته السلطات الفرنسية والإنگليزية في سورية، يبيع للمزارعين الأرز والحبوب المستوردة من مصر، ومن كان يستطيع أو يملك رؤوس أموال أو حقولاً قابلة للري، كان يمكن أن يزرع الأرز. وكان هناك رجل لبناني يدعى (م. خباز)، مدير مصرف سورية ولبنان في قامشلي، كان رجل أعمال ذا رؤوس

أموال كثيرة، إستطاع أن يستثمر قسماً كبيراً من الأراضي على طول الجزيرة ونجح نجاحاً باهراً في مشروعه، حتى إنه لُقِّب بـ(ملك الأرض في الجزيرة). وفي الوقت الذي كنت أتأهب لزراعة أرضنا في (حالو صفّان) جاء (م.خباز) ليقترح عليّ إستثمارها سوية. أراد أن يغريني بالوسائل الكبيرة والملاك الكافي من المستخدمين الذين كانوا يخدمونه. فرفضت رفضاً صريحاً لأنني وجدت كفايتي في المزارعين السابقين من الكلدانيين الكورد (ولم يكونوا يتكلمون سوى الكوردية) الذين إلتجأوا من كوردستان تركيا. فكنت أجهز لهم الأرض والماء والحبوب بينما كانوا مكلفين بكل الأعمال. وكانت قسمة العائد مناصفة (٥٠٪) لكل جهة. وكانت الفوائد التي يستفيد منها المزارعون فريدة من نوعها في المنطقة. لاسيما وأن زراعة الأرز لم تكن تتم فيها عن طريق الغرز بل كانت الحبوب تزرع نثراً كالقمح. ومع ذلك كان العمل يتطلب حفر قنوات الري وإعلاء أطراف الحقول لجعلها أحواضاً واسعة مليئة بالمياه. حيث كان النبات يسقى طوال أسابيع. ولم تكن هناك أية راحة لكن هذا النشاط الجديد يوفر لي وقتاً كثيراً لأطوف بالقرى وأجري مناقشات سياسية وإجتماعية ودينية وأدبية سواء كانت مع الفلاحين الكورد أو مع المسؤولين الفرنسيين والإنكليز. وكنت أبذل جهوداً جبارة لإقناعهم بالإهتمام باللغة الكوردية. منذ عام ١٩٤٣ أظهر الفرنسيون والإنكليز، من أعلى الى أسفل طبقة، وفي كل مكان، عطفاً تجاه الشعب الكوردي. ففي سورية تُرجم هذا العطف الى الزيارات التي قاموا بها الى الزعماء السياسيين والوجهاء، ولاسيما في العراق الذي كان الإنگليز يحتلونه منذ عام ١٩١٩، حيث ظهر فيه هذا العطف. وإبتداءاً من عام ١٩٤٣ نُفي الشقيقان (أحمد ومصطفى البارزاني) بالإضافة الى عدد كبير من قبائلهم الى مدينة البصرة وظلوا قيد الإقامة الجبرية والمراقبة، أما بقية أعضاء الأسرة والقبيلة فقد شُتتوا في الجهات الأربع من العراق. وهُجّر جميع سكان منطقة (بارزان) من البصرة الى السليمانية التي كانت بدورها مركز القومية الكوردية في العراق.

وفي ذلك العصر كان في تلك المدينة تنظيم سياسي أُسّس حديثاً يدعى (هيوا)، وكانت له فروع في جميع أنحاء كوردستان العراقية، وكان من بين كوادره وأعضائه، الفلاحون والطلاب والمثقفون والزعماء الإقطاعيون والضباط الذين كانوا يخدمون في الجيش العراقي. وكان عملهم السري قد أتى ثماره. وفي عام ١٩٤٣، إستطاع (مصطفى البارزاني) وبعض رجالاته بمساعدة إدارة (هيوا) الهروب من السليمانية والوصول الى منطقة (بارزان). وإحتاج لوقت قصير لكي يجمع حوله بضع مئات من المقاتلين من قبيلته. فهاجم حينئذ مراكز الشرطة العديدة التي كانت في مسقط رأسه ولم يجد أية مشقة بإقتحامها والإستيلاء على أسلحتهم، وعرض (البارزاني) الذي أصبح قوة مرعبة، على بغداد لائحة بالمطالب القومية. وكانت ألمانيا حينئذ قوية جداً ومنتصرة في ساحات المعارك، أما إنگلترا فكانت تتغاضى عن العلاقات التجارية الجيدة المعقودة بين تركيا و(هتلر) حتى إنها كانت تصادق على تسليم المواد

الضرورية للصناعة الحربية الألمانية من قبل تركيا.

وكان يجب إبراز هزائم (ڤيرماخت) في الإتحاد السوڤيتي وفي شمال أفريقيا ليستطيع الإنگليز إنذار تركيا لمنع تسليم بضاعتها كالكروم الى الألمان. وحينما تأكدت إنگلترا أن تركيا تحتقر تحذيراتها، رحبت فوراً بالموافقة على فكرة الثورة الكوردية المسلحة ولم تتدخل هذه المرة مطلقاً لقمعها بقوتها الخاصة. وتركت لبغداد مهمة قتال المتمردين الكورد. أما من جهة البارزاني الذي سانده تنظيم (هيوا) فقد هزم الجيش العراقي وسار الى أربيل لكن (نوري السعيد) رئيس الوزراء العراقي في تلك الفترة، أسرع في طلب وقف إطلاق النار ودعا البارزاني للمجيء وتقديم المطاليب الى بغداد نفسها. فجاء البارزاني الى بغداد يرافقه وفد رفيع المستوى وحصل من الحكومة العراقية على الإعتراف بالحقوق الثقافية والإدارية لكوردستان العراق، وعلى طريق العودة مروراً بكركوك وأربيل، أستُقبل البارزاني من قبل الكورد كـ(منقذ كوردستان). ومنذ ذلك الوقت كنت أرغب بالذهاب الى العراق لألتقي بالزعيم البارزاني ومسؤولي تنظيم (هيوا). وبالرغم من تدخل أحد الأصدقاء وهو رقيب إنگليزي، رفضت السلطات الإنگليزية في قامشلي رفضاً قاطعاً إعطائي تأشيرة دخول الى العراق، فبحثت حينئذ عن وسيلة أخرى للذهاب. كان هناك عضو بارز في تنظيم (هيوا) تعرفت عليه في بيروت حينما كان يدرس الكيمياء في الجامعة الأمريكية، يأتي أحياناً من الموصل الى قامشلي لإنجاز أعماله. وإثناء إحدى زياراته أخبرته عن نيتي، وكان مستعداً يوم الخميس للبحث عني على الحدود السورية-العراقية ليقودني الى البارزاني. ومضت شهور وأوشكت أن أفقد كل أمل لولا أن جاء بعض الرفاق القاطنين في قرية على الحدود العراقية وأخبروني أن صديقي (أمادي) كان ينتظرني عندهم ليأخذني الى المسؤولين الكورد في العراق. فركبت حصاني فوراً، وبعد بضع ساعات وصلت الى بيته.

3

العراق ولبنان

- إثنا عشر شهراً في السجون العراقية، من الموصل الى بغداد
- إضرابان عن الطعام
- الحياة اليومية في السجون العراقية وفي معسكر إعتقال (عمارة)
- بين السجناء الكورد والعرب والأوروپيين
- وضع البارزاني تحت الإنتداب الإنكليزي
- دراسات في بيروت وفتح مدرسة ليلية للمهاجرين الكورد في لبنان

كنا في شهر تموز ١٩٤٤، في تلك السنة زرعت عدة أطنان من الأرز وكنت أنتظر لحظة الحصاد بفارغ الصبر، لكن حينما قال لي صديقي بأنه جاء من الموصل ليأخذني بنفسه الى (البارزاني وإدارة تنظيم هيوا) لم أتردد لحظة واحدة. ولم يكن لدي الوقت لأستشير أخي بشأن مشروع الرحلة هذه وإستطاع (أمادي) أن يقنعني في النهاية. وفي الغداة بدأنا المسير قبل الفجر ووصلنا الى الأراضي العراقية بسرعة. وبعد ساعتين رأينا أنفسنا وجهاً لوجه مع شرطيين إعتبرانا ألمانيين أنزلا بالمظلات بصورة غامضة وإختفيا حالاً خلف الهضاب، فقلت لأمادي:

– لقد كشفانا ولن يتأخرا بالعودة بعدد أكبر من الشرطة لأسرنا. فلنحاول العودة الى سورية قبل وصولهم الى هنا، فرد عليّ قائلاً:

– لا لن نصل الى الحدود إلا ويكونا في إثرنا، وحينما يروننا نلوذ بالفرار سيطلقون النار علينا. فلنتابع طريقنا كما لوكنا مواطنين بسطاء نسكن هذه المنطقة. فقلت له:

– لقد إستطعنا تدبّر أمرنا بالتحدث عليهم، أما الآن فليس بالإمكان أبداً إجراء تسوية ودية. فطمأنني أمادي، وقال:

– فلنفرض أننا أُوقفنا، فلن يحتفظوا بنا لوقت طويل. وكنت متأكداً أن البارزاني لن يتأخر في التدخل وطلب إخلاء سبيلنا، لم أكن أشاطر (أمادي) تفاؤله، ولكني لم أستطع أن أتركه للعودة وحيداً الى سورية، وبعد ساعة طُوِّقنا من قبل عشرة فرسان يرتدون الزي الموحد فصوبوا إلينا البنادق وهددونا بأن نقف ونرفع أيدينا. ففتشنا الرقيب لكنه لم يصدق صحة بطاقتي الشخصية السورية ولابطاقة صديقي العراقية ودس البطاقتين في جيبه وفك قيداً من حزامه

ومرر عقدة في يدي اليمنى والعقدة الأخرى في يد أمادي اليسرى، وسرنا على الأقدام عدة كيلومترات مطوقين بعناصر الشرطة حتى وصلنا الى المخفر فسألنا الرقيب قائلاً:

- من أنتما؟ ماذا كنتما تفعلان في هذه المنطقة؟ ماهي نواياكم الحقيقية؟ فأجاب أمادي إنه عراقي ومدرس كيمياء في ثانوية الموصل وإنه عرفني في بيروت وكنا صديقين حميمين، وإنه جاء ليبحث عني ويدعوني لزيارة العراق، أما أنا فقلت لهم:

- إن كنت لا أملك جواز سفر، فهذا يعود الى أن العراق وسورية يتصلان مباشرة بأحدهما الآخر وأن زيارتي الى العراق ستكون قصيرة جداً. وبعد أن أصغى الرقيب إلينا دخل الى مكتبه وتشبث بالهاتف ليطلب تعليمات من رؤسائه، كان يتحدث بصوت عال حتى سمعنا كل مايقوله وهكذا قُدر لنا أن نمضي هذه الليلة في هذا المخفر. وفي الغداة نقلونا الى (جفتك) وهي قرية كوردية تقع على ضفة نهر دجلة ومن هناك الى (تلعفر) وهي مدينة تركمانية على بعد (٥٠) كيلومتراً جنوب غرب الموصل. وكانت المرحلة الأولى طويلة بلغت حوالى (١٠٠) كيلومتر وتمت على الجياد. أما المرحلة الثانية فقد تمت في حافلة الشرطة. وحينما إنتهى حديث الرقيب الهاتفي أدخلنا الى باحة المخفر وحلّ أيدينا وأشار لحاجز مظلل مغطى بحصائر فإستلقينا فيه خائري القوى دون أن نمتنع عن ذلك. لقد كان فلاح كوردي يعمل على حراسة المخفر وخدمة الشرطة وجيادهم، وحينما علم بأننا كورد أشفق على مصيرنا، وقال:

- لاتخشيا من أي شيء، فلن يتجرأوا على الإساءة إليكما قط.

وفي المساء قدّم لنا البرغل واللبن والشاي، وظهر لطفه حينما جلب لنا بطانيتين صوفيتين لنتغطى بهما في العراء. وفي الغد منذ الفجر وبعد تناول فطور بسيط جعلنا رجال الشرطة نمتطي جواداً، ثم سلكنا طريق الموصل بحراسة أربعة منهم ووصلنا الى (جفتك) حوالي الظهر. وبما أن هذه الناحية لم تكن تحتوي على مخفر أو مقهى أو مطعم فقد أخذنا العريف الى منزل أغا القرية. وهكذا كان معظم الأغوات الكورد، وكان أغا قرية (جفتك) يستقبل أيضاً كل مسافر يقرع بابه ويقدم له الضيافة. وكان إبنه المعروف بمشاعره القومية الكوردية، طالباً لدى أمادي قد شجعه على المجيء والبحث عني في سورية ووعده بمساعدته في أخذي الى البارزاني. ولكن في ذلك اليوم وما إن رآنا بصحبة حراسنا حتى تظاهر وكأنه لايعرف أمادي وإختفى في حين جهز الخدم لنا الطعام، وإعتنوا بالخيول وإنطلقنا بعد قليل الى (تلعفر) ووصلنا إليها بعد حلول الظلام لنرقد هناك في أحد مكاتب الثكنة. وفي صباح الغد نقلتنا حافلة الشرطة الى الموصل والى قصر العدل بالتحديد، وبعد إستجواب قصير أصدر قاضي التحقيق مذكرة توقيفنا وتفتيش منزل رفيقي العراقي. ووُضعت في حجرة موصدة من الخلف في حين ذهب مفوض الشرطة القضائية برفقة شرطيين لتفتيش منزل صديقي وبقيت وأمادي محجوزين مدة يومين وليلتين في سجن المفوضية العامة لشرطة الموصل. وكنا فيه مقابل

مقاتلين من مقاتلي البارزاني تم أسرهما، حين كانا في مهمة حراسة في نقطة تابعة للمنطقة الكوردية، من قبل القوات العراقية وأخبرانا بأن إنگلترا بعد أن عرفت أن تركيا لاتسلم الكروم الى الألمان حاولت أن تغير سياستها وجهاً على عقب مع البارزاني وتجهز الجيش العراقي لشن الهجمات والمعارك ضده وقالا لنا إن الحرب لاتكون غداً، ولكننا مقتنعون بأنه من الآن وحتى سنة كاملة، ستحشد إنگلترا قوات هائلة ضدنا، فقلت في نفسي:

– لو كانت نبوءاتهم تتحقق لفقد كورد العراق فرصة أخرى بالتمتع بالحكم الذاتي داخل البلاد ولتفاقم وضعهم ودامت إقامتنا بلا شك في السجون العراقية.

وفي اليوم الثالث من وصولنا الى الموصل نُقلنا الى سجن المدينة المركزي. وكان علينا أن نقيم في زنزانة مخصصة للمشبوهين والمحكوم عليهم. وقضاء ليلة أو إثنتين في مكان يدعى (مطهَر) وهو ممر ضيق تطل عليه الحجرات المخصصة للمحكوم عليهم بالإعدام أو للسجناء الخطرين. كان هناك رجل، ذو قوة جبارة، مصاب بالهذيان، يسكن إحدى هذه الحجرات ويصيح دون توقف. فكان مرة الملك فيصل ومرة أخرى (كورنواليس) أو جورج الخامس. وكان يجب حينئذ التعرف عليه كما هو وإبداء الإحترام له مراعاة لحاله، وعندما وجد أنه لم يكن كذلك في السابق وأنه وُضع خلف القضبان الحديدية، بدأ يشتم ويصرخ ويرمي على الحراس والسجناء والمراقبين في الممر كل مايقع تحت يده وعندما لم يجد شيئاً يرميه كان يقضي حاجته ويملأ يده من برازه ويرميه الى (المطهر). وبالصدفة في تلك الليلة وبما أننا كنا راقدين قرب الباب كنت وصديقي أمادي الوحيدين اللذين سلما من قذائفه، ودخل ثلاثة حراس حالاً في حجرته وضربوه ضرباً شديداً حتى خرّ على الأرض وبدأ يغفو، أما نحن فلم نجد الى النوم سبيلاً إلا في الساعات الأولى من الصباح. وخُصص اليوم الأول في السجن المركزي لأخذ بصماتنا ولإجراءات إدارية أخرى وصودرت نقودنا وقُصَّ شعرنا ثم أجلسونا في مرقد بعض السجناء ولاسيما تركمان (تلعفر) وضواحيها. ولكننا أُرغمنا على النوم في الخارج على أغطية ممددة على الأرض. ومنذ الليلة الأولى إجتاحني القمل العنيد الذي أجبرني على أن أحك جسدي حتى الصباح وصدّ عني النوم. وبشروق شمس الصباح، وحينما أخرجت قميص نومي وقميصي ذُهلت وأنا أرى أرتال القمل المتراصة وهي تسير عليهما، لقد كانت بالمئات بل بالآلاف، كيف كانت تستطيع الإنتشار في هذه النقطة وفي هذه الأمكنة؟ ألم تكن تُقتل؟ أو هل كانت تسقط من السماء أثناء الليل؟

وإعتباراً من هذا الإكتشاف تركز إهتمامي الأساسي في سجن الموصل المركزي على قتل القمل، فكنت أضعها بين أظافر إبهاميَّ وأضغط عليها وكان الصوت الناتج عن سحقها يمنحني متعة غريبة، وكنت أعتقد بأنني أصرع بهذا العمل أعداء الشعب الكوردي الحقيقيين، هؤلاء الأعداء الذين تسببوا في شقائي ومازالوا يفعلون ذلك. كنت أتخيل نفسي أحياناً أطلق نيران الرشاش على رؤوس الجلادين السجانين الذين كانوا يضربون الأبرياء بالسياط دون

شفقة ولاسبب. هؤلاء السجناء الأبرياء الذين جعلهم الظلم والصدفة ألعوبة في أيديهم. لقد قتلت القمل بكثرة في هذا السجن الذي يسمى (حديث) حتى تلونت إبهاماي باللون الأحمر نتيجة دمائها. كان القسم المخصص للمحكوم عليهم بالإعدام يحتوي على معمل نسيج وورشة نجارة. وكان بضعة مئات من السجناء يعملون فيهما طوال النهار بأجر زهيد لايتعدى دينارين (ما يعادل عشرين فرنكاً سويسرياً) شهرياً، في الحقيقة كانت الرواتب في العراق قليلة: سألنا شرطياً عن أجره فأجاب بإنزعاج:

– خمسة دنانير. ولكنه أوضح قائلاً: إن راتبنا زهيد ولكن تأتينا النقود من الخارج من هنا وهناك، وكنا نلح عليه قائلين: والكل كم يساوي شهرياً؟ فأجاب قائلاً:

– خمسة عشر ديناراً.

وهكذا يندفع الشرطي بوقاحة الى الفساد، كان يستطيع أن يؤمن لنفسه دخلاً مناسباً، بينما السجين النساج لم يكن يملك شيئاً سوى أن يحمد الله على دينارين شهرياً. وخلال الأيام العشرة الأولى من إعتقالنا، لم أحصل وأمادي على أي خبر عن العالم الخارجي. وفي اليوم الثاني عشر أُستدعي صاحبي الى غرفة الإستقبال حيث إستطاع التحدث مدة عشر دقائق مع (والد زوجته) وعاد مقطب الجبين قائلاً:

– أخبرني والد زوجتي أن محامين كورد في الموصل مثلوا أمام السلطات المختصة للدفاع عنا أمام المحاكم. إلا أن هذه السلطات منعتهم منعاً باتاً من الإتصال بنا. إذن فإن الكورد قلقون بشأننا في الخارج، ويُطرح ألف سؤال حول مصيرنا. وفي اليوم الخامس عشر وبعد أن نفذ صبري، طلبت من السلطات القضائية والإدارية في الموصل بواسطة مدير السجن، المثول أمام المحاكم المختصة لتحاكمني وتحكم علي إن كنت مذنباً حسب القوانين، وإذا ثبت العكس سأطلب العودة الفورية الى سورية.

وعندما لم تجد محاولاتي أي رد فعل، عزمت على الإضراب عن الطعام. وخلال عشرة أيام، لم أذق أي طعام وكنت أكتفي فقط بشرب بضع جرعات من الماء من وقت لآخر. وفي اليوم الثالث من إضرابي، أنذرتني الإدارة بإعطاء أسباب قراري، فقلت لها: هذا بسيط، فقد مضى علي شهر هنا بين جدران سجنكم، يلتهمني القمل والغذاء رديء والمسكن سيء ولم أتلق أي نبأ ولازيارة أسرتي. ولاتستطيعون بالقانون سوى أن تتهموني بأنني عبرت الحدود من دون جواز سفر، وهذه مخالفة حسب قوانينكم، تستحق شهراً من السجن أو غرامة خمسة دنانير. أريد المثول فوراً أمام محكمة لأنني لاأرى أي داعٍ للإقامة طويلاً في السجن. فنهض المدير الذي دُهش لتهيجي وعزمي، وكان رجلاً بديناً ذا شعر أشيب وعينين سوداوين كبيرتين تبدوان مبتسمتين بقدر ما تكونان شرستين، نهض من مقعده وحاول أن يبرهن لي بلهجة رحيمة قائلاً:

– أشفق على شبابك، وإذا تابعت السير في هذه الطريق فإنك ستواجه الموت المحتم أو

المرض العضال. أعلم أنك على حق حينما تذكر شروط القوانين العراقية المتعلقة بالدخول اللاشرعي الى بلادنا. فلو كان ذلك يتعلق بنا وحدنا، لوضعناك دون تأخير في الجانب الاخر من الحدود. ولكن لسوء الحظ هناك يد قوية تلوّح فوق رؤوسنا سيفاً باتراً وتفرض علينا تصرفنا. يكاد قلبي يتمزق حين أرى جسدك الشاب يشكو من الألم والجوع. وصدقني أن هذا الأمر يجعل أسياد هذه البلاد لامبالين، هؤلاء الأسياد الذين قرروا تحويلك الى بغداد لدراسة وضعك عن كثب. فإن كنت أثق بك فلأنني من أصل كوردي وأشفق عليك. وسوف تسرني حينما توقف إضرابك عن الطعام فوراً. وخلال يومين على الأقل لن تشرب شيئاً سوى الحليب. سأجلبه لك بكمية كافية، والمهم أن تستعيد قواك قبل السير الى بغداد. وأضاف متوسلاً:

– ستصغي إلي أليس كذلك؟

لقد تأثرت بعباراته الصريحة وقررت إطاعته. وفعلاً لم يتأخر الحليب عني وكان كثيراً كما وعد المدير. وفي صباح الثاني من آب أخبرنا سجانونا بأننا سنستقل قطار المساء الى بغداد. وبعد الظهر كُبلنا بالسلاسل، وكان هناك شرطيان مسلحان بالبنادق يحاصراننا، ويقودنا عريف. وكان جمهور من الكورد ينتظر أمام باب السجن مما جعل الشرطة تحاول إبعادهم الى مسافة بعيدة عنا. وكان لي الوقت للتعرف على (أحمد بوطي) الذي كان في السابق وبموافقة المستشار الفرنسي (ألفونسي) قد أنشأ مدرسة كوردية في (ديريك). وكان يكفكف الدموع التي تسيل من عينيه بيد ويلوح لي بإشارات التشجيع بيده الأخرى. وتذكرت الماضي فجأة، حيث ظهرت صورة (أحمد) أمامي وحزنه علي لأنه رآني مقيداً بالسلاسل وكذلك إستحالة مصافحتي أو التحدث إليّ. هذه العوامل كلها أنهكت أعصابي وبدأت أبكي كالطفل. وبما أن الدموع المتدفقة على خدي تحجب عني الرؤية فقد تمهلت في السير، وبدأ الشرطي يسحب السلسلة المربوطة بقيودي بقوة لدرجة أنني أوشكت على السقوط. وعدت شيئاً فشيئاً الى صوابي وتبعت مسلّمي الشرطي بخطوات متسارعة دون أن ألتفت خلفي. وفي المحطة تولى أحد العرفاء وشرطيان بسيطان حراستنا وأجلسونا في حجرة من الدرجة الثانية المخصصة للشرطة عادة. وبعد أن إبتعد القطار عن الموصل أملينا سجائر لحراسنا وبدأنا الحديث معهم. من أين هم بالضبط، هل يعرفون بغداد، متى سنصل إليها، أي طقس يسودها في هذا الفصل؟ كنا نتشاطر الآراء كأصدقاء حميمين، وبعد لحظة إستدار العريف نحو مرؤوسيه، وقال لهم: نرى أن سجناءنا طيبون. ومن المؤسف أن ندعهم هكذا مقيدين بالسلاسل. سأحل قيودهم، مارأيكم؟ فهتفوا فرحين وقائلين:

– نعم، إنهم سادة كما يجب، إنهم يستحقون مراعاتنا لهم. فأضاف أمادي قائلاً:

– هذا مؤكد لاتشك في هذا الموضوع قط، وأسرع العريف يحل القيود طمعاً بمكافأة وإعتبر نفسه مستعداً لخدمتنا طوال الرحلة. ولكي يشكره أمادي على نواياه الطيبة، أخرج من جيبه نصف دينار ووضعه في يده وهو يتمتم له قائلاً: هناك المزيد لدى وصولنا الى بغداد.

وهكذا مضت رحلتنا دون مضايقات. وبُعيد ظهر الثالث من آب، وصلنا الى محطة بغداد. وكما كان وعدنا، وضعنا بقية الفدية الموعودة في جيب العريف وذلك عوضاً عن لطفه. ولم يمنعه ذلك من وضع القيود ثانية ليجتازوا بنا أرصفة المحطة. ثم نقلتنا حافلة الشرطة مباشرة الى المديرية العامة للشرطة، ومن هناك الى القسم الخاص بالمشبوهين في السجن المركزي. فوجدنا أنفسنا بعد قليل، في أحد أكبر السجون الإصلاحية في الشرق الأوسط حيث عهدونا فيه لرقيب مسؤول عن جناح المشبوهين الكبار. وغيّبنا الرقيب بسرعة في باحة واسعة وعميقة كان فيها ثلاثة مراقد كبيرة وبعض الحجرات الصغيرة خصصت إحداها لمكتب السجانين. وإستلم كل منا بطانيتين صوفيتين وتزاحم السجناء على بعضهم يفسحون لنا مكاناً وبسطنا أغطيتنا على الأرض ونتيجة الإرهاق والتعب ولهاثنا من الحرارة، تمددنا على الأرض لننام في لامبالاة تامة من الذين إفترشوا الأرض مثلنا. وبعد الساعة الخامسة من بعد الظهر، قُرع الجرس للإجتماع وتوزيع الطعام اليومي الذي كان عبارة عن رغيف من الخبز وحفنة من البلح الطازج. وللحصول على الزاد كان علينا أن نقرفص بصفوف منتظمة. ومن لم يكن يخضع لهذا النظام كان يُضرب فوراً بالصفعات وركلات الأقدام أو السياط وكان يُحرم بالطبع من الطعام. وكان السجناء اليائسون الذين لم تكن لديهم أية إمكانية للتزود بالطعام من جهة أخرى يطبقون تعليمات السجن بدقة، أما الذين لم يكونوا يتناولون هذا الطعام ويدبّرون أنفسهم بطرق أخرى، فلم يُرغموا على هذه الجلسة القرفصائية. فقررت وأمادي التخلي عن رغيف الخبز هذا وعن هذه التمرات والبحث عن وسيلة أخرى لاتميتنا جوعاً. في ذلك المساء كنا نتصرف ببقايا الهدايا التي كانت عائلة أمادي قد جاءت بها قبل رحيلنا من الموصل. أما بالنسبة للأيام القادمة فسنتدبر أمرنا. كنت أناقش هذه المسألة مع رفيقي وإذا برجل ذي وجه بهي وخدين زهريتين وجبهة عريضة، يتقدم نحونا. كانت رجلاه مقيدتين بكرة حديدية وزنها عدة كيلوغرامات ومربوطة بسلسلة أخرى طولها حوالى المتر. وحين إقترب منا، دُهشنا حقاً؛ إن الرجل الذي كان أمامنا لم يكن سوى (رمزي آغا)[٤٧] وهو كوردي من عائلة شهيرة جداً في منطقة (هەولير) في العراق. ففي عام ١٩٤١، وبينما كان يدرس العلوم الإقتصادية في الجامعة الأمريكية في بيروت، كان رمزي قومياً كوردياً مناهضاً للإنكليز، وأصبح متعاطفاً مع ألمانيا ودعا بالنصر لهذه الدولة على إنكلترا الخائنة عدوة الشعوب والسبب الوحيد لشقاء الشعب الكوردي. وبعد عام غادر بيروت للعودة الى بيته في العراق قبل الذهاب لمتابعة دروسه الإقتصادية في جامعة أستانبول.

بالنتيجة رحل رمزي الى ألمانيا وإنخرط في منظمة الشباب الألمانية التي تدعى (منظمة هتلر) وحصل على منصب موجه الحزب، وبعد فترة جندته الدوائر الألمانية المختصة برفقة أحد الضباط الألمان. أُنزل رمزي بالمظلة على أطراف مدينة (هەولير) أو أربيل على مقربة من إحدى قرى عائلته حيث أُستقبل فيها بحفاوة من قبل (عثمان) الذي كان خادم أبيه. كان

رمزي ورفيقه الألماني يرقدان بهدوء في بيت ريفي يعود لـ(رشيد آغا)، وإذا بالقوات الإنگليزية الرابضة في المنطقة تباغتهما أثناء نومهما. وأُقتيد رمزي والألماني والعجوز عثمان مجدداً الى بغداد. وأخبرتنا الإذاعة أن الرجال الثلاثة نقلوا بعد ذلك الى مصر حيث حُكم عليهم بالتعفن في أحد السجون في وسط الصحراء. كانت رؤية رمزي بلحمه وعظمه، تعلو وجهه نفس إبتسامة الطفل البريء الذي عرفناه سابقاً، مدهشة حقاً. وأفهمنا رمزي بأنه ليس من مصلحتنا أن يرانا الحراس سوية لكن لو إحتجنا لشيء فسيحاول مساعدتنا. ثم مر من أمامنا مع قرقعة السلاسل المرهقة وهو يمسك الكرة الحديدية بيديه وكأنه يحمل بحراً من الغم.

وبعد بضعة أيام من وصولنا الى سجن بغداد، إستطاع (علي حمدي) وهو ممثل تنظيم (هيوا) في هذه المدينة، أن يحصل على إذن بزيارتنا يوم الخميس، وهو يوم زيارة السجناء. وكانت الزيارات تتم في باحة قسم عمال المناجم. وكان صاحبي المستقبلي يعرف هذا المسؤول الكوردي جيداً، الذي يسكن نفس مدينته. فوجدناه في إحدى زوايا الباحة محاطاً بعلب الدخان والأكياس والعلب. فقال لنا بكل تواضع:

– لقد حملت لكم أشياء صغيرة، للأكل والتدخين عدة أيام، سأرتب أموري مع أحد المطاعم القريبة من السجن ليرسل لكم يومياً أطباقاً من الأطعمة الساخنة، وبالنسبة لثيابكم الداخلية القذرة فستعطوني إياها في الزيارة القادمة وسأغليها لكم في البيت وإلا فإن القمل ستصيبكم بفقر الدم. إني أعرف حالة سجوننا جيداً وقد أمضيت فيها فترة لابأس بها.

كان (علي حمدي) حينئذ في ريعان شبابه، قصيراً ونحيفاً وكان بوجهه البيضوي الأسمر ذو العينين الكبيرتين الكستنائيتين طويلتي الأهداب يعبّر عن كرم كبير وحياة متفانية ونضال وتضحية. وأثناء أقامتنا في بغداد أنفق الكثير ليؤمن حاجاتنا ويشد من عزمنا ويضاعف الجهود لإطلاق سراحنا وإستطاع أن يجعل مصطفى البارزاني يتدخل لدى السلطات الإنگليزية والعراقية لينهي أمرنا إلا أن تلك السلطات أشاحت بوجهها عنه وكانت تستعد للإنقضاض عليه، وكان وزير الدولة (ماجد مصطفى) الذي عُيّن عام ١٩٤٣ وزيراً لشؤون الشمال (أي كوردستان) والذي ينحدر من أصل كوردي، أُقيل من مهامه وإستدعي بعض الموظفين الذين وضعوا أنفسهم تحت تصرف البارزاني بإسم (ضباط إرتباط) الى بغداد وإعتُقلوا. لقد كانت جميع الوعود المتعلقة بالمجالات الإدارية والثقافية والإقتصادية مجرد مواعيد عرقوب. ودون أن تثبط عزيمته لجأ علي حمدي الى المساعي الحميدة للوزراء الكورد الذي كان منهم العالم اللغوي الشهير وعالم السلالات (توفيق وهبي)(٤٨) الذي كنت إلتقيته في دمشق عام ١٩٣٣ عند معزي العالم اللغوي والأديب (جلادت بدرخان)، فقال له حمدي:

– هذا الصبي الأشقر الذي رأيته في دمشق منذ عشرة أعوام يتعفن اليوم في سجون العراق.

مضى أكثر من شهر على وصولنا الى بغداد وإذا بإدارة السجن تستدعيني فكان هناك رجل ضخم يدير ظهره لي ويتحدث مع مدير السجن. وحينما أخبره المدير بوجودي إستدار نحوي ونظر إلي بعينيه الكبيرتين كعيني الغزال فصحت فرحاً:

– آه رشدي بيگ(٤٩). وأنا أركض نحوه لأصافحه فإنحنى رشدي ليضمني بين ذراعيه ويقبلني من جبيني، وتمتم قائلاً:

–إنه توفيق وهبي الذي أرسلني لأهتم بك، أخبرني بصراحة إلى ما تحتاج؟ فقلت له:

– لا أحتاج إلا الى الحرية وإذا إستطعت فساعدني بالخروج من هذا الجحيم والعودة الى منزلي.

– بالنسبة لإطلاق سراحك يقول لك توفيق وهبي إنه من الأفضل ألا تفكر به الآن وعليك بالصبر. في الواقع يناقش الإنگليز الذين ينافسهم الأمريكيون في هذه الأيام لمداراة العرب والمحافظة عليهم في مدارهم. وأي نشاط قومي كوردي يعتبر عملاً شريراً يؤدي الى إغضاب حكومة الجلالة وإقتنع الإنگليز بأنك وصديقك ضمن الحركة القومية الكوردية وقرروا إبقاءكم مسجونين في العراق، فأجبته قائلاً:

– لو كان الأمر هكذا فليمنحونا قانون المسجون السياسي ولينقلونا الى معسكر الإعتقالات البريطاني حيث سنتمكن على الأقل من التمتع بمكان أوسع من هنا، تابع رشدي بيگ كلامه بصوته العذب والحازم:

– ينصحك توفيق وهبي بأن لاتستعجل الأمور، حدثني عن الخدمات التي يمكن أن أؤديها لك هنا.

– إستعمل تأثيرك أو بالأحرى تأثير توفيق وهبي لأُنقل الى مشفى السجن لأنني أعتقد بأنني مصاب بحمى المستنقعات (البرداء)، فوافق رشدي بيگ قائلاً:

– أستطيع أن أفعل ذلك حالاً لأن مدير السجن صديقي وأكثر من ذلك سأجلب لك كل مساء طعاماً من منزلي سواء كنت في المشفى أو في جناح السجناء، والآن عد الى مرقدك وستأتيك أخباري.

في نفس اليوم نُقلت الى مشفى السجن الذي وصلت إليه ماراً بقسم المحكوم عليهم، وكان معظمهم محكومين بالأشغال الشاقة مكبلين بالسلاسل والكرات الحديدية التي كانت ضخامتها تتنوع حسب الأحكام الصادرة من قبل المحاكم.

كان سجن بغداد يحتوي على مصانع نسيج وورشات نجارة وملابس جاهزة وورشات أخرى لكنها كانت أكبر عدداً وأوسع من ورشات الموصل. إن مشاهدة الطقوم الموحدة المخططة بالأزرق والأبيض وكذلك السلاسل والكرات الحديدية المعقوفة في أقدامهم وضراوة السجناء

أمام الآلات وصرخات السجانين الجبارة، ذوي الوجوه القاتمة والشفاه المتدلية، أعطتني إنطباعاً بأني أستغرق في حلم فظيع أو أجد نفسي على كوكب خارج الكرة الأرضية، وربما في أعماق الجحيم، ولكن بعد قليل تغير المشهد حين رأيت أسرة المستوصف نظيفة جداً والحديقة الكبيرة المزهرة حيث سُمح لي بالتنزه فيها أطلقت صيحة إنفراج وفرح وحاولت أن أنسى حلمي الكابوسي. وفي الغد فُحصت بعناية بالغة من قبل مدير المشفى الذي شخص مرض حمى المستنقعات الذي كنت أشك فيه ووصف لي إبر (إلكينين)، ولم ينسَ رشدي بيك من جهته، فكان شقيقه يجلب لي ظهر كل يوم مقصفة تحتوي على أطعمة متنوعة ومغذية. كان يستطيع الدخول الى المشفى بحرية والتحدث معي دون أية رقابة. ومع أن الحظ حالفني بوجودي في المشفى الذي يعالجونني ويدللونني فيه فقد كنت أتألم لعدم قدرتي على إحضار صديقي أمادي إليه، الذي بقي وحيداً في جناح السجناء، إضافة الى ذلك كان مستوصف السجن يقتضي ضرراً آخر، فبما أنه كان تابعاً لمشفى كبير، كان يحتوي أيضاً على قسم الأمراض النفسية المشرف على الحديقة والمستوصف، حيث كان فيه عدد كبير من المصابين بالأمراض العقلية من جميع الفئات والدرجات، وبسبب حرارة بغداد المتوهجة صيفاً فإن النوافذ ذات القضبان الحديدية السميكة كان يجب أن تبقى مفتوحة أثناء الليل. وكنا نستيقظ على صرخات وعويل وضجيج المرضى. قمت بتمديد إقامتي في المستوصف بإرادتي على الرغم من الجوار المزعج والزوبعي والصاخب للمرضى العقليين الذين كانوا يقولون لي:

– جهز نفسك للرحيل الى سورية! هذه الإقامة إختُصرت قبل نهاية معالجتي.

وذات يوم جميل أصدر وزير الداخلية أمراً بإعادتي الى السجن حيث وجدت أمادي ثانية لكنه أيضاً نفس الجو المقرف، من الباحة الى الأرض المغطاة بالزفت الأسود. والذي لان بفعل الحرارة. لم يكن المظهر الخارجي المشؤوم والقذر لهذا السجن يحزننا وحدنا. فكنا نصطدم يومياً بأعمال ظالمة. فقد كان هناك عذاب (رمزي رشيد آغا) بسلاسله وكرته الحديدية والتهديد بالموت الذي يخيم عليه يومياً، وهناك عذاب (عثمان) خادم مزرعته الذي كان قد كُلّف بمهمة صاحب مقهى في مرقده. وكنا نتساءل:

– لماذا يحجزون، منذ سنوات، رجلاً يبلغ من العمر أكثر من سبعين عاماً جريمته الوحيدة هي إستقبال إبن آغاه في بيته الريفي؟ إن هذا التصرف القاسي اللاإنساني جعل الرجل العجوز مواطناً واعياً وثائراً، وحينما نسأله:

– من أنت ياعم عثمان؟ كان يجيب وهو يغلق قبضته الى الأمام:

– أنا كوردي. وكنا كلما شربنا القهوة عنده نبتهج بطرح هذا السؤال عليه، لا لشيء إنما للحماس والقوة الظاهرين في إجابته.

كان يكفينا بضعة أيام لكي نعلم هذا الفلاح الأمي العجوز القراءة والكتابة باللغة

الكوردية. وكان هناك بعض السجناء الذين يشوشون علينا من حولنا ورأيت الفلاح العربي، من جنوب العراق، المسجون منذ خمسة عشرة عاماً دون حكم، والذي كان إبن رجل ثري. وإتهم ظلماً بأنه قتل أبيه، هذا الأب الذي قُتل من قبل عم السجين وكان يبلغ من العمر خمسة عشر عاماً حينما إعتُقل. وخلال خمسة عشر عاماً ضُرب بوحشية مما أدى الى إفساد عقله ورداً على بعض الأولاد العراقيين كان يغني الأغنية الوحيدة التي يعرفها، ويرقص وهو يفرقع أصابعه وكانت كلمات أغنيته هي:

- "آه أيها الثعلب الخبيث، لماذا تأكل أفراخي؟ دعها تكبر، ستقدم لرجال الدرك الذين سيأكلونها مع الأرز وهكذا سنصنع السلام".

وبدا لي أيضاً الممرض الكوردي الأعرج الذي يعالج المرضى من أبعد زوايا البلاد التي لم يذهب إليها أي طبيب مجاز، كان يحقنهم بالإبر ويعطيهم الشراب والحبوب ويضمد جراحهم، ولقاء بضعة قروش كان يخفف آلام آلاف من الفقراء الفلاحين والفلاحات ويعيدهم لممارسة أعمالهم الشاقة في الحقول، فأزعج هذا الأمر طبيباً رسمياً قدم شكوى ضده فأوقفه ونُقل الممرض الكوردي من الموصل الى بغداد ومضى عليه الآن عشرة أشهر وهو يتأسى في هذا السجن بينما زوجته وأولاده الستة الذين ظلوا في الشمال ينتظرون أباهم وهو يحمل لهم شيئاً يأكلونه. لقد مضى عليّ وعلى أمادي ثلاثة أشهر ونحن خلف القضبان الحديدية في بغداد، وكانت الثواني والدقائق والساعات التي نعدها طويلة ومحزنة وخانقة. ولم نكن نطلب غير المثول أمام المحكمة للإنتقال الى معسكر الإعتقال المخصص للسجناء السياسيين. لهذا كنا نقدم عرائض لمدير السجن ووزير الداخلية ورئيس الوزراء (نوري السعيد). ولم يبق أصدقاؤنا في الخارج مكتوفي الأيدي، بل جعلوا الشخصيات الرفيعة تتدخل في الموضوع. لقد كان لمحاولاتهم تأثير على المسؤولين، وبعد عشرة أيام أخبرتنا إدارة السجن بأننا سنحول الى جهة أخرى. وخلال أيام كنت أنا وأمادي نعيش على أحر من الجمر ونوشك أن نموت من الفضول وعدم الصبر، وأخيراً ذات يوم خرجنا من هذا السجن المحزن. أما هذه الجهة الأخرى فهي معسكر إعتقال (عمارة) في جنوب شرق بغداد. سمعنا به سابقاً ونعلم أن فيه بعض المناضلين الكورد البارزين وبدلاً من إطلاق سراحنا، كانوا يضغطون علينا للوصول إليه بسرعة. لقد كانت خيبة أملنا كبيرة حين وجدنا أنفسنا مسجونين في إحدى حجرات المديرية العامة للشرطة في بغداد.

وحاولنا ان نتسلى بخير أو شر تلك الفترة التي لم تكن سوى توقف قصير على طريق العمارة. لكن توقفنا دام عدة أسابيع في هذه الحجرة الضيقة النتنة، حيث كانت فيها صفيحة صدئة تستعمل كمبولة (محل للتبول) وعلى العكس من السجن المركزي، فقد حُرمنا من الذهاب والزيارات. وكان معظم السجناء الذين جمعهم السجانون في الباحة كورداً إيرانيين جاؤوا للعمل في العراق دون جوازات سفر وطوردوا بلا رحمة من قبل الشرطة التي أودعتهم

السجن عدة أشهر قبل أن تطردهم الى إيران، وما إن وصلوا إليها حتى أسرعوا في إيجاد الوسيلة للعودة الى العراق من أجل لقمة العيش. وكانت قلوبنا تتمزق ونحن نرى الى أية درجة كان السجانون يضربونهم ويشتمونهم ويذلونهم قائلين:

– أيها الكورد القذرون! ماذا جئتم تفعلون في بلدنا؟ لماذا لايؤمن الشاه العمل لكم؟ جئتم لتسرقوا رزقنا إبقوا في بيوتكم ولاتأتوا أبداً لإزعاجنا.

فأجاب هؤلاء الكورد الإيرانيون المساكين:

– ولكن ما باليد حيلة، فقد صادر الشاه أراضينا وبما أنه لم يُبق أي مصنع أو معمل في مناطقنا فنحن مجبرون على القيام بأي عمل لكسب قوت يومنا وقوت أولادنا. في العراق نقوم بأقسى الأعمال، تلك الأعمال الشاقة التي ينفر منها العراقيون. دعونا إذن نعيش في بلادكم ونكون نافعين له!

إن منطقية هذه الحجة كانت تثير سخط رجال الشرطة بشكل كبير، فينهال حينئذ سيل من ضربات السياط والعصي على الكورد، وكذلك ركلات الأقدام التي كانت تلبس جزمات عسكرية كبيرة ذات نعال مسمرة (مزودة بمسامير). لقد أثارتنا هذه الآلام اليومية التي بعضها أفظع من الأخرى وطلبنا من مدير الشرطة إخراجنا من هذا المكان وإلا فنحن مستعدون للقيام بإضراب عن الطعام، وبما أن طلبنا لم يلق أي صدى، عزمنا على الصيام وبعد بضعة أيام، أقلق قرار إحتجاجنا أصدقاءنا بالإضافة الى السلطات، فحصل رشدي بيگ على إذن بمشاهدتنا وقال لنا بصوت رخيم: لايجب أن تعرضا حياتكما للخطر إن الوزراء الكورد يتفاوضون من أجل إطلاق سراحكم. فلو لم تكن هناك سوى الحكومة العراقية فإن القضية ستحل ولكن هناك أيضاً خلفهم الإنگليز الذين يعدون لتوجيه ضربة جديدة للكورد، ويقال أنهم لايتأثرون أبداً بإضرابكم عن الطعام فلايفيدكم أي شيء أن تُضعفوا أنفسكم وتصابوا بأمراض خطيرة.

– نعم لو بقينا هكذا فإنهم سيحتجزوننا هنا الى الأبد ويقتلوننا، فلينقلونا الى جهة أخرى كما وعدوا أو سنستمر في إضرابنا حتى الموت.

وفي اليوم العاشر من صيامنا دعانا المدير العام الى مكتبه الذي نُقلنا إليه بالبيجاما واللحى كثة واللون شاحب والخدود مجوفة. هذا الرجل الذي هو في الخمسينات من العمر، أسمر اللون وذا شفتين سميكتين فاحشتين، صرخ باللهجة العراقية: لماذا تعاندان بألا تأكلا؟ فأجاب أمادي بشجاعة:

– لأننا نرغب بأن تخرجونا من هنا وتقدروا وضعنا. فرد الموظف قائلاً:

– نخرجكما من هنا؟ وأين تريدان أن أضعكما، فندق سمير أميس؟! وصاح بأعلى صوته: يجب أن تبقيا في هذه الحجرة وستبقيان هناك لأنكما جاسوسان. فسألته قائلاً:

- أية جاسوسية تقصد؟

- أنتما جاسوسا البارزاني. فرد أمادي قائلاً:

- نحن كورديان مثل أي كوردي يحب شعبه ويبحث عن خيره، نحن نصيرا البارزاني بلا قيد أو شرط وبما إننا هكذا، فلا نجد أي مبرر لكي تفسدنا الحكومة في الزنزانات خصوصاً وأن البارزاني لايطالب سوى ببعض الحقوق الثقافية والإدارية، وأن بغداد وعدت بدراسة وضعنا بمزيد من الإهتمام. وحينما إستمع المدير العام الى البراهين، غضب وقرع الجرس ليعيدونا الى السجن وأمر مفوض الشرطة قائلاً:

- ضعهما في حجرتهما ودعهما يموتان جوعاً، هذان الخارجان عن القانون، وفجأة ظهر شرطة آخرون كانوا مختلفين علينا ودفعونا حتى حجرتنا. ووضع المفوض حينئذ القصعة في سجننا ليحثنا على وقف الصيام والإمتناع عن الطعام وهددنا قائلاً:

- كلما تعاندون تنالون ضربات الإدارة، لقد سمعتم جيداً كلام المدير وإذا لم تريدا أن تسجنا فردياً تحت الأرض التي لاترى النور أبداً، فأسرعا بإنهاء هذه التصرفات الصبيانية. لم نستسلم لإجراءات التخويف والتهديدات وجددنا عزمنا وفي الغد ظهرت معجزة، إستقبلنا المفوض بهدوء وعيناه تبتسمان:

- نبأ سار لكما، إستعدا للخروج من هنا.

- هل أُطلق سراحنا؟

- ليس تماماً، ولكن هذه المرة الأمر جدي، ستذهبان مباشرة الى العمارة، إنه بعيد لكنكما ستجدان فيه مكاناً واسعاً، أنتما مرتاحان أليس كذلك؟

- أجل هذا صحيح متى سنرحل؟

- بعد خمسة أيام بالضبط لو تناولتما الطعام حالاً، لأنكما ستحتاجان الى قوة كبيرة من هنا الى هناك لتتحملا السفر. فقبلنا إقتراح المفوض الذي لم يتوانَ في إحضار حليب الجاموس لنا ودقت الساعة المحددة للإنطلاق الى العمارة.

غادرت أنا وأمادي غرفتنا بفرح، وعلى الفور. وفي رواق السجن سارع السجانون الى ربط أيدينا بالسلاسل التي رُبطت ثانية بسلسلة أخرى أمسك بها شرطي بهذه الحالة وبرفقة نصف دزينة من رجال الشرطة، إجتزنا مدينة بغداد تحت أنظار الناس. وبعد عدة توقفات في مخافر الشرطة لم تدم طويلاً، واصلنا السير على الأقدام الى محطة البصرة. فصعد ثلاثة من الشرطة فقط الى القطار ليحرسونا حتى البصرة، ومن هناك تابعنا رحلتنا تحت حراسة مشددة في حافلة الشرطة حتى سجن العمارة، والرحلة التي جعلتنا نكتشف المناطق الصحراوية في العراق، مرت دون عقبات. فمنذ إنطلاق القطار من بغداد، فك حراسنا قيودنا ولم يكن القسم

الثاني من المسافة، غير أشجار النخيل، أقل بشاعة. وتوقفت مركبتنا في مواضع صغيرة حيث حق لنا تذوق مختلف أنواع البلح. كان الليل قد حل حين وصلنا الى معسكر العمارة. وذهب الحارس لإيقاظ ضابط الصف الذي سجل أسماءنا ومستوانا الدراسي ثم أوكل أمرنا الى شرطي.

كان مرقدنا عبارة عن عنبر واسع ذي نوافذ مكسورة وأسرة فارغة وكي نحتمي من البرد، لأن ليالي تشرين الثاني كانت قارسة، قررت وأمادي إحتلال السريرين الموضوعين في الزوايا المحمية أكثر من الريح. في هذه الليلة الأولى في معسكر العمارة الذي كنا نحلم به ونمسك عن الطعام من أجله في بغداد، لم نجد الى النوم سبيلاً على فرشنا التي كانت من القش ومغطاة بأغطية نتنة ورديئة. لدى إستيقاظنا تعرفنا على مسكننا الجديد، كان المعسكر عبارة عن ساحة واسعة في وسط الريف، شرق مدينة العمارة وكانت هناك مخيمات، ذات أحجام مختلفة، قد بُعثرت في هذه الساحة المحاطة بعدة صفوف من الأسلاك الشائكة ويحرسها في كل جهة من جهاتها مخفر مسلح من الشرطة. وكانت بعض المخيمات تحتوي على غرف ذات سريرين أو ثلاثة، ويحتوي بعضها الآخر على غرف فردية، وفي وسط الساحة، كان هناك حمام تركي يديره أحد السجناء، ويستطيع السجين الدخول إليه بعد أن يدفع أجرة بطاقة دخوله، وكل حسب دوره، وحسب وضع سجناء العمارة الإجتماعي ودرجة ثقافتهم، كانوا يُصنفون الى ثلاث فئات فلم تكن تحتوي الفئة الأولى سوى على باشا وجنرال كان قد شارك عام ١٩٤١ في الحرب ضد الإنكليز بقيادة (رشيد عالي الگيلاني) وكان أعضاء الفئة الثانية وهم أقل عداً من الأولى جامعيين وطلاباً وضباطاً وأطباء ومدرسين وآخرين. أما بالنسبة للفئة الثالثة، فكانت تضم السجناء المنحدرين من البورجوازية الصغيرة ومن الشعب وهم: الفلاحون والعمال وصغار التجار والمستخدمون.

قبل وصولنا بقليل، كان المعسكر يغص بالسجناء المتهمين بالنازية والتعاطف مع ألمانيا الهتلرية. ولكن حينما أوشكت ألمانيا على الهزيمة، أطلق الإنكليز بالتدريج سراح أعدائهم في يوم ما لإستبدالهم بكورد قوميين ووطنيين وديمقراطيين. ومن بين الكورد في سجن العمارة، وجدنا النقيب (ميرحاج)(٥٠) (من مواليد عام ١٩٤٣، كان قد عُيّن من قبل حكومة بغداد كضابط إرتباط لدى البارزاني) ورأينا القاضي السابق (عوني يوسف)(٥١) (الذي كان قد رفض إدانة الكورد الذين دخلوا الى العراق دون جواز سفر) و(سعيد عبدالغني) وهو من زاخو (جريمته أنه كان قد آوى عوني يوسف حينما كان قاضياً في هذه المدينة) وكذلك (عبدالله الشرفاني)(٥٢) زعيم قبيلة شرفان في شمال العراق، كان مفاخراً ومثيراً للإضطرابات.

وكان بين السجناء العرب قوميون معروفون منهم (صديق شنشل)(٥٣) صاحب ايديولوجية القومية الإشتراكية العربية، الذي كان يحلم بعالم عربي موحد يمتد من الخليج الى المحيط الأطلسي، كانت مشاعره المناهضة للإنكليز تجعله يتمنى إنتصار ألمانيا النازية. وبالرغم من

ثقافته وإقامته الطويلة في أوروبا، فقد كان (صديق شنشل) قصير النظر شوفينياً ولم يكن يُظهر أي تفاهم مع الكورد الذين كان يعتبرهم مثيرين للفتن لصالح الإنگليز. وكان يقول غالباً: إذا رحل الإنگليز فإن الكورد سيتعربون بسهولة.

وبالرغم من أن معسكر العمارة كان يُدار من قبل الإنگليز ومخصصاً للسجناء السياسيين، فقد كان معتقلاً خاصاً جداً لايشبه أبداً المعسكرات النازية ولا المعسكرات التي أقامتها الأنظمة الدكتاتورية في الدول العربية المستقلة، فقد كنا أحراراً بإلتقاء بعضنا البعض والتحدث والقراءة والكتابة وطلب الصحف، وكان يُسمح للسجناء المتزوجين بإستقبال زوجاتهم في مكان خاص، بعيد عن المخيمات، ولكن هذا الحق كان نادراً ما يُستعمل ويُطبق. وكان سجناء العمارة يؤجَرون كل أسبوع وكان راتبهم يتغير بالطبع بتغير فئتهم. فقد كان سجناء الفئة الأولى يقبضون ديناراً واحداً يومياً. أما سجناء الفئة الثانية فكانوا يقبضون نصف دينار وسجناء الفئة الثالثة يقبضون (٢٥٠) فلساً يومياً، إضافة الى ذلك كان لكل سجين الحق في علبة دخان يومياً. وخلال أسبوعين لم نقبض أنا وأمادي سوى (٢٥٠) فلساً يومياً على الرغم من أننا كنا من الفئة الثانية من بغداد. فصاح (ميرحاج) علناً لهذه الفضيحة ونصحنا بإرسال برقية مجدداً الى الوزير الكوردي (توفيق وهبي) فأتيت بنفسي الى مدير المعسكر وسلمته البرقية قبل العودة الى غرفة (ميرحاج). وما إن مضت عشر دقائق وإذا بالباب يُقرع. ودخل شرطي عراقي الى الحجرة وهو يفرقع جزمته ويحيي التحية العسكرية وصرخ رسمياً:

- ياسيد، جاء الأمر من بغداد، من الآن فصاعداً ستصبحون من الفئة الثانية.

ورحل الشرطي ولم أستطع و(ميرحاج) أن نحبس ضحكنا. كان للبرقية تأثير كبير دون إرسالها الى بغداد. وهكذا لن يستطيع قائد المعسكر أن يسرق من راتبنا ولن نعيش عليه بتقتير. وسيسمح راتب الفئة الثانية لنا بتأمين الحاجات بشكل طبيعي. كان هناك خدم يعملون بإذن من إدارة المعسكر، وكانوا مكلفين بتأمين بضاعتنا مقابل (٢٥٠) فلساً لكل سجين، فكانوا يأتون كل صباح للبحث عن النقود اللازمة ومطاليب السجناء، ويأخذون لوائح مشترياتهم ثم ينطلقون الى المدينة. وأثناء عودتهم كنا نبدأ بالعمل. ففي مخيم (سعيد عبدالغني وعوني يوسف)، كنا نطبخ. وكان (عوني يوسف) يأخذ دور الطباخ، بينما كنت مكلفاً بجلب الصمون لأنني لم أكن حينئذ أصنع أي شيء سوى القهوة التركية.

كانت الرياضة والحمام والحسابات مع الخدم والطبخ والمطالعة والزيارات من داخل المعسكر، وكانت المناقشات تؤدي الى إحياء معيشتنا في العمارة والأيام تمضي بسرعة. ولدى إحتجازي، كان هناك حدثان فقط أسخطا سلطات المعسكر. الحدث الأول تعلق بالشيعة(٥٤) الذين كانوا متشوقين لقتل أنفسهم بالتعذيب أثناء الأيام العشرة الأولى من شهر محرم (عاشوراء). وبما أن هذه الطقوس ممنوعة منذ الثلاثينات من قبل السلطات العراقية (التي كانت تريد في الوقت نفسه تأجيج مشاعر الحقد بين الشيعة والسنة) فقد إستمرت بصورة

سرية. ولتجنب أي حادث مزعج في المعسكر، حيث كان المساء الماضي من عاشوراء، جاءنا نائب المدير يتبعه عشرة من رجال الشرطة المسلحين الى مهجع المعتقلين الشيعة ليصادروا جميع الأسلحة الراضة والحادة فيه. وبالرغم من هذه الإحتياطات، فقد تم القتل الذاتي في الغد، نُقل على إثره عدة رجال الى مستوصف المعسكر.

كان الحدث الآخر هو هروب مناضل فلسطيني يعارض إنشاء دولة يهودية في فلسطين عندما كان رجال الشرطة ينقلونه الى بغداد لمحاكمته هناك. ولما تأكد هذا المناضل أن الإنكليز سيحكمون عليه بالإعدام كما فعلوا مع كثير من رفاقه في النضال، غادر حراسه بلا إستئذان في منطقة منبسطة لايعرفها جيداً، فقُبض على الفلسطيني وضُرب بوحشية. ونظم حينئذ بعض القوميين العرب في المعسكر مظاهرة أمام مكتب قائد المعسكر وهم يلعنون إنكلترا والصهيونية. وأدت كلمة الصهيونية هذه الى إندفاع الشرطة على آثارهم وبعثرتهم وإرغامهم على العودة الى مخيماتهم.

كنت لدى إقامتي في معسكر العمارة، شاهداً على الإقطاع الحقيقي في جنوب العراق. فأثناء شهر تشرين الثاني كله، من الفجر وحتى الليل، كنت أرى الجمال المحملة بالحبوب تمر متجهة الى مدينة العمارة. وكان الطريق الذي تسير عليه يقع على بعد بضعة مئات من الأمتار عنا، وهذا ماسمح لنا تمييز الأقدام العارية والثياب الرثة للجمّالين. وقيل لنا أن كل القافلة هي لشيخ عربي كان يملك حوالى ثلاثين قرية وآلاف الجمال، وكان الفلاحون يشقون من أجله ويعملون لديه كعبيد.

لم يكن الكورد والعرب وحدهم يقيمون في معسكر العمارة، فقد أقام فيه أيضاً البلغار والمجريون ومهندسون ألمان وفي عام ١٩٤١، وبعد أن فعلوها في إيران، حاولوا الهرب الى تركيا وأرادوا العودة منها بعد ذلك لئلا يقعوا في أيدي الإنكليز القادمين من الجنوب والروس من الشمال. ولكنهم أسروا من قبل الإنكليز وسُجنوا في سجن العمارة. وكان من سوء حظ مهندس مجري أن يقع في أيدي جنود إيرانيين أثناء هروبه، فهؤلاء الجنود وحينما شاهدوا صف أسنانه الذهبية، سارعوا بقلع المعدن الثمين من كل الأسنان. ورأيت المهندس المجري يروي لنا هذه المغامرة، وقد قُلعت أسنانه جزئياً. وبالرغم من هذه الذكرى السيئة، كان قد وضع كل مهارته وشغفه في العمل. وكان يستطيع، ولاندري كيف، التزود من نوع من الصفصاف، ويمضي وقته في صنع السلال وسلال الأزهار والصناديق والحقائب والكراسي والمقاعد التي كان يبيعها الى السجناء وحتى الى خارج المعسكر بواسطة الخدم.

وكنت أيضاً قد تعرفت الى سجينين لطيفين جداً، كانت لحيتاهما وشارباهما تفرض الإحترام. كان الأول عراقياً ذا عينين زرقاوين من أصل ألباني، والثاني آشورياً من العراق ذا وجه أسمر ولحية وشارب فحميين، وفي نهاية شهر شباط نُقل (ميرحاج) الى سجن القوات المتحركة، لحفظ النظام في بغداد، بحيث أنني إستطعت أن أتصرف بغرفته.

وبعد أيام كتب لي رسالة يقول فيها بأنه تمت محاولات جادة بقصد إطلاق سراحي وأن نواب البرلمان السوري البالغ عددهم ستة عشر نائباً، إتجهوا مباشرة الى (نوري السعيد) لكي يضع حداً لأسري. في شهر أيار فقط صدر أمر نقلي الى بغداد. وأمضيت ليلة جديدة في البصرة في أحد مكاتب الشرطة وعلى طاولة بلا غطاء، أرتعش من البرد حتى الصباح دون أن أتمكن من أن أغمض عينيّ. وفي مساء الغد أخرج عشرة من سجناء القانون العام من زنزانة ووضع السجانون القيود في أيديهم وبما أنهم كانوا يحاولون أن يربطوني مع أحدهم، فقد إعترضت بكل ما أوتيت من قوة، ورفضت مغادرة مخفر الشرطة مع هذه الجماعة فنادى رجال الشرطة وضابط الصف النقيب الذي صاح وقال:

– إما أن تقبل بأن تُقيّد مثل هؤلاء السجناء الآخرين، أو سأجعلك تنام هذه الليلة أيضاً على الطاولة دون غطاء.

بهذا التهديد إستسلمت وقدمت ذراعي الأيسر لإحدى حلقات القيد، وكانت الحلقة الثانية تشد معصم رجل كبير ذي ثياب رثة وقدمين عاريتين، وأرغمنا الحراس بعد ذلك أن نسرع الخطى لأنه يجب علينا الوصول في الساعة المحددة للقطار. لقد ضيع إحتجاجي الوقت علينا، وحينما وصلنا الى القطار لم نجد أي مقعد شاغر وتوجب علينا الجلوس على الأرض في الممر، ولقد شدّ الرقيب المسؤول على قيودي بشكل أقوى وصعد لينام على حاملة الأمتعة وبقيت جالساً على الحقيبة الصغيرة المصنوعة من خشب الصفصاف التي إشتريتها من السجن المجري.

كان القطار مزدحماً بالحجاج الشيعة الإيرانيين الذين كانوا ينوون زيارة كربلاء، مزار الشيعة المقدس، وكانوا فلاحين أحسوا بالبؤس والقذارة. وبعد خمس وعشرين متراً من السير شعرت وبأنني أهاجم من قبل حشرات، وبدأ جميع جسمي يحكني ووضعت يدي الطليقة على رقبتي فأمسكت حشرات صغيرة بأصابعي. لقد كان القمل! القمل الأسود الذي تغذى جيداً لدرجة أنه كان ذا حجم مدهش، سحقتها بين أصابعي وبحثت عن أخرى على طول ظهري وصدري، كانت توجد في كل مكان وتعدو بسرعة جامحة. وحينما رأى أحد رجال الشرطة إضطراري توسل الى الرقيب بفك ذراعي وأن يجد لي مكاناً للجلوس وقال:

– إنه سيد ولايليق به أن يكون في هذا الوضع. فأجابه الرقيب:

– لا، لقد أزعجنا كثيراً هذا المساء، إنها غلطته إن لم نكن قد وجدنا أمكنة جيدة فليتحمل نتائج عمله!

إن كلمة (سيد) هي نفسها لدى العرب، ولكنها تعني (أحفاد النبي) لدى الشعوب غير العربية المسلمة وخاصة لدى الشيعة، أثارت إضطراباً بين المسافرين الشيعة. فنهض الإيرانيون من مقاعدهم وجاؤوا نحوي ليقبّلوا يديّ وأعلنوا للشرطة أنهم مستعدون للتخلي عن أماكنهم

لي. إستيقظ الرقيب مذعوراً وأمرهم ألا يهتموا بي ويبقوا في أماكنهم وإلا سينزلهم من القطار، فتجمع الفلاحون الفقراء حينئذ، لأن معظمهم جاؤوا من إيران سراً، مثل كلاب رُوضت جيداً ولم يهتموا أبداً بالسيد الذي كنت أنا. وصل القطار قبيل الصبح الى محطة كربلاء، وحينما نزل السجناء والشرطة والحجاج، رأيت أن معصمي متورم ومؤلم في حين أن بقية جسمي كان يحترق كما لو أن الزنابير لسعتني فتذكرت القمل. لحسن الحظ تغير الوضع شيئاً فشيئاً وخلا القطار تماماً. ولم يبق في مرافقتي غير شرطيين لطيفين سارعا الى فك قيودي وإقتاداني الى عربة من الدرجة الثانية، فأعطيتهما نصف دينار وطلبت منهما أن يأخذاني الى أحد الحلاقين قبل أن يأخذاني الى سجن بغداد، فقالا لي:

– نعم. نحن في خدمتك.

وفي محطة بغداد، إستأجرنا عربة جياد أقلتنا الى صالون الحلاقة الذي كان يعجبني، وكان (ميرحاج) قد أعطاني عنوانه. بالصدفة سمح لي الشرطيان برؤية الحلاق والتحدث إليه بحرية، وبعد فترة كان رشدي بيگ يلحق بي في مديرية الشرطة، فقلت له:

– يجب أن تفعل كل شيء، لأكون محجوزاً في سجن القوات المتحركة مثل (ميرحاج). فوعد رشدي بيگ قائلاً:

– نعم، أعرف مدير شرطة الأجانب معرفة جيدة، فهو من أصل كوردي. سأذهب وأتحدث إليه. وبهذه الكلمات إختفى وعاد بعد عشر دقائق مبتسماً، لقد نجح في مهمته، وبعد قليل نقلتني سيارة الشرطة الى الحديقة الواسعة المظللة للقوات المتحركة(٥٥). جاء ميرحاج للقائي ويداه مبسوطتان على آخرهما، وأخذني الى غرفته التي كانت، في الحقيقة، عبارة عن شقة تحتوي على مطبخ صغير وتجهيزات عالية الجودة وغرفة وحمام! وكان جسمي الذي فتك به القمل لايحتاج سوى الى التطهير. فقال لي ميرحاج:

– خذ هذه ملابس داخلية نظيفة، والآن سيأتي (علي حمدي) لزيارتي وستعطيه ثيابك الداخلية القذرة.

ولدى خروجي من الحمام كان علي حمدي يتحدث مع ميرحاج، وقال لي:

– من الآن وحتى عشرة أيام كحد أقصى، ستُنقل الى المخفر الحدودي السوري (تل كوچك) وستُسلم الى الأمن السوري.

لقد كان ذلك نبأ عظيماً. وأخيراً سأكون حراً طليقاً وأجد أخي وأصدقائي. ومع ذلك فإن جعبتي إمتلأت بمعلومات أخرى تتعلق بكورد العراق، ومنظماتهم والتغيير الكلي للسياسة البريطانية بحقهم(٥٦). فقد أفسد تنظيم (هيوا) تماماً وتحاول الحكومة تشكيل أحزاب مناهضة كي تشجع النزاعات وبشكل موازٍ لهذه المساومات، وجد الجنرال الإنگليزي (رنتون) القائد السابق للواء (ديزرت تاتسي)، الذي كان في مهمة في صحراء ليبيا خلال الحرب

العالمية الثانية، وجد نفسه مكلفاً بتدريب الجيش العراقي ليقاتل في الجبال وستوضع "القوات الجوية الملكية البريطانية" تحت إمرته. إن إستعادة العداءات كانت محتملة ووشيكة، وسألته قائلاً:

– ماهو وضع البارزاني؟ هل لديه إرادة وإمكانية مقاومة القوات العراقية– البريطانية؟

– إنه يعلم بأنه أصبح اليوم الأمل الوحيد للشعب الكوردي، فهو وأنصاره البالغ عددهم (٣٠٠٠ مناضل مستعدون للنضال)، وتدخل ميرحاج قائلاً:

– لقد إنضم الكثير من الضباط الكورد على مستوى عال الى البارزاني. أما أنا، فما أن يطلق سراحي حتى أعود الى الشمال وأضع نفسي تحت تصرفه. إنه زعيم كان الشعب الكوردي ينتظره منذ قرون. فإن لم ينجح في العراق فإن كورد (مهاباد)، وهي منطقة محررة تماماً في كوردستان إيران، ينتظرونه وهم على وشك إعلان الجمهورية الديمقراطية الكوردية في مهاباد.

وعند المساء أحضر لنا رشدي بيگ مائدة تحتوي على مختلف الأطباق وغادرَنا (علي حمدي) وهو يحمل كيساً يحتوي على ملابسي الداخلية (المقملة)، هذا الكيس الذي ربطت فوهته بإحكام. وقال لي في الغداة. رغم أني أبعدت الكيس عني ولكنني وجت نفسي مغطى بالقمل. وفي اليوم الثالث من إقامتي في القوات المتحركة، أمرني وزير الداخلية بأن أستعد لمغادرة هذه الأماكن لأن وجودي فيها كان يشكل خطراً كبيراً على أمن الدولة. وعندما إنتهت المناقشات الطويلة مع ميرحاج والكورد الذين جاؤوا لزيارتنا؛ نُقلت الى قسم المحجوزين في السجن المركزي. وفي السهرة أحضر لي رشدي بيگ فرشة سميكة بالإضافة الى مائدة الريف التقليدية. كنت أتردد كثيراً في بسط هذه الفرشة الجميلة والجديدة على الأرض القذرة وأخشى أن أمدها لغزو القمل. ولكنني لم أخلَق لأخلد في هذا المكان المضياف.

في اليوم الرابع، إستدعتني إدارة السجن لتسلمني بطاقتي الشخصية بالإضافة الى المائتي ليرة السورية التي صادرها مني قاضي التحقيق في الموصل. فلم أصدق ذلك، هل كان ذلك ممكناً؟ فبعد إثني عشر شهراً لا متناهياً سأجد الحرية.

أتممت الرحلة من العراق الى سورية بالقطار برفقة شرطيين. وفي حوالي الساعة العاشرة مساءً، كنا في (تل كوچك) وهي مدينة حدودية سورية. وحينما وصلت الى المحطة، محاطاً بالشرطيين اللذين قدما ليسلماني رسمياً الى سوريا، هاجمني الأمن الفرنسي والأمن السوري الذي تأسس حديثاً. فمن من السوريين والفرنسيين سيهتمون بي؟ وأخيراً إستطاع موظفون شباب شجعان من الأمن السوري إنتزاعي من الأمن الفرنسي.

وبعد أن وقّعوا على المستندات التي أعطاهم إياها رجال الشرطة العراقيون، قام رئيس الأمن السوري الذي كان يعرف أخي الأكبر جيداً، بمرافقتي حتى قامشلي. لقد كان ذلك

إمتيازاً لأنه حسب القوانين المعمول بها ، كان يجب أن أُنقل الى السجن قبل المثول أمام المحكمة لخروجي بطريقة غير قانونية من سورية. ولكن رئيس الأمن السوري، قرر إعادتي الى أخي بعد أن أقسمت بالحضور أمام القاضي حالما يتم إستدعائي. وبعد بضعة أشهر جاء الإستدعاء وإستفدت حينئذ من عفو عام.

وحين قرعنا باب دار أخي كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، فقال وهو يشهق من البكاء:

- أخيراً، أنت هنا ياصغيري! أنت على قيد الحياة. لقد آلمتنا، شكراً لك يا إلهي. فقلت له محاولاً أن لا أنفجر بكاءً:

- نعم، كل شيء على مايرام وأنا سالم غير مصاب بأذى.

وخلال أيام وأسابيع كان جمهور من الأصدقاء وغيرهم يتهافت على منزلنا وأغلبهم من الشباب الفضوليين لمشاهدة (الناجي من الخطر) من أجل القضية القومية الكوردية و(ضحية الإمبريالية البريطانية) حيث كنت هذه الضحية بعد قضاء إثني عشر شهراً في السجون العراقية وكنت أقول لنفسي:

- إن الهموم والآلام الجسدية والنفسية التي كابدتها لم تذهب سدى برؤية شعب كوردي يبدو أنه أوعى وأرهف إحساساً بظروفه من العام السابق. وفي نهاية آيار عام ١٩٤٥، كانت سورية تعيش لحظات سياسية حرجة، فعلى الرغم من وعود الفرنسيين بالإستقلال عام ١٩٤١، فإنهم لم يكونوا يسرعون بمغادرة البلاد. ومقابل المعارضة السرية، ثم العلنية، للشعب السوري، لجأوا الى القوة والسلاح فقصفوا دمشق بالقنابل. وفي قامشلي قُوضت بعض المنازل نتيجة قذائف المدفعية والرشاشات الثقيلة، ومن على سطح منزل المستشار الفرنسي، الذي كان البناء الوحيد المؤلف من ثلاثة طوابق في المدينة، أطلقت القوات المتحركة نيران الرشاش على منزل وكيل الوالي السوري، وترك أخي مرضاه ليذهب الى سريره بعد أن طلبه لنجدته. لقد رافقته بينما كان إطلاق النار مستمراً بشكل متقطع. وإستفدنا من إستراحة قصيرة لتسلق الجدران والدخول الى منزل وكيل الوالي. وما إن دخلنا الى المنزل، حتى إنهالت رشقة من الطلقات على جدار المطبخ، والوالي الذي كان يرتعد كورقة، تكور على نفسه في الزاوية الأكثر أماناً من صالونه تحت حماية رئيس أمن شاب مسلح بمسدس آلي، فتأوه وقال:

- هل ترى مايفعلون؟ فحاول أخي أن يطمئنه قائلاً:

- يعرف الفرنسيون جيداً بأنهم لن يبقوا هنا لفترة طويلة، وإن عصبيتهم هذه ليست إلا قتال شرف[٥٧]، صدقني.

في الحقيقة وبعد فترة توقفت الإنفجارات، وخلت الشوارع وإزدحمت عيادة أخي شيئاً فشيئاً بالجرحى. وبعد بضعة أيام، ذهبت الى دمشق ومنها الى بيروت، لأنني كنت أريد متابعة دراستي. وكنت أرغب أن أصبح طبيباً مثل أخي الأكبر، لكنني في النهاية إخترت

العلوم السياسية، وحينما سجلت في معهد العلوم السياسية والإقتصادية في الجامعة الفرنسية ببيروت، فكرت في طريقة لمساعدة الشعب الكوردي للخروج من محنته، فجاءتني أول فرصة، حيث لم تكن البرامج الكوردية التي تبث من راديو بيروت قد ألغيت بعد، وإقترح عليّ الأمير (كاميران بدرخان) أن أحل محله، وفي ذلك الوقت لم يكن الفرنسيون المنهمكون بمشكلات كبيرة، يفرضون أية رقابة جدية على هذه المؤسسة ويسمحون لنا بالتعبير بحرية تامة. ففي مهاباد بإيران، كان الكورد على وشك إعلان الجمهورية الديمقراطية الكوردية بشكل رسمي، وفي كوردستان العراق، كان الإنكليز يستعدون لمحاربة البارزاني(٥٨) وجيوشه. ولم يتحدد نشاطي كمذيع بتقديم هذه القضايا الحالية، ولكن شمل التحدث علناً عن القضية الكوردية بصورة عامة، وقراءة القصائد القومية الكوردية والثورية ومناداة الكورد للإستيقاظ من غفلتهم والنضال من أجل حقوقهم. هذا العمل الذي أنجزته بشغف حتى يوم من عام ١٩٤٦، عندما وضعت السلطات اللبنانية يدها على إذاعة بيروت. وألغت البرامج الكوردية. ومقابل دراستي الجامعية، فتحتُ حينئذ مدرسة ليلية لتعليم كورد بيروت القراءة والكتابة بلغتهم، هذا العمل دام حتى عام ١٩٤٧. وفي خريف السنة نفسها وبعد أن حصلت على شهادتي الجامعية (الإجازة) في العلوم السياسية، عزمت على الذهاب الى سويسرا، لكي أحضر فيها رسالة الدكتوراه.

سويسرا... أو الجنة الأرضية! فالأهل الذين كانوا يدرسون فيها ظلوا في شوق وحنين إليها، وحسب رأيهم، كان السويسريون متسامحين، محبوبين وديمقراطيين وطيبين. وكنت أقول في نفسي أن مهد الصليب الأحمر، هذا البلد الذي لايشارك في الحروب والذي يصنع سكاكر لذيذة جداً (كنت مولعاً بها وأنا طفل)، يجب أن يكون بالضرورة بلداً عجيباً! وكنت أقول لنفسي لو أن سويسرا كانت هذا البلد المتطور، فإنني بلا شك سأتمكن من التحدث فيها عن المشكلة الكوردية. وحتى إن السويسريين ربما يهتمون بالكورد ويقدمون لهم يد العون ويفعلون شيئاً لإنقاذهم. وذات يوم من أيام الخريف، أبحرت وحيداً وأنا أطير من الفرح والأمل، من ميناء بيروت متجهاً الى سويسرا عن طريق إيطاليا.

4

سويسرا

- دراسات في جامعة لوزان
- دكتوراه في العلوم الإجتماعية والتربوية
- نشاطات لصالح القضية الكوردية
- تأسيس رابطة الطلاب الكورد في أوروپا
- رابطة الطلاب الكورد في أوروپا في مواجهة الأحزاب الشيوعية في الشرق الأوسط
- نتائج ندوة فنية مشهودة لناظم حكمت

كان يكفيني بضعة أيام لكي أعرف أن الناس الذين يعرفون شيئاً عن المسألة الكوردية في سويسرا كانوا نادرين جداً. كان البعض منهم قد سمعوا جيداً الحديث عن "شعب الجبال" المقاتل وصاحب روح الفروسية، ولكن معظمهم دهشوا عندما سمعوا الحديث عن الكورد وكوردستان:

- هل قلت "تركستان"؟

فكنت أكرر القول بلا ملل:

- لا، لا، كوردستان.

وإستناداً الى المصورات، شرحت عن الكورد وكوردستان. ولكي أنير الرأي العام، لجأت الى الصحافة والإذاعة السويسرية الرومانديه (وهي مقاطعة تتحدث بالفرنسية) بالإضافة الى المحاضرات العامة في الجامعة (كنت مسجلاً في مدرسة العلوم الإجتماعية والسياسية لكي أحضر فيها رسالة الدكتوراه في علم التربية)، وكنت أبدأ، بين الدروس، بمناقشات عنيفة حول القضية الكوردية مع الطلاب والمدرسين. وفي صيف عام ١٩٤٨، وبينما كنت أعمل في چيكوسلوڤاكيا بصفة متطوع من الفرقة السويسرية، فكرت بإثارة القضية الكوردية في إذاعة (پراگ)، لكن الچيكيين جميعاً أصيبوا بالهلع وأعادوني ببرودة، قائلين:

- لقد أخطأت الباب أيها السيد.

شيئاً فشيئاً توجب عليّ الرضوخ للأمر الواقع، وهو أن الچيكيين ليسوا أكثر إستعداداً لإنقاذ الكورد من السويسريين. ولكن هل ستفعل الأمم المتحدة ذلك؟ وفي خريف السنة نفسها، إستقرت الأمم المتحدة في قصر (شايو) في پاريس. وبما أنني كنت عضواً في الوفد

المسؤول عن مذكرة دبلوماسية حول الكورد، فقد عزمت الإلتقاء بالمندوبين بشكل فردي وإنتظرتهم بفارغ الصبر أمام قاعة الإجتماعات. وسلمت نسخة من المذكرة الى الدبلوماسي الدانماركي مع إلحاحي عليه بطرح المسألة الكوردية أمام الأمم المتحدة، فأجاب:

- سأقرأ هذا النص لكن لا أعتقد بأنني سأتحدث عن هذه المسألة.

فلم أفقد شجاعتي وتابعت إلحاحي على مندوبي منظمة الأمم المتحدة، فكان الرجل الوحيد الذي إستقبلني إستقبالاً حاراً هو ممثل يوگسلاڤيا. الذي كان يعمل كسفير في لبنان، وكان الأمر العجيب أنه كان يعلم بالمسألة الكوردية، فقال لنا:

- لقد أحرقت بلگراد أكثر من ست مرات منذ وجودها، وسيأتي اليوم الذي تحصل فيه كوردستان على إستقلالها، وسترون!

وهكذا وبفضل هذه الكلمات، كنت أشعر بأنني متفائل. وفي اليوم نفسه إستدعاني أمين المحفوظات في منظمة الأمم المتحدة، وقال لي:

- تعلمون بأن قوانين الأمم المتحدة لاتسمح بالتدخل في الشوون الداخلية للدول الأعضاء في منظمة الأمم المتحدة[٥٩]، فلا نستطيع إذاً التدخل في شؤون تركيا والعراق وإيران وسورية. وأنتم بشكل رسمي أتراك وسوريون وعراقيون وإيرانيون وحين تُقتلون وتتعرضون للإبادة الجماعية، فإن الأتراك والإيرانيين والعراقيين يقولون لنا إنها مسألة داخلية لاتخصكم أبداً. وهكذا ولسوء الحظ لاتستطيع منظمة الأمم المتحدة أن تفعل أي شيء. ولكن الآن وأنت تحمل ملف القضية، حاول أن تضخمه بقدر ما تستطيع وذات يوم، من يدري، ربما يتغير الوضع.

ولكن في لوزان كانت هناك هموم أخرى تنتظرنا. فقد كان أحد رفاقنا من كورد العراق قد وقع في أزمة لأن الحكومة العراقية ألغت منحته الدراسية. وفي هذا الوقت أتتني فكرة تجميع كل الطلاب الكورد في أوروپا في رابطة واحدة. وذات يوم من شهر كانون الثاني عام ١٩٤٩، أنشأ الطلاب الكورد الستة في سويسرا، الذين إجتمعوا في لوزان، رابطة الطلاب الكورد في أوروپا، ودعوا جميع الطلاب الكورد في أوروپا للإنضمام إليها. وتعهد كل منا بمساعدة رفيقنا العراقي مادياً وذلك بدفع بضع مئات من الفرنكات في الشهر.

إضافة الى ذلك، كان مجلس النواب والشيوخ (الكونگرس) في لوزان، قد إنتخبني رئيساً وقرر أن الرابطة ستنشر صحيفة شهرية باللغات الكوردية والإنگليزية والفرنسية تدعى (صوت كوردستان). كنت أعمل ليل نهار في تحرير المقالات والضرب على الآلة الكاتبة والناسخة. وبما أنه كان محظوراً علينا نشر (صوت كوردستان) في سويسرا، فإن أحد أعضاء رابطتنا في پاريس، تعهد بنشرها. كانت صحيفتنا تُظهر هول سياسة التمثيل المفروضة على الشعب الكوردي في تركيا والعراق وإيران وسورية، وتبين أيضاً التعاطف الطلابي والصحافة

الديمقراطية. أدى نجاحنا الى إثارة حقد الحكومات المسيطرة على كوردستان بالإضافة الى حقد أحزابها الشيوعية، وكانت هذه الأحزاب التي تستوحي أفكارها من المبادىء الستالينية، تفترض أن وجود رابطتنا يخالف وحدة الطبقة العاملة في تلك الدول، وأنه ينبغي إلغاؤها. والحزب الذي كُلِّف بهذه المهمة هو الحزب الشيوعي الإيراني (توده)، حتى إن رفاقنا في پاريس الذين كانوا أعضاء في توده، أصبحوا أدوات لذلك. وقال رفيقنا في پاريس الذي كان أحد الكوادر النشيطين في رابطتنا:

– إن الحديث عن كوردستان والقضية الكوردية وماضيها وحاضرها وحقوقها، ليس إلا تعبيراً عن الشوفينية الكوردية، وبهذا العمل تتعارض مع وحدة أهداف الأحزاب الشيوعية، فمن أجل الوصول الى السلطة، فإن الأحزاب الشيوعية في حاجة الى التجمع في جبهة متراصة، فكل العناصر الثائرة ستعيش داخل حدود هذه الدول. وإذا ما وصلت هذه الأحزاب الى السلطة، فمن المؤكد أنهم سيحسبون حساباً للكيان القومي الكوردي، وسيساعدون الكورد في الحصول على حقوقهم الأساسية، والحديث اليوم سابق لأوانه.

كانت تلك الحجج أمراً لا يطاق بالنسبة إليّ. ففي البداية لم تكن منظمتنا تتباهى أبداً بالقيام بدور حزبي سياسي ولكن بتنفيذ مهمة نقابية وثقافية. ففي المجال السياسي، لم تكن رابطة الطلاب الكورد في أوروپا سوى صرخة إنذار طلابي في مواجهة الخطر الذي يهدد وجود الشعب الكوردي. كنت أشك كثيراً بمصالح هذه الأحزاب التي تعظم وحدة الأهداف. كانت في البداية تنتهج شوفينية الأغلبية في البلدان التي كانت تضم كوردستان وحتى الآن. كما لم يتجرأ أي حزب شيوعي في الشرق الأوسط على ذكر المسألة الكوردية علناً. وحسب رأي الشيوعيين الأتراك[٦٠]، فإن الكورد غير موجودين أصلاً، أما بالنسبة للحزب الشيوعي العراقي، فإن الكورد الذين لم يكونوا يشكلون أمة بعد، قلما يتجاوزون مفهوم أقلية عرقية تافهة، أما بالنسبة لأعضاء حزب توده، فمع إنهم يعرفون جيداً بوجود الكورد في إيران، إلا أنهم يقولون بأن الوقت لم يحن بعد للإهتمام بهم ولا التحدث عنهم، وأخيراً، بالنسبة للحزب الشيوعي السوري، فقد كانت المسألة الكوردية في ذلك الوقت هي مسألة الأمة العربية. وحسب تصور زعيمه (خالد بكداش) وهو دمشقي من أصل كوردي، أنه على الكورد أن ينسوا ذاتيتهم وينخرطوا في الحزب الشيوعي ويناضلوا من أجل وحدة وعظمة الأمة العربية. وأثناء الإجتماع الذي عُقد في لوزان لمناقشة مصير رابطتنا، لم يحصل رفيقنا في حزب (توده) على أغلبية الأصوات. ونكاية بهذه النتيجة الإيجابية لبقاء رابطتنا، فقد طلبتُ حله من الرابطة، وبما أنني حُرمت من تعاون عضونا في پاريس، والذي إنشغل بأعمال شخصية أخرى، فلم أكن أرى إمكانية تحملي وحدي لمسؤوليات صحيفة (صوت كوردستان). ولقد تنازلت عن مهامي كرئيس لرابطة الطلاب الكورد في أوروپا[٦١] ورئيس تحرير صحيفة (صوت كوردستان)، وجدت الوقت الكافي لأنتقل الى دراستي وتحضير رسالتي

للدكتوراه(٦٢). لكنني لم أفقد أبداً الفرصة لأعبر عن رأيي لصالح الكورد وضد مضطهديهم. وكنت أشعر دوماً أن الحديث عن الكورد يثبت وجودهم في عيون "العميان" ولايضر أبداً بقضيتهم. ولهذا السبب وقبل عام من حل رابطتنا، إستجبت لدعوة مهرجان ومؤتمر الشباب الديمقراطي العالمي الذي كان سيقام في (بودابست). وكنت أحسب أنني سأجد فيه فرصة سانحة لوصف حالة الشعب الكوردي وأحصل فيه على تعاطف وود، لكن ممثلي الوفود والأحزاب الشيوعية في الشرق الأوسط عمدوا لجعلنا منزوين وغائبين عن هذه التظاهرة، لكن ورغماً عنهم، إستطعت أن أفرض وجود الكورد. فقمت مع العديد من رفاقي، نتباهى بالزي الكوردي ونثير فرح المصورين والفضوليين، ومع ذلك، فإن مشاركتنا لم تتحدد فقط بإظهار الملابس الفولكلورية، فأثناء يوم مناهضة الإستعمار، وأمام جمهور يبلغ خمسة آلاف شخص، ألقيت قصيدة كنت قد نظمتها حول الزعيم (مصطفى البارزاني)، والتي نُشرت في اليوم التالي في الصحافة المجرية. لقد كنت مندهشاً جداً بهذا الإهتمام بقضيتنا، حتى إن رئيس منظمة الشباب العالمي الفرنسي (گي دوبواسون) كان يجهل كل شيء عن الكورد، ولكن من أين كنا نخرج إذاً؟

نشبت حرب كلامية عنيفة بيننا، وإعتبرتني تنظيمات اليسار حينئذ كمنبوذ وعميل ومخرب. ومع ذلك وبفضل مساعدة أحزاب اليسار في أمريكا الجنوبية، إستطعت أن أشارك في المؤتمر، وكان ممثل الوفد الشيوعي السوري يريد أن يمنعني من تقديم تقريري، ولكنني أصررت بالرغم من المعارضة التي فُرضت عليّ من قبل منظمات الشرق الأوسط، وهكذا كان عليّ أن أعبر عن نفسي بإسم (الكورد)، ومن الواضح أنه لو كنت قد عبّرت عن نفسي بإسم (كوردستان) لأصدرت حكومات الشرق الأوسط تأنيباً عنيفاً لأحزابها اليسارية. وكنت محظوظاً جداً، فبعد أيام، في العاصمة البلگارية (صوفيا)، حيث كان مقر مجلس الإتحاد الدولي للطلبة، وبما أنني وصلت قبل المندوبين السوريين والإيرانيين والعراقيين والآخرين، إستطعت أن أُقبل فيه كممثل كوردستان، يا له من إنتصار! وحينما إتجهت الى سويسرا لم أكن أشعر بأي هم.

في شهر شباط ١٩٥٠ وبعد أن أسس (كريستيان نزارا) اللجنة الأوروپية لإطلاق سراح (ناظم حكمت) الذي كان في السجن منذ ثلاثة عشر عاماً، وحُكم عليه بالإعدام، كلفتني مجموعة الدراسات الإجتماعية في جامعة لوزان، حيث كنت عضواً فيها، لألقي خطاباً في إحدى الأمسيات تضامناً مع الشاعر التركي الكبير. لقد كنت مستعداً لأتحدث عن شاعري المفضل، وأنشد بعض قصائده، ولكن لأفضح النظام الدكتاتوري التركي. وكانت هناك إعلانات ملصقة في مختلف كليات ومدارس الجامعة، تعلن عن (ناظم حكمت) ولم يكن الطلاب الأتراك في لوزان، الذين كانوا حينئذ كثيرين جداً وقد ترسخت آيديولوجية أتاتورك في عقولهم، مرتاحين لذلك وقرروا عرقلة التظاهرة بقيادة رئيسهم وقبل أن أبدأ الخطاب،

نهض رئيس الطلاب الأتراك الذي سيصبح فيما بعد عميد كلية الحقوق في إسطنبول، ليحتج على تدخلي، فقال:

– ليس لنورالدين زازا الحق في مهاجمة تركيا. ولكن الفودي (نسبة الى مقاطعة فود بسويسرا) الذي كان يرأس الأمسية، سارع بإسكاته قائلاً:

– هذا المساء، سيتحدث نورالدين زازا بناءً على دعوتنا. وبعد خطابه ستكون هناك مناقشات، وإذا كانت لديك أسئلة لطرحها أو ملاحظات تبديها، فإفعل في ذلك الوقت، فسكت رئيس الأتراك. وعندما كنت أتحدث رأيت أن طلاباً أتراك كانوا يقتربون مني، مسلحين بزجاجات كوكا كولا الفارغة. وحينما تنبه الطلاب الأمريكيون الذين كانوا يراقبون القاعة، لتلك المحاولة، أجبروهم على الإبتعاد عني. وهكذا سمح لي هؤلاء الأتراك بأن أنهي خطابي بهدوء وطمأنينة ولكنهم أثاروا تمرداً من جهة الطلاب الإسرائيليين حينما هتفوا لخطيب يهودي كان يتحدث عن ڤيتنام:

– ولكن أسكت، بما أنك يهودي، فلا يحق لك أبداً أن تتحدث هنا، فتضايق رئيس الأتراك نتيجة ردود الفعل العامة وخاصة رد فعل الإسرائيليين، فقال:

– أرجو المعذرة من رفاقنا، فأنتم تعلمون أن لدولتنا علاقة طيبة مع إسرائيل، وإن اليهود في تركيا مواطنون مستقلون. فقال (ليڤي) وهو طالب عسكري متين البنية، على الطريقة (القوقازية؟) :

– نعم، نعم، نعرف ذلك، ولكن من الآن فصاعداً حاول أن لا تذكر أبداً مثل هذه الحماقات.

بعد هذا الحادث كنا نتوقع من الأتراك مغادرة المكان بسرعة، لكنهم لم يتخلوا بعد عن مشروعهم، وأسرع رئيس المجلس بإنهاء السهرة، وبعد شهر إستدعتني الشرطة الفدرالية التي جاءت الى لوزان خصيصاً لتلك الحادثة وأخضعتني لإستجواب طويل وصارم. فسألت الشرطي مندهشاً:

– ولكن لماذا كل هذه الأسئلة؟ فأجاب:

– بناءً على طلب سفير تركيا نجري هذا التحقيق معك. فقد هدد بسحب جميع الطلاب الأتراك من جامعة لوزان إن بقيت في سويسرا.

وبعد بضعة أشهر أمرتني الشرطة الفدرالية بمغادرة سويسرا في مهلة مدتها خمسة عشر يوماً مع منع العودة إليها لمدة عامين. ومع ذلك وبفضل تدخل صديق وفيّ ومحامي، تمكنت من الحصول على إذن بتمديد إقامتي من فصل الى فصل وحتى نهاية دراستي. وفي كل مرة كان الإذن بالإقامة يجب أن يأتي من مدينة (بيرن) بينما، حتى يوم الحادث الذي جرى في سهرة (ناظم حكمت)، فإن مقاطعة (فود) السويسرية سلمتني تصريحاً بالإقامة لمدة عام واحد. لقد أنهيت أطروحتي في بيت ريفي في منطقة (ديا بليريه) مقابل الجبال التي كانت

تذكرني بكوردستان كل يوم، حيث إكتشفت فيها المؤلف الرهيب والعجيب للكاتب الچيكي (فوجيك)، والذي يحمل عنوان (مكتوب تحت المشنقة)، وهي سيرة حياة توجب عليّ أن أستوحي منها.

وذات يوم من نهاية شهر حزيران ١٩٥٦ كان يبدو لي أنني متلهف لفعل شيء ما للكورد، وقد تأخرت عن ذلك كثيراً، فغادرت سويسرا متوجهاً الى سورية، فمن مرفأ (باري) قادتني الباخرة الى بيروت حيث وجدت أخي الأكبر وبعض الأصدقاء الكورد المخلصين الذين جاؤوا من قامشلي لإستقبالي بعد غياب دام عدة سنوات. وبما أنني حصلت على "دكتوراه في العلوم التربوية من جامعة لوزان"، فقد كان عليّ الآن، علاوة على مزايا هذا اللقب الجامعي، أن أكون جديراً بإخراج كورد سورية من الضيق وإنهاء حرمانهم من حقوقهم وتحقيق مطامحهم الأكثر سمواً. وحين نزولي من الباخرة، فهمت بأن كورد سورية كانوا ينتظرونني لفترة طويلة وطويلة... فخلال أشهر وسنوات قادمة في الشرق، هل سأكون جديراً بألا أخيّب آمالهم؟ وهل ستسمح لي الظروف بتحقيق المشاريع التي كنت قد تصورتها بتأثير النظام الديمقراطي السويسري؟

5

سورية

- سورية في عهد ناصر
- الكورد في مواجهة البعث والشيوعيين
- تأسيس الحزب الديمقراطي الكوردي في سورية
- توقيف
- سجن وتعذيب (في حلب ودمشق)
- من فائدة السياط
- النائب العسكري ينذر بالإعدام الذي يُخفف الى عام واحد من السجن بفضل المطالب الدولية

لقد مرت سورية في عام ١٩٥٦ بتحولات هامة في كافة المجالات، وذلك أثناء فترة رحيلي الى أوروپا وعودتي منها. فنتيجة لإنقلابات متتالية عام ١٩٤٩ من قبل حسني الزعيم فقد تمت مصادقة بين البورجوازيين والجيش عام ١٩٥٤ لإعادة بناء الديمقراطية بجميع وعودها النيابية الداعية الى الحرية وعلى الفور، أخذت الشركات المقفلة التي كانت مقاليدها بيد الطبقات الدنيا تأخذ أهمية كبيرة.

إن توسع زراعة القطن منح إنطلاقاً لا مثيل له في السابق في تطوير صناعة النسيج وصناعة الشوندر السكري في معمل السكر. وفي بضع سنوات كانت الزراعة قد قفزت قفزة أدت الى أن تصبح سورية دولة مصدرة كبيرة للقمح والشعير والقطن. وكان التعليم الإبتدائي والثانوي والجامعي يتسع شيئاً فشيئاً بين جميع طبقات المجتمع وكان تغير العادات واضحاً. ففي عام ١٩٤٧، وبإستثناء الشباب، كان معظم البورجوازيين في المدن الكبيرة يتبخترون في مشيتهم وهم يضعون القبعة على رؤوسهم. وفي عام ١٩٥٦، كان الذي يتجرأ ويضع هذه القبعة، يرى نفسه وهو يشار إليه بالبنان. وأصبح الخروج حاسر الرأس عادة من العادات الشائعة. أما بالنسبة لـ(الكماز) هذا الثوب المشقوق من الأمام والذي يُشد على الخصر بحزام عريض، وكان يرتديه بصورة عامة أصحاب الدكاكين وحرفيو الأحياء القديمة، فقد أصبح هو أيضاً نادراً. وعند النساء كان التطور الثيابي مازال مدهشاً جداً. فعند رحيلي كان ٩٩٪ من النساء المسلمات في المدن يمشين في الشوارع وهن محجبات. وبعد تسعة أعوام، أصبحت تلك

النسبة قليلة جداً. ومقابل هذه التغييرات، كان الجيش، الذي يلتهم أكثر من (٥٠٪) من ميزانية الدولة، قد إستقر في فيلق هائل من المجتمع السوري. فمن جيش صغير مرتزق خلفه الفرنسيون، تحول الى جيش قومي بقيادة الكوادر المنحدرة من البورجوازية الصغيرة الريفية المسيسة بصورة عامة والتي هي في خدمة أحزاب الوحدويين العرب. وكان يحلم بإنقلابات عسكرية ومجازفات على طريقة (دون كيشوت). ونتيجة إستغلال ناصر لهذا الشعور، فقد إستطاع عام ١٩٥٨، أن يفوز بسورية على طبق من ذهب.

في المجال الإجتماعي ربما يكون التحول الأكبر قد جرى في الجزيرة. فالإقطاعيون الكورد والعرب الذين كانوا يسيطرون تقريباً على معظم الأراضي والذين أدخلوا الآلات في الزراعة شيئاً فشيئاً، كانوا قد أجبروا قسماً كبيراً من مزارعيهم وعمالهم الزراعيين وجميعهم من الكورد على الهجرة الى المدن. وهكذا أصبح البعض منهم عتالين وتحول البعض الآخر الى العمل في البناء وآخرون تدربوا على ميكانيك الآلات أو جربوا حظهم في التجارة وفي نشاطات مربحة أخرى. وعند هؤلاء الفلاحين والثوار والمنفيين ستجد القومية الكوردية لها مرتعاً خصباً مثالياً. وفي ذلك العصر، كان الحزب الشيوعي، الذي حارب بشجاعة الحكومات البورجوازية لما بعد الحرب العالمية الثانية، والمناصرين للأمريكان، بالإضافة الى الأنظمة العسكرية، ذات النزعة نفسها، التي حلت محلها بعد ذلك، كان مدفوعاً نحو النجاح وكان أمينه العام (خالد بكداش) قد إنتُخب أيضاً نائباً في البرلمان السوري أثناء إنتخابات عام ١٩٥٤. وكان ستالينياً عنيداً ذا شخصية قوية، وكان خطيباً موهوباً يعرف كيف يثير الجماهير من حوله.

وكان رئيس الوزراء في ذلك الوقت البرجوازي المتحرر (خالد العظم)، وبتأثير من خالد بكداش، قد دشن سياسة الصداقة مع الإتحاد السوڤيتي. ونجمت عنها إتفاقات ثقافية وتجارية إمتدت الى التعاون التقني والعسكري عام ١٩٥٦، وكان الضباط السوڤييت بمرافقة الضباط السوريين يعملون على إعادة تنظيم الجيش السوري وتوافدت على سورية أسلحة سوڤيتية. خلال هذا الوقت، كان هناك حزب ينافس ليتصدى لشعبية الحزب الشيوعي، ألا وهو (حزب البعث العربي الإشتراكي) الذي أنشأه المثقف المسيحي (ميشيل عفلق)، الذي كان مروجاً نشطاً للنازية قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ - ١٩٤٥.

لم تكن آيديولوجية حزب البعث حينئذ تلقى ترحيباً مناسباً إلا لدى طلاب المدارس الثانوية وطلاب الطبقة البورجوازية الريفية الصغيرة بصورة عامة. وكانت الجماهير العمالية تظهر إزدراءً تاماً ضد هذا الحزب بإستثناء بعض الكوادر المذهبية. بعد أن ناضل البعث بكل قواه عام ١٩٥٧ لكي تجرى الإنتخابات البلدية في وقتها، وحينما شعر بأن حظوظه في النجاح قد نقصت الى أقصى حد، فقد كافح لإعادة الإنتخابات ثم عمل بدهاء لتخضع سورية لإستبدادية ناصر. وقبل أن يقبل الرئيس رئاسة مصر وسورية متحدتين في دولة واحدة هي (الجمهورية

العربية المتحدة)، فقد طرح شروطاً تعسفية أدت الى حل جميع الأحزاب السياسية. وكان البعثيون هم السباقون للخضوع لذلك بينما كان الحزب الشيوعي يرفض رفضاً قاطعاً وضع يد مصر على سورية.

وفي الوقت الذي يُستدعى فيه البرلمان السوري للتصويت على الإتحاد السوري- المصري، فإن هناك نائبين فقط سيرفضان الإقرار عليه، هما الشيوعي خالد بكداش (الذي سيقلع الى موسكو بعد فترة) ورئيس الوزراء خالد العظم الذي يفضل البقاء في سورية، وسيتعرض دوماً الى تهديدات من حكام المقاطعات النازيين الذين فرضهم ناصر. لقد عاش شيوعيو سورية حينئذ أياماً مظلمة وفظيعة، فأوقف عدد كبير منهم، وخضع الكثير الى أعمال تعذيب قروسطية (متعلقة بالقرون الوسطى)، والبعض سيموتون من جراء ذلك والبعض الآخر سيخرجون من أعمال العنف هذه عاجزين مدى الحياة.

أما من جهة كورد سورية، فقد كانوا يشعرون بأنهم مهددون ومستهدفون من قبل قومية حزب البعث، من جهة، ومن جهة أخرى فقد خدعوا من قبل الحزب الشيوعي (وهو الحزب الأممي نظرياً)، ولكنه في الحقيقة محامي القومية عند العرب وآيديولوجي للمواطنة العالمية في الأوساط الكوردية، والكوردي الذي كان ينظم الى الحزب الشيوعي السوري كان عليه أن يقرأ منشوراته باللغة العربية وينذر الرأي العام العالمي ضد أخطار الإمبريالية التي تهدد العالم ويجمع التبرعات لمساعدة الجزائر التي كانت في حالة حرب ضد فرنسا، ويضحي بنفسه على الحدود السورية- الإسرائيلية، ولكن عليه أن لايطلب أي شيء من أجل شعبه! كان عليه أن يصمت إزاء الحرمان الثقافي والإبادة العرقية اللذين كان الكورد ضحيتهما في سورية وتركيا والعراق وإيران، وكان العمل الوحيد لإثارة مثل هذه القضايا فوراً وبلا رحمة موصوماً "بالتعصب القومي" و"التجويل الآيديولوجي"، كنت أرى أنه بما أن أي حزب سياسي في سورية لم يكن قد عزم حينئذ على إعتبار وجود الكورد الذين يضطهدون يومياً، فكان من الضروري إنشاء منظمة تسمح لهم بصون هويتهم بالإضافة الى تطويرها لتمهد الطريق لتحريرهم القومي وذلك ضمن إطار الدولة السورية. وشجعني طلاب الثانويات والمدارس في دمشق في مشروعي كما لقيت تشجيعاً من المحاربين القدماء ومن الملالي والإقطاعيين والفلاحين البسطاء في المناطق الكوردية في سورية.

في نهاية عام ١٩٥٧، تحقق الحلم، فقد أصبح الحزب الديمقراطي الكوردي في سورية حقيقة واقعة، وكانت أهدافه تكمن في الدفاع عن الكيان القومي لكورد سورية، وتأمين الحقوق الثقافية والإدارية لهم (في إطار نظام ديمقراطي لمجموع البلاد). وما إن أعدت القوانين، حتى إنتخب الأعضاء المؤسسون للحزب الديمقراطي الكوردي لجنة تنفيذية مؤقتة ستعمل حتى إنعقاد المؤتمر، أي المجلس الأعلى للحزب. وبعد إنتخابي كرئيس للحزب الديمقراطي الكوردي، بدأت اللجنة التنفيذية في تجنيد الأعضاء. وبعد فترة قصيرة، وبالرغم من عملية إنتخاب

صارمة، فإن الحزب الديمقراطي الكوردي كان يضم أعضاء كثيرين. فنشرنا حينئذ وبطريقة سرية مؤلفات مكتوبة باللغة الكوردية والعربية لتثقيف الكورد وإعلامهم عن وضع الكورد بأسرهم في المناطق الكوردية بصورة خاصة، وكذلك إخبارهم عن الدول العربية والعالم بصورة عامة. كنا نعارض وحدة سورية مع مصر في ظل الحدود المفروضة من قبل ناصر، ونعمل على التشهير بها في منشوراتنا وبياناتنا. والدراسة التي قمت بوضعها حول الوضع الإقتصادي السوري بعد النفوذ المصري، سمحت لأعضائنا بإدراك أسباب ضم سورية الى مصر بوضوح. شعرت شيئاً فشيئاً بثقل الهيمنة المصرية. وأصبح الإستياء عاماً وشاملاً نتيجة الأزمة الإقتصادية ومفاسد السلطة الإستبدادية لعبدالحميد سراج، المفروضة على سورية.

ولإخماد هذه الروح القومية النامية، تفنن المصريون وحلفاؤهم في إيجاد كبش الفداء، وفعلاً وجدوه في شخص الشعب الكوردي، وخاصة في الحزب الديمقراطي الكوردي، فسموهم حينئذ "بالخونة" و"المخربين لصالح الدول الأجنبية" و"الإنفصاليين الذين يستهدفون إستقطاع جزء من سورية لإلحاقه بدولة أجنبية" والشعوبيون الذين لم يتعربوا، كانوا قد أصبحوا عملاء مأجورين في خدمة الدول الأجنبية العدوة للعروبة". وحينما علم رجال المباحث عن معارضة كورد سورية لسياسة ناصر، بالإضافة الى نشاط حزبنا، إستطاعوا أن يوقفوا عدداً كبيراً من منشوراتنا ويكتشفوا بعض أعضائنا وتمكنوا أيضاً من التحقيق في هوية مسؤولي اللجنة التنفيذية في حلب، وبعد عملية مراقبة لعدة أشهر، وفي الخامس من آب عام ١٩٦٠، أوقف هؤلاء المسؤولين وأقتيدوا الى قبو التعذيب في حي الجميلية في حلب، وعذبوا وضربوا بالفلقة(٦٣) لمدة ثلاثة أيام بلياليها، فشد جلادهم الحبل بقوة حتى إن لحم سيقانهم تقطع تماماً. أما بالنسبة للسياط فقد حولت هي بدورها أقدامهم الى كرات منتفخة جداً. وكانت الجزمات العسكرية تأتي بإستمرار على رؤوس وبطون والأعضاء التناسلية لرفاقنا بقصد إنهاكهم. وحطمت روح المقاومة لدى بعضهم، مما أدى بهم الى أن يتحدثوا عن الحزب الديمقراطي الكوردي في سورية ويبوحوا بالأسماء. كان رجال المباحث سعداء جداً لأنهم وجدوا "خطير المعاشرة" الذي هو سبب جميع شرور البلاد وبدأوا بملاحقتنا، وخلال بضعة أيام، أُوقف أكثر من (٥٠٠٠) آلاف شخص من بينهم أطفال تتراوح أعمارهم بين ١٢ - ١٥ عاماً، من كل أنحاء سورية، فضُربوا وعُذبوا ثم أفرج عن قسم كبير منهم. أما من جهتي فقد أُوقفت في ٨ آب ١٩٦٠.

في ذلك العصر ونظراً للإجراءات العنصرية تجاه غير العرب التي كانت سائدة في الجامعة، تركت منصبي في كلية التربية لأبني مستودعاً لإستيراد وتصدير المواد الصيدلانية، حيث كان يعمل عشرات المندوبين المنتشرين في أنحاء البلاد. وفي صبيحة الثامن من آب ١٩٦٠، وصلت الى مكتبي في الساعة الثامنة كالعادة، وحوالي الساعة العاشرة وبينما كنت أتصل هاتفياً مع أحد الأطباء، دخل ثلاثة مدنيين أقوياء البنية الى المكتب، فسألني أحدهم، وكان يبدو أنه زعيمهم، وهو يتكبّر قائلاً:

- أأنت الدكتور نورالدين زازا؟

فقلت بهدوء وأنا أشعر بحركة مزعجة في ظهري:

- نعم. فقال:

- مباحث، دع هاتفك وإتبعنا. فسألتهم:

- هل يمكنني أن أرى أوراقكم؟

- ليس عندنا وقت لإظهارها لك، ستراها بعد قليل، سيارتنا تنتظرك.

وبما أنني كنت أصر على التأكد من إنتمائهم لقسم المباحث، أظهر لي أحدهم في الثلاثينات من عمره، أسمر اللون وذو خدين منتفختين، بطاقته، فلم يكن لي سوى أن أتبعهم، ومع ذلك سألتهم ما إذا كنت أستطيع ترك بعض التوصيات لمعاوني وإجراء بعض المكالمات الهاتفية.

- نعطيك خمس دقائق تماماً لكي تتزود بالنقود ولاشيء بعد ذلك.

كنت أعلم بواسطة الأصدقاء الذين أوقفوا ثم أفرج عنهم من قبل المباحث، أن من الأفضل عدم إثارة هؤلاء الناس (المباحث)، الذين أختيروا خصيصاً لقوة جسدهم وضيق أفقهم وقساوتهم. فأخذت بضع مئات من الليرات السورية ثم تبعتهم. وكانت سيارتهم تشبه الدعسوقة من نوع (VW) واقفة مقابل مدخل بنايتنا والسائق الذي ينتظر على المقود، إنتبه فجأة وأسرع بفتح الأبواب. وحينما أخذت السيارة ناحية اليمين، إقتنعت بأنهم سيأخذونني مباشرة الى السجن العسكري في المزة، وهو السجن العسكري الرهيب الذي أشتهر بإسم (سجن الباستيل السوري)[٦٤]. وأمام ثانوية (التجهيز) إنحرفت السيارة الى اليسار لتأخذ طريق دمشق- بيروت الذي كان يؤدي أيضاً الى المزة ثم إختارت إتجاه المدينة. وشعرت بإرتياح وقلق في آن واحد. فإلى أين سيقودونني؟ أإلى القصر العدلي؟ الى قاضي التحقيق؟ الى السجن المركزي، القلعة القديمة للبطل العظيم صلاح الدين أو الى مكتب عبدالحميد سراج؟ وحينما عبرنا جسر ڤكتوريا، بدا لي هذا الإحتمال ممكناً. ومع ذلك، وحينما خرجت من السيارة، توجب علي أن أثوب الى رشدي. فبدلاً من أن أتوجه الى (السراي) قادني حراسي الى المفوضية العامة للشرطة، الى مكاتبها وسجنها الإحتياطي ذي الجدران الحجرية السميكة والقضبان الحديدية الضخمة. وهناك سلموني الى عريف الطواريء في الشرطة، فأعطوه ملفاً أصفر مغلقاً، وجعلوه يوقع على دفتر صغير. وحينما رحل حراسي، تفحصني الشرطي بإبتسامة رائعة، وكان رجلاً مسناً يتباهى بزيه العسكري، وقال:

- لن تكون في خطر، لن أضربك بالسياط ولكن مع أسفي الشديد، علي أن أودعك السجن. وبعد فترة صمت أضاف بلهجة رحيمة:

- لا تقلق فلن تمكث هنا لفترة طويلة. ثم أمسك بحزمة من مفاتيح مدهشة معلقة بحزامه

وفتح الباب الثقيل لمدخل السجن قليلاً. ففوجئت بنفسي في رواق ضيق يطل على حجرات. وكانت حجرتي مدعمة بمقعدين ومزودة بنافذة صغيرة في أعلى الجدار. وقبل أن يغلق الباب عليّ، أعلمني العريف ذو الشارب الضخم والذي يتكلم اللهجة الدمشقية، بأنني إذا أردت الطعام، فإنه يستطيع أن يحضر لي ما أرغبه من مطعم قريب من السجن، ولكنني لم أكن جائعاً. حينئذ أدار المفتاح الكبير في القفل وتركني في حجرتي التي كانت قليلة الإنارة، بالرغم من أن أشعة الشمس تجتاز زجاج النافذة.

فشعرت بضيق في حلقي ومرارة في فمي وأن الكليتين والعمود الفقري تنجذب وتُسحب سحباً. وكأن ملزمة ضخمة أمسكت بي بفكيها وتحاول أن تحطم حوضي، فهل كان ذلك من رُهاب الإحتجاز أو الشعور المسبق بمصيبة كبيرة؟ أو الخشية من عدم إستطاعتي الخروج من السجن أو الشعور بإهانة رهيبة؟ لقد داهمتني أفكار لاتعد ولاتحصى وكانت التشنجات، والمغص، تسري في جسدي، وإقتنعت بصورة طبيعية أن إعتقالي كان مرتبطاً بالحزب الديمقراطي الكوردي في سورية، ولكنني لم أكن أعرف أي شيء عن مصير رفاقنا في الدرب. وكنت أتعذب بشأنهم. إلا أنني لن أتأخر عن معرفة أخبارهم.

وبعيد الظهر، وعبر الباب المنفرج قليلاً لحجرة كبيرة مليئة بالسجناء، لمحت رأس (عثمان صبري) وهو مناضل كوردي في الستينات من عمره والشريك المؤسس للحزب الديمقراطي الكوردي في سورية وعضو اللجنة التنفيذية المؤقتة. وإستنتجت من ذلك فوراً أن المباحث كانت قد قامت بكبسة (حملة) وألقي القبض على عدد كبير من رفاقنا. وفي حوالي الساعة التاسعة من مساء اليوم الأول من إعتقالي، جاء رجال الشرطة الصباحية ثانية للبحث عني، وكان عليّ أن أقودهم الى شقتي التي فتشوها تفتيشاً دقيقاً وطال بحثهم ولكنهم تضايقوا كثيراً لأنهم لم يعثروا على أي شيء يعرض للشبهة وأجلسوني ثانية في سيارة (VW) وإقتادوني الى المكاتب الرئيسية للمباحث، الكائنة بجانب جبل قاسيون، حيث إستقبلت هناك من قبل أحد الرؤساء الكبار وبعد بضع دقائق كان يطلب إقتيادي الى مكتب، فقُلبت جميع الأوراق والكتب والملفات رأساً على عقب... وبحثوا أيضاً عن الأدلة في حزم الأدوية، ولكن عبثاً، فإستدار الرئيس الكبير نحو مرؤوسيه وقال لهم بلهجة متصنعة وكافية:

– لقد أخبرتكم بذلك، إنه من العادي والمألوف أن لانجد مستندات معرضة للشبهة لدى زعماء التنظيمات السرية. يجب البحث عنها لدى المرؤوسين وعند الجنود المشاة كما فعلنا ذلك في حلب. لقد أثارت هذه الكلمات ظنوني وأتاحت لي تفسير اللغز الذي كان يشغل بالي منذ الصباح ألا وهو أن بعض الرفاق الذين ضُبطوا متلبسين بالجريمة أضطروا للوشاية بي.

وفي حوالي الساعة الحادية عشرة مساءً، نُقلت الى حجرتي التي قضيت فيها ثلاثة ليال متتالية على مقعد خشبي دون فراش ولا غطاء. وفي اليوم الرابع نُقلت وعثمان صبري الى حلب حيث كان قبو المباحث عميقاً كعمق البئر، وكان لديّ إنطباع بأني نزلت (٥٠) درجة الى

الأسفل، وكان الداخل المؤلف من نصف دزينة من الحجرات، يغص بالسجناء وكان أعضاء حزبنا، وأكثرهم من الشباب الذين كانت وجوههم مألوفة لدي، ويبذلون جهودهم لكي يبتسموا لي وأبدى بعضهم فرحاً حقيقياً كما لو كان وصولي جديراً بأن يخرجهم من هذا الجحيم بأعجوبة. وكان البعض الآخر يهزون رؤوسهم بقسوة باسطين أيديهم نحو السقف ليقولوا:

– لماذا ألقيتنا في هذه الورطة القذرة؟

لم أستطع أن أبادلهم بأية كلمة لأني أدخلت من الرواق مباشرة الى مكتب الضابط المكلف بالتحقيق. فصاح ملازم أول، بزيه العسكري، وهو يظهر بإفتخار النجمتين اللامعتين على كتفيه:

– آه! ها هو الدكتور لقد وقع أخيراً في قبضتنا، وكان خمسة من مرؤوسيه يحملون السياط(٦٥) يرددون كلامه، فقال:

– بينما كانت الأمة العربية تناضل من أجل وحدتها الشاملة وتحارب على جبهات عديدة، كنتم تقومون بلعبة الإمبريالية والصهيونية بإطلاق النار علينا من الخلف وتحاولون إقتطاع جزء من الجمهورية العربية المتحدة وضمه الى دولة كوردية، الى دولة أجنبية! فأجبته قائلاً:

– ولكن عفواً ياسيدي الملازم الأول، إن إتهاماتكم لاتوافق الحقيقة والواقع ونحن لانواجه سوى سياستكم العنصرية الجنونية بحق الشعب الكوردي في سورية والأمة الكوردية بأسرها، إن الرئيس ناصر يتهم كل يوم العراق وإيران وتركيا بأنهم الأعداء الألداء للجمهورية العربية المتحدة ولكنه يضطهد الكورد. فلو أن الرئيس ناصر يقف حقاً في معارضة السياسة المناهضة للعرب كما يقول ذلك عن تركيا وإيران بشكل خاص، فعليه بالضرورة الإنضمام الى الكورد وتزعم الأخوة الكوردية- العربية وعدم محاربة الكورد بأي شكل كان. فصاح الملازم الأول:

– يا أصدقائي، أنظروا من أي جانب يهاجمنا الدكتور! حسناً، سأتحدث عنه مع رؤسائي. وبإنتظار ذلك ضعه في غرفة معزولة، وأعطوه ما يستوجب الكتابة وكلفوه بكتابة تقرير لنا عن الحزب الديمقراطي الكوردي في سورية وتحديد أسماء وعناوين جميع أعضائه، فقلت:

– سأخبركم عما يتعلق بالحزب الديمقراطي الكوردي في سورية، ولماذا أسسته أما بالنسبة لأعضائه، فلا أعلم عنهم شيئاً مطلقاً. وبدلاً من أن أمتثل للأوامر الموجهة إليّ، بدأت أصغي للأصوات الصادرة من المنزل، فسمعت أن رجال الشرطة أجبروا مناضلينا الشباب على تقديم إعترافات خطية كاملة، عن إنتمائهم الى الحزب الديمقراطي الكوردي في سورية، مؤكدين أنهم كانوا ينتهجون له منهجاً سياسياً ويعلنوا عن أسماء رفاقهم المتعاطفين معهم. كما سمعت أيضاً أن الجلادين المعذِّبين كانوا يصرخون ويرعدون ويشتمون ويهددون لأنهم لم يرتاحوا بتصريحات المناضلين السجناء، قائلين:

– لاتخفوا عنا شيئاً، وإلا لن نُبقي فيكم سوى العظام وسنجعلكم تتعفنون في زنزانات

المزة.

وحينما ثارت ثائرتهم من عدم تأثير تخويفهم الشفهي، كانوا يلجأون الى التعذيب، فكانت أصوات الصفعات والسياط تتعاقب دوماً. وحينما رأى نائب رئيس القبو أن التعذيب غير كاف، صاح بمرؤوسيه بالذهاب والبحث عن الفلقة. كانت أداة التعذيب القديمة والوحشية هذه تجعل السجناء يبكون ويصرخون من الألم ولكنها لم تنتزع منهم شيئاً أكثر مما قيل سابقاً.

وكانوا يقولون:

– نحن أعضاء الحزب الديمقراطي الكوردي في سورية ونؤيده فلو كانت تلك جريمة، فأنقلونا الى المحاكم المختصة وتوقفوا عن إرغامنا على أشياء أخرى وضربنا. كان المساعد الوقح يندد ويقول:

– أسماء، أسماء. فيجيبه المعذَبون:

– آه؟ أسماء؟ سوف نعطيكم إياها. وبعد بضع دقائق، سمعت الجلادين وهم ينفجرون قائلين:

– ولكن تذكرون لنا أسماء الذين أوقفوا سابقاً، والذين هم في قبضتنا. دلونا على شركائكم في الجريمة الذين هم في الخارج ولا تتسلوا بأن تسخروا منا ياأولاد الكلاب!

فيرد السجناء قائلين:

– نعطيكم أسماء ولكنكم تشتموننا. لقد إحترنا معكم فعلاً.

فقا المساعد حينئذ قبل أن يصدر أمره لرجاله بوضع المتمردين الشباب في زنزاناتهم:

– سوف أعلمكم كيف ترقصون هذا المساء.

لقد أقلقني هذا التهديد وشقّ عليّ كثيراً، فأي نوع من التعذيب سوف يلجؤون إليه ليجعلوا أعضاء حزبنا ينطقون؟ وبعد الظهر بفترة طويلة سألني السجانون ما إذا كنت أمتلك نقوداً وأرغب في تناول الطعام(٦٦)، فأجبتهم بشكل عفوي:

– لا، لا.

في الساعة التاسعة من المساء نفسه، جاء الملازم الأول، يرافقه رجل نحيف وقصير وأحدب، في الخمسينات من العمر، ذو خدين نحيفين وشعر قليل منثور على رأسه. وكان موقفه الفزع وثيابه الممزقة ووجهه المتورم أدلة على أنه قد أوسع ضرباً. وكان يقوده (كنعان عگيد)، هذا الكوردي الشاب والقوي من مدينة قامشلي، جمّع كل قواه مبتسماً لي. كان وجهه الشاحب وآثار الصفعات مازالت واضحة على خديه. فصاح الملازم الأول:

– ياكنعان! هذا الصباح حصلنا على دليل على مقاومتك البدنية وعنادك فلا السياط ولا الفلقة إستطاعت أن تنزع منك الإعترافات. والآن ستساعدنا بقوتك على أن تجعل هذا العدو

النجس للأمة العربية المنتصب أمامك وهو يرتعد، ينطق ويتكلم. لقد هرب ولده البالغ من العمر ستة عشر عاماً الى فلسطين المحتلة. هذا مانعرفه سابقاً، ولكنه يرفض الكشف عن الطريقة التي إستطاع بها ولده الخروج من حلب ومن البلاد ولتستعمل قوتك، فإنك تستطيع أن تحمله على إفشاء هذا السر، ولن نفرض عليك أي شيء وسنسمح لك بالعودة الى بيتك. هيا إذاً، إنقض عليه ولاتدع أي عضو من جسمه بلا ضرب حتى يظهر الطرق والوسائل التي بها أوصل ولده الى معسكر الصهاينة.

لم يتحرك كنعان، ونظر بشفقة الى الرجل المسكين الذي أخفى رأسه ليحميه من الضربات التي كان كنعان سيمطرها عليه، هكذا كان يعتقد. فصرخ به الملازم الأول وهو يضرب الأرض برجله غضباً:

– هيا ياكنعان! ماذا تنتظر لتنفيذ العمل؟ ألم تسمع؟

فأجاب كنعان بهدوء:

– لقد سمعت جيداً، ولكن ليس هناك أي سبب لأهجم على رجل في سن أبي وهو لم يفعل أي شيء سيء وأكثر من ذلك فهو مرهق تقريباً.

– آمرك بأن تستعمل قوتك لتجعل هذا الخائن لوطنه يتكلم، وهذا الصهيوني القذر، إبن الكلب.

فأجاب الشاب الكوردي:

– لو أن حكوماتنا المتعاقبة كانت قد تصرفت بشكل أكثر إنسانية تجاه يهود سورية، لشعروا بأنهم مواطنون مستقلون بأسرهم ولما فكروا أبداً في مواجهة الموت والفرار من البلاد.

فصاح الملازم الأول وهو يحاول الإنقضاض على خصمه:

– كيف تجرؤ على الدفاع عن الصهاينة وإعطائنا دروساً في السياسة. إنك تكشف بكلماتك هذه عن نواياك الحقيقية وعن غاية الحزب الديمقراطي الكوردي في سورية، إنكم تهدفون تماماً الى إقتطاع قسم من سورية وإلحاقه بدولة تطمحون بإنشائها، لذلك فإنه يحق لنا أن نسمي الكورد "إسرائيل الثانية" وأن نتخذ إجراءات ضرورية لكي نسحق جميع محاولاتكم وهي لاتزال في مهدها. وبعد ذلك أضاف:

– أنتم جميعاً، سترون كيف نستطيع أن نجعل هذين الخنزيرين الصهيونيين يتكلمان، فأحدهم كوردي والآخر يهودي! وإستقر رجلان من رجال الملازم الأول في كل طرف من الرواق وأنذر الملازم الأول الكوردي واليهوي التوجه نحوهما في إتجاه مخالف، وأطاع السجينان الأمر بإنقياد ورفع الجلادون حالاً سياطهم وألقوهما على رأسيهما والوجه والعنق والرقبة والكتف والصدر والذراع. ولم تكن للمعذَبين سوى إمكانية واحدة للهروب منهم وهي الإرتداد

الى الخلف والهروب الى الطرف الآخر حيث كان الجلاد الثاني ينتظرهما وكان السوط يجلد الجسد بعنف. ولقد دام هذا المشهد عشرين دقيقة ونجم عن ذلك أن شفة الرجل اليهودي العليا تشققت والدم الذي كان يسيل منها إمتزج بالماء المنحدر من أنفه وسال على طول ذقنه وعلى القميص الممزق، وعلى البنطال ثم ممر الأرض. وكان الرجل العجوز منهكاً جداً ولم يكن يمشي إلا بصعوبة بالغة. أما بالنسبة لكنعان فلم يكن وضعه أحسن من سابقه، لقد إنشق قوس حاجبه وضرج وجهه بالدماء تماماً وكان جلد رقبته قد نزع وأخيراً، حينما وجد الملازم الأول أن الضربات المتواصلة كانت كافية لحل عقدة لسانهم، فقد أوقف مشهد التعذيب وطلب من اليهودي:

– إذاً يا (إلياهو)، إنتظر الآن لتشرح لنا كل شيء حول هروب إبنك وأعطيك خمس دقائق لتفكر. وبإنقضاء هذه المدة، سوف أستعمل وسائل أقوى لإرغامك على الكلام. فلم يجب (إلياهو) وإكتفى بالنظر بهدوء الى دمه الذي كان يحمر الأرض وهكذا مضت خمس دقائق، والملازم الأول الذي كان يراقب ساعته، قال له بعصبية وهو يضغط بعصبية:

– لقد إستهنت بالفرصة الأخيرة التي منحتك إياها، أيها الوغد، تبحث عن الموت اذاً، حسناً سنحكم عليك بالإعدام. ثم قام رجلان جريئان، مازالا حتى الآن يعيشان في الوحدة، بإلقاء (ألياهو) أرضاً، وبعد أن مدداه على الأرض كما يفعلان بكيس من الرمل بدءا يدوسانه بأقدامهما وإنهمر حينئذ وابل من ضربات الجزمات ذات المسامير على رأس وصدر ورقبة (إلياهو) المسكين. الذي تحمل الضربات بصمت ورباطة جأش لا تصدق. لقد إنتهت الضربات وإقترب الملازم الأول من (إلياهو) وأخذ يقيس نبضاته ورفع جاجبيه المسبلين، فتمتم للمساعد وقال:

– إتصل حالاً بالمركز وأطلب منه أن يرسل لنا ممرضاً على الفور، وأمر بعد ذلك رجاله بإعادتنا الى حجراتنا وعدم إبقاء أحد في الخارج سوى كنعان الذي كان يفقد دمه، وكان (إلياهو) قد فقد الوعي تماماً من الضرب. ولم أجد الى النوم سبيلاً طوال الليل وفي الغد علمنا أن كنعان وإلياهو اللذين قلقت المباحث على حالتهما الصحية، قد نُقلا الى المشفى العسكري في حلب.

– إذاً، أين تقريرك يادكتور؟

كتبت التقرير قائلاً: "إذا كنا قد أسسنا الحزب الديمقراطي الكوردي في سورية، فهذا يعود الى أنه منذ عام ١٩٤٩ لم تفعل السلطات العسكرية المتعاقبة سوى أنها داست بقدمها على الديمقراطية في سورية وألغت الحقوق التي كان يتمتع بها الكورد تدريجياً. ومنذ عام ١٩٥٥، لجأت السلطات التي تسيطر عليها البعثية الشوفينية، الى تحطيم أشرطة الكاسيت ذات الموسيقى الكوردية في مقاهي ومطاعم المناطق الكوردية، والحكم بالسجن على الكورد الذين

عشر معهم على كتب باللغة الكوردية.

إن وحدة مصر وسورية، التي لم يُتوقع منها أن تقيم العقبات في طريق هذه السياسة الرامية الى التخلف الثقافي، جعلت هذه السياسة أكثر عنصرية وفاشية وإستبداداً، واليوم ليس هناك ضباط كورد في الجيش ولا موظفون ذوي مستوى عال في الإدارة، ولا معلمون ولا شرطة كوردية في المناطق الكوردية. لانتجرأ أبداً على التحدث بلغتنا بحرية، فالمستقبل يبدو لنا مظلماً ويرغمنا على أن نتحد وهذا ما دفعنا الى أن نؤسس الحزب الديمقراطي الكوردي في سورية". وبعد أن قرأ الملازم الأول إعتراضي هز رأسه والحيرة تبدو عليه بوضوح، وقال:

– لم تكتب سوى وشايات وأكاذيب، نطلب منك بيان الجانب المدمر والمناهض للعرب من نشاطكم. وذكر أسماء المتعاونين معكم. وأن تقرّ بذنبك، فعلى هذا الأساس فقط تستطيع محاكمنا أن تصدر عفوها عنك. فقلت له بحزم:

– لن أحذف أية كلمة من تصريحي ولن أضيف عليه شيئاً. فأجابني وهو يهدد بصمت، وأمر بأن يضعوني في حجرتي، تلك العزلة الكريهة التي تغزوها حشرات البق، وقال:

– سنرى ذلك.

وفي وقت متأخر من بعد ظهر اليوم نفسه، إستُدعيت ثانية من قبل الملازم الأول الذي كان يمسك في يده مستنداً منسوخاً بالآلة الكاتبة وسألني على الفور ما إذا كنت مؤلفه. فألقيت نظرة عليه وعرفت أنه ترجمة باللغة الكوردية لأجزاء من كتاب باللغة الإنكليزية بعنوان (كوردستان، بلاد مجزأة)(٦٧). فقال لي فجأة:

– نحن مقتنعون بأنك مؤلف هذا الكتاب فلا تنكر ذلك.

– أعرف ما تقصده ولا أنوي أبداً أن أعارضكم على هذه النقطة. ولكني لاأفهم حقاً سبب إهتمامكم بهذا النص.

– هذه الكتابة توضح هدفكم الكبير، واليوم تكتفون فقط بالمطالبة ببعض الحقوق الثقافية والحريات الديمقراطية، هذه ليست سوى مرحلة من مراحل إستراتيجيتكم. وإذا بلغتم ذات يوم تلك المرحلة في كل الدول التي تهيمن على ما تسمونها (كوردستان)، فستحاولون العبور الى المرحلة الثانية لتحقيق حلمكم وإنشاء دولة كوردستان؛ وللوصول إليها تقسّمون سورية أو بالأحرى الجمهورية العربية المتحدة وتقتطعون قسماً من أرضها لضمه الى دولة تطمحون إلى تأسيسها، وإعلموا إن بث مثل تلك الأفكار وتحريض الناس على تطبيقها يقعان تحت طائلة القانون ويمكن أن يؤديا الى الإعدام.

– يا ملازمي الأول، إن الأمر أسهل من ذلك بكثير، أولاً؛ إن النص المتهم ليس إلا ترجمة وأنا مستعد لإحضار الكتاب الذي إقتُبس منه هذا النص. إضافة الى ذلك، لم يُنشر هذا النص بين الجماهير. ولم تجدوا منه بالتأكيد سوى نسخة واحدة عند (رامز هورو) مسؤولنا في

حلب، وهو أول من إعتُقل من رفاقنا وعُذب من قبل سلطتكم. إن هذا النص لايمكن أن يشكل، بأي شكل كان، عبئاً علينا وأتحمل مسؤوليته شخصياً.

فتذمر المحقق قائلاً:

- سيتم الحكم عليه في المحكمة. وفيما يخصني فإني أرى إنسجاماً دقيقاً بين هدفكم السامي وهو تأسيس دولة كوردية كبرى، وبين تصرفات حزبكم السيئة، وإلا كيف تفسرون وجود الجنود والشرطة في حزبكم؟ فأجبته قائلاً:

- إنني لا أهتم شخصياً بتجنيد أعضائنا، وإن فعلت ذلك لما ترددت إطلاقاً بقبول العسكريين أعضاء في الحزب الديمقراطي الكوردي في سورية لسبب وحيد وهو أن جميع الأحزاب السياسية فعلت ولازالت تفعل ذلك. والكورد العسكريون الذين يرون زملاءهم ينخرطون في أحزاب تعظّم الشوفينية العربية (التعصب القومي)، يقتنعون طوعاً أو كرهاً بالبحث عن تنظيمات كوردية جديرة بالتصدي للفاشية العربية. فصاح الضابط قائلاً:

- إنك لاتحسن إختيار كلماتك، فالقومية العربية بعيدة كل البعد عن الفاشية.

- إن القومية، بشكلها العربي الجامع، التي ينادي بها البعث والتي يمارسها اليوم الرئيس (ناصر)، ليست إلا الفاشية بعينها لأنها تطمح لصهر بقية الأقليات العرقية والقومية التي تحيا في العالم المسمى بـ(العربي)، وإلا لما خضع الكورد بشكل خاص لسياسة التمثيل والتمييز العنصري. وإنكم تعرفون جيداً أنه في سورية، من كان يقول عن نفسه كوردي ويزعم أن الشعب الكوردي ذو ثقافة وتاريخ، كان يرتكب جريمة. أجاب الضابط:

- نعم، حينما تدعون إنتماءكم الى عرق أصيل ومستقل، فإنكم تقعون تحت طائلة القانون الذي يعاقب على التفرقة العنصرية بقسوة، في حين أن سورية تعتبر بلداً لايسكنه سوى العرب.

- ألا يعني ذلك تشريع الإبادة الجماعية بكل ماتعنيه تلك الكلمة من معنى؟

- تشرح ذلك في المحكمة ولاأستطيع أن أفعل شيئاً سوى إخبارها عن أهدافك ونشاطك. وإستمر التحقيق مع سجناء آخرين.

وحين وجد المباحث إنه لم يحصل على شيء يغني تحقيقهم بالرغم من الضرب والشتم والتهديد، قرروا إطلاق سراح قسم كبير من رفاقنا الذين كانت أعمار الشباب فيهم لم تتجاوز الخمسة وعشرين عاماً. ولم يحتفظوا إلا بإثنين وثلاثين سجيناً. وفي اليوم السادس سُمح لي بالخروج من العزلة والإنضمام الى السجناء الآخرين. وكان معظم مناضلينا من الشباب. وكان (رشيد هورو) مسؤول حلب يصعب عليه الوقوف على قدميه لأنهما كانتا متورمتين. وكانت الكثير من الوجوه منتفخة ومغطاة بالأورام الدموية، وكان (كنعان) يبدو من بينهم وقد إلتأم جرح قوس حاجبه، وكان إصبعان من أصابعه في الجبس. وحسب أقوال الممرضين الذين عالجو

(إلياهو) المسكين، قالوا أنه لازال في غيبوبة.

بعد خمسة عشر يوماً نُقلنا الى سجن حلب العسكري الكبير الذي كان مسوراً بأسوار عالية ويشرف على المدينة. وكان السجن ضمن قلعة. وكُدّسنا في حجرات مظلمة تنبعث منها رائحة العفونة، بواقع أربعة أو خمسة سجناء في الحجرة الواحدة. ولحسن الحظ في كل صباح، وبعد الظهر كان يسمح لنا بالخروج الى الساحة للراحة، هذا الإمتياز الذي كان يتيح لنا إستنشاق الهواء النقي. وبعد بضعة أيام نقلنا الى المدينة بعد حشرنا في شاحنات عسكرية مغطاة للمثول أمام قاضي التحقيق العسكري. وكنت الأول من بينهم أمام القاضي الذي أثار نفس النقاط التي كان الملازم الأول يثيرها للمباحث بشكل خاص على فصل كتاب (كوردستان بلاد مجزأة)، فقال لي:

– هكذا، أتريد إذاً أن تقتطع جزءً من سورية لإنشاء دولة كوردية كبرى؟ وهل تعترف بإنك كاتب هذا النص؟ فأعدت القول:

– لا، إنني قمت بترجمته. أما بالنسبة لإنشاء هذه الدولة الكوردية، فهذا ليس سوى حلم لايعلم سوى الله متى وكيف سيتحقق. نأمل من كل قلوبنا أن يكون الشرق الأوسط كله متآلفاً وأن تكون كوردستان إحدى أعضاء الإتحاد الفدرالي هذا. ولكنه موسيقى المستقبل. وبإنتظار ذلك نطالب بإحترامنا في الجمهورية العربية المتحدة لأننا كورد، كما نطلب السماح لنا بتطوير ثقافتنا والإستفادة من دعمها في هذا المجال والتمتع بالحقوق الممنوحة لجميع المواطنين الآخرين.

إستجوب جميع رفاقنا ودام التحقيق ثلاثة أيام. وفي الثامن من أيلول إنطلقنا ثانية بالباص بإتجاه دمشق وقد قُيد سجينان بآخرين بواسطة القيود، يطوقهم رقيب وعريف وعشرة من عناصر الشرطة العسكرية المسلحين بالبنادق. وفي التاسعة صباحاً توقف الباص في ثكنة الشرطة العسكرية، وأُدخلنا حالاً في سرداب كان يُستخدم كسجن بعد أن جردنا السجانون من أحزمتنا وأربطة أحذيتنا ثم جمعونا في غرفتين صغيرتين ذواتا جدران مصبوغة بالأحمر، وهو دم حشرات البق المسحوقة من قبل السجناء الذين كانوا قد سبقونا الى هذا المكان!

وفي تلك الليلة، وعلى ضوء المصباح الكهربائي الذي ظل مشتعلاً، أمضيت كل وقتي في سحق البق. وفي صباح اليوم التالي، نقلنا الى المحكمة العسكرية العليا وحسب رأي حاكم حلب العسكري، كان من المقرر أن نسجن في سجن المزة لأن التحقيق الجاري في حلب لم ينته بعد. وكانت فكرة نقلنا كمسجونين الى المزة تعذبنا... كنا نعلم بأن التعذيب يبدأ فيه منذ لحظة الإستقبال وكان على أشكال غريبة لايمكن تصورها. وكان مجرد التفكير بهذا السجن يقطع علينا أنفاسنا. وبعد الظهر أصبح الكابوس حقيقة واقعة. فقد حطت بنا حافلة السجن أمام بناء ضخم محزن يشرف على دمشق وضواحيها، ويحرسه شرطيان مسلحان برشاشين. وإنفتح

الباب الكبير ودخلنا الى رواق مكشوف يحرسه حارسان وشرطيان، وعلى يسار ويمين رتلنا كان هناك حوالى خمسين من عناصر الشرطة العسكرية، كانوا قد جُمعوا ترافقهم عناصر أقوى تتباهى بالبناطيل العسكرية والقمصان المخططة. كان البعض منهم يحملون سياطاً والبعض الآخر لاشيء بأيديهم. لقد كانوا السجناء العسكريين المجندين لحين الحاجة، وكان مدير السجن رجلاً متكرشاً في الأربعين ذا شفتين متدليتين وهيئة شرسة، فسألنا فجأة:

– لماذا أنتم هنا؟

بما أننا كنا متفقين بألا يجيب أحد، فقد كرر سؤاله، ولكن ما من جواب. وفي المحاولة الثالثة رد شاب يبلغ ثمانية عشر عاماً لم يستطع أن يتمالك نفسه فقال:

– نحن هنا من أجل القومية الكوردية. فصاح المدير:

– أيها القذرون الخائنون للقضية العربية تريدون إذاً، إنشاء الله، دولة كوردية في قلب العالم العربي. سوف نزيل هذه الفكرة الدنيئة من رؤوسكم، وسترون كيف! وبهذا الكلام أشار لرجاله بأن يعملوا لنا (غسيل دماغ). فإنهالت علينا ضربات السياط والقبضات والجزمات. وكان رفاقنا الذين لاقوا المصير نفسه يقولون لنا "يجب أن لا تقاوموا لأنهم سيتذرعون بحجة حقيقية لضربكم حتى الموت". إذاً لم نقاوم، وكان رفاقي يركضون الى اليمين واليسار والى الخلف ليتجنبوا الضربات، أما من جهتي فقد بقيت صامداً في مكاني. فدُهش المدير لحالتي وسألني وهو يصك أسنانه:

– أخبرني من أنت حتى تحتقر المصير الجهنمي الذي نبيته لك، فقلت دون إضطراب:

– إنني ببساطة كوردي.

– ما إسمك؟ إنني أطلب إسمك فقط؟

– نورالدين زازا.

فأعاد الإسم بفرح كما لو إكتشف لغز الحياة.

– كيف؟ نورالدين زاز؟ إذاً أنت رئيس الحزب. حسناً سأصحح لك مسارك من أجل القضية الجميلة التي صعّدتها ضد العروبة.

وبدأ يطرق بقبضتي يديه على رأسي ووجهي. ثم أخذ سوطاً وإستمر في ضربي بعنف. وبما أنني لم أكن أقاوم، فقد أخذني الى إحدى الغرف المخصصة للإدارة. فوجدت نفسي وجهاً لوجه مع (أبو العبد) الشرطي العسكري العملاق ذو القوة الهرقلية والمعروف جيداً في كل أنحاء سورية والذي قتل سجيناً بضربة واحدة من قبضته في السنة الماضية وكان يمشي في كل إتجاه. فقال لي وهو يلقي على وجهي ضربة من ظاهر يده:

– لقد شرفتنا بوجودك، لقد نوّرت المكان أنت أيها الدكتور العظيم، سلطان الكورد

المحترم.

فتفجرت شرارات من عيني اليمنى وشعرت أن الأرض تتحرك تحت قدمي، وبما أنني كنت لاأزال واقفاً، ضربني أبو العبد ضربة أخرى على خدي الأيمن فألصقني بالجدار. فإستندت إليه بكل قواي، والعينان مغمضتان بإنتظار ضربة ثالثة. وقمت بحركات مشوشة لكي أحمي وجهي، ولكن لا أدري لماذا لم يوجه الضربة الثالثة على رأسي. فهل أشفق الطاغية عليّ أو إن المدير أمره بإيقاف عمله؟ وحينما إستعدت كامل وعيي، نُقلت الى ممر طويل حيث رأيت رفاقي خاضعين لنزوات حلاقين بلا إستعداد مسبق. كانت آلة قص الشعر للسجناء العسكريين مجزاً يضع إشارة على رؤوس البعض، ولدى البعض الآخر كانت على شكل إكليل رأس الناسك أو المثقف الصيني. أما من جهتي فقد كنت محظوظاً، لأنني كنت عند حلاق ذي خبرة وأقل وقاحة، فقد قص شعري جيداً بإنتظام. وبعد جلسة الإستراحة، كافأنا الشرطة وعملاؤهم بضربات عنيفة جداً أدت الى إرتطام عدة رؤوس بالجدار. وهكذا نُقلنا الى حجراتنا وقد جُزّت شعورنا. وفي البداية نُقلنا الى الطابق الأول وهو طابق الشيوعيين. وما إن جمعنا في غرف صغيرة مظلمة بواقع خمسة أو ستة سجناء للغرفة الواحدة حتى جاءنا أمر بالنزول الى الطابق الأرضي. وكان رجال الشرطة بإنتظارنا في كل جهات المدرج المعدني البالغ طوله خمسين درجة، هؤلاء الشرطة الذين خرجوا ولاندري من أي مكان وهم مستعدون لتوجيه وابل من الضربات إلينا. وإختلطت القلنسوات والقبعات واللفات حتى اللحظة التي وصل فيها آخر شرطي الى الأسفل. ثم نُقلنا الى الحجرات المخصصة عادة للسجناء العسكريين. وقبل أن يدير السجان المفتاح في القفل، وجه إلينا بضع صفعات أخرى. وما إن وجهت إلينا هذه الضربات حتى جاء مسؤول المهجع إلينا ليسألنا. وحينما أنهى مهمته، أشار لنا الى الأماكن المختارة. فقد توجب على الضيوف الجدد أن يجلسوا في آخر القاعة قرب المرحاض. وحسب تمييز القدماء، كان يحق لهم الإقتراب من الباب والإبتعاد عن المرحاض. وإستلم كل منا ثلاث بطانيات عسكرية، تستخدم إحداها كفراش والثانية مخدة والثالثة غطاء، وكان يجب أن تطوى حسب الأنظمة العسكرية السائدة في هذه القاعة. وبما أننا كنا نجهل ذلك، فقد جاء جنود سجناء لنجدتنا وكان أحدهم من دير الزور، قال لنا ضاحكاً:

– لقد حُكم عليّ بالسجن لسرقة بسيطة، ماذا تريدون؟ يجب أن نعيش حياة هنيئة، يقدم الجيش لنا الطعام والسكن ولكن إن لم يرسل لنا أهلنا شيئاً، فإن راتبنا لايكفي وعلينا أن نتدبر أنفسنا.

كانت الأيام الأولى لإقامتنا في المزة قاسية جداً. وحاول سجانونا بكل الوسائل أن يستبدوا بنا ويعذبونا ويهينونا، وفي يوم وصولنا، وحوالي الساعة الرابعة رن جرس إنذار التعبئة. وكان على كل منا أن يتراصف في الممر والسطل في اليد مع إرغامنا على الذهاب وملئه ماءً(٦٨) من الصهريج الذي وصل أمام السجن. وإستفاد مسؤولو السجن من هذا الفاصل الزمني

ليوبخونا ويعذبونا أكثر. وبما أن أحد شباب مجموعتنا وجد صعوبة في حمل سطله، فقد تلقى سوطاً أدى الى شق جبهته. كان يجب أن يُنقل الى المستوصف. أما أنا فحينما نزلت الى الصهريج والسطل في يدي، إستقبلني الرقيب (زين العابدين) محاطاً بعشرة من رجاله. فأمرني وهو يشير اليّ بسبابته قائلاً:

- تعال الى هنا. فإمتثلت لأمره.

- إذاً هذا صحيح، أنت كوردي؟ فأجبته:

- نعم، وما الغريب في الأمر؟

-ولكن كيف يمكنك، بما أنك دكتور، لاأدري في أي مجال، أن تهين نفسك وتقول بأنك كوردي؟ فأجبته :

- وما المهين في ذلك؟

- ألا تعرف إذاً قصة الحمار الذي خوطب باللغة الكوردية؟ لقد شعر بإهانة بالغة وإمتنع عن الطعام لثلاثة أيام. وإستطعت أن أجيبه بأنه وإن كان الحمار قد غضب، فلأنه كان يشعر بنفسه أنه جيد في جلده العربي. وإكتفيت بالقول:

- إن أحد أسباب إنشاء حزبنا كان بالضبط التمييز العنصري السائد في الأوساط الرسمية والذي كان الكورد ضحاياه، وحينما تتكلم هكذا تثبت تماماً وجود هذا التمييز العنصري. فإضطرب الرقيب وتلجلج:

- كان لايجب أن تأخذ ما قلته لك على محمل الجد. كان ذلك للتسلية والضحك فقط. فأجبته قائلاً:

- إن سخريتك بمواطن ليس من عرقك يمكن أن تؤدي الى عواقب وخيمة.

وعندما رأى الجنود رئيسهم مرتبكاً من براهيني، ثارت أعصابهم ووقف أحدهم يهدد قائلاً:

- سأؤدبك التأديب الذي تستحقه. فتجهز بتوجيه لكمة الى رأسي ولكن الرقيب منعه من ذلك قائلاً:

- فلندعه يذهب ليملأ سطله ماءً، وسنعتني بأمره في المساء. إنصرف يادكتور!

فإنتظرت قدوم المساء بقلق. وفي الساعة التاسعة حين جاء (زين العابدين) للتفتيش الإعتيادي، إكتفى بإلقاء نظرة شرسة عليّ.

كان مهجعنا عبارة عن حجرة طولها خمسة عشر متراً، وعلى طول الجدران كان يمتد مقعد إسمنتي إرتفاعه (٧٠) سنتيمتراً عن الأرض. كنا ننام فوقه ونمضي عليه معظم أوقاتنا. وخلال النهار كنا نستطيع أن نبقى عليه راقدين. ومع ذلك كان لايسمح لنا بمد أرجلنا وتجاوز خط قانوني مرسوم باللون الأبيض. وكان سجان القسم يتأكد بنفسه من وضع السجناء بواسطة

الكوتين الواقعتين في كل جهة من جهتي الباب، وكان يكفي لإصبع أحدهم أن يتجاوز الخط الأبيض حتى يدخل السجان الى قاعتنا وهو يصرخ: هيا، كلكم راكعاً! كان يجب حينئذ أن نسرع بالنزول الى وسط الحجرة والركوع بإنقياد على الأسمنت لساعات، جرى هذا الحادث للمرة الأولى بعد ظهر اليوم الثاني من وصولنا الى المزة. في ذلك اليوم، كان سجان المراقبة للحجرات الست لطابقنا هو (أبو زاتور) أي (الرجل ذو الساطور)، وكان مشهوراً بفظاعته وسرعته في إستعمال السوط بالإضافة الى تهكمه بالسجناء. وما إن رأى مخالفة لنظام الخط الأبيض من قبل جندي نعسان، حتى سارع الى قاعتنا والسوط بيده وهو يصيح: الجميع راكعاً!

فنزل جميع السجناء من على المقاعد الأسمنتية وإرتموا بسرعة على الأسمنت أمام جهتي، وبما أني كنت لا أزال مندهشاً من إستقبال سهرة الأمس، فتصرفت بإنقياد أعمى وفعلت مثلهم، ولكن كلما كان المشهد يطول، كنت أصك على أسناني لهذه العقوبة غير المعقولة. فقلت في نفسي: "بما أن السجن لم يكن يكفي، فيجب أن نخضع فيه الى الإركاع ايضاً. واليوم سأفعل ذلك، ولكن من الآن فصاعداً فلن أخضع لذلك أبداً". وفي صباح اليوم التالي، فتح الحارس الباب بعنف وهو يلوح سوطاً ويصيح:

- جميعكم الى السخرة.

فأسرع جميع السجناء الى الخارج لأنهم كانوا يعلمون أن المتأخرين سيعرضون أنفسهم الى الجلد. وكنت السجين الوحيد الذي بقي على المقعد الإسمنتي وحينما رآني الحارس أحتقر إنذاره، تقدم نحوي هائجاً:

- ألم تسمع أمر الذهاب الى السخرة؟

- أجل.

- إذاً لماذا بقيت متسمراً في مكانك عوضاً من أن تعمل كرفاقك؟ فأجبته بصوت عال:

- لست عسكرياً ولا مجرم قانون عام. أنا ورفاقي سجناء سياسيون وعليكم أن تعاملونا حسب وضعنا. فصاح السجان:

- أنت هنا في سجن عسكري كبقية السجناء الآخرين، عليك الإمتثال لأوامره.

- حسناً لم أطع، وإعمل كل ما تسمح لك القوانين به. فنظر (أبو زاتور) اليّ نظرة عداء وإحمرّ مثل حبة طماطة. ومع ذلك، وبدلاً من أن يرغمني على إطاعته، نظر الى الباب وقال:

- أنا مستعجل الآن، وبعد ذلك، سأريك مقدرتي وما سأفعله.

وفي المساء، بدلاً من أن يلجأ الى الإرغام معي، جاء ليخبرني أن الإدارة عفت عني من السخرة من الآن فصاعداً، وقال "ولكن أنت وحدك" وبينما كنت أشكره، إنصرف تفكيري الى

رفاقي وبحثت عن وسيلة ليستفيدوا جميعاً من هذا الإعفاء. إن عدم الخروج الى السخرة كان إنتصاراً كبيراً ضد إستبداد هذا السجن وكنت أود أن يختفي أيضاً مشهد الإركاع الجماعي. ولكن بأية طريقة؟

ذات يوم إحتج (أبو زاتور) أن حجرتنا كانت صاخبة جداً، ودخل إليها كالإعصار وصاح كالعادة:

- كلكم راكعاً!

ولدى سماعه وثب رفاقنا من على المقاعد الأسمنتية وجثوا على الأسمنت وقررت ألا أركع. فصرخ أبو زاتور وهو غاضب:

- لم لاتركع؟ فأجبته وأنا أحدق النظر فيه:

- ولماذا أركع؟

- لأنني أمرتكم جميعاً أن تركعوا. فصرخت على كرهٍ مني بلهجة عنيفة:

- ولكن لم أفعل شيئاً لأستحق هذه العقوبة الظالمة.

وحينما هدأ كلام السجان القاسي. إبتسم ونظر اليّ لحظة قبل أن يتكلم الجميع:

- حسناً، حسناً، عودوا الى أماكنكم! ثم غادر (أبو زاتور) القاعة بإبتهاج مدهش.

ومنذ ذلك اليوم لم يلجأ السجانون الى الإركاع إلا في مناسبات نادرة جداً...

لقد كانت الحياة في سجن المزة دون سخرة ولا إركاع أقل صعوبة، ولكن بالطبع لم تكن هناك أية راحة. ففي قاعة مخصصة لخمسة وعشرين سجيناً، كان يسكن فيها أحياناً أكثر من خمسة وأربعين، وكنا منضغطين على بعضنا البعض حتى إنه خلال الليل، كان على كثير من السجناء أن يبسطوا بطانياتهم وسط الحجرة، بالرغم من أن ذلك يخالف النظام. كانت الأبواب والنوافذ مغلقة وكان المنهج يصدر رائحة التعفن لدرجة أنه حينما كان السجانون يظهرون عند الفجر، كان عليهم أن يسدوا أنوفهم لدى فتح الباب. وكان علينا كل صباح في الساعة الخامسة، أن نقف ونتراصف للذهاب والبحث عن الشاي الرديء المحضّر في قدور ضخمة. لقد كان ذلك الشاي لايمكن شربه ولكننا كنا نرشفه آلياً، لأننا لم يكن بيدنا حيلة ولا إختيار. وفي الساعة الثامنة كان سجناء جميع غرفنا في الطابق الأول يخرجون الى الراحة في باحة واسعة تحت مراقبة السجانين الذين كانوا يحرسون على الجدران والسطوح. وكانت الراحة تدوم ساعتين، كان علينا خلالها أن نسير بإستمرار ماعدا المعالجة الطبية. وبين الباحة والمراجع كانت هناك مستودعات الألبسة والبطانيات العسكرية، خصص أحدها ليكون مخزناً صغيراً. وكنا نستطيع أن نشتري منه الدخان والشاي والسكر والصابون والمنظفات ومعجون الأسنان والورق والأقلام.

وكان كل مهجع مجهزاً بموقد نار كان يستطيع كل سجين أن يضع عليه الشاي أو حتى يطبخ، لأن الطعام الذي كان يقدم لنا كان يشبه طعام الجيش، فقد كان كافياً من حيث الكمية ولكن لم يكن مرضياً من حيث النوعية. وخلال شهر من أسرنا في سجن المزة، وبما أن المحكمة العسكرية منعت أي زيارة، فقد أرغمنا على التموين من مخزن السجن. وما إن حصل أصدقاؤنا وأهلنا على الإذن من المحكمة العسكرية، حتى جلبوا لنا الخضار التي كنا نستطيع أن نأكلها نيئة، بالإضافة الى الفواكه والحلويات. وخلال أيام الزيارات، كنا نتلقى الكثير منها حتى إننا كنا نوزع قسماً كبيراً منها على الجنود السجناء الذين تسكن عائلاتهم بعيداً أو تقاسي شظف العيش، ولم تكن تتوفر لها الوسائل للمجيء الى المزة. وأثناء الزيارات لم يكن يحق للسجناء التحدث بحرية مع ضيوفهم الذين يفصل بينهم بابان حديديان يبعد أحدهما عن الآخر مترين. وكان هناك شرطيان يتداخلان بين البابين لنقل هدايا الزوار ومنع أي حوار. على الرغم من ذلك إستطاع مناضلونا الشباب أن يطلعونا على أخبار الخارج والأخبار المحلية والدولية ويسربوا منشورات ورسائل بعضها أسفل أكياس الفواكه والخضار.

في كل أسبوع كان هناك حدث يؤدي الى تعبئة كل عناصر السجن بإستثناء الشيوعيين ألا وهو صلاة الجمعة. في ذلك اليوم في التاسعة صباحاً، كان على السجناء في كل حجرة أن يخرجوا أغطيتهم وينشروها على أرض الباحة المعبدة. وفي الحادية عشرة كان جميع السجناء غير الشيوعيين، أياً كانت دياناتهم، يتراصفون في الممر للذهاب الى الباحة حيث يقرفصون فوراً على الأغطية. وكان هناك إمام تعينه السلطات بلباس المقاتل يأتي ليلقي خطبة الجمعة، التي كان موضوعها دوماً حول الحرب الشعبية لتحرير فلسطين. وعندما تنتهي الخطبة، كان أحد الحاضرين ينادي الى الصلاة، فكان الإمام يقف أمامنا للصلاة في حين أن غير المصلين كانوا يجلسون في إحدى الزوايا. وحدث ذات يوم حادث أمتع السجناء. فقد كان من بينهم عدد كبير من الدروز[٦٩] المتهمين بالتجسس لصالح إسرائيل، بعضهم جنود سوريون محترفون والبعض الآخر مدنيون لبنانيون. وكان من بينهم (أبو سليم) الذي حُكم عليه بالإعدام بعد محاكمة طويلة وكان قد قدّم للرئيس طلب العفو. وعلى الرغم من أنه درزي، فقد كان في المقدمة بحيث أنه إعتبر نفسه مسلماً حقيقياً، ربما حالفه الحظ بالحصول على رد إيجابي لإلتماسه.

وذات يوم جمعة. وبينما كنا بإنتظار أحد السنة ليقيم الصلاة، ذهلنا لمشاهدة (أبو سليم) وهو يقوم بهذه المهمة. فقد أثار صوته العذب القوي مشاعر الود حتى لدى المللية أنفسهم. فهل أثرت حركته على أعصاب ناصر الحساسة؟

وتلقى أمر (ناصر) بأن يبدل حكم إعدامه الى السجن مدى الحياة. ومنذ ذلك اليوم بدا مرتاحاً لبادرة (ناصر) وكان يفتل بإعتزاز شاربه المفتول الى الأعلى ليظهر كل التحديات التي ألقاها له القدر... وخلال الشهور الأولى من إعتقالنا في المزة، كنت ورفاقي في الحزب

الديمقراطي الكوردي في سورية نجهل كل شيء عن مصيرنا المخفي. وبدأ اليأس يدب فينا حينما أُخبرنا بزيارة وكيل المحكمة العسكرية العليا. وبهذه المناسبة، حُشد جميع السجناء لتنظيف السجن بكامله. فحلقنا ذقوننا ونصحَنا مسؤولو المزة بعدم توجيه أية شكوى حول معيشتنا في السجن وحذرنا الرقيب قائلاً:

– أو يمكنكم أن تعتذروا.

لقد كنا متراصفين ومرتدين ثياباً نظيفة، إستقبلنا عملاقاً برتبة عقيد. وحينما سألنا عما إذا كانت لدينا شكاوى، لم يتفوه أحد ببنت شفة. وحينما إقترب مني لم أتمالك نفسي فقلت له:

– ماذا جرى لقضيتنا؟ فأجابني بلهجة متكبرة:

– أية قضية؟

– قضية الكورد.

– آه، حسناً، إعلم أن التحقيق في قضية مثل قضيتكم يحتاج الى وقت كثير، ولكننا نبلغ الهدف المقصود من عملنا. وستنعقد المحكمة قريباً. ويمكنك أن توكّل محامياً إلا إذا كانوا معينين من قبل المحكمة. فقلت له:

– شكراً، سنختار محامينا بأنفسنا. فقال مبتسماً:

– إتفقنا، ولا أرى أي مانع في ذلك.

وبعد بضعة أيام جاء الرقيب المسؤول عن العلاقات بين المحاكم والسجن وهو يصرخ في الرواق:

– زازا ومجموعته الى المحكمة. غداً في الساعة السادسة والنصف أمام الإدارة.

لقد وجدنا سابقاً محامين من أكبر محامي دمشق. وكان هؤلاء المحامون يطلبون مبالغ طائلة بالمقابل، تبرع ثلاثة من المحامين الكورد ومحام عربي شاب من حلب للدفاع عنا مجاناً. لقد كانت عناصر الإتهام الموجهة ضدنا خطيرة جداً وكان يجب أن يكون دفاعنا على أعلى مستوى. وفي الغداة وبعد أن حلقنا ذقوننا تراصفنا أمام مكاتب الإدارة. ونادى الرقيب المسؤول وقام بتفتيش دقيق على أمل أن يكشف كتابات مثبتة للقاضي والجمهور. ثم نُقلنا في حافلة الى المحكمة ووضعنا في مكان شبيه بالكوخ وكان مخصصاً لهذا العمل في باحة المحكمة. في ذلك اليوم، وبما إن المحكمة لم تنعقد، فقد إكتفى كاتب المحكمة بالتثبت من هويتنا. أما بالنسبة للرئيس فقد إستدعاني ليسألني ثانية عن الفصل المشهور المترجم عن الكتاب الصادر باللغة الإنكليزية (كوردستان، بلاد مجزأة). وبما أن النص كان مكتوباً باللغة الكوردية وبالأحرف اللاتينية، فقد كان أمراً مكشوفاً للسيد القاضي الذي يقال بأنه عسكري

مثقف كان يدرس الحقوق في فرنسا. فسأل قائلاً:

- ماهذا؟ ماهذا؟ فأجبته:

- هذه لغة كوردية

- أهكذا تُكتب اللغة الكوردية؟

- نعم فمنذ أكثر من أربعين عاماً يستعمل كورد سورية وتركيا الحروف اللاتينية الموافقة للغة الكوردية. ولم يتوقف عن تكرار العبارة. وقد أدهشه هذا الإكتشاف.

- هذا أمر عجيب، عجيب جداً، وأنت أيضاً تكتب باللغة الكوردية جيداً. فأجبته:

- نعم، أعتقد ذلك. فقال لي:

- آه، نعم، وذلك بشيء من الود المخفي لي وربما لجميع الكورد السجناء.

وبعد هذه المواجهة الأولى، أقلتنا الحافلة ثانية الى السجن. وكنت أرى من النوافذ الصغيرة المسيجة بقضبان، الناس الذين كانوا يتنزهون ويبتغون لأعمالهم. وكنت أتساءل والقلب يرتعش، ما إذا كنت في يوم ما سأتمكن من السير بحرية ثانية. وفي السجن ضُربنا بالسياط مجدداً وصودرت أحزمتنا وربطات عنقنا، وفي المرقد كان السجناء العسكريون فضوليين ليعلموا ما جرى بالضبط في المحكمة وبأية طريقة تصرف القاضي معنا. وبينما كانوا يصغون إلينا بإنتباه، كانوا يضاعفون الدلائل التي يمكن أن تشد من عزمنا، مثل "إن إسم المحكمة العسكرية يبعث على الخوف ولكنه في الحقيقة أقل قساوة من المحاكم المدنية، ستخرجون منها سالمين وسترون ذلك".

لقد خُدعنا بكلامهم المعسول، فمنذ الخامس عشر من كانون الأول عام ١٩٦٠ وحتى ٢٠ شباط عام ١٩٦١ (يوم المحاكمة) كنا نُقاد كل سبت بإستثناء أيام الأعياد، الى المحكمة. وفي الجلسة الثانية، كانت المحكمة مستوفاة وكان الرئيس برتبة عقيد، يرافقه عضوان أحدهما وكيل النيابة والثاني مدني، وخلف المحامين كان هناك حوالي ثلاثين مقعداً، الخمسة الأولى مخصصة لنا والباقي للجمهور. ولدى إستجوابي مُنع دخول الجمهور الى قاعة المحكمة بإستثناء الصحافة التي كانت حينئذ خاضعة تماماً للحكومة.

وركز الرئيس على عناصر الإتهام الأساسية التي قدمها قاضي التحقيق العسكري في حلب وهي، لقد أسسنا جمعية بطريقة غير شرعية ذات هدف سياسي، كنا نقوم بنشاطات تهدف الى تقويض الوحدة القومية والسياسية للبلاد....الخ. وسألني الرئيس:

- أنت الذي بادرت بإنشاء الحزب الديمقراطي الكوردي في سورية، أليس كذلك؟

- نعم، أنا.

- لماذا قمت بهذا المشروع؟

- لندافع عن أنفسنا ضد الشوفينية العربية.

- إن المستندات التي عُثر عليها لدى أعضائكم تظهر نوايا حزبكم بإقتطاع جزء من سورية لضمه الى دولة أجنبية. أليست تلك محاولة خيانة عظمى؟

- إنك تعتمد على مستند مترجم عن كتاب باللغة الإنكليزية، فلو أعطيتني أماناً بإنك لن تضايق الشخص الذي منحته هذا الكتاب، فسأعطيك عنوانه. وتستطيع بهذا أن تتأكد من صحة كلامي. وعلى وعد رئيس المحكمة، أشرت الى عنوان الصديق وقلت:

- إن الفصل المُتهم بالجريمة من هذا الكتاب مترجم من قبلي وحدي ولم يُنشر. فأجاب الرئيس:

- سوف نرى ذلك، ونحن ننتظر، أعطني دلائل مادية تدعم إتهاماتكم المتعلقة بالتمييز العنصري الذي يكون الكورد ضحاياه في الجمهورية العربية المتحدة.

بدأت أعددها مجدداً. وحينما وجد الرئيس أن ذلك يتطلب وقتاً طويلاً، إقترح علي أن أكتب ذلك كتابة للجلسة التالية.

في ذلك اليوم، لم يكن هناك وقت لإستجواب المتهمين الآخرين، وعند الظهر، علقت المحكمة جلستها وسارع رجال الشرطة في إعادتنا الى المزة. وخلال أسبوع، وبالتعاون مع رفاقي، حضّرت تقريراً طويلاً حول التمييز العنصري الذي يواجهه الكورد في سورية، وتحدثت فيه عن عزم السلطات على قتل الثقافة الكوردية (بغياب المدارس والكتب والصحافة الكوردية) ورفضهم منح الجنسية السورية لعدد كبير من الكورد القاطنين في سورية منذ عدة أجيال. وذكّرت إدارة نفس السلطات بتعريب المناطق الكوردية وذلك بطرد الكورد من قراهم وإستبدالهم بالعرب، كما أشرت أيضاً الى تحيز الموظفين، والى طرد الموظفين العسكريين والمدنيين الكورد وإغلاق باب القبول في الكليات الحربية والشرطة أمام الشباب الكورد الذين تتوفر فيهم الشروط الواجبة.

وفي الجلسة التالية سلمت التقرير الى الرئيس الذي لم يتنازل حتى أن يعير له إنتباهه الى نهاية الجلسة. وبعد عدة أسابيع طلب وكيل النيابة وعلى أساس بنود القانون الجزائي المدني والعسكري أيضاً وبتوجيه من السلطات السياسية للبلاد، إنزال عقوبة الإعدام بثلاثة منا وهم (عثمان صبري، رشيد حمو، نورالدين زازا)، بالإضافة الى عقوبات بالسجن لمدد تتراوح بين عامين وعشرة أعوام لرفاقنا الآخرين، ومُنح محامونا أسبوعين ليحضروا مرافعاتهم.

وبعد بضعة أيام أخبرتنا الإذاعة التي لم تكن تبث سوى ألحان السير، أن الرئيس كان قد عين لجنة مكلفة بتحضير دستور جديد (ديمقراطي) وأنه نادى الشعب ليتعاونوا في تحضير هذا الدستور. وأية أفكار وعروض وإقتراحات متعلقة بالدستور كان يجب أن تُرسل الى (ناصر) بالذات أو الى اللجنة المذكورة.

وحينما سمعت هذا النبأ، أسرعت بكتابة برقية[٧٠] سلمتها الى إدارة السجن لترسلها الى جهتها مؤكداً أن نفقاتها ستكون عليّ. مضت عشرة أيام، وفي اليوم الحادي عشر وبينما كنت ممداً على السرير على وشك أن أنام، وإذا بأحد الجنود يفتح باب المرقد بعنف وسحبني من قدمي وطلب مني أن أتبعه فوراً. فأدخلني الجندي الى مكان سيء الإضاءة. حيث كان المدير الجالس خلف طاولة كبيرة، مقطب الوجه أكثر مما مضى وبيديه ورقة كان من الصعب عليّ أن أميزها، وكان يتراصف حوله على طول الجدران رجال الشرطة العسكرية ذوي الرتب وبعض الجنود ولم يردوا على تحيتي وألقوا إليّ نظرات مفعمة بالتهديد والحقد. ومضت بضع دقائق في صمت مطبق وقلت في نفسي حائراً: "ماذا إذاً، ماذا يريدون مني، وكلهم مجتمعون في هذه الغرفة في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل؟". وبعد لحظة رفع المدير بصره نحوي ونظر إليّ بإزدراء وقال:

- من كتب هذه الورقة؟

- أية ورقة؟

- هذه البرقية الموجهة الى الرئيس. فقلت له:

- أنا، وقد خفّ عني القلق بعدما رأيت أن الأمر ليس إلا ذلك. فتابع قائلاً:

- ولماذا تريد أن ترسل البرقية؟

- لأنني لست سارقاً ولا قاتلاً، لقد عانيت الكثير للقيام بدراسات لأفهم العالم جيداً، وأحاول أن أكون نافعاً لشعبي وللناس عامة. وأجد نفسي الآن في السجن لسبب بسيط ألا وهو أنني كوردي؛ فإذا كنت قد أرسلت هذه البرقية، فهذا أملي في المستقبل بألا يواجه كورد آخرون ذلك المصير. فصرخ المدير وقد إستشاط غضباً وجحظت عيناه:

- أيها الوغد! هل هذا الوقت مناسب لإرسال مثل هذه البرقيات؟ فأجبته مبتسماً:

- لماذا أكون وغداً، ولم لاأرسل برقية لرئيس دولتي؟ إنك تتصرف كما لو أنني أرسلتها لدولة أجنبية، العدوة اللدودة لبلدنا. فأجاب:

- إذاً لا تفهم، أنه لدى الرئيس في هذا الوقت مشاغل أخرى كثيرة.

- هل هناك أهم من تعيين دستور جديد للبلاد ولاسيما إذا كان دستوراً مستوحى من الشعب مباشرة؟ فصاح المدير:

- لا يحق للسجناء أن ينشروا أفكاراً بهذا الشأن.

- لو كان الأمر كذلك، فلماذا عملت مكبرات الصوت في السجن في وضح النهار لإسماعنا النبأ؟ وحينما رآني الرقيب (زين العابدين) وأنا أجيب المدير بسرعة وبالمثل، أسرع نحوي ورفع يده قائلاً:

– أخبرني إذاً، ألم تُعرّيك هذه الأشهر الخمسة من السجن بعد، إنك تستحق عقاباً رادعاً!
بهذه الكلمات، حاول أن يوجه قبضته الى رأسي ولكن المدير منعه من ذلك قائلاً:

– كلا سنعفيك هذه المرة من اللكمات، ولكن في المرة القادمة، سنعرف كيف نلين عظامك.
وإستدار نحوي صارخاً:

–إنصرف الآن، أيها الكلب الأجرب! إياك أن ترتكب ثانية مثل هذه الحماقة. وقبل أن يكون لديّ الوقت للمقاومة، إستولى عليّ شرطيان ليأخذاني الى المهجع. وكان جميع السجناء يقظين لمعرفة مصيري. فقلت لهم:

– مامن خطر، ناموا براحة بال وسأحدثكم عن الأمر غداً.

فإختفت رؤوسهم تحت الأغطية. وبعد قليل دوت أصوات الشخير من كل الجهات. أما من جهتي فلم أجد الى النوم سبيلاً. فقد كان هذا الحادث الجديد يؤلمني. فهم لم يغتصبوا حقي كمواطن فقط، وإنما أهانوني وهددوني بأسوأ أعمال العنف لأنني قمت بذلك، ولم تقم السلطات بتلك التصرفات سوى بسبب إنتمائي القومي. ألم يكن ينبغي لي أن أذكر هذه الحالة من التمييز العنصري لرئيس المحكمة؟ فكرت بذلك طوال الليل. وفي الغد دونت على الورقة كل موضوع البرقية، كما كتبت رسالة خاصة الى رئيس المحكمة طالبته فيها بإضافة الحادث الى الحوادث السابقة التي سلمتها له. وبعد يومين وبينما كان السجانون يستعدون لنقلنا الى المحكمة، أخرجت المستندين من جيبي وسلمتهما الى الرقيب (زين العابدين) قبل أن يبدأ تفتيشه. وحينما ذُعر بمضمونهما، رمقني بنظرات متوهجة وهرع الى المدير بسرعة وهو يزرر سترته وصاح بصوت أجش:

– إنك تريد حقاً أن تخلق لنا المتاعب، أليس كذلك؟ سيكلفك ذلك كثيراً، كثيراً جداً، صدقني! فأجبته بهدوء:

– سأناضل ضد جميع أشكال الظلم قدر إستطاعتي.

– كن على يقين بأنك ستُكافأ على ذلك لدى عودتك من المحكمة.

وخُصصت جلسة المحكمة لمرافعة أحد محامينا. وبما أن الرئيس لم يكن ينبس ببنت شفة حول شكواي، سألته ما إذا كانت إدارة السجن قد سلمته مستنداً من جهتي، فأجابني بغموض ولهجة الموافقة.

– أرجوك أن تسرع في قراءته وتأخذني تحت جناحك لأنه لدى عودتي الى السجن، فإن المدير ومرؤوسيه سيلقنوني درساً لأنني أطلعتك على هذا الحادث. فأجاب وهو يسرع بإغلاق حقيبته ومغادراً المكان:

–لا لن يكون هناك ما تقول.

وكان الرقيب (زين العابدين) أمام مكاتب السجن ينتظرنا وأنيابه بارزة ككلب الحراسة وصرخ بملء رئتيه:

– من الآن فصاعداً ستخرجون جميعاً الى السخرة ولن يعفى منها أحد. وبعد ذلك فتشنا بشراسة وأعادنا الى مهاجعنا ثم منحنا عشرين دقيقة لتناول طعامنا وصاح:

– جميعكم الى السخرة!

فأسرع جميع السجناء بما فيهم سجناء مهجعنا الى خارج الحجرات وإصطفوا على طول الممر، وعلمت بأن الإدارة كانت تريد هكذا أن تثأر من الأضرار التي سببتها لها. وبما أنني لم أخرج من المهجع ثابرت على موقفي، فدنا الرقيب مني وقال:

– ولم لست في السخرة كالآخرين؟ فأجبته:

– لأنني ببساطة لست هنا لهذا النوع من العمل، فصاح:

– أنت هنا في سجن عسكري وعليك إطاعة الأوامر التي تعطى لك، ستخرج على الفور وإلا سأعاقبك وأحذّرك إن لم تخرج فستتلقى ضربات سوطي على رأسك. فقلت بهدوء وبصوت حازم:

– لن تستطيع بسوطك هذا أن تخضعني لإرادتك. فأنزل الرقيب ذراعه ورمقني بنظرة حانقة قائلاً:

– سنرى جيداً لمن ستكون الكلمة الأخيرة هنا!

نفّذ السجناء الآخرون أوامر الرقيب بلا إعتراض وعادوا هرولة الى مهاجعهم. وكان الجميع يريدون أن يروا حال ذلك السجين الذي تجرأ على أن يتحدى ضربات الجلاد (زين العابدين)، أي أوامر إدارة المزة، وإقترب سجناء المهاجع الأخرى من نوافذنا لمعرفة الأخبار. وخلال ستة أيام متتالية، جدد الرقيب هذه البلبلة وهو يرفع يومياً سوطه ويوجه تهديداته ويخضع كل سجين الى توتر غير ثابت. بقيت هادىء الأعصاب في مواجهة تحذيرات وتخويفات وشتائم وزوابع رجال شرطة زين العابدين. وأمعنت النظر الى الجلادين وأنا اكز على أسناني وبقيت جالساً بثبات على بطانيتي الصوفية، وأرى الجهد العصبي والعضلي الذي كانت إرادة المقاومة هذه تحتاج له، وذات يوم أدت الى تشنجات في ظهري وخاصة في الكليتين وكانت هذه التشنجات قوية جداً ومتواصلة حتى إن كل جسدي كان يضطرب من الإرتعاش. وغداة اليوم التالي جابهت الرقيب والسجانين مرة أخرى. وفي اليوم السابع قرر زين العابدين التغلب على مقاومتي، فأراد فجأة تنظيف السجن بكامله وأمر جميع الجنود السجناء أن يتزودوا بالمكانس والسطول، وكان في ذلك الوقت قد إرتدى بزته وثار على طريقة القائد العام للجيش أثناء الحرب بصوته المجلجل وأوامره القاسية. وبعد ان أثار هذا المشهد، أرسل شرطياً الى مهجعنا ليبلغني أن الإدارة تطلبني. وحينما مررت عبر صفوف الجنود السجناء، وصلت الى

باب ضخم يفصل بين الإدارة وبين القسم المخصص للسجناء، وكان هناك زين العابدين يظهر بمظهر الفاتح. وبينما كنت أتجه نحو مكتب الإدارة سد عليّ الطريق وهو يقول:

– والآن ستأخذ إحدى هذه المكانس وتذهب مع الذين تجمعوا هناك ليكنسوا وينظفوا باحة الإستراحة الكبرى. فقلت له:

– لا لن أذهب. فصاح وهو يضرب بقبضته على وجهي:

نعم ستذهب. فقلت في نفسي "لو أنني ضُربت هذه المرة فسأستعمل يدي" ولكنه في اللحظة التي كنت أستعد لمبادلته لكمة بلكمة رأيت المدير منفرداً في مكتبه ويحيطه العملاق (أبو العبد) ومجموعة من رجال الشرطة. فإمتنعت حينئذ عن رفع يدي على أحد مسؤولي المزة الكبار، وحاولت أن أرخي عضلات ذراعي وأتحمل ضربات الرقيب دون أن أتفوه بكلمة. وتابع قائلاً وهو يطرق وجهي:

– ستنظف الباحة. فأجبته دون توقف:

– لا، أبداً.

لقد أُنهك الرقيب دون شك من ضربي ولولا أن المدير يأتي ويحل محله، فسأل الرقيب بسذاجة:

– ماذا هناك؟ ما الذي جرى؟

– هذا السيد يرفض الذهاب الى السخرة.

– آه، نعم، دعه لي سأتولى أمره شخصياً وأتصرف لدرجة أنه لن يتحسر أبداً على جسارته.

بهذه الكلمات أمسك ذراعي وجرني الى باب مكتبه. وظهر عشرة من رجال الشرطة من كل الزوايا وأحاطوا بي. وإستقر العملاق (أبو العبد) الى يميني وهو يستعد للتدخل. ولهذا الظرف كان المدير قد جند أيضاً خمسة عشر ضابط صف حكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة بالسجن والسخرة في مختلف أعمال الإدارة. ثم تحت أنظار الفضول الشاخصة لكل هؤلاء الناس، بالإضافة الى أنظار خمسين من السجانين الآخرين المسلحين بالسياط، بدأ المدير يجلدني بالسوط بعنف وهو يشتم بصوت عال مثل الفولكلور العربي فقد شملت هذه الشتائم أبي وأمي وأخواتي وأسلافي وأخلاقي وشعبي وأمتي. وضربني (علي عيسى)[٧١] بهياج غريب وإستطاع أن يجلدني مائة جلدة دون توقف. وفي الضربة المائة، وبما أنني كنت واقفاً منتصباً على قدميّ بثبات، لاأتذمر ولاأتكلم ولاألتمس الشفقة، تخلى مدير السجن عن سوطه وشدد قبضته ووجه لطمة بيمناه الى فكي. كانت الضربة عنيفة جداً حتى شعرت أن الأرض تنزلق فجأة من تحت قدمي وأنني أتدرب معها. وحينما ثبت الى رشدي، كنت في

مستوصف السجن، وكان العملاق (أبو العبد) يرغمني على شرب دواء مر كان يشبه الكحول كثيراً. وسمعته يقول لي :

– هيا، إشرب، إشرب الكأس كلها بسرعة. سيساعدك ذلك على إستعادة قوتك. آه، أنتم الكورد أعرفكم حق المعرفة. فحينما تقولون (لا) فإنه (لا) حقاً. لاأستطيع أن أفعل شيئاً ولانستطيع أن نجعلك تقول (نعم). وكان يهز رأسه من اليسار الى اليمين إشارة الى عجزه وعدم قدرته في مواجهة حزم وثبات الكورد. وكانت تلك الضربات قد جعلتني في حالة يرثى لها.

لقد كسرت إحدى أسناني وأدمي فمي وتورم فكي الأيسر كثيراً وأصيب برضوض حتى إنني كنت أجد صعوبة على الكلام، إضافة الى ذلك كان ظهري يحترق ويقطع تنفسي كما لو كان صدري قد ضيّق بمكبس عملاق. وكان الرقيب الممرض يختلف عن بقية الموظفين العسكريين في السجن بهدوئه ورقته ودأب على معالجتي وهو يبذل أقصى جهده، وقد جعلني أتمضمض بشراب مختّر وضمد وجهي وجعلني أبلع حبوباً مانعة للحمى ودهنني بصبغة اليود. وما إن إنتصبت واقفاً حتى ساعدني في الوصول الى مهجعي. وكانت الضربات المتواصلة التي وجهها إليّ المدير، قد أثارت قلق جميع سجناء المزة. وبينما كنت أجتاز المهجع، سارعوا الى النوافذ ليروني ويعبروا لي عن تعاطفهم بالرغم من صراخ وتهديدات السجانين. وكان السجناء في مهجعي قد ذهلوا كما لو كانوا هم الذين تعرضوا لهذه اللكمات، حتى إن بعضهم كان يذرف دموعاً ساخنة والبعض الآخر يضربون صدورهم معبرين عن سخطهم الجلاديّ:

– لقد تجرأوا على أن يفعلوا بك هذا، هؤلاء الوحوش القذرون.

أما بالنسبة لـ(عدنان وادي)، كان شاباً من الحي الكوردي حكم عليه بالسجن ثلاثة أعوام لأنه حاول منع مجموعة جنود من إغتصاب إمرأة في شوارع دمشق المقفرة، فقد كان يشهق كالأطفال وهو يقضم أظافره، ويقول:

– لو كنت أملك رشاشاً كهؤلاء الأوغاد لقتلتهم جميعاً.

حاولنا أن نهدئه قليلاً، ولكن بالرغم من إنه كان نائماً، فقد كان يتأوه ويوجه شتائم الى (ناصر) والى (عبدالحميد سراج) والى مكاتب المعلومات الخاصة، والى القضاة والى مدير السجن ومرؤوسيه. أما بالنسبة لي، فبعد قليل من إغلاق الأبواب، أصابتني حمى حارقة جداً حتى بدأت أسناني تصطك وشرعت أهذي. وأخبر جاري في السرير السجان الخفر عن حالتي. وفي وقت متأخر من الليل، جاء الرقيب الممرض ليحقنني بإبرة وجعلني أبلع أدوية منومة.

وفي الغد، لاقيت صعوبة في النهوض. فقد كان ظهري وعنقي وكتفاي تؤلمني كثيراً، حتى إستحال عليّ أن أحرك القسم العلوي من جسدي. وطلبت نقلي الى المشفى. ولكن خوفاً من

أن يكتب الطبيب المعالج تقريراً يسرد أسباب حالتي، رفضت الإدارة طلبي بحجة أن ممرض السجن قد بذل قصارى جهده في تقديم العناية الضرورية لي. وفي يوم السبت، وبما أن وجهي كان لايزال يبعث على الشفقة وكان ظهري يشبه قطعة من اللحم المشوي المفحّم، لم نُنقل الى المحكمة. وإهتم الرقيب الممرض بإخلاص بحالتي وعمل كل ما بوسعه لكي تختفي آثار أعمال العنف التي كنت ضحيتها. وخلال عشرة أيام، إختفى الورم من الوجه ولكن الظهر والكتفين أبت أن تعود الى حالتها الطبيعية وظلت مائلة الى السواد وخلال أكثر من شهرين، واليوم أيضاً، أشكو من آثار مائة جلدة بالسوط على الكتفين. وكان يحدث لي أحياناً أنني أحلم بسجن المزة، فكنت أرى رجال الشرطة العسكرية مكشرين عن أنيابهم وبيدهم سياط كبيرة وهم يهددونني، كان ذلك الكابوس الذي يرعشني. وفي السبت الثاني بعد الحادث، جمعتنا سلطات السجن لتنقلنا الى المحكمة. وذكرت سوء المعاملة التي تعرضت لها، فنزعت قميصي لأُظهر ظهري للرئيس الذي بدا أنه تأثر بهذا المشهد ولكنه تصرف كإنسان آلي، وقال:

– في الواقع، لقد سمعت عن هذه القصة، إنها قديمة وليس من الضروري إشعال الفتيل ثانية. إن الجمهور المكون معظمه من الكورد حاول المقاومة لكنه أُبعد من قبل الشرطة العسكرية. أما نحن فقد وجدنا أنفسنا بعد قليل في السجن، وحينما علم (زين العابدين) بتصرفي في المحكمة، غضب مجدداً وحاول الإنتقام. ومع ذلك فقد صرفَته عن ذلك مكالمة هاتفية من قبل إدارة الشرطة العسكرية المسؤولة عن سجن المزة في اللحظة الأخيرة. أخيراً حان وقت المرافعات. لقد قدّم محامونا الكورد والعرب مرافعاتهم كلها بشجاعة مدعّمة بالأدلة إستناداً الى لا معقولية ومبالغة الأعباء المفروضة علينا. ماذا فعلوا ليقعوا تحت طائلة القانون؟ هل كانوا عملاء لدولة أجنبية؟ هل إرتكبوا جرائم الخيانة العظمى باللجوء الى العدو أو تحويل أسرار خاصة بالدولة؟ فصاح محام عربي:

– كلا، لاشيء من ذلك، إنكم ترون أمامكم سيدي الرئيس، السادة أعضاء المحكمة، أناساً شرفاء ومثاليين حقاً، يطلبون إحترام لغة وثقافة وتقاليد الشعب الكوردي وتطويرها، وهذا كل ما في الأمر. لقد أنقذنا هذا الشعب الباسل والأمين المقاتل في ألف محنة ومحنة. أنقذنا من إبادة فظيعة، ولكي نقنعكم بذلك، فما علينا سوى أن نقرأ تاريخ البطل (صلاح الدين الأيوبي). وسألت شخصية مرموقة من محامي دمشق:

– لماذا نمنع الكورد من أن تكون لهم مدارسهم باللغة الكوردية في حين أننا نمنح هذا الحق الى اليهود والأرمن والسريان؟ إن عدد الكورد في سورية هو أكبر بكثير من تلك الأقليات ويسكنون بصورة متماسكة في شمال البلاد. فهل من العدل منح حقوق ثقافية للطوائف الحاملة للطابع الديني ورفضها لكيان قومي هام؟ لقد ورثنا هذه السياسة من السلطة المنتدبة. وهل من المنطق أن نتمسك بها بعد خمسة عشر عاماً من الإستقلال؟

وجاء بعد ذلك دور أحد المحامين الكورد من حلب:

– منذ ثمانية قرون، جاء الكورد الى سورية كمنقذين، وكان الشرق الأدنى بما فيه مصر، يشمل فلسطين ولبنان، يقع ثلاثة أرباع منه تحت الإحتلال الفرنسي- الإنگلوسكسوني. فكيف تسمح اليوم دولة، تجمع مصر وسورية، لنفسها بإضطهاد أحفاد شعب ضحى بدمه بغزارة لتحرير وحماية سورية في أحلك الساعات المأساوية التاريخية؟ إن إخضاع الكورد لسياسة التعريب القسري، هو إحتقار للتاريخ والعدالة والأخلاق وأيضاً للتقاليد الديمقراطية القديمة للشعب العربي. وهذا ما يمهد الطريق للعنصرية، الى التمييز التعسفي والمخاطرات الفاشية. فكروا ملياً بكل ذلك، أيها السادة الأعضاء قبل أن تصدروا أحكامكم!

وبعد أسبوع من تقديم المحامين لمرافعاتهم، منحتني المحكمة إذناً بالتعبير عما يجول في نفسي. فأظهرت نشاطي المناهض للإستعمار منذ نعومة أظافري، حينما كنت طالباً في ثانوية فرنسية، أثناء إقامتي في سويسرا حيث أسست في البداية جريدة (العربية)(٧٢). فوصفت الديمقراطية كثيراً في فرنسا ووحدة هذا البلد بأغلبيته، والتعايش السلمي لشعوب عديدة ذات لغات وثقافات وعادات وعقائد مختلفة. وأوضحت أصالة وقوة وغنى وفعالية سويسرا.

كما عرضت أيضاً المنافع التي كانت سورية ستجنيها بإحترامها الخصوصيات اللغوية والثقافية لسلالاتها المختلفة وهي تفتح لها الطريق لتندمج في الثقافة العربية وتغنيها بدلاً من أن تعارضها لشوفينية متصلبة، ضيقة ومنطوية على نفسها.

وبالرغم من الحركات والتكشيرات الإنكارية للقاضي، فقد أثارت دلائلي بشكل إيجابي شعور القضاة الذين إستغرقوا حينئذ في تأمل طويل. أما من جهة أصدقائنا في الخارج، الذين رغبوا تجنب إنقضاض السلطات المصرية والسورية علينا، فقد إستطاعوا تنظيم حملة إحتجاجات واسعة، فكورد العراق الذين كانوا على علاقة جيدة مع (قاسم)، طعنوا ناصر ونظامه، وسارت وفود كثيرة على شكل أرتال خلال أيام كاملة أمام سفارة الجمهورية العربية المتحدة في بغداد تطالب بإطلاق سراحنا. وفعل كورد لبنان ذلك في الصحافة اللبنانية ذات النزعة الديمقراطية ولدى سفارة الجمهورية العربية المتحدة في بيروت. وأوصل أصدقاء وأنصار سويسريون عرائض موقعة من قبل مئات المثقفين والأدباء والفنانين والعلماء المشهورين الى السلطات المصرية- السورية. وكان أحد أصدقائي المخلصين محامياً ومستشاراً قومياً سويسرياً وهو (گيلبرت بايشتولد)، أبدى عزمه للمجيء والدفاع عني أمام المحكمة العسكرية في دمشق، وذلك مع أصدقاء سويسريين آخرين. وأبدى كورد فرنسا وألمانيا والسويد وبلجيكا وإنگلترا وإيطاليا، بالإضافة الى أصدقائهم ومعارفهم تضامنهم، وطالبوا ممثلي الجمهورية العربية المتحدة في بلادهم بإطلاق سراحنا. وأدت كل هذه التدخلات والعرائض الكثيرة الى تخفيف عنف السلطات السياسية تجاهنا. فأحكام الإعدام والسجن مدى الحياة والسجن من (٧ الى ١٥) عاماً خففت الى عام ونصف عام والى سبعة أشهر من السجن.

وبفضل تلك التواقيع، نجوت من حبل المشنقة وبعد ستة أشهر من الإقامة في المزة، كان

عليّ أن أُنقل بالإضافة الى رفاقي في الحزب الديمقراطي الكوردي في سورية، الى سجن دمشق المركزي الذي لم يكن سوى قلعة قديمة بناها صلاح الدين(٧٣). وكانت المحكمة قد أصدرت حكمها في ٥ آذار ١٩٦١، وعشية الخامس عشر منه، أمرتنا إدارة المزة بالإستعداد للرحيل. إن فكرة مغادرة سجن يقع خارج المدينة على مرتفعات دمشق، يديره نظام عسكري ويخضع لأهواء رجال الشرطة الجلادين، والتوجه الى سجن مدني يقع في مركز المدينة تديره شرطة إدارية معروفة بلا مبالاتها ومحبتها للأقارب، كانت تفرحنا جميعاً. لقد كنا نسرع أيضاً بترتيب أغراضنا وتوزيعها على الجنود السجناء. فكان المحرومون منهم الذين يطلبون بضعة قروش لقاء قيامهم لنا ببعض الخدمات، حزينين لفكرة مغادرتنا. وكان الآخرون يهنئوننا لأننا نجونا من وحشية وسادية علي عيسى وزين العابدين وأبو زاتور، أما (عدنان وادي) صديقنا الشاب من الحي الكوردي، فقد أصيب بكرب لأنه لم يعتقل ويحكم عليه لنفس السبب الذي إعتُقلنا من أجله، وكان ينتحب ويقول:

– لن يدوم هذا النظام طويلاً، وسيطلق سراح كل الذين أُصدرت عليهم أحكام وستثبت براءتهم. وبمثابة تسلية له، كنا نقول له:

– سنرى بعضنا بعضاً خارج القضبان الحديدية أحراراً لكي نخدم شعبنا والإنسانية، سنعمل معاً لتحقيق مشاريع عظيمة. ولكن بإنتظار ذلك يجب أن تستفيد من إقامتك في السجن لمتابعة دراستك وتقديم إمتحاناتك.

وبعد أن أتمت إدارة سجن المزة إجراءات النقل والخروج، حشدتنا في عربة سجن محروسة بشدة بإتجاه المدينة. ومن خلال النوافذ الصغيرة المزودة بالشباك، كنا ننظر كما لو كنا في حلم، الى الناس الذين كانوا يتجولون في الشوارع والساحاتَ العامة. في سوق الخجا وهو أحد الأماكن الحيوية في دمشق، كان التجار والباعة المتجولون والمشترون والبائعون لكل أنواع البضاعة، يتجهزون فيه، وإستطاعت السيارة بضربة منبه أن تصل الى البوابة التذكارية لقلعة صلاح الدين ورجال الشرطة الذين أُخبروا بوصولنا، سمحوا لنا بالدخول الى الباحة الخارجية وقاموا بعد ذلك بإدخالنا الى الداخل. وفي مكتب صغير ذي جدران مغطاة بالملفات، كان هناك موظف مدني يجلس أرضاً خلف طاولة كبيرة لايبدو منه سوى رأسه الكبير الأصلع وذراعاه المغطيان بالفرو الأسود، إستقبلنا الواحد تلو الآخر من أجل إجراءات التسجيل، ثم بُعثرنا في مراقد السجناء المحكوم عليهم بالسجن لمدة عامين كأقصى حد.

وُضعت بصحبة ثلاثة من رفاقي في النضال في المرقد الواقع تماماً مقابل المكاتب المخصصة للإدارة. والعقيد (وحيد برازي) وهو كوردي من حماة، كان يشغل حينئذ منصب المدير. فمن ضابط صف في الجيش، حُوّل الى الشرطة بسبب تفريغ رشاش في بطنه أثناء هجوم دورية إسرائيلية عام ١٩٥٨ على حدود الجولان. وبالنسبة للذين كانوا يشكون بشجاعته وبإخلاصه لوطنه، لم يكن يضيّع أبداً فرصة كشفه عن بطنه المشوه. وبدا متحفظاً جداً وحذراً تجاهنا، وهو

يخشى دون شك تعليق أهمية كبيرة لعرائضنا ولمطالب أصدقائنا في الخارج الذين كانوا يعرفونه عن كثب. كان يعلم أحياناً إظهار الشجاعة والحيوية. وفي القسم المخصص للمحكومين الكبار، إستطاع أن يُدخل طرقاً جديدة بتنظيمه الى فئات ذات مستويات تطبق المنهاج الرسمي وأُختير المعلم قدر الإمكان من بين السجناء. وسارعت مع بعض من أصدقائي المجازين بتقديم خدماتنا من أجل مناصب (المعلمين) الشاغرة في السجن. ولكن طلبات ترشيحنا رُفضت "بسبب وضعكم كسجناء سياسيين". وبمبادرة من العقيد البرازي، شكّل السجناء فرقاً لكرة الطائرة والسلة ورُفض أيضاً طلب إنضمامي لأحد هذه الفرق لنفس الأسباب.

ولم تكن هذه الإجراءات العنصرية بحقنا هي وحدها التي تزعجنا. وبما أن أسرة مرقدنا كانت مجاورة تماماً للمراحيض المكشوفة والمجردة من الأبواب والمتعفنة، فقد توسلنا للإدارة بنقلنا الى جهة أخرى أو السماح لنا بشغل الأسرة الواقعة مقابل الباب الحديدي للمرقد. فأُجبنا بأن المراقد كانت مكتظة وأنه يجب علينا أن ننتظر دورنا لكي يمكن تقريبنا من الباب بصورة تدريجية. في هذا الصدد ليس هناك شيء إفتراضي، فكلما كان سجين يترك مكانه لقضاء حاجته، كان عدة سجناء يسرعون فوراً للإستيلاء على سريره، وكان ينجم عن ذلك مشاجرات حقيقية. وكانت جماعات بأكملها تتقاتل. وكان علينا أن نصبر شهرين أو أكثر وبعد أن رشونا الرقباء بسخاء، إستطعنا أن ندنو من الباب ونستنشق الهواء النقي.

كانت لهذا السجن منافع كثيرة بالمقارنة مع سجن المزة. فمنذ الثامنة صباحاً، كانت الأبواب تُفتح حتى الظهر ومن الثانية بعد الظهر حتى السادسة مساءً، وخلال الإستراحات كنا نستطيع أن نلتقي بالناس من مختلف الأوساط ومن جميع أنحاء سورية. فقد كانوا يحدثوننا عن الجنح والجرائم التي إرتكبوها وكان معظمهم ضحايا القدر والسذاجة أو ضحايا ظروفهم العائلية والإجتماعية مثل ذلك التعيس من الحي الكوردي في دمشق، حُكم عليه بالسجن لمدة سبعة أعوام بسبب قتل أخيه غير المتعمد وللظروف الإجتماعية والإنسانية التعيسة. وكذلك السجن لمدة عامين لهذا الموظف اللئيم والمذنب الذي إختلس من الدولة مايعادل (٢٠٠) ألف فرنك سويسري، ولم يكن مسروراً بوضع أمواله المسروقة في مكان مخفي، فقد تابع هذا الرجل المشؤوم التصرف كموظف وكسب المال وهو ينتحل دور كاتب شعبي حتى في باحة السجن. فكان يجلس على مقعد صغير خلف طاولة سهلة الطي، ويكتب عرائض ورسائل للسجناء الأميين أو غير القادرين على التحدث مع الأوساط الرسمية. وظهر من بين السجناء أيضاً عدد كبير من غاسلي العار العائلي[٧٤] هكذا كانوا يُسمون، إنهم الآباء الذين كانوا قد قتلوا بناتهم أو الإخوة الذين ذبحوا أخواتهم "المذنبات" لأنهن خرقن قانون الشرف التقليدي.

وكان معظم سجناء السجن يمضون أوقاتهم بصنع محافظ النقود وحقائب السيدات من اللؤلؤ والزجاج متعدد الألوان. وكان عدد كبير من السجناء يعيشون هكذا من تجارة اللآلئ

والإبر والخيط أو من ثمرة أعمالهم. وتخصص بعض رفاقنا في هذا الفرع من الحرفة محاولين تحقيق "ذكريات السجن" لأجل السجناء قليلي المواهب في الأعمال اليدوية، ومضت الأشهر الخمسة من إعتقالنا دون مشقة. فلم نكن نعرف هموم السخرة ولا المحن المخزية الأخرى في سجن المزة ولا التعذيب.

وبينما كانت إقامتنا تقترب من نهايتها، أحيل العقيد (برازي) البالغ من العمر أربعين عاماً، الى التقاعد كبقية الضباط الكورد الآخرين، بالرغم من إرتباطه بالنظام وخضوعه لصنائع ناصر ومواهبه الكبيرة كمدير ومربي. وكان معاونه مساعداً بسيطاً وجد نفسه مكلفاً بإدارة إصلاحية (سجن الإصلاح) حيث كان أكثر من ثلاثة آلاف سجين يعيشون سوية. وهو الذي صدّق على أمر إطلاق سراحنا في ٨ آب ١٩٦١.

ذات صباح بهي، وجدت نفسي في مكان ذي هواء نقي والساقان مرتخيتان والقلب يخفق. مشيت بفرح في شوارع دمشق، ومع ذلك كنت أحس بأنني مُراقَب وملاحَظ ومطارَد دوماً كما وجدت نفسي فجأة بين الشعب الذي كان ينصرف الى أعماله اليومية وسط باعة المرطبات أو عصير الفواكه الذين كانوا يصيحون بأعلى أصواتهم وشعرت أن جسمي قد إعترته قشعريرة النشوة. كيف إستطعت قضاء سنة من حياتي محبوساً خلف الجدران الأسمنتية، في حين أن دمشق كانت تضج حيوية ونشاطاً؟ لقد طرت فرحاً وسروراً لأنني كنت خارج أسوار سجن المزة، ولكنني أشعر أحياناً بأنني لست طليقاً تماماً. وحاولت شيئاً فشيئاً أن أعتاد على الحرية والحياة الطبيعية. وكانت خيبة أملي الأولى هي مستودعي لإستيراد وتصدير المواد الصيدلانية الذي كان قد نُهب خلال فترة إعتقالي، مما أدى الى عجز في ميزانيتي لأكثر من (٥٠) ألف فرنك سويسري. وكان عليّ منذ الآن أن أباشر بالعمل بيدي وإنطلقت من نقطة الصفر.

6

سورية

- التعود ثانية على الحرية
- إنهيار وحدة مصر وسورية
- تجربة المرشح المنتدب في البرلمان السوري
- العودة الى السجن ثانية
- إنقلاب ووصول حزب البعث الى السلطة
- حياة سرية لعدة أشهر لدى أسر كوردية في دمشق

إن إختلال النظام الإقتصادي الناتج عن وضع (ناصر) يده على سورية (ولاسيما سياسة تأميم المصارف والمشاريع الكبرى والأراضي)، لم يكن ليسهل لي الأمور. فقد كان سخط السوريين يزداد يوماً بعد يوم على إستعمار بلادهم من قبل مصر، وكانوا يظهرون إستياءهم علناً وهم يبحثون عن طريق لنجاتهم. فهل سأجد أخيراً راحة البال في هذا الوضع الفوضوي؟

كنت أتمنى ذلك بصدق حتى ذلك اليوم الذي كشفت فيه لعبة رجال المباحث. كان هؤلاء المباحث، وتحت غطاء التجارة، قد إستأجروا مكتباً مقابل مكتبي ويمضون أوقاتهم في التجسس عليّ وبحجة إستعمال الهاتف أحياناً، كانوا يدخلون مكتبي ليتحققوا من هوية زواري. وبالرغم من هذه المراقبة التي كانت تلازمني كقميص المجانين، إستطعت أن أحضر عدة إجتماعات مدنية وعسكرية عُقدت لتخليص سورية من الدكتاتورية الناصرية. وكان الإستياء شاملاً حتى إن عبدالحميد سراج نفسه طرح أسئلة على نفسه حول إخلاصه لناصر. وكان المتآمرون يحسبون أنهم سيقودونه الى زعامة الثورة. ولكنه تباطأ في التصرف. في غضون ذلك، سارع (ناصر) بإرسال القائد العام لجيش الجمهورية العربية المتحدة الى سورية، وشرع المشير (عامر)، بعد أن حل محل سراج الذي وُضع تحت الإقامة الجبرية، في نقل وتسريح الضباط (قليلي الثقة)، لكنه لم يستطع أن ينجز دوره. ففي فجر الثامن والعشرين من أيلول عام ١٩٦١، قامت الوحدات العسكرية السورية بقيادة العقيد (نحلاوي) رئيس أركان الحرب والعقيد (حيدر كزبري) مسؤول حرس الحدود (الهجّانة) بمباغتته وهو في قصره في (أبو رمانة) بدمشق ونفيه الى مصر فوراً.

وفي الغداة أُلغيت الوحدة السورية- المصرية. ورأينا حينئذ عشرات الآلاف من الضباط والجنود المصريين المنتشرين في كل أنحاء سورية وبشكل رئيسي قرب الحدود الإسرائيلية، قد إستسلموا لحفنة من الضباط والجنود السوريين. مقابل هذا الوضع لم يتجرأ (ناصر) على التدخل عسكرياً. فإستخدم الإذاعة لمساعدة رجاله وتوجيههم عن بعد، ليحشد جماهير سورية والعراق وللمحافظة على عدم الإستقرار. أثناء هذا الوقت، إتخذ أسياد سورية الجدد إجراءات القهر ضد عملاء (ناصر) وأعوانه. فوجد (مأمون كزبري) الأستاذ السابق في جامعة دمشق، نفسه مكلفاً بتشكيل حكومة مؤلفة بشكل رئيسي من المدنيين، وأعلن بعد فترة، إجراء إنتخابات حرة في البلاد في ٥ كانون الأول. ولقد شجعني كورد الجزيرة على الفور لترشيح نفسي للنيابة، وكانوا قد تأثروا جداً لإعتقالنا والأعمال الوحشية المتنوعة التي ذاقوا مرارتها أيضاً على عهد ناصر. وكانوا يتصورون أن الإنتخابات الموعودة ستكون حرة تماماً.

وفي دمشق كانت الحكومة تتصور رجلاً ذا ثقافة عالية ينحدر بالتأكيد من الطبقة البورجوازية الحرة لكي يمتّع سورية بالحريات الديمقراطية. ومع ذلك، كانت السلطة الحقيقية لازالت تحت يد الجيش. وكان الضباط الشباب قوميين ومتعصبين (شوفينيين)، قليلي الثقافة ويشتهرون بمناهضتهم للكورد. وبما أنني تنبأت حدود حرية هذه الإنتخابات، فقد رفضت إقتراحات الحزب الديمقراطي الكوردي الذي كان لايزال سرياً لكن ذلك لم يمنع أعضاء الحزب الديمقراطي الكوردي في سورية من إرسال البرقيات والهواتف لي تطالبني بالعودة الى قامشلي. وبما أنني كنت متردداً فقد أثروا في أخي الذي دعاني للإمتثال لإرادة شعب. وفي منتصف تشرين الثاني، توجهت على متن طائرة الى قامشلي. وفي المطار إستقبلت إستقبالاً حاراً. ومن أجل هؤلاء الناس الذين يهانون يومياً، كنت بمثابة شخصية ذات إمكانات خارقة وبإمكانه إيجاد دواء سحري لجميع آلامهم.

وفي منزل أخي ألح الأصدقاء والرفاق عليّ بترشيح نفسي وإختيار شركائي في الإنتخابات دون إضاعة أية دقيقة، ولم يكن ذلك سهلاً. وعلى أساس فرز الأصوات غير الكامل والمزور، الذي أصبح عادة تحت الإنتداب الفرنسي، فقد حدد لقسمنا أربعة نواب (حضري كوردي معرب، سرياني أرثوذوكسي، كوردي وعربي من الريف). كان السوريون قد أوصوا أيضاً السلطات السورية عادة قبول توكيل زعيم قبيلة (شمّر) العربية دون إنتخاب، هذه القبيلة التي كان عدد أفرادها قليلاً جداً في سورية، وكان معظمهم يسكنون العراق في الجهة الأخرى من الحدود. لقد كانت هذه الطريقة لتنظيم الأمور ظلماً واضحاً. فحسب أرقام السجل المدني في قامشلي لم ينتخب سوى أربعة آلاف عربي وخمسة آلاف من غير المسلمين (مسيحيين من مختلف الطوائف وخاصة السريان الأرثوذوكس وأيضاً اليهود) من أصل (٥٠) ألف مقترع كان أغلبهم من الكورد. بالإضافة الى الكورد المسجلين في السجل المدني، هناك أكثر من مائة ألف لم يسجلوا وأُهملت طلبات تجنسهم منذ سنوات في المستودعات المغبرة في سراي

دمشق القديم. ورغم أن الكورد غير سوريين (أي أجانب) فإنهم مع ذلك يؤدون الخدمة الإلزامية (على الحدود الإسرائيلية)، ووثيقة الهوية التي كان الجيش يمنحهم إياها، لم تكن تمنحهم الحق سوى في التنقل داخل سورية وكانت أبواب الوظائف العامة موصدة في وجوههم بالإضافة الى أبواب المدارس الحكومية وبالإضافة الى هؤلاء (الكورد غير السوريين) هناك عشرات الآلاف من المسجلين فعلاً في السجل المدني، ولم تدون أسماؤهم على اللوائح الإنتخابية، بينما كورد آخرون وعلى الرغم من أنهم مسجلون بطريقة نظامية وجدوا أنفسهم ضمن المحرومين من الهوية الشخصية ومن الإقتراع.

وفي ٢٠ تشرين الثاني عام ١٩٦١، رشحت نفسي رسمياً للإنتخابات، وفي اليوم نفسه تحدثت مطولاً مع وكيل والي المدينة. فقال لي متضايقاً:

- سأعطي التعليمات اللازمة للموظفين المسؤولين لكي تُرفع المظالم التي تلحق بالكورد هنا، ضمن حدود الإمكان، ولكن نظراً لضيق الوقت الذي يفصلنا عن الإنتخابات ، سيقوم شبابنا بتسهيل عمل موظفيكم إذا رغبتم ذلك.

وفي الغداة، كان المئات من الفلاحين الكورد يحتشدون داخل السراي، كان بعضهم يعطي بطاقته الشخصية للشباب المتطوعين من أجلي وبعضهم الآخر يطلب منهم تسجيل أسمائهم وعناوينهم، وأسرع موظفو السجل المدني الملاحَقين من كل الجهات بتكديس سجلات كبيرة على مكاتبهم حيث كانوا يبحثون فيها عن الأسماء المؤهلة قبل تسجيلها على اللوائح. وقبل الإنتخابات بعدة أيام، كان أكثر من ألف شخص يحملون بطاقاتهم الشخصية، قد سُجلوا بإنتظام على اللوائح الإنتخابية. حين تأكدت إدارة الحزب الديمقراطي الكوردي في سورية، أن معظم المقترعين كانوا من الكورد وأن الأغلبية من بينهم سيقترعون للائحتي أرادت أن تنهي لعبة الإنتخابات الموروثة عن الدولة المنتدبة، وحرصت على أن تحتوي لائحتي على هؤلاء: (أنا بإعتباري حضرياً، وكوردیان من الريف، وسرياني من قامشلي) كان أحد الكورديين عضواً في الحزب الديمقراطي الكوردي في سورية، أما الآخر فكان النائب السابق المتعاطف. أما بالنسبة للسرياني الذي تربى بين الكورد، فقد كان يتحدث اللغة الكوردية ويشعر بأنه كوردي. إن هذا كان حدثاً مفاجئاً. وما أن أخبر ضابط المعلومات العسكرية بإعداد لائحتي، حتى أزال الحياد الذي كان قد لاحظه حتى ذلك الحين وثار ضدي وضد أنصاري في المقاطعات التابعة لقامشلي، ووُضع دعاتي تحت الإقامة الجبرية والمراقبة وجاء مبعوثو الضابط لينصحوني ودياً بالتخلي عن لائحتي وتشكيل قائمة أخرى تضم مرشحين بموافقة الجيش. ونظراً لرفضي ذلك، فقد تحالفوا حينئذ في قائمة واحدة يرأسها (طلعت عبدالقادر) وهو أحد أبناء أسرة كوردية عريقة من قامشلي ولكنها تعربَت تماماً. وكان رائداً سابقاً في طيران الجيش السوري. كان قد إختار زملاء له في الترشيح وهما شيخان من قبيلة (طي) العربية، وكانا أميين تماماً على الرغم من أن القانون إشترط أن يكون مرشحو النيابة مثقفين بالضرورة. أما

بالنسبة للسرياني في قائمة (عبدالقادر) فقد كان أحد إخوة (أصغر نجار) من أغنى عائلة في سورية. ومقابل فريق يسنده الجيش ويقدم له الوسائل المالية الضخمة، فإن رهاننا كان يصعب شيئاً فشيئاً. فقد كنت وزملائي في الطريق ننتظر أصواتاً من الشعب بالإضافة الى وسائل تمويل عملياتنا الإنتخابية. ففي كل مدينة من مدن المقاطعة، كنا قد فتحنا مكتباً كان أنصارنا يأتون إليه ليستريحوا ويناقشوا أو يشربوا الشاي. كان علينا أن ننشر على نفقتنا القائمة الإنتخابية وبعض المنشورات ونجهز سيارات لتنقلاتنا ونقل أنصارنا الى مراكز الإقتراع لأنه في الريف كانت مكاتب الإقتراع نادرة ومتباعدة جداً على الأغلب ولم نستطع أنا ورفاقي أن نغطي النفقات. ولحسن الحظ، فقد أعلن سكان الريف الفلاحون إستعدادهم للتضحية بأموالهم في سبيلنا. هؤلاء الفلاحون الذين كانوا يلاقون كل المصاعب والمشقات للحصول على لقمة عيشهم، إستطاعوا أن يجمعوا عشرات الآلاف من الليرات السورية.

أما الفريق الخصم الذي كان يقترح (٢٥) ليرة سورية على كل مقترع، فقد كان مذهولاً تماماً لهذه النتيجة. أما بالنسبة للعرب المناهضين للكورد وخاصة الضباط، فقد حكموا على تصرف الشعب الكوردي بأنه "خطير جداً" وأقسموا وهم يكزون عليّ أسنانهم، بتحطيم حماسة الشعور القومي الكوردي. وخلال هذا الوقت كانت الحملة الإنتخابية في أوج نشاطها، وكان مرشحو قائمتي يتنقلون عبر المنطقة، من قرية لأخرى، ويقيمون إتصالات جديدة هنا، ويلقون خطابات جديدة هناك وهم يشجعون ويحرسون قوائمنا إما ضد تمرد خصومنا أو ضد تهديدات أو تدخل السلطات. أما من جهتي، وبالرغم من نصائح رفاقي والدعوات التي كانت تصل اليّ. فقد فضلت البقاء في منزلي بدلاً من التخبط. ومع ذلك وقبل الإنتخابات بثلاثة أيام، دعتني مدينتنا عامودا والدرباسية، الأولى على بعد (٣٠) كيلومتراً عن قامشلي والثانية على بعد (٦٠) كيلومتراً، بإصرار كبير مما أدى بي الى تلبية دعوتهما. وبعد ظهر الثامن من كانون الأول تقدم أحد الأصدقاء ليقودني خلال الجولة هناك. وفي مدخل عامودا، (وهي مركز قديم للحركة القومية الكوردية) إستقبلني عدة مئات من الشباب المتعاطفين والمرحين. وبعد أن أطلقوا عبارات الترحيب وهتافات الـ"تعيش" حجزوا سيارتنا ورقصوا على أنغام موسيقى كوردية جميلة. ثم حاصروا سيارتنا فجأة وبسرعة البرق أمسكوها ووضعوها على أكتافهم وكان الجميع يغنون أغنيات قومية كوردية، وساروا بالسيارة على أكتافهم مسافة مائة متر. وبعد ذلك حملني بعض الأنصار على أكتافهم حتى مقر الحزب الذي كان آلاف الأشخاص قد هبّوا إليه. وبعد تقديم القهوة، توسلوا اليّ بتوجيه بعض الكلمات الى الشعب ومن أعلى المنصة شكرت ضيوفي على مساعدتهم وإستقبالهم الحار، ولعنت نظام (ناصر) ثم شكرت الجيش لأنه ساعد البلاد في الوصول الى الحرية والديمقراطية: "إنني حينما أتحدث إليكم هنا بكامل الحرية فهذا يعني ويشير الى إنفتاح عصر إزدهار وسعادة لسورية ولجميع سكانها سواء كانوا عرباً أم كورداً". وبما أن الوقت إقترب من المساء فقد كان عليّ أن أختصر الكلام

للذهاب الى الدرباسية قبل العودة الى قامشلي. ولما عدت الى منزلي حوالي العاشرة مساءً كان بعض الأصدقاء في إنتظاري يترقبون الأخبار. وبينما كنت أحدثهم عن مشاعري وإنطباعاتي إذا بالباب يُقرع. كان هناك شرطيان يريدان التحدث إليّ وقالا لي بلهجة لطيفة:

– تفضل الى مكتب مدير الشرطة فهو يريد التحدث إليك. فأخذت طريق السراي وأنا أطرح على نفسي ألف سؤال وسؤال دون أن أجد تفسيراً معقولاً لهذا الإستدعاء الليلي. كان أمام الباب شرطي أدخلني الى مكتب المدير يرافقه عقيد ورائد باللباس العسكري، فسألني بلطف:

– لقد ذهبت بعد ظهر اليوم الى عامودا وألقيت فيها خطاباً أليس كذلك؟ فقلت مندهشاً:

– نعم وما الضرر في ذلك؟

– آه، ليس هناك أي ضرر، ولكن أنظر لم يبق للإنتخابات سوى يومين، وحسب القانون يجب أن تتوقف الحملة الإنتخابية قبل ثلاثة أيام من تاريخ إجرائها، ويؤلمنا أن نتأكد بأنك لم تحسب حساب هذا الشرط.

– لا أعتقد أنني خالفت القانون ياسيدي المدير. لأن الحظر لايسري مفعوله إلا إعتباراً من يوم غد، ومن جهة أخرى، أنا لم أذهب الى عامودا لحث الناس على الإقتراع من أجلي، فالمدينة نفسها هي التي دعتني، وألقيت الخطاب كي أشكر الأهالي على إستقبالهم لي وأشكر الجيش لأنه أنقذنا من إحتلال المصريين ورجال المباحث. بهذه الكلمات رمقني العسكريون الثلاثة لحظة ثم قال لي المدير:

– يادكتور إننا نعلم أن الشعب يحبك وإنك لست بحاجة الى دعاية لتُنتخب، ولكن بما أن شخصيتك تثير مشاعر أهالي المنطقة. فمن الأولى ألا تخرج من بيتك قبل نهاية الإنتخابات، هل يمكنك أن تعدني بذلك؟ فقلت له دون تردد:

– نعم، بالتأكيد.

فقال وهو ينهض ويصافحني:

– حسناً، أرجو المعذرة لأنني أزعجتك. نتمنى لك ليلة سعيدة. وكذلك فعل العسكريان الآخران ورافقوني الى الباب. وكان أصدقائي في البيت جالسين حول أخي يبدو عليهم القلق. فقلت لهم مطمئناً:

– ما من خطر، نصحني المدير بعدم مغادرة المنزل حتى نهاية الإنتخابات، لكيلا أثير مشاعر الشعب كثيراً ولتجنب المظاهرات. فقال أخي:

– إن المدير رجل شريف ورجل قانون ذو مكانة سامية وديمقراطي واثق من نفسه. ولكن في بلد يكون مصير شعب بيد ضباط شباب جهلاء متزمتين بالقومية البعثية أو الناصرية،

معتبرين أنفسهم جميعاً مثل نابليون في القوة والبأس تلتهمهم الغطرسة والمطامح، فإن رجالاً يتصفون بالرزانة، مثل مديرنا، قلما يمكن أن يُبدوا آراءهم ويجب أن يكونوا على حذر شديد في مهامهم.

– لكي يعطيك مثل هذه النصائح، كان عليه أن يشعر بأن حريته في خطر، إخضع لتوصياته طوعاً وتجنب إتاحة الفرصة للتحديات. وكان زوارنا على وشك الرحيل حينما قُرع الباب مرة أخرى، وإذا بي أجد نفسي أمام شرطيين عابسي الوجه، فأمرني أحدهما بعنف قائلاً:

– هيا أسرع لمقابلة المدير.

– ولكنني ذهبت لرؤيته قبل ساعة أو أقل.

–عليك الذهاب الى مكتبه دون تأخير!

لقد حدث تغيير كبير في السلطات، وأوشك مرة أخرى أن أجد نفسي خلف القضبان الحديدية. كان المدير ينتظرني في الطابق الأرضي في مدخل السراي تماماً. فهرع نحوي وبدأ يتذرع بحجج قائلاً:

– لقد عملت كل ما بوسعي لأجد مستمسكاً عليك حول جولتك في عامودا والدرباسية. في هذا البلد كلنا لسوء الحظ، نُحكم من قبل ضباط أطفال أرادوا أن ألجأ الى مخالفة القانون. فقلت له بهدوء:

– إنك تنوي إيقافي حسبما أرى. فأجابني وهو يفرك عينيه:

– صدقني يا نورالدين بيگ، لست هنا من أجل شيء ما. إنهم ضباط أو هؤلاء الأولاد، كما أسميهم، الذين تحدثوا هاتفياً من دمشق وطلبوا إعتقالك.

– لا تهتم بي، فكر فقط بنتائج إعتقالي. ألا تغامرون بتفجير منطقة جريحة نسبياً وحساسة لأقصى درجة؟

– أعلم، أعلم... لقد أخبرت دمشق لفترة طويلة عن خصوصيات الجزيرة وتوسلت المسؤولين بأخذها بعين الإعتبار، ولكنني مع الأسف لم أستطع إقناعهم بذلك، أو بالأحرى لم أستطع أن أفعل شيئاً لأن وزير الداخلية أقام وزناً لتقارير مرؤوسيه المباشرين أكثر من إدارات الضباط الصغار المتعلقة بالمعلومات العسكرية. ومع ذلك وقبل أن أتخذ قراراً بهذه الخطورة، فإنني أتصل هاتفياً بدمشق وبعد عشر دقائق جاء معبراً عن سخطه:

– لاشيء أفعله، كل شيء بيد الجيش الذي لايستحق قواده أن يحكموا البلاد، ولايريدون تركك مهما كان الثمن، إنني آسف منهم فعلاً. وقال وهو يجلس:

– فلننتظر وصول قائد الشرطة.

وبعد قليل، وصل القائد حيث كان في مهمة تفتيشية عبر المدن ولاحظ أن عدداً كبيراً من المداخل مازالت منارة بالرغم من الساعة المتأخرة من الليل، لقد أقلقه هذا الإثبات. فجلس القائد بقربي وبدأ يترصد الأصوات القادمة من الخارج خشية أن يأتي أنصاري لمهاجمة السراي وإطلاق سراحي. وكان يرتعد كنابض كلما سمع أي صوت غريب ويجيل عليّ نظرة تساؤلات.

لقد كانت الحدود التركية تبعد عنا خمسة كيلومترات فقط وكان النشاط فيها مكثفاً دوماً. حيث كان هناك خط سياسي وهمي يفصل بشكل إصطناعي بلداً عن آخر وكذلك الناس عن بعضهم البعض والأطفال عن الشعب. فهناك قرى كاملة ظلت منازلها في تركيا وأصبحت أراضيها سورية في يوم واحد. وبات أحد الأخوة تركياً والآخر سورياً، ولم يكونا يستطيعان أن يريا بعضهما إلا سراً. كانت كوردستان تركيا غنية بالمواشي والفواكه والخشب في حين أن كوردستان سورية كانت غنية بالحبوب والصناعات النسيجية والبن والشاي وبعض ضرورات الحياة. وحينما حُطمت الوحدة الإقتصادية، كانت المبادلات التجارية تتم خفية عن طريق التهريب. ولكي يكون المرء مهرباً في هذه المنطقة، كان عليه أن يكون شجاعاً للغاية، ماكراً ومسلحاً جيداً ويعرف الأماكن ويملك صفات خيرة الرماة. فإن كان الدركي التركي تسهل رشوته نسبياً، فقد كان يجب معرفة كيفية شرائه وتنسيق مروره عبر الحدود مع ميقات حراسة الدركي الفاسد. وفي مواجهة دورية مجهولة لم يكن للمهرب سوى خيارين: إما الفرار أو القتال. ولم يكن هناك أي أمر غريب حينما كانت ليالي هذه المنطقة تتمزق دوماً بإنفجارات ومفرقعات.

وفي ذلك المساء، كان قائد الشرطة في قامشلي يرتعد لكل طلقة نارية تشق الهواء قرب الحدود. وكان يسأل المدير وهو يمد أذنيه وينظر من النافذة:

– ماهذا؟

فحاول المدير ألاّ يضحك وطمأنه بصوت هادىء:

– إطمئن، هذا بالتأكيد ليس من عندنا.

وبما أن القائد لم يستطع السيطرة على أعصابه، فقد طلب المدير منه أن يبتعد وبقيت وحيداً بصحبته. ونظر اليّ بهيئة حزينة وهو متضايق بنقلي الى السجن، فقلت لكي أشجعه:

– أفضل أن تأخذني بيدك وليس بيد غيرك، هيا سلمني الى السجان وإذهب الى النوم. فنهض المدير بلامبالاة وتوسل اليّ كي أتبعه، وكانت السجن على بعد (٥) أمتار فقط من هناك. وسلمني الى حارس ليلي بعد أن همس بضع كلمات في أذنه. فأدخلني الى حجرة فيها سجين واحد فقط وزودني بغطائين صوفيين ثم أغلق الباب الحديدي الثقيل. وكان جاري السجين مثقفاً من قبيلة طي العربية. وكانت دراسته في الكتاتيب لبضع سنوات قد فتحت عينيه على سلب الزعماء الإقطاعيين لأفراد الشعب. وكان مرشحاً للنيابة من القائمة المدعومة

من ضابط المكتب الثاني. أعضاء قبيلته ألقوه في السجن. فوجدته متضايقاً أيضاً.

كانت القبائل العربية في ذلك العصر تعادي الثقافة عداءً شديداً وكانت تكره فكرة التعليم الديني، فقد كان ملاليهم (رجال الدين) وأئمتهم بصورة عامة كورداً. أما صاحبي في السجن فقد كان على خلاف ذلك. فقد درس العلوم الفقهية في مدرسة (كتّاب) قرية (خزنه)، كان قد أسسها شيخ كوردي وهو الشيخ (أحمد الخزنوي)، وكان أحد كبار الشيوخ النقشبندية، وكان قد ثار ضد دكتاتورية الزعماء الإقطاعيين وحلم بعالم خال من الطفيليين ومن جميع أنواع المتحايلين.

وبما أنني لم أكن أستطيع النوم، فقد أصغيت له ساعات طويلة وهو يروي لي حيل ودسائس ومؤامرات الإقطاعيين العرب مع السلطات المحلية والبلاطات الملكية للدول العربية لكي يستغلوا قضاياها ويغتنوا ويعيشوا عيشة السلاطين. وفي الغداة وبينما كنت أنتظر إطلاق سراحي، إنضم اليّ أحد زملائي في الإنتخابات وكان قد إتُهم بمخالفة تعليمات القوانين الإنتخابية. وعند الظهر جاء أخي لزيارتي وهو قلق وغاضب وكان ضابط المعلومات العسكرية قد هدد بتسليمه الى الأتراك إن لم أسحب ترشيحي من القائمة. وبعيد الظهر تلقيت زيارة أخرى. حيث جاء ضابط معلومات الجيش بصحبة زميلين له جاؤوا لإرغامي على التخلي عن ترشيحي وصاحوا بي:

إذا كنت تعاند فإننا سنحولك الى سجن المزة. فقلت ضاحكاً:

– آه، لم أعد أخافه منذ أن عرفته، لقد إعتدت عليه.

وفي ١١ كانون الأول، أي يوم الإنتخابات وكان نهاراً جميلاً مشمساً، سمح لنا بالخروج الى الباحة. وحوالي الساعة الحادية عشرة، صعد شرطي على أحد السطوح المطلة على الباحة وهو عائد من مراقبة الإقتراع، وصاح بأعلى صوته قبل أن يأتي لتهنئتي:

– لم تمر سوى قائمة زازا. ففي كل مكان زازا، زازا.

وعند الظهر تلقيت تهاني بعض رجال الشرطة الآخرين. ولكن في الساعة الثانية ظهراً، حمل إلينا شرطي أنباءً مخيفة وقال:

– حينما رأت السلطات أن قائمتك كانت في المقدمة، أمرت (حرس الحدود) بأن يعيثوا فساداً ضد الناخبين الذين كانوا يعلمون بأنهم من جانبك. فضُرب ناخب كبير في السن، ومع ذلك بالرغم من ضربات العصا والرعب، فقد إستمر الناس في وضع قائمتك في صندوق الإقتراع. فبدأت السلطات حينئذ بإعتقال ممثليك في مكاتب الإقتراع. وحُشد هؤلاء المثلون في سجن عامودا. أما بالنسبة للأنصار الذين حاولوا الإحتجاج ضد هذه الحالة، فقد ضُربوا بقوة ووحشية. فقلّ عدد المنتخبين وملئت صناديق الإقتراع التي لم تراقب من قبل ممثليك، بنشرات القائمة الحكومية. إنني لاأقول ذلك لأحزنك بل لأطلاعك على ما يجري وما سيكون.

المرشح الوحيد في قائمتك والذي بقي حراً حاول أن يرسل الى دمشق برقيات إحتجاج. وإحتُجز الجميع من قبل ضابط المعلومات العسكرية، ومن الصدمة أصبح رجال الشرطة الآخرون صامتين وخيم على السجن صمت مطبق. وفي وقت متأخر من الليل عُرفت نتيجة الإنتخابات:

– لقد إنتصر المرشحون المكلفون من قبل الجيش بشموخ وبعد ليلتين، مثلت وشريكي في الإنتخابات أمام القاضي الذي طرح، خلال أكثر من ساعتين، أسئلة غير معقولة وهو يتهمني بجرائم عجيبة فقد ألح عليّ قائلاً:

– لماذا شكّلت قائمتك بهذه الطريقة؟

– لأجعلها نموذجية قدر الإمكان.

– لماذا لم تكن تحتوي سوى على الكورد ؟

– لأن معظم سكان المقاطعة من الكورد.

– لماذا ألقيت خطابات باللغة الكوردية في عامودا والدرباسية؟

لم لاأتحدث باللغة الكوردية وأنا أتوجه بحديثي الى الكورد. وهل هناك في سورية قوانين أو قرارات رسمية تحضر إستعمال اللغة الكوردية كما في تركيا ؟ فأجاب القاضي بإرتباك:

– لا ، لاأعتقد ذلك. وأضاف مستدركاً:

– أنظر، إن العربي الذي يهتم بمستقبل الأمة العربية الكبرى، يقلق من تذبذب القوميين الكورد. إن تسلسل الويلات التي عانينا ومانزال نعانيها من قبل الصهيونية، جعلنا نأخذ حذرنا وحيطتنا تجاه كل شعب يسكن العالم العربي. إن ثورة كورد العراق بقيادة (مصطفى البارزاني) الذي سار بالثورة حتى طلبت الحكم الذاتي الكامل في شمال العراق كله، تحملنا على الإعتقاد بأننا أمام ولادة دولة إسرائيل ثانية وأن نشك في أن لكم علاقات مباشرة مع (البارزاني)، وذلك لكي تلحقوا شمال سورية بالدولة الإصطناعية التي تعملون على تأسيسها بفصل أجزاء صغيرة من الدول العربية. إن خطابك في عامودا له مدلول بهذا الخصوص فقد قلت فيه حرفياً: "اليوم، تغلبت الأمة الكوردية على الأمة العربية". فسألته وأنا أتمالك نفسي لئلا أنفجر غضباً:

– أتمزح أم إنك تتكلم بجدية؟

– إنني لم أعتد على الهزل. فتقرير مدير المنطقة صريح بشأن هذه النقطة.

– ولكن كيف يمكن لموظف في الدولة ومدير مسؤول عن منطقة، أن يؤلف تقارير من إخراجه؟ كيف يمكن للعدالة أن تستند عليهم لحرمان المواطنين من حريتهم وجعلهم يتفسخون في السجون؟ إن آلاف الكورد الذي أصغوا الى خطابي في عامودا لم يسمعوا مثل هذا

الهذيان. فمن أين أخرجها السيد مدير المنطقة الذي لايفهم أية كلمة كوردية؟ إن التهم التي تلقيها عليّ وعلى الكورد بصورة عامة ليس لها أي أساس من الصحة أبداً فهي ليست سوى أعذار لتنفيذ مخطط إبادة جسدية أو تعريب كورد سورية. وإلا فلماذا يكون الكورد في عيون القوميين الشوفينيين العرب أشبه بالصهاينة؟ هل جاؤوا ليستولوا على أرض تخص العرب؟ لا، إن العرب يطمحون الى تهجيرهم من أراضيهم، وأنت تعلم ذلك ويبذلون ما في وسعهم لإفناء ثقافتهم وكيانهم. أتسمح فقط بفتح مدارس باللغة الكوردية؟ لا، لا شيء من ذلك. إن الدولة الصهيونية قد منحت حريات واسعة للعرب الباقين على أرضها، ولاأخفي عنك أنه حينما تخلصت سورية من الدكتاتورية الناصرية، تمنينا ديمقراطية حقيقية في عهد جديد.

كان الإستجواب سيطول لساعات، ولكن القاضي أعلن فجأة أن الوقت متأخر. وإستجوب شريكي في الإنتخابات بإختصار قبل أن ننقل الى السجن حيث بقينا فيه يومين إضافيين، ثم نُقلت إضبارتنا الى النيابة العامة وكان علينا الإنتظار يوماً أو يومين للمثول أمام المحكمة بقامشلي. فإن بقيت في هذه المدينة فإنني سأجازف بحياتي لأني سأقع في براثن المباحث. وأسرعت بصحبة بعض الأصدقاء بالسفر من دمشق الى حلب. وبما أنني لم أكن أقر تماماً بعجزي، فقد طلبت فتح تحقيق لإثبات شرعية الإنتخابات، ولم يعجب طلبي السوريين خاصة الذين إنتقموا على طريقتهم. ففي عامودا أوقفوا مائتي طالب تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والسادسة عشرة، متهمين إياهم أنهم كتبوا على الجدران مايلي:

"أنتم ياعرب غادروا أرضنا كوردستان"

"يعيش بارزاني وممثله في سورية نورالدين زازا"

وقام رجال الشرطة بنزع ثياب الأطفال وهددوهم بإغتصابهم:

-هيا قولوا أن زازا تلقى أسلحة من البارزاني وأنه يريد القيام بإنقلاب ضد سورية.

ونتيجة الخوف نفذ معظم الأولاد أوامرهم ولكن الجميع كانوا يعلمون بأنني لم أتلق أسلحة من البارزاني وأني لاأنوي القيام بإنقلاب أبداً. وإجتمع البرلمان في نهاية كانون الأول، أما بالنسبة للجنة التحقيق، فلم تنشأ إلا في منتصف كانون الثاني، وقُبل طلبي رسمياً وتم تشكيل لجنة تحقيق فرعية. هذه اللجنة لم يكن لديها الوقت لمباشرة عملها بسبب وقوع إنقلاب عسكري. فأُوقف رئيس الجمهورية (ناظم قدسي) ورئيس مجلس الوزراء (معروف دواليبي) وحُل المجلس النيابي وأُلغي الدستور فوراً. إن هذا التدخل من العسكريين بالإضافة الى تدخل العملاء الناصريين في شؤون البلاد، أدى الى سلسلة من الإنقلابات العسكرية.

فإنقلاب ٨ اذار قام به العقيد (حريري) وجاء بحزب البعث الى السلطة، هذا الحزب الذي كان أنصاره قلة ولم يكن يستطيع البقاء في السلطة إلا باللجوء الى الإضطهاد العسكري والبوليسي. وسارع هذا الإجراء السياسي برسم قوائم سوداء، وتسجيل أسماء المواطنين

المعروفين بإنتمائهم الى الديمقراطية وشعبيتهم لدى الجماهير. والذين سجلت أسماؤهم على القوائم، وجدوا أنفسهم محرومين من الحقوق المدنية ولاقوا السجن والتعذيب. كما أن الأسماء التي كانت موجودة في تلك القوائم السوداء، أذيعت بالراديو عدة مرات يومياً لكي يرهبوا الضحايا ويثيروا مشاعر السكان.

في العشرين من آذار وأثناء فترات البث الإذاعي الصباحي سمعت إسمي مراراً، لقد كانت إشارة إنذار للنوايا السيئة التي كانت السلطات الجديدة تكنها ضدي. ولم تكن أوضاعي تسمح لي بمغادرة البلاد، فتابعت عملي في المكتب وتفرغت لإهتماماتي كما لو أن شيئاً لم يكن. وفي صبيحة ٨ نيسان، جاء رجال شرطة بالزي المدني مرسلين من قبل المباحث لإعتقالي، لكنني إستطعت أن أنسحب منهم بطريقة ما. فقلت لهم أن لي موعداً مع طبيب أسنان، وكنت خارج مكتبي بإنتظار المصعد الكهربائي حينما خرج منه رجلان، فقال صبي المصعد:

-إنه هنا. فقلت في نفسي "ما من شك أنهم رجال المباحث، ودون أن أرتعد أخذت المصعد وخرجت من البناية بسرعة قبل النزول الى الشارع بخطوات سريعة. كانت هناك سيارة جيب (VW) تنتظر في الجهة الأخرى من الشارع والسائق على المقود. ولحسن الحظ لم يكن رجال المباحث كسابقيهم في عهد ناصر، فلم يكونوا يعرفونني وكانت تنقصني الخبرة، وبدأت أغوص في الشارع الصاخب والغاضب. وكانت عيادة طبيب أسناني ليست بعيدة من هناك. وبينما كان الطبيب يعالجني، قالت الممرضة لي فجأة:

- ياإلهي، لقد وضعوا إسمك على القائمة السوداء، ولم يدعوا أي إنسان وعما قريب، لن يكون هناك إنسان صالح في هذا البلد.

لكن الطبيب الذي ينحدر من أسرة بورجوازية عريقة في دمشق، يشعر بإزدراء عميق تجاه العسكريين والدكتاتوريين، ولكن خضوعه لطبقته كان يفرض عليه الحذر بالإضافة الى الجبن. فقال للممرضة بلهجة جافة:

- إن العيادة الطبية ليست مكاناً لبحث مثل هذه الأمور.

لقد إستطعت أن أتخلص من براثن المباحث ولكن حتى متى؟ لم أكن بالطبع أستطيع العودة الى منزلي، ولما خرجت من العيادة الطبية، ذهبت الى منزل صديق مستخدم في منظمة الهلال الأحمر السوري، وقصصت له عن مجيء العملاء ورجوته بالمجيء الى مكاتبي ليفهم ما جرى فيها حقيقة. فجاء صديقي إليها فوراً وغادرها بعد ربع ساعة، وتأكد من زيارة رجل المباحث وحينما تأكدت الشكوك لديّ، كان يجب أن ألجأ الى أحد أثق به. وبعد تفكير طويل حكمت بأن المنزل الأكثر ملائمة، كان منزل المدرس المتقاعد ممدوح سليم. وهو أحد المناضلين القوميين الكورد القدماء، منذ زمن طويل هو في منأى عن أي نشاط سياسي. كان قد تزوج في سن

مبكرة وإحتفظ بالبيت الصغير الذي كان يسكنه منذ أكثر من أربعين عاماً في مرتفعات حي المهاجرين، حيث كان يحب أن يلجأ إليه وحيداً بين كتبه، أما بالنسبة للمنزل الذي كان يسكنه مع زوجته وحماته، فكان يقع في أسفل المدينة، في الجسر الأبيض، وقد كان ممدوح سليم يأتي إليها أقل مما كان في مكتبته الخاصة الشبيهة بالكوخ. لهذا قلت في نفسي بأن المباحث لن يخطر على بالهم البحث عني هنا....

كانت زوجة ممدوح سليم شركسية حيث كشفت لها عن الحوادث التي حدثت فجأة، وإستقبلتني بشكل عفوي قائلة:

– بغياب ممدوح بيگ، أستطيع القول بأننا نستقبلك بحفاوة ونضعك على الرأس والعين. وبعد أن هدأت نفسي، أمضيت وقتاً طويلاً في التحدث إليها والى أمها العجوز التي أمضت أجمل سنوات عمرها في بلاط آخر السلاطين العثمانيين. وكان يروق لها كثيراً الحديث عن العجائب التي كان السلاطين قد إدخروها في سراياهم، وكانت إحدى بناتها قد تزوجت، في عهد الإحتلال البريطاني، رجلاً فلسطينياً غنياً من حيفا، ولجأت الى دمشق بعد نكبة ١٩٤٨، وكانت تعيش مع أسرتها مقابل منزل إمرأة ممدوح سليم. وفي ذلك العصر كان زوجها يظهر ثقة عمياء بناصر ويعتقد أن "عملاق العالم العربي هذا" سيلقي ذات يوم اليهود في البحر.... وسألت زوجة ممدوح سليم ما إذا كانت تستطيع أن تناديه للتحدث معي، فقلت لها:

– إذا كنت متأكدة أنه سيحتفظ بالسر ولايمدح ناصر كثيراً فلم لا؟ فأجابت:

– بالنسبة للسر فأنا متأكدة منه، أما بالنسبة للشرط الثاني فيصعب عليّ أن أعطيك ضمانات. فالفلسطينيون بحاجة لـ(منقذ) ويعتقدون أن هذا المنقذ هو (ناصر) وبالتأكيد لن تدوم هذه القناعة إن لم يحقق ناصر حلمهم.

جسدياً، لم يكن هذا الفلسطيني ذو القامة الرشيقة والوجه المنير والعينين الزرقاوين يشبه العرب. ومع ذلك كانت ولادته، ولغته وثقافته ومصيره يجعله عربياً خالصاً. كان يكره آيديولوجية البعث والبعثيين وأقسم بحمايتي كما لو كنت إبنه وأراد أن يقنعني أن ناصر ضمّن في منهاجه تحرير الشعب الكوردي! لقد كان ذلك شيئاً جميلاً جداً. وصل ممدوح بيگ ظهراً، وما أن أطلعته زوجته على قصتي حتى طمأنني بأن منزلهم هو منزلي مهما بقيت فيه. لقد دامت إقامتي عنده عشرة أيام كنت أُعامل خلالها معاملة ضيف شرف حقيقي.

كان ممدوح بيگ يذهب أحياناً الى مكتبي ويأتي بأخبار منه. كان المباحث يلازمونه غالباً ويهددون مستخدَمي بإغلاق المؤسسة إن لم يتعاونوا معهم على القبض عليّ، لكنهم كانوا يقاومون وقلما إرتعبوا لهذا الإبتزاز.

كان ممدوح بيگ قد تجاوز الخامسة والسبعين وكان فخوراً بإيوائي. ومع ذلك كان واضحاً أنني لم أستطع البقاء طويلاً في منزله لكي لاأنغص عليه حياته العائلية. فمنذ اليوم الثالث

طلبت من صديقي القديم مساعدتي لإيجاد مخبأ أمين آخر. والمكان الأكثر أماناً الذي خطر على بالنا كان الحي الكوردي بدمشق، الذي كان يشتهر بكونه أرض المنفى وملجأ المنفيين والمضطَهدين. وجدنا فيه مجموعة من المعارف والأصدقاء الذين أبدوا إستعدادهم لحمايتي في دورهم. إن إخلاص وتضحية مضيّفي كانا الشرطين الأساسيين ولكنهما غير كافيين. فهل كان الوضع الخارجي والداخلي للمنزل وتكوين العائلة وعلاقاتها مع أقاربها وجيرانها، يضمن لنا أدنى أمان وكتمان. كان (أبو جنگيز) شرطياً سابقاً فُصل بسبب مشاعره الكوردية، تعهد بكشف عناوين الأسر التي ترحب بضيافتي، فسكنت في البداية في منزل (الصوفي)، وقد لقي هو وعائلته مشقة كبيرة لتحضير أطباق شهية لي ولكي يدخلوا السرور الى نفسي.

وبعد أن سُرح من وظيفته كبواب مدرسة، أُرغم على القيام بجميع الأعمال. ففي موسم الحج، كان يرشد الحجاج الكورد المسلمين الذين كانوا يأتون من تركيا الى مكة مروراً بدمشق، هذا العمل كان يُكسبه بعض المال. لقد رأيته عائداً وهو يفرش نقوده على الطاولة ويصيح بهيئة المنتصر:

– هذه فاكهة لك!

وكان الصوفي يعيش في حالة بؤس، وبما أنني كنت أجهز شيئاً من النقود وألح عليه بإستلامها فإنه كان يرفض ويقول:

– كيف ذلك؟ إنك في دارنا. بقيت في منزله ثلاثة أسابيع. ثم إستقبلني (أبو عادل) وبعده (عزت آغا) الذي جند كل أفراد عائلته لإستقبالي. لقد كان جميع الكورد الذين آووني وحموني ينحدرون من أوساط فقيرة جداً وتحاول أن تعيش عيشة زهيدة. كانوا يلزمون أنفسهم بخسائر كبيرة ليضمنوا أمني وسلامتي، ويقدمون لي أطباقاً متنوعة ومعدة بسخاء. وكلما كنت ألح على مشاركتي في المصاريف ووضع بعض النقود في جيوبهم، كانوا يمتنعون ويقسمون لي بما أنهم كورد فإن الضيافة عندهم أمر مقدس. فمنذ نعومة أظفارهم تعلموا إستقبال وخدمة وإحترام الضيوف.

كانت المنازل الثلاثة التي أقمت فيها عامرة بالأطفال، لم يتغافل أي منهم من الذين كانوا يذهبون الى المدرسة أو يلعبون مع رفاقهم في الخارج أن يلمّح أقل تلميح الى (الضيف السري) الذي كان أهله يؤونه. وبالمقابل فقد تفانوا جميعاً لأداء خدمة لي والغناء وقراءة القصائد باللغة الكوردية أو العربية.

وكانت زوجة (أبو عادل) معروفة بإرتباطها بالحيوانات ولاسيما القطط، وكان عندها عشرة قطط إستطاعت أن تعيش معها بإنسجام تام، بالإضافة الى بعض الدجاجات وثعلب وإبن آوى. وذات يوم جميل، جاء إبنه الصغير، الذي كان يبلغ التاسعة حينها، بهرة صغيرة ذات وبر ناعم ولون كستنائي ممزوج بالأصفر والأبيض كان قد وجدها في أحد شوارع دمشق،

فأخذتها بين ذراعي وداعبتها:

– لو لم أكن في هذا الوضع لطلبتها منك. فقالت (أم عدنان)[٧٥]:

– حسناً، إعتبرها لك وسمها ما شئت وسنحفظها لك حتى تستتب الأمور. بهذه الكلمات بدأت أبحث عن إسم كوردي جميل.

– في أي يوم نحن اليوم. فقال الصبي:

– اليوم، جمعة. فصحت قائلاً:

– أننا في ليلة الجمعة، فإن هذه القطة الصغيرة ستُدعى (5WP)، كما لو أنني قمت بإكتشاف غريب.

وهكذا سُميت (5W) وعُهدت إليّ لأعتني بها، وبعد بضعة أيام تعلقت بي كثيراً حتى إنها كانت تشاطرني مخدتي. ولكن بدافع الفضول، وبعد أسبوع أخذت (5W) أبعادها. فكان عليّ أن أناديها لفترة طويلة حتى تدنو مني. وفي المساء لم تكن تأتي الى غرفتي وإذا أخذتها بالقوة كانت تموء. وحينما ذُهلت بهذا التصرف، بحثت عن تفسير لدى (أم عدنان) التي إنفجرت حينئذ بضحكة إستهزاء:

– إن سبب ذلك بسيط جداً، فهروب (5W) منك هو لأنني وجدت لها أماً.

– وكيف ذلك؟

– لقد إستطعت أن أجعل إحدى قططي التي لها صغار تتبناها، فأرضعتها وأشبعتها وهي تشعر بأمان في صحبة أمها وإخوتها وأخواتها.

هذه المرأة القصيرة السمراء التي في الأربعينات من عمرها، كانت مفعمة بالبطولة والرأفة، هاتين الفضيلتين اللتين ورثتهما عن أجدادها. فخلال حكم الأتراك العثمانيين لسورية، كانت جدتها قد آوت إبن عمها، الذي كانت السلطات العثمانية تبحث عنه لأنه إغتال ضابطاً. وكانت أم عدنان تروي بفخر وإعتزاز قصة جدتها وكانت تقول بأنها مستعدة أن تفعل ذلك من أجل.... ولقد أظهرت العائلات التي آوتني في الحي الكوردي في دمشق كل الشهامة والكرم تجاهي. ومع ذلك فالظروف التي كانت تمر بها سورية وتطورات الوضع كانت تحتم عليّ أن أتملص من الضيافة المريحة لأصدقائي الكورد لأبحث عن ملجأ خارج سورية، فلا يجب أن يربطني أي شيء بهذا البلد. وقبل أن أسرع فكرت مع ذلك بهذا الرفيق القديم في الجامعة، في لوزان، والذي أصبح وزير الإقتصاد للحكومة الجديدة وهو (كمال حسني) دكتور في العلوم الإقتصادية. كان دوماً مثقفاً بعثياً حكيماً، ديمقراطياً يعظّم الإشتراكية الإنسانية.

وأثناء لقاءاتنا العديدة في دمشق، كان يُظهر غالباً إدراكاً عميقاً تجاه القضية الكوردية في (سورية كما في العراق) ويتمنى أخوة حقيقية بين الشعبين الكوردي والعربي. وبمساندة

بياناته السابقة كتبت له رسالة تهنئة على مشاركته في الفريق الوزاري طالباً منه التدخل لكي يوقف المطاردات التي تستهدفني. وبعد فترة، ختم المباحث باب مكتبي بالشمع الأحمر وأوقفوا أحد مستخدَمي وكشفوا تحرياتهم ليكشفوا مخبأي السري.

لم يكن الوضع ساراً جداً لكورد العراق، حيث أن السلطة الحاكمة في بغداد وبعد إنقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ ضد الجنرال (قاسم) الذي لم يفِ بوعوده المتعلقة بالحكم الذاتي لكوردستان العراق، كانت تستعد لشن حرب خاطفة ودون هوادة ضد البارزاني وأنصاره. لقد وصلتني أنباء تفيد بأن الحكومة السورية الجديدة التي هي أيضاً في أيدي البعثيين، سترسل قوات برية وجوية الى العراق لتشارك في المعارك ضد الكورد. وبعد هذه الأشهر العديدة من السرية والخفاء، كان يجب أن أغادر الحي الكوردي لأتملص من براثن السوريين وأرحل في أسرع وقت ممكن نحو الحرية والسلام. ففي لبنان مثلاً، كانت أرض المنفى الأكثر قرباً، كان أصدقائي يعرفون سائق صهريج يجتاز الحدود بشكل منتظم، وتبادلت المحادثات بينهم، وعند فجر أحد الأيام. كان (أبو أنور) قد عرض نفسه ليقودني في شاحنة صهريج حتى حمص، وجاء ليوقظني بهذه الكلمات:

- الصهريج جاهز نستطيع أن نرحل...

7
لبنان

- الهروب الى لبنان
- حياة الجالية الكوردية في بيروت
- مهمة إعلامية بصدد الحرب في كوردستان العراق لدى الصحافة اللبنانية الحرة والدولية
- إعتقال وسجن في بيروت تحت ضغط الحكومة العراقية
- الطرد الى الأردن ومن ثم التسليم الى سورية

كان ذلك في ١٤ حزيران ١٩٦٣، وقبل بضعة أيام كان الجيش العراقي قد شن الأعمال الحربية مجدداً ضد الكورد وإعتقد بإبادتهم في عشرة أيام. وصرح حينئذ الجنرال (عماش) وزير الدفاع العراقي قائلاً:

- إنها جولة قصيرة نقوم بها في شمال البلاد.

وستبدأ المغامرة اللبنانية حسب رأيي بفضل تعاون الكورد الشجعان والمهربين المختصين بالعبور من سورية الى لبنان. كانت مرحلتنا الأولى التي قادتنا الى حمص، قد تمت دون مشقة. وحينما رأت أجهزة التفتيش العسكرية المرابضة على بعد (٣٠) كيلومتراً من دمشق شاحنتنا، أشارت لنا بالمرور. وفي حمص، كشفت لنا جريدة البعث قوائم جديدة سوداء للأشخاص المحرومين، وكان من بينهم العديد من الكورد الذين أعرفهم. وكان بعضهم قد إعتقلوا ونقلوا الى سجن المزة. وسردت الجريدة أيضاً أنباءً تتعلق بالحرب المرعبة القائمة والإنتصار على اللصوص الكورد والإنفصاليين عملاء الإمبريالية الأمريكية. وحسب رأي جريدة البعث، إذا ما وضعت الحرب أوزارها، فإن خائني الوطن سيعاقبون عقاباً شديداً كان المشهد يبعث على الفقر والأسى، ولكن كلما إقتربنا من (بوكي) وهي أرض لبنانية على مدى بضعة كيلومترات يمر فيها طريق حمص من اللاذقية، كان لبنان أكثر فأكثر عزة.

وعلى اليمين هناك حصن الفرسان أو (حصن الأكراد) كما تسميه كتب التاريخ العربية، المحاط بالضباب، كان يشرف على الوادي والسهول. وفي مدخل (بوكى) ظهر المركز العسكري السوري لطيفاً جداً، وتجهزنا لتقديم بطاقاتنا الشخصية، لكننا تلقينا إشارة بمواصلة طريقنا. وبعد بضعة مئات من الأمتار، أوقف حارسي البارع شاحنته أمام حانوت (أبو حسن) الصغير. وعاد منه وهو متضايق، لأن المرشدين لايصلون قبل إحدى وعشرين ساعة.. فقال:

– لايهم، بإنتظارهم سنتناول الطعام ونستحم في طرطوس، إنك معي ولن يصيبك أي أذى.

وأمام نقطة الخروج من (بوكي) أُوقفت عدة سيارات وبدا أنها تُفتش بإنتظام، وإصطفت شاحنتنا خلفها في حين أن قلبي كان يخفق بسرعة. وقلت في نفسي "آمل أن لا يكون إسمي قد أُبلغ الى الأجهزة الحدودية"، وفي نفس اللحظة، جاء عسكري ذو رتبة يرحب بأبي أنور ترحيباً حاراً وأشارله بالمرور دون الإهتمام بالسيارات التي كانت تسبقنا. وبعد (بوكي) كان الطريق يصعد متعرجاً وسخن محرك الشاحنة، فصاح بي أبو أنور في ضجيج المحرك المصم:

– بقي وقت طويل للوصول الى طرطوس، وعلى بعد بضعة كيلومترات من هنا، أعرف مطعماً في الهواء الطلق إشتهر بفراريجه التي تُربى بحرية بالإضافة الى لحمها اللذيذ. فهل توافق على الذهاب الى طرطوس لتذوق هذه الفراريج الريفية اللذيذة؟

– نعم فكرة رائعة، هيا بنا دون تأخير!

فمالت الشاحنة الى اليمين، وأخذت طريقاً ضيقاً. وكان الجبل الصخري الوعر الغني بأشجاره المثمرة، يذكرني بالجبل الذي رأيته أثناء طفولتي في (مادن)، وحثني على الوثوب من الشاحنة لأقفز على العشب اليابس وأتسلق الأشجار. وكان المطعم يقع في مكان فردوسي: فهناك نهر ذو مياه صافية يجري على طبقة حصى مائلة الى الزرقة، وكانت الرمال البلورية تغطي ضفتيه. أما بالنسبة للمطعم المجهز على ساحة، فكان يحيط بالنهر. وكان وجود العديد من الضباط السوريين يجعلني أنتفض وحاولت أن أعود أدراجي، ولكن أبا أنور حاول أن يهديء من روعي:

– لا تقلق، يأتي هؤلاء العسكريون من أطراف المدينة ليتناولوا الطعام هنا مثلي ومثلك، أنظر إليهم، ترافقهم عائلاتهم ولهم أعمال أخرى بدلاً من الإهتمام بنا.

ومع ذلك ولتجنب أي لقاء مزعج، ذهبنا لنجلس في مكان يشبه الكوخ في نهاية المطعم. وكانت الفراريج تعدو أمامنا وهي تصطاد الجراد والحشرات الأخرى على ضفتي النهر. وطاردها بعض الصبية وأمسكوا بإثنين لنا وقاموا بشيهما على الفحم.

لقد إستفاد (أبو أنور) من إستراحتنا غير المتوقعة للطعام كي يحدثني عن ماضيه. فأثناء الحرب العالمية الثانية، كان قد خدم كمتطوع في الفيلق الحربي في الأردن. هذا الفيلق الذي شكلته بريطانيا العظمى، كان يقوده حينئذ القائد الإنگليزي (كليب باشا). كان هذا الفيلق المؤلف قبل كل شيء من البدو المخلصين للعائلة الهاشمية ثم من الشركس والكورد والأرمن، كان حينئذ يعتبر الجيش الأحسن تنظيماً في الشرق الأوسط. كان جنوده قد إشتهروا بأنهم رجال بواسل وقساة القلوب، فقال أبو أنور:

– كان الناس يخشوننا.

وبما أن الإنگليز كانوا يحكمون في الأردن وفي فلسطين، فقد كانت لدينا حاميات في البلدين. ففي فلسطين كنا في نظر اليهود (غول) الروايات. وذات يوم، رأتني أمينة صندوق السينما أمامها، دُهشت من الرعب وأغلقت كوتها فوراً ولم يستطع مديرها أبداً أن يهدىء من روعها. فقال أبو أنور ضاحكاً:

– لقد رأيت هذه المرأة الشابة فيما مضى، كانت جميلة جداً ودعوتها لشرب كأس، أتعلم ماذا سألتني وهي ترتعد؟ "هل صحيح أن الجنود الفيلقيين يأكلون اللحوم البشرية؟" فقد كانت مقتنعة بذلك، إنها الإشاعة التي تقول ذلك...

حينما غادرنا المطعم، كانت الساعة تشير الى الرابعة، وبعد ساعة، لم يصل مرشدي بعد، وعهدني (أبو أنور) الى (أبي حسن) قبل أن يأخذ طريقه، ورفض أن يأخذ مني أي قرش مقابل الخدمة الكبيرة التي أداها لي. فتابعته بنظراتي وفراقه يشق عليّ حتى إختفى وراء الطريق المتعرج. ولكن عدم إستجوابه في مركز التفتيش السوري. خفف من همومي. فرجعت حينئذ بهدوء الى حانوت أبي حسن الصغير لأحتسي فيه فنجاناً من القهوة. وكان مخزن أبي حسن عبارة عن غرفة دون واجهة، وكان داخلها يستخدم كمستودع مليء بعلب البسكويت وأكياس السكر والبن والطحين. ورأيت على الرفوف المطمورة بظلال خفيفة أجهزة راديو وتلفزيون. وإستطاع أبو حسن أن يبني فوق المخزن شقتين، الأولى له ولزوجته والثانية لأبنه حسن الذي تزوج، بالإضافة الى تجارتهم البسيطة، كان الأب والإبن يتعاملان بالزراعة أيضاً. فكانت حقولهم للذرة والقطن والتبغ تمتد خلف منزلهما. وكان أبو حسن الذي يبلغ من العمر خمسين عاماً، يحب أن يجعل من نفسه شيخاً عجوزاً مثلما كان دارجاً في الشرق الأوسط حيث يُعتقد أن الشيخوخة توحي بالحكمة وتجعل الرجل رزيناً. كان يُظهر تعاطفاً مع الكورد ويكره البعثيين. وكان الكورد حسب رأيه رجالاً شجعان أوفياء وصادقين، بينما لم يكن البعثيون سوى إنتهازيين ومنافقين. وكان على قناعة بأن الكورد يواصلون ضرباتهم لهؤلاء البعثيين في العراق ويصلي يومياً لهذا التفاؤل.

وبينما كانت هذه الكلمات الودية تهدّيء نفسي، وإذا بصوت إنفجارين جعلانا ننتفض. فقال أبو حسن وهو ينهض من مقعده بهدوء:

– إبق هنا، سأرى ما هناك. وبعد عشر دقائق عاد ضاحكاً:

– إنه حسن الذي أطلق النار ببندقية صيده. على حية ضخمة إلتفت حول كرمة خلف المنزل. فقد كان يخشى أن تدخل من النافذة الى الغرفة التي ينام فيها إبنه البالغ من العمر ثلاثة أشهر. وتمزقت الحية تماماً، وإن كان ذلك سيسرك هيا لتراها.

فقلت له:

– شكراً، على الرغم من أنني قتلت منها الكثير ، فإن الحية تبعث القشعريرة في نفسي.

فإن حلمت بحية ولم أقتلها ، أُصاب بمصيبة في اليوم التالي. وبما أنني لاأعتقد بما يتعلق بالحيات فإن قتل إبنك لإحداها هو فأل خير.

لقد تحول مخزن أبي حسن شيئاً فشيئاً الى صالون، يجتمع فيه القرويون القادمون من أطراف المدينة ليتناقشوا. وكانوا جميعاً بنفس العمر تقريباً ونفس الشارب الكثيف المتدلي ويرتدون ثياباً تشبه ثياب أبي حسن. وكانت بناطيلهم تبدو وكأنها مخيطة من نفس القماش الأسود، وكانت قمصانهم من البالة (الألبسة المستعملة) المستوردة من أمريكا والمبيعة بأسعار زهيدة من قبل الباعة المتجولين في بيروت وطرابلس. وبهذه الهيئة كانوا يظهرون مظهر أناس شاخوا قبل أوانهم مشغولي البال، وقورين. وأراد (حسن) أن يدهشهم بصنيعه وتمهل في الحديث لهم عن أبعاد ضحيته المفرطة. هذا صحيح أنه حينما تروي قصة حية في الشرق الأوسط فلاتنتهي أبداً، فلكل إمريء قصة يرويها. وفي ذلك المساء، لم تُسرد تلك القصة لأن محدثيّ بدوا وكأن لهم مشكلات خفية. فقد كانوا يحتاجون للمياه لإرواء أراضيهم، فالحبوب التي كان كبار التجار يستوردونها من أستراليا والولايات المتحدة وكندا، كانت تباع بسعر منخفض جداً وتسبب خسارة حبوبهم. لقد كان السعر المحدد من قبل إدارة حصر التبغ والتنباك زهيداً. وكانت المنطقة مهملة وتحتاج الى طرق مناسبة بالإضافة الى وسائل النقل. أضف الى ذلك، فمنذ أن وضعت سورية أجهزة مراقبة في مدخل ومخرج (بوكي) كان القليل من السوريين يتجرأون على الوقوف أمام حوانيتهم ليتسوقوا منها. وكان على معظم صغار التجار إغلاق محلاتهم ولم تكن الحكومة اللبنانية تهتم بهم إلا لتحصيل الضرائب منهم. ولم يكن الموظفون يفكرون سوى باللجوء الى الرشوة. أما بالنسبة الى النواب فكانوا قد نسوا وعودهم الطيبة أثناء الإنتخابات. وكان كل شيء يدفع الشباب الى الهجرة، فإستقر بعضهم في طرابلس وبيروت، بينما إتجه البعض الآخر الى أفريقيا وكندا وحتى أستراليا.

لقد مكثت ساعات طويلة أُصغي الى شكاوى هؤلاء المنبوذين في لبنان. وفجأة ظهرت فتاة صغيرة في شقة الباب، وكان مرشديّ قد وصلوا، وبعد قليل تمنى أبو حسن لي رحلة سعيدة مكتفياً بخمس ليرات لبنانية لقاء ضيافته ووساطته. وأخذني إبنه الى الجانب الآخر من الطريق حيث كان المعاون ينتظر وكان شاباً في العشرين.

فإجتزنا بساتين على طريق وعرة قبل أن نلمح أمام سيارة مرسيدس براقة، رجلاً قوياً هاديء البال مفعماً بالقوة والنشاط. فأخذه حسن على الطرف وأوصاه برعايتي. ودامت محادثتهما على إنفراد، وأخيراً أكد لي حسن أن السيارة محجوزة لي بسعر (١٥٠) ليرة لبنانية حتى بيروت. وأقسم السائق طوني أن لايحمل أي راكب آخر لكي يتجنب أي حدث يعرضني للخطر أو الشبهة. وبما أنني قبلت شروطه فقد سارت السيارة نحو بيروت، وبعد عشرة كيلومترات خرج رجل من مكان كثير الحصى. فقال السائق الذي نزل ليتحدث معه:

– إنه أخي. وبحجة وجود قضية عائلية لحلها. مال الى اليسار وأخذ طريقاً وعراً. وقفت

سيارتنا في ساحة إحدى القرى ذات المنازل المبعثرة، وأكد سائقنا أنه لن يتأخر سوى بضع دقائق، وإختفى في الظلام. وبعد ساعة عاد بصحبة رجلين وسيدة ترتدي شرشفاً أسود وفي يديها طفلان. وقبل أن أعاتبه على تأخره إقترب (طوني) مني وقال بلهجة مؤثرة:

– لاتؤاخذني إن كنت قد أخرتك طويلاً. كان عليّ أن أنتظر وصول هؤلاء الفقراء الذين هم في نفس وضعك ويجب أن يصلوا الى طرابلس. ألديك مانع من أن يرافقونا؟

– بالعكس، فأنا مستعد لأترك مكاني لأي شخص يرغب في الهروب من الجحيم السوري. فقال (طوني):

– إن هذه ليست مشكلة. على أية حال في المرة القادمة، أؤكد لك بأنك لن تُحرَج أبداً.

فأخذت السيارة طريقها وبدأ (طوني) الذي رضي بغنيمته الليلية، يدندن أنغام المطربة صباح وفيروز، نجمتا الغناء الشعبي اللبناني. وفي مفرق الطريق، آثر أن يسلك الطريق الأيمن الذي كان وعراً وجبلياً لأنه كان مقتنعاً أنه لن يصادف فيه أي رجل أمن أو شرطة. وفي دوي رهيب، إرتقت سيارته المرسيدس منحدراً شديد الوعورة، وفي اللحظة المحددة حيث أصبح المسير سهلاً، لمحنا مصابيح سيارة قادمة تجاهنا، فأطفأ (طوني) أنواره على الفور وتوقف على حافة الطريق. أما السيارة الأخرى التي تنيرها مصابيح التلاقي فقط، كانت تقترب منا بتمهل:

– ماذا يمكن أن يكون ذلك؟ فأجاب طوني دون إضطراب:

– أعتقد أنهم رجال الدرك.

فسألته وأنا أتذكر إعتقالي وسجني:

– ماذا سنفعل إن كانوا فعلاً رجال الدرك؟

– كن رابط الجأش ولاتجب على الأسئلة التي سيطرحونها عليك. إني أعلم كيف أحدثهم. سيكون كل شيء على مايرام صدقني.

وبعد ثوان توقفت سيارة (جيب) مقابل سيارتنا ونزل منها أربعة من رجال الدرك. فأسرع (طوني) نحوهم وحياهم بحفاوة وإستطاع أن يأخذهم في الجانب الآخر من الطريق ليتفاوض معهم. فقال عريف الدورية:

– لا، عشرون ليرة، لكل منهم خمس ليرات.

وبينما كانت المساومة تجري، إبتعد أحد رجال الدرك عن الدورية وإقترب من سيارتنا. إنه جدي وحازم، تحقق من هويتنا، ولم يستطع جاري أن يحبس كلامه فقال:

– أنا سوري وصحفي.

– آه، آه، سوري وزيادة على ذلك صحفي!

تأتون إذاً الى هنا لتذموا بلادنا في الصحافة السورية. فقال الصحفي مصححاً كلامه:

– لاشيء من ذلك والحقيقة أنني لاأستطيع العيش في سورية وأتيت للبحث عن عمل في لبنان.

– هكذا إذاً، تأتي لتنافس صحفيينا بينما البطالة سائدة. فأجاب الشاب:

– إن لم أجد عملاً في مجال الصحافة، فسأقوم بأي عمل كان، حتى ولو كنت خادماً في مقهى، أو بائع أحذية إن دعت الحاجة، وبفضل الحرية السائدة في بلادكم وفي العواصم العربية التي تلتزم بالحرية، فإننا نستطيع دوماً أن نتدبر أمرنا عندكم. فقال الدركي وهو يستدير نحوي ليسألني عن مهنتي:

– حسناً، سنرى ذلك.

لقد لزمت الصمت بناءً على نصائح طوني. ومقابل عنادي وإصراري، أمرني بفتح الحقيبة الصغيرة التي كانت بين قدمي وبدأ يفتش في أدواتي الشخصية، وإذا بـ(طوني) يعود فرحاً، فقد سُويت الأمور، سنتابع سيرنا. وكم الطريق الذي علينا أن نقطعه دون مكائد. إضافة الى ذلك، كان علينا النزول مرات عديدة يقودنا معاون السائق في طرق ملتوية ووعرة وطويلة وشاقة. أما السائق والسيدة المحجبة وأولادها فقد ظلوا داخل السيارة. وكلما توقفت السيارة أمام مخفر الدرك، كانت السيدة تقول أنها لبنانية، لأنه في ذلك الوقت، لم تكن المرأة اللبنانية قد حصلت على بطاقتها الشخصية بعد، أو أنها معفاة من الصورة الشخصية.

كان الدرب الأخير الذي سرنا عليه للإلتفاف على مخفر الدرك، شاقاً وطويلاً، فكان يمر عبر بساتين الكروم المزروعة مسندة الى جدران مرتفعة جداً. أما المعاون الذي سار في هذا المكان عشرات المرات، فقد كان يعرف الأرض وينتقل دون مشقة. وكان المسافران الآخران يتبعانه عن كثب. أما أنا، فقد تنملت ساقاي نتيجة الجمود الذي ظل شهرين كاملين في الحي الكوردي. وكنت أجد صعوبة في السير، وخاصة في التسلق. وحينما إرتقيت جداراً، خرت حجرة كبيرة تحت يدي. فسقطت وجرحت قدمي اليمنى. بقيت لحظة قرب الجدار غير قادر على الحراك، ولم أسمع خطوات رفاقي. وبذلت جهداً مضاعفاً لألحق بهم، فلم أستطع. ووجدت نفسي وحيداً، تائهاً وسط الكروم. فعزمت على طلب النجدة، فصاح دليلنا غاضباً:

– لم تصرخ هكذا، أتريد أن تنبه زارعي الكروم، وتجعلنا نُعتقل؟

– ولكن لاأستطيع السير، أنظر الى حال قدمي. فصاح:

– لا تهمني قدمك، سِر، وإلا سأتركك هنا وأنصرف.

– لا أستطيع التقدم أَبداً، دعني هنا وإرحل.

– إعطني يدك وإبذل جهدك لتسير بسرعة.

كنت أعـاني آلاماً مبرحة في قدمي لأسـير بضعـة مئـات من الأمتـار التي تفصلنا عن السيارة. ولحسن الحظ، وبعد هذا التسلق المشهود، لم ننزل أبداً قبل طرابلس التي وصلنا إليها عبر طرق غير مباشرة تبخر فيها رفاقي بلمح البصر. وبعد إستراحة قصيرة لتعبئة البنزين، تابعت سيارتنا طريقها الى بيروت، وأشار إلينا دركيان بالتوقف، فإقشعر جسمي، وقلت في نفسي أنني إقتربت من هدفي فهل سأعتقل؟

– هل أنتم ذاهبون الى بيروت؟ فأجاب السائق:

– نعم.

– إذاً يمكنكم أن تنقلونا معكم لأن هناك متسعاً من المكان.

فقال طوني بعد أن رأى البندقية الحربية التي كانت على كتفيهما:

– بكل سرور، إصعدا!

وهكذا جلس الدركيان اللبنانيان في نفس السيارة التي تحوي كوردياً سورياً يدخل الى لبنان بطريقة غير شرعية. وفي الطريق، وبعد أن جلسا بإرتياح، حاولا أن يتحادثا معنا، وبما إن السائق وحده كان يتكلم، فقد ساور الرقيب الشك حول جنسيتي، فقال بلهجة بيروتية:

– آمل أن تكونوا جميعاً لبنانيين! فأجاب السائق بحزم:

– بالتأكيد نحن كذلك.

إن وجود رجال الدرك سيكون صغيراً، فبالقرب من بيروت، أوقف رجال الدرك سيارتنا وأمرنا أحدهم قائلاً:

– أخرجوا بطاقاتكم الشخصية! ولم يدم قلقنا طويلاً لأن الرقيب صاح من داخل السيارة على الفور:

– عبثاً، لقد فتشناهم قبل الآن.

فإعتذر الدركي وسمح لنا بمتابعة السير، ولازالت أمامنا مصاعب، فقبل مدينة بيروت إستدار نصف دورة وحث الدركيين على النزول، فسألا قائلين:

– ولكن لماذا؟

فتذرع قائلاً:

–آه، لقد تذكرت أنني يجب أن أمر من الأعلى وليس من طريق الميناء.

ونفذ الدركيان وبشكل عفوي ونظرا إلينا ونحن نرحل. وبعد بضعة تحولات، أنزلني طوني في ساحة المدافع، وكانت الساعة تشير الى الثانية صباحاً. لقد كان دخولي اللاشرعي الى لبنان يحظر عليّ بالطبع النزول في فندق. فأخذت سيارة أجرة للذهاب الى (زوراب عينون)

في حي كركون الدروز حيث كنت أعلم أن الخالة (زهرة)[٧٦]. ستستقبلني بحفاوة وإخلاص الأم. وحينما قرعت باب دارها، كانت الساعة تشير الى الثانية صباحاً، وعندما سمعت صوت ضرباتي المتكررة، نزلت بصعوبة من سريرها وتقدمت بخطوات متثاقلة، وسمعتها تسألني باللغة العربية وبصوتها الخفيض:

- من الطارق؟

قلت:

- ضيف غير متوقع.

وما إن رأتني أعرج، حتى جن جنونها، وقالت:

- ماذا جرى لك؟ إنك لا تستطيع الوقوف. أمريض أنت أم مصاب برصاصة؟ إروِ لي ما جرى لك.

وبما أنها كان يشق عليها الوقوف لفترة طويلة، فقد ذهبت لتوقظ إبنة أخيها (بشيرة) البالغة من العمر تسعة أعوام فقط، والتي كانت معتادة على مساعدة عمتها المريضة، وأسرعت بتحضير طست الماء المغلي. وأعتنيتُ بجروحي بنفسي. وبعد عشرة أيام، كنت قادراً على التنزه في المدينة وزيارة أصدقاء أمناء، وبما أنني كنت محروماً من البطاقة الزهرية التي كان الأمن اللبناني يمنحها للسوريين الذين يدخلون الى لبنان بصورة قانونية، كان عليّ أن أكون متيقظاً في لقاءاتي وتنقلاتي. وإثر محاولة الإنقلاب الفاشلة للحزب الشعبي السوري التي وقعت ليلاً في حي سان سلڤستر عام ١٩٦٢، فقد كانت السلطات اللبنانية متيقظة. ففي وسط بيروت، وأحياناً خلال النهار، كانت هناك قوة طوارىء تسمى (اللواء ١٦) تقوم بتفتيش البطاقات الشخصية، وهذا يعني أن البطاقة الزهرية كانت ضرورية جداً.

كان هناك أيضاً كوردي سوري ينتمي الى الحزب الشيوعي السوري، قد فر من سورية بنفس ظروفي، إستطاع الحصول على البطاقة بواسطة الحزب الشيوعي اللبناني، ووعدني بالحصول على واحدة لي، وبعد أسبوع لم أكن أخشى التجول بحرية في شوارع بيروت وكل لبنان ماعدا الحدود الجنوبية. وكنت أستطيع مقاربة الأوساط الكوردية في بيروت بحرية.

في ذلك الوقت، كانت هناك جالية كوردية[٧٧] كبيرة في بيروت، وكانت قد تشكلت تدريجياً منذ الحرب العالمية الأولى، ليصل عددهم عشية أحداث عام ١٩٧٥ الى (١٠٠) ألف نسمة. وكان ٩٥٪ من كورد بيروت حينئذ من ولاية ماردين في كوردستان تركيا. وكانت هناك أسباب إقتصادية وسياسية أرغمتهم على الهجرة. وحتى عام ١٩٢٥ لم تكن الحكومات التركية المتعاقبة تستطيع فرض هيمنتها على تلك المنطقة، وكان يستحيل عليهم تطويع الجنود فيها. وبعد سحق الثورة الكوردية عام ١٩٢٥، خضع هذا الإقليم لمصطفى كمال وإختار عدد كبير من شباب الإقليم الهجرة فراراً من الخدمة الإلزامية لدولة يجهلون لغتها.

وكانت هناك كارثة إقتصادية أرغمتهم على محاولة النزوح، فقد هاجم قمل الـ(فيلوكسيرا) بساتين الكروم في ماردين وحرمت قسماً كبيراً من السكان من لقمة عيشهم. وأخيراً فإن هناك عوامل إجتماعية أدت الى تجزئة القبيلة الرئيسية التي كانت تعيش في المحمودكيون (وهم أنصار محمود)، والأثمانكيون (وهم أنصار عثمان). وكانت النزاعات القائمة بينهم تعود غالباً لأسباب تافهة تتحول أحياناً الى معارك دامية، مخلفة العديد من الجرحى والقتلى في ساحة المعركة. وقبل إستيلاء الأتراك الحقيقي على المنطقة، إستطاع شيوخ وحكماء القبائل المتناحرين التوصل الى إيقاف الإقتتال والهدنة وتضميد الجراح قدر المستطاع، لقد كانوا يجهلون حينئذ كل شيء عن العسكر التركي وعن بيروقراطية (تسلط الدواوين) الشرطة والسجن، وحينما إنطلقت هذه الآلة الثقيلة، فقد آثرت مئات العائلات كاملة المغامرة بحياة مليئة بالمكائد في البلاد الأجنبية، التي كانوا يرون بأنها أقل تذليلاً من التحقيقات التعسفية التركية.

لم تكن حياة المهاجرين الكورد في بيروت سهلة أبداً. إذ كان معظمهم قد نفذوا شروطاً مفروضة للحصول على الجنسية اللبنانية. رغم إن العشرات من أصل الألوف قد حصلوا عليها، أما بالنسبة لطلبات الآخرين، فقد ظلت بغرابة معلقة بدين طالبي الجنسية. وكان يُستنتج أن تجنس الكورد المسلمين قد يحطم التوازن الطائفي الداخلي في لبنان ويؤدي الى الإضرار بالمسيحيين اللبنانيين، فكان الآلاف من الأطفال الكورد يُحظر عليهم الدخول الى المدارس الرسمية، بينما كان المرضى يُحرمون من علاج المشافي الحكومية. وحاولت بعض الشخصيات السياسية اللبنانية عبثاً إزالة هذا الجور. وحينما كان الزعيم الدرزي (كمال جنبلاط) وزيراً للداخلية، ولم يستطع التغلب على عناد الأوساط المسيحية اليمينية، التي كانت قوية آنذاك في بيروت، فقد قرر إصدار بطاقة إقامة خاصة بالكورد المحرومين من أوراق إثبات الشخصية القومية، تسمح لهم تلك البطاقة بالعيش والعمل بحرية في لبنان.

شيئاً فشيئاً، بدأت الإتصال مع الكورد القوميين، ولاسيما مع الكورد ذوي الجنسية اللنبانية وتشجيعهم على تأسيس جمعية خيرية كوردية يمكن أن تبذل نشاطات ثقافية ورياضية وتأسست تلك الجمعية بعد بضعة أشهر بدعم من كمال جنبلاط.

وبعد فترة، توافد الكورد ومن كل الجهات الى المركز الإجتماعي[٧٨] والطبي والثقافي والرياضي الكوردي. وبالرغم من بقاء مشاعر حكومة الحزبين بين المحمودكيين والعثمانكيين، فقد ثابروا جميعاً على تطوير ذلك المركز. أما من جهتي، ولكي لاألفت إنتباه الناس، لم أكن أتردد أبداً على المركز ولكنني كنت أتابع بإهتمام جميع نشاطاته. ولقد أُعد مكان خاص لكي أتمكن من تعليم اللغة الكوردية فيه. وبالرغم من أنني كنت في بيروت، لم تغرب عن بالي أحداث كوردستان، فقد كانت بعض الشخصيات الكوردية العراقية المعارضة لنظام بغداد والمتعاطفة مع الحركة القومية الكوردية، يعيشون في العاصمة اللبنانية ويتابعون عن كثب

الوضع في العراق وإستطاعوا أن يطلعوني على كل ما كان يجري فيها في المجال السياسي والعسكري. وكانت المعلومات التي يحصل عليها هؤلاء السياسيون المخضرمون سراً تشبه تلك المعلومات التي كان مراسلو البارزاني يرسلونها الى بيروت وتكذّب الأنباء المنشورة من قبل بعض صحف بيروت المموّلة من بغداد. وفي الحقيقة، أن الجيوش العربية التي إنتصرت في السهل، كانت تواجه مقاومة عنيفة في الجبل، وألحقت بها خسائر فادحة. فكررت نداءات الإستنجاد بالبعث السوري، وكانت سلطة بغداد تشعر أنها مهددة حتى إنها طلبت من تركيا وإيران التعاون معها ضد "العدو المشترك". فأرسل ضباط أتراك وإيرانيون الى مدينة (كركوك) لوضع خطة حربية مشتركة(٧٩) ضد "المتمردين في شمال العراق".

كان يهمني أن أكون على إتصال مع كبريات الصحف اللبنانية المستقلة لكي أُنير الرأي العام اللبناني والعربي حول حقيقة الوضع في العراق. وبذلت جهوداً جبارة لإقناع رؤساء تحرير جريدة (الحياة) و(النهار) و(لسان الحال) و(شرق النهار) و(المساء). ووعد الجميع بنشر المعلومات التي أزودهم بها وتخصيص مقالات أساسية للقضية الكوردية.

"فبفضل البطل الكوردي العظيم صلاح الدين الأيوبي إستطاع العرب اليوم الوقوف على أقدامهم والعيش بهناء والحفاظ على لغتهم وثقافتهم، إن إنكار هذه الحقيقة جهل مطبق بالتاريخ وبالخدمات التي أداها لنا الشعب الكوردي البطل. لقد هاجم حزب البعث الكورد في العراق، وإحتقر التاريخ العربي وحطم الأخوة العظيمة التي أظهرها لنا هذا الشعب المقاتل في أحرج الأوقات من تاريخنا". كان ذلك مقال جريدة (الحياة) للمؤرخ العربي الشهير (صلاح الدين منجّد). أما بالنسبة لصحيفة (لسان الحال) فقد إنتقدت الآيديولوجيا الفاشية لحزب البعث ودعتها الى الرأفة والديمقراطية أكثر. أما جريدة (الشرق) من جهتها فقد نشرت نص إيضاح كنت قد أرسلته إليها بإسم مستعار يتعلق بمقال خاطيء لرئيس تحريرها. كما إنني أجريت إتصالات أيضاً(٨٠) مع الوكالات الدولية ومراسلي الصحافة والإذاعة والتلفزة من أوروپا وأمريكا. وبدأت شيئاً فشيئا تنطلق بإنتظام معلومات صحيحة تتعلق بأحداث كوردستان العراق في بيروت، وتكشف زيف الروايات الخرافية الحكومية. وكان الكورد يقاومون في ساحات المعركة ضد الجيوش المتحالفة من العراق وسورية(٨١) المزودة بالطائرات والدبابات والمدافع وقنابل الناپالم. وحينما تعزز موقف العراق بهذا النصر، أنفق الكثير ودون حساب لشراء الصحف اللبنانية المستقلة أو إسكات الصحف الأكثر عناداً. ولكن المعلومات الموضوعية حول كوردستان العراق لن تختفي أبداً. وإستطاع سفير العراق في بيروت، أن يتحقق من هوية من يغذي بشكل دائم وأكيد، الصحافة اللبنانية والدولية بالأخبار العراقية. وبالتواطؤ مع مدير الأمن اللبناني، وضع خطة إستهدفت إعتقالي دون علم من (بيير الجميّل) الذي كان آنذاك وزيراً للداخلية. فقال لي (الجميّل) أثناء إحدى المقابلات:

- إنني أفهم مأساتك جيداً، لأنك في نفس الوضع الذي نعيشه نحن المارونيون اللبنانيون

الى درجة معينة. إن القوميين العرب يريدون أن نتمثل بهم تماماً لأننا نتكلم اللغة العربية. نعم، نتحدث العربية ولكننا لسنا بعرب. لنا تاريخ آخر وثقافة أخرى وطريقة أخرى في التفكير والتصرف والرؤية. فمادام هؤلاء العرب لم يعزموا على إحترام خصوصياتنا، فإننا على حذر بإستمرار.

في صبيحة ١٥ شباط ١٩٦٦، وقف ثلاثة من عناصر الأمن اللبناني على باب منزل الخالة (زهرة)، وقالوا لـ(بشيرة) التي فتحت لهم الباب:

- نريد التحدث الى نورالدين زازا. ودون إنتظار قول "تشرفنا" أسرعوا بالدخول الى الصالون الصغير الذي كانت غرفتي تطل عليه، وتقدم رئيس الدورية مني قائلاً:

- أنت الدكتور زازا؟ أنا من الأمن اللبناني، هاهي بطاقتي، لدينا الأمر بأخذك وإستجوابك.

- أي إستجواب؟

- لا تخف ستُطرح عليك بعض الأسئلة.

- بما أنني إعتدت على أن أحضر أمام الأمن لطرح بعض الأسئلة فقد سمحوا لي الإتصال مع محامي. فقال رئيسهم وهو ينصحني بالتجهز بسرعة وعدم محاولة الإفلات منهم:

- إتصل من مكاتبنا إن كان ذلك ضرورياً.

كان منزل الخالة (زهرة) ذا طابق واحد، ويحتوي على نوافذ عديدة، وكان يطل على حديقة ويساعد على الهرب. ولم تدم هذه الفكرة سوى لحظة. ولكن بما أنني كنت أجهل ما سيُفعل بي، فقد ترددت في القيام بمخاطرات بدت غير نافعة. كنت على وشك مغادرة المنزل برفقة حراسي، وإذا بالخالة زهرة تسألني باللغة الكوردية عما يجب أن تفعل بكتبي(٨٢) ومراسلاتي، وإستطعت أن أقول لها بأن تخفيها لدى الجيران. وبعد عشرين دقيقة وجدت نفسي مراقباً بإحكام في إحدي غرف بناية الأمن اللبناني. ولم تمض ساعة حتى أخذني رجال الشرطة الى منزلي. فلكي تعتقلني وتقدمني للقضاء، كانت إدارة الأمن بحاجة الى أدلة بادية. ولقد جاؤوا لتفتيش منزلي بهذا الهدف.

كنت أخشى أن لايسع الوقت للخالة زهرة لإخفاء كل المستندات المعرضة للشبهة، وكنت أتمنى أن يقع حادث أو يحصل عطل يؤخر وصولنا الى مسكنها. ولم يكن هناك أي شيء، ورأيت بأعجوبة لدى دخولي الى غرفتي وعلى الفور، أن علب الكتب المكدسة في أعلى الخزانة قد تبخرت بالإضافة الى جميع الوثائق الأخرى. ومع ذلك فقد أسرع رجال الشرطة الثلاثة لفتح الخزانة وسحب دروج المكتب، وتفتيش تحت السرير وتحت السجادة ولكن عبثاً. فقد نُظف كل شيء بإهتمام وعناية، وبعد نصف ساعة من التنقيب. أعادوني الى الأمن بخيبة أمل. وأُدخلت الى رئيس المفوضية وهو (عمر نويري) المشهور بعدائه الشديد للجالية

الكوردية في بيروت.

لقد إعتاد على إعتقال وضرب وتعذيب الشباب الكورد المشتبه بوجود المشاعر القومية لديهم. وكان هذا المسلم السني قد ناضل أيضاً برباطة جأش لمنع كمال جنبلاط من السماح للكورد بفتح مركزهم الإجتماعي والثقافي، هذا هو الرجل الذي إستقبلني ذو الحاجب العابس والصوت المرعد.

– لماذا تزور الصحف اللبنانية والوكالات الأجنبية في بيروت، التي تطعن بالصداقة اللبنانية– العراقية؟ فبسببك توشك الحكومة العراقية على منع رعاياها من الإصطياف في لبنان. فأجبته:

– لو قرر العراق يوماً تنفيذ قرارات كهذه، فإنها بسبب الحرب التي يشنها ضد الكورد. لأن هذه الحرب تكلف غالياً، وبالرغم من العائدات الضخمة لنفط الكورد، فإن صناديق الدولة ستُفرغ تماماً. وأن إيقاف هذه الحرب هو من مصلحة لبنان، وبدأت بغداد تعلم الحكم الذتي المتواضع الذي يطالب به الكورد. فأجاب (نويري) ثائر الأعصاب قائلاً:

– بما إنك أجنبي، لايحق لك أن تهتم بالسياسة في لبنان، أما وإنك تفعل ذلك حتى في مكتبي، فهذا مرفوض ولن نسامحك في بلدنا.

– في هذه الحالة إمنحني إجازة مرور وأمهلني بضعة أيام لكي تتخلص مني.

– معك إجازة مرورك ومهلة أربع وعشرين ساعة لمغادرة لبنان وعدم العودة إليه دون إذن مسبق.

فوافقت على شروط نويري ولكنه بإنتظار رحيلي كان يريد أن يعتقلني فقلت له:

– ليس لك أي حق مشروع في إعتقالي، إنني أستأذن الحديث مع محامي. فقال ضاحكاً:

– ليس بوسع محاميك إلا أن يأتي ليراك، يمنع الإتصال بالخارج من هنا.

بهذه الكلمات، نادى إثنين من رجاله نقلاني حالاً الى غرفة نزعا فيها ربطة عنقي وحزامي وأربطة حذائي. ثم وعلى بعد بضعة مئات من الأمتار من هناك نُقلت الى أمام باب حديدي ذي قضبان حديدية سميكة. ففتح أحدهما الباب ودفعني الى مكان يشبه الكهف، سيء الإضاءة ومليء بالأجساد الممددة في كل مكان. فبقيت فترة لابأس بها واقفاً وسط الغرفة وأجلت طرفي حوله فإذا هو مكان لايكاد يبلغ طوله أربعة أمتار وعرضه مترين ونصف المتر، ولايدخل إليه النور والهواء إلا من خلال القضبان الحديدية. وكان محروماً من الماء الجاري والمراحيض. وفي آخر الغرفة، كان البصاق وأعقاب السكائر تسبح في طست كبير من الألمنيوم مليء بالماء. وحينما رآني أحد السجناء ساكناً مترهلاً، دعاني الى الجلوس على حصيرة بالقرب منه. كان سورياً أُوقف أثناء تفتيش عسكري ذات ليلة حيث كان قد نسي لسوء حظه بطاقته

الزهرية في بيته. وبدلاً من أن يذهب رجال الشرطة الى منزله للتأكد من أقواله، فقد دسوه في هذا المكان ومضت خمسة أيام دون أن يهتم المسؤولون لمصيره وكان ينتظر. كان الكثير من السجناء الآخرين مثله، ضحايا إزدراء إنسان، وتواني وعدم مباشرة وفساد البيروقراطية القديمة. وكان أحد الباكستانيين، الذي أضاع جواز سفره، قد تعفن فيه منذ ستة أشهر... أما من جهتي، فقد أمضيت فيه خمسة أيام دون أن يأتي أي شخص ليستخبر عني. أخيراً وفي اليوم السادس، أُخرجت من الزنزانة لكي أحضر إجازة مروري. وبما أني لحسن الحظ كنت قد جهزت صور جواز السفر فلم تدم العملية سوى ساعة. وحسب وعد المفوض كانت لدي مهلة ثمان وأربعين ساعة لمحاولة الحصول على تأشيرة دخول الى بلد أوروبي غربي. ولكن فجأة كانت فكرة بقائي حراً يومين في بيروت تزعج الأمن ولاسيما إحتمال القيام بإجراءات لدى الشخصيات اللبنانية المرموقة التي كنت أعرفها شخصياً، كأمثال (كمال جنبلاط، بيير الجميّل).

فقال المفوض:

– سيمنع منعاً باتاً مغادرة هذا المكان حاول الإتصال مع السفارات التي تريدها عن طريق الهاتف. لقد كان هذا الإقتراح غير معقول، فلا شيء سوى الإشارة الى المكان الذي كنت أتصل به هاتفياً، كنت أحاول أن أثير رفض الدبلوماسيين المحنكين ومع ذلك، إستطعت أن أتحادث مع القنصل العام الهولندي وقنصل ألمانيا الإتحادية الذي كنت قد تحدثت إليه في السابق حول المسألة الكوردية. فقالا كلاهما:

– من الضروري أن تمر على مكاتبنا لتقدم طلباً رسمياً.

وبما أن الأمن كان يحاول أن يبعدني عن البلاد، فقد تخيل إحتمالاً آخر. في ذلك الوقت كانت تكفي بطاقة شخصية بسيطة للمرور من سورية الى الأردن. وعلى الرغم من إقامتي في لبنان كنت أستطيع الذهاب الى عمان دون مشاكل، لقد كان ذلك رأي المفوض. أما من جهتي فقد كنت مقتنعاً بأنني سألاقي صعوبات في الأردن. أما مسؤولو الأمن فقد عاندوا في مشروعهم. وفي مساء ٢١ نيسان أخذوني الى مطار بيروت حيث أرغموني على شراء تذكرة طائرة بيروت– عمان (ذهاب وإياب)، قبل أن يسلموني الى أحد عملائهم المسؤول عن أمن الطائرة. وبعد ساعة، كانت الطائرة تهبط في الأردن. وفي نقطة تفتيش جوازات السفر، إنتفض ضابط الخدمة، ويبدو أنه شركسي حاد الطباع، مثلما يُلدغ بسرب من النحل، فسألني بلهجة عربية بدوية مكسورة:

– من أين أنت قادم؟

– من بيروت.

– أين جواز سفرك؟

وحينما شرحت له من أنا ومافعله بي الأمن اللبناني ، هز رأسه وهو يردد:

- هذا أمر غريب.

بهذه الكلمات أخذني الى مكتبه، وإتصل منه هاتفياً مع قيادة أركان الجيش والسلطات المختصة. وبعد نصف ساعة وضعتني سيارة جيب عسكرية أمام مبنى أركان الحرب الأردني، وكان هناك ستة ضباط إحتلوا الغرفة على الفور قبل نقلي الى مكان آخر. وأراد رائد شاب طويل القامة ذا ملامح واضحة، أن يتعرف اليّ:

- أنا كوردي.

- كوردي؟ كيف؟ أقصد من أي حزب؟

- فقط كوردي.

- أتساند البارزاني؟

- إنني موافق على نضاله كأي إنسان كوردي.

- قل إذاً، بإنك إنفصالي أو شيوعي.

- البارزاني ليس شيوعياً ولا إنفصالياً. فهو ليس إلا كوردياً شريفاً يناضل من أجل حقوق شعبه.

فأمرني محدثي قائلاً:

- أكتب لنا لمحة موجزة عن حياتك ونشاطاتك.

وبما إنني كنت منهك القوى، فقد قبل أحد الضباط القيام بدور أمين السر وسجل المراحل الحاسمة من حياتي ونشاطاتي كمناضل كوردي ثم تركني وحيداً وانصرف بأوراقه. لقد دامت المداولات طويلاً، في حوالي الساعة الواحدة صباحاً جاء أحد الجنود يبحث عني ليقودني الى مكان لم يشأ أن يطلعني عليه. فكانت سيارة الجيب تصعد هضاباً كثيرة بعضها متعرجة أكثر من الأخرى. حتى وصلت الى عمّان وإجتازت شارعاً طويلاً، قليل الإضاءة لتتوقف أخيراً أمام مخفر الشرطة. وحينما دخل إليه ذهب شرطي الحراسة لإيقاظ ضابط المكتب. كان هذا الضابط بقامته الطويلة وشعره الأشقر ووجنتيه البارزتين يبدو دون شك بأنه من أصل قوقازي، وحينما سألته بالتركية ليحدثني عن المصير الذي ينتظرني، نظر إلي بعينيه المندهشتين، ذواتا الجفنين المتورمين ولكنه لم ينبس ببنت شفة ودخل الى مكتبه وقرأ الأوراق التي كان حارسي قد سلمه إياها، فتحدث هاتفياً. وهمس في أذن الحارس معيداً له الوثائق وسيارة الجيب التي حُشرنا فيها ثانية إستدارت نصف دورة وسارت قليلاً لتتوقف على بعد كيلومتر واحد أمام مخفر آخر للشرطة. فنزلنا حوالي مائة درجة الى الأسفل، وإستقبلنا عريف بدين ذو شارب متدل وهيئة ساذجة على باب الزنزانة. وبعد أن سجل السجان إسمي في سجل كبير، فتح باب الممر

وأمرني أن أنام على الأرض كبقية السجناء، لكن الشخير والإستنشاق اللذين كانا ينبعثان منه كان كريهاً جداً حتى إنني آثرت البقاء في الممر مسنداً ظهري الى قضبان الباب الحديدية. فتأثر السجان بحالتي وجلستي المهذبة بالنسبة للمكان، وإقترح عليّ أن أشرب فنجاناً من الشاي معه. فقبلت بسرور ووجدت نفسي جالساً على سريره. وحينما كان يشرب، علمت أنه من أصل فلسطيني وأن معظم موظفي الدولة الأردنية، كانوا فلسطينيين حصلوا على الجنسية الأردنية، وإعترف لي بصراحة أن الفلسطينيين لم يكونوا يحبون الملك حسين ولا عائلته وأن اليوم الذي يتخلصون فيه منهم ليس ببعيد. وحدثني عن أفراد أسرته الكثيرين وإن راتبه لايكفي لتأمين طعامهم، وكان يقوم بأعمال أخرى خلال قسم من النهار. وبما أنه لم يكن يتوقف عن الشكوى من ظروفه المادية، فقد أعطيته ليرات لبنانية تعادل دينارين أردنيين، هذا المبلغ بدا له خيالياً فعرض عليّ فوراً أن أتمدد على سريره وأنام حتى الفجر، فقلت له:

– وأنت؟ ألا تنام؟

– آه، في الليل، لقد إعتدت على البقاء يقظاً، وإذا غلبني النعاس أستطيع أن أنام مستنداً. الى الطاولة.

وهكذا فقد أمضيت قسماً من ليلي نائماً على سرير العريف، وقبيل الفجر أيقظني فجأة وقال لي:

– ربما يأتي الآن مسؤولي، من الأفضل أن تحاول النوم على هذا السرير في الممر. وبعد قليل رن جرس الهاتف. كان عليّ أن أستعد للعودة الى بيروت. وبعد ساعتين حطت بي الطائرة النفاثة في مطار (خالده) وبعد نصف ساعة فقط وجدت نفسي أمام المفوض (نويري) فصاح بي قائلاً:

– إذاً، لقد رجعت.

– كنت قد أخبرتك أن الأردن لن تستقبلني بحفاوة. من الآن فصاعداً لاترسلني الى بلد عربي، بل أمهلني ثمان وأربعين ساعة لكي أحصل على تأشيرة دخول الى دولة أوروپية غربية.

فقال المفوض:

– لدينا الكثير لنهتم به بدلاً من الإهتمام بك دوماً. لقد قررنا إعادتك الى سورية وعليك أن تدبر نفسك مع سلطاتك.

– أتجرؤ على فعل ذلك؟

– نعم هذا أفضل لنا ولك.

– وإذا رفضت؟

– لا أنصحك بذلك لأنك ستندم على ذلك، لقد عزمنا على إستخدام جميع الوسائل اللازمة لنقلك الى سورية وتقييدك بهذا العمل! فمن مصلحتك أن تطيعنا.

إن المأساة التي وجدت نفسي أمامها كانت مرعبة، ففي لبنان، لم يكن أصدقائي في الخارج يستطيعون أن يفعلوا أي شيء لإخراجي من هذا الجحيم. وقد يؤدي التدخل لدى الشخصيات البارزة دون شك الى إنقاذي لأن إعتقالي من قبل الأمن اللبناني لايستند على أساس شرعي... لم يتحرك أحد فلا جنبلاط ولا الجميّل اللذان يستطيعان أن يطلقا سراحي، لم يتدخلا في أمر مغامرتي. وبعد تفكير طويل عزمت على تسليم نفسي دون مقاومة الى سورية.

أسرع (نويري) في توضيح الإجراءات وبعد ذلك قادني رجال الشرطة الى الدرك، في القسم الغربي من المدينة. وبعيد الظهر نُقلت الى قسم درك الأشرفية المكلف بمبادلة المجرمين بين البلدين. فأمضيت فيه ليلة مرعبة دون غطاء وأنا أرتعش برداً حتى الصباح على أرضية إسمنتية. وفي الصباح، أراد عريف متحمس أن يرغمني على تنفيذ أعمال التنظيف، ولكن حينما سمعني أحتج باللغة الفرنسية، إنتفض، فقد كان يفتخر بالأدب الفرنسي، وإختلس العريف مني (٥) ليرات لبنانية لقاء الإتصال هاتفياً بأحد أصدقائنا الذي كان يعرف (بيير الجميّل)، هذا الوعد الذي لم يُعرف أبداً.

في الثالث والعشرين من نيسان، كنت على طريق سورية والقيود في يدي، في سيارة (لاندروڤر) محاطاً بثلاثة من رجال الدرك اللبنانيين، بعد أن مررت بها سراً قبل ثلاثة أعوام. لقد كان النهار آنذاك جميلاً، فالسماء زرقاء صافية، وشمس الربيع كانت تشرق على الجبال وكأنها تغطيها بحرير موصلي شفاف. وكانت أشجار اللوز والمشمش والدراق المزهرة ترسل أريجاً ساحراً في كل الإتجاهات.

كان هذا المشهد فاتناً جداً وسحرياً حتى إن سنوات طفولتي في كوردستان تركيا، تراءت لي أمام عيني فجأة، فنسيت حينئذ قيودي ورجال الدرك وكذلك جهتي. وحينما توقفت سيارتنا فجأة أمام الشرطة العسكرية السورية في (جديدة) لم أكن أصدق ماتراه عيناي وقلت في نفسي:

– لا، مستحيل أن أكون مرة ثانية بين أيديهم!

8
سورية

- سبعة أشهر في زنزانة منفردة في سجن الشيخ حسن بدمشق
- الحياة اليومية مع ألوان التعذيب بين سجناء "الإخوان المسلمين" والبعثيين والآخرين
- النفي الى جبل الدروز
- تحت الإقامة الجبرية في دمشق

لقد كانت الحقيقة هناك. فعن طريق إتصال هاتفي كلفت السلطات السورية عريفاً وثلاثة جنود للإلتزام بي فسارعوا بإتجاه العاصمة دون إضاعة الوقت. ولم يجد العريف ضرورة لتقييدي بالسلاسل رغم إلحاح مرؤوسيه:

- الى أين سيذهب في هذه الجبال؟

هدّأ تصرفه من روعي. وكنت أعلم أنه في ٢٣ شباط ١٩٦٦، حدث إنقلاب جديد في سورية. وكانت الإدارة الإقليمية لحزب البعث برئاسة (صلاح حديد) قد ألغت الإدارة الوطنية برئاسة (أمين الحافظ) رئيس الدولة السورية. وكان الجهاز الجديد ميالاً الى اليسار والإشتراكية. "فهل كان التصرف الإنساني من العريف تجاهي نتيجة منطقية لذلك؟ "لقد كانت أوهامي هذه لفترة قصيرة. ففي دمشق نُقلت من مكتب لآخر قبل أن أجد نفسي في مكتب حي الشيخ محي الدين حيث توجب علي الإنتظار ساعات. وفي الساعة الواحدة من بعد الظهر، أنزلني شرطيان مدنيان الى القبو وأودعاني في غرفة، مفروشة بسرير ومجموعة من الصناديق المقفلة، ذات نوافذ منقطة ومغلقة. ومكثت فيها ثلاثة أيام. وفي صبيحة اليوم الثالث، نقلت الى جهة مجهولة. كان قلبي يخفق ويضطرب تأثراً بفكرة ذهابي الى سجن المزة من جديد. وحينما وصلنا الى مركز المدينة وبدلاً من أن تتحول سيارتنا الى اليمين مالت الى اليسار فقلت في نفسي "أهذا هو السجن المركزي؟" لا لم يكن ذلك السجن، فأمام سوق الحميدية، مالت سيارة الجيب الى اليمين بإتجاه حي الميدان، وهو أحد أقدم الأحياء في دمشق. وبعد فترة توقفت السيارة أمام مبنى ذي جدران سميكة وبوابة كُتبت أعلاها العبارة التالية "مخفر شرطة شيخ حسن".

"هل سأُسجن فيه في زنزانة منفردة كما إعتاد عليه مخفر الشيخ حسن؟ هل سأتمكن من تحمل هذا الإعتقال؟"

كانت هذه التساؤلات تتبادر الى ذهني وتزعجني. وبعد بضع درجات من النزول الى الدرج الحلزوني، وجدنا أنفسنا أمام باب معدني مقفل من الداخل. طرقه أحد رجال الشرطة الذين كانوا يرافقونني بقبضات يديه بعنف إهتز له البناء كله، فإنبعث صوت من الأعلى يقول:

- نعم!

ثم إنبعثت قعقعة المفاتيح في صخب ورن صوت خطوات على الدرج. وحينما فُتح الباب الخارجي، رأيت أمامي شاباً طويل القامة يرتدي قميصاً نصف كم، أسمر اللون ذا شارب متدل، يتدلى على وركه الأيمن مسدس.

فقال لرفاقه مبتسماً:

- زبون جديد. وصل في أوانه لأننا بدأنا نسأم مع السجينين اللذين تبقيا لدينا.

وأودعني السجان ذو الشارب المتدلي بجفاء في إحدى زنزانات السجن التي كان إرتفاعها متران وطولها متر وثمانون سنتيمتراً وعرضها متر ونصف. وكان على طول الجدار من اليسار، حافة أرضية مطروقة ومغطاة بالأسمنت تستعمل كسرير. وكان في آخر القسم السفلي حفرة وصنبور شُد بلولب على خرطوم ماء، وكان ذلك عبارة عن مراحيض.

وكانت هناك نافذة صغيرة ذات قضبان حديدية تطل على الباحة، وحينما يقف المرء على أطراف أصابع قدميه، يرى المقبرة الواسعة المحيطة بالسجن من ثلاث جهات، هذه المقبرة التي كانت أصوات النحيب فيها ترافقني طيلة إقامتي في سجن شيخ حسن.

كان القسم العلوي من الباب يحتوي على كوة كان إغلاقها وفكها تابعاً لإدارة المباحث. أما كوتي فقد ظلت مغلقة شهراً كاملاً حيث عشت في عزلة تامة. ولم أكن أسمع سوى أصوات، ولم أرَ أشخاصاً بإستثناء أوقات الظهر حيث كان رجال الشرطة يفتحون الباب فجأة بشكل نصفي ليسألوني إن كنت أرغب طعاماً. وبما أن الأطباق الساخنة كانت محظورة، فقد كانوا يعرضون عليّ ثلاثة أنواع من السندويج: سندويج الجبنة البيضاء، سندويج بالزبدة، سندويج بالمربى والحلاوة. وكنت أستطيع أيضاً أن أطلب الفواكه. وبعد ساعة من التوصية على الشراء، يعود رجال الشرطة ويضعون الأطباق أمامي مع الفواكه، ويطلبون مني دفع قيمتها ويغلقون الباب بسرعة.

كان هذا الإحتجاز ثقيلاً عليّ، حتى إني في المساء الثالث حاولت أن أنتحر بشج معصمي. لذا، نهضت على الفور وإقتلعت مسامير أحد أطراف إطار النافذة وحاولت أن أكسر قطعة من الزجاج. لقد بلغت هدفي ولكنه تجاوز بشدة الحدود التي وضعتها، فخرج كل الزجاج من الإطار وإنزلق على طول الجدار مما أدى الى ضوضاء مرعبة. فأسرع سجان المركز وسألني بهلع:

- ما الأمر؟

- آه، لاشيء سقط الزجاج.

- لا يمكن للزجاج أن يسقط من تلقاء نفسه، لقد لمسته.

- لقد سقط حينما كنت أفتح النافذة.

فأجاب بإنزعاج:

- لا تروي لي قصصاً كاذبة. قل بأنك تنوي نوايا شيطانية. لايمكنك أن تخفي ذلك. فقد إعتدت على كل الأمور. ومنذ فترة طويلة أنقذنا سجينا في اللحظة الأخيرة إستطاع أن يقطع عروقه بنفس الطريقة التي تتبعها الآن. فلا تلجأ الى تلك اللعبة وإلا سنضطر الى تقييدك بالسلاسل. غادر زنزانتك وتعال إجلس قرب مكتبنا. دع أغطيتك فيها. سأعطيك غيرها وبقدر ماتريد. وحينما عدت الى هذه الزنزانة الجديدة رأيت السجينين الآخرين. كان أحدهما مسناً وجالساً ورجلاه على غطاء ممدد على أرض الرواق أمام حجرته. وكان قد مُنح هذا الإمتياز نظراً لسنه الكبير. أما السجين الآخر فقد كان منتصباً خلف كوته المفتوحة، فعرفت أنه العميل السابق للمباحث في عهد (ناصر). كان ينشر حينئذ الرعب بين مناهضي النظام. وكان قد أتُهم لأنه عذّب عدة سجناء حتى الموت. فهل كان جهاز السلطة يطلب منه حسابات عن جرائمه السابقة أو هل كان يريد أن يرغمه على الخضوع جسماً وروحاً لإرادته؟ لم أعرف شيئاً من ذلك. وبعد بضعة أيام أطلق سراحه.

في ذلك المساء، وعندما كنت أمر من أمامهما، كان جيراني يشربون الشاي. وبعد قليل من إيداعي في قفصي الجديد، دنا الرجل العجوز وفتح كوتي ومد إليّ كأساً من الشاي وقال بطيبة:

- خذ، إشرب، ستنسيك هذه الكأس. فالأيام الأولى هنا صعبة على السجين وبعد ذلك يعتاد المرء على المكان. إصبر قليلاً وسيكون كل شيء على ما يرام.

بهذه الكلمات أغلق الكوة وعاد ليشرب شايه وهو يسبّح بمسبحته ويروي قصصاً للحارس. لقد هدّأت زيارته وكلامه المشجع من روعي. وبدأت أصغي لحظة الى الرجل الشجاع، وأغوص الى النوم على نغمة صوته الشجي. وفي اليوم التالي والأيام التي تلته، كان يحضر لي كأساً من الشاي بإنتظام. وكان يحادثني بشكل ودي وعندما ذكرت له هويتي، إنفعل كثيراً وتمتم بصوت خافت بأنه كان من الحي الكوردي وأنه يعرفني، ولكن كيف نزل هذا الشيخ ذو النظرة الطيبة جداً في سجن الشيخ حسن؟

فسرد لي قصته، أنه كان يملك منزلاً أجّره لضابط. وكان إبنه على وشك الزواج ويريد أن يسكن فيه بالطبع. وأعطى مهلة ستة أشهر للضابط ليجد له شقة في جهة ما. فمضت هذه المهلة ولم يتحرك الضابط ولم يبد أية نية للخروج. فلجأ الشيخ حينئذ الى العدالة أملاً في الحصول على حقوقه. فقال له الضابَط المستأجر:

– كيف؟ أتجرؤ على ذلك؟ سأريك ما أفعله.

وبعد بضعة أيام جاء رجال المباحث ليلاً وأخرجوه من سريره لنقله الى سجن الشيخ حسن. لقد وقع الحادث منذ خمسة عشر يوماً. وكان يهدد بالبقاء في السجن حتى الموت ما لم يسحب شكواه ويُسقط دعوته. فسألته:

– ماذا تعتقد أن تفعل؟

فقال مبتسماً:

– آه، أعتقد أنني سأتنازل عن الأمر لأنني لاأملك القوة ولا الصحة لتحمل هذا النوع من السجن لفترة طويلة. تباً لولدي، سيتزوج بعد فترة وسنحاول أن نخلي له ولزوجته مكاناً عندنا.

وبعد ثلاثة أيام وبعد أن ودعني، سألني ما إذا كان يستطيع أن يخدمني في المدينة. فأشرت الى أسماء بعض الأصدقاء وتوسلت إليه بالذهاب إليهم ورؤيتهم شخصياً وإخبارهم بوضعي، وحثهم على القيام بإجراءات لإخراجي من السجن. فأقسم أن يفعل كل الخير وترك لي مسبحته الطويلة كذكرى. وبعد فترة، وصل سجناء آخرون وهم أعضاء في تنظيم "الإخوان المسلمين" وأقتيدوا الى حجرة التعذيب، حيث إنتزعت منهم أسماؤهم ووعدوا بعدم الإنخراط في السياسة قبل إطلاق سراحهم. وسمعت نحيبهم وتوسلاتهم.

وذات صباح ، ولازلت في سجن شيخ حسن منذ عشرة أيام، فُتح باب زنزانتي بقوة ودخل عليّ رجل في الثلاثين من عمره ويبدو عليه أنه متكبر فسأل واثقاً من نفسه:

– أتعرفني؟

فقلت بطيبة قلب:

– لا.

– ألم تسمع شيئاً عن الملازم الأول (محمد رمضان)؟

– لا.

– لقد كنت وكيل والي عامودا. ألا يعني ذلك لك شيئاً؟

– لا، أبداً. لسبب بسيط هو إنني كنت في لبنان في السنوات الأخيرة.

في الحقيقة لم أكن أجهل الأعمال الوحشية التي إرتكبها هذا الوكيل السابق حتى إن الكورد إعتادوا على تسميته (جلاد عامودا). لقد كان مناهضاً عنيفاً للكورد، وقد عُيّن هناك بهدف إستئصال شأفة أكبر عدد ممكن من الكورد.

ذات يوم، وأثناء عرض فيلم دعائي عن الجزائر في إحدى دور السينما في عامودا، شب فجأة حريق عمّ الصالة كلها، وحينما شعر المتفرجون الصغار بأنهم قد إستسلموا لمصيرهم

المحتوم، هرعوا الى أبواب النجاة التي كانت مقفلة بإحكام من الخارج، فأصيبوا بالذعر وشرعوا يهرعون بصورة عشوائية بحثاً عن منافذ أخرى. وهكذا فقد هلك من بينهم (٤٠) شخصاً تفحموا تماماً، وبعد ذلك وصلت النجدة. خلال هذا الوقت كان وكيل الوالي جالساً في مكتبه يحتسي القهوة بهدوء. وبالرغم من الإستياء العام، فقد ظل هذا الوكيل فترة طويلة في منصبه وإستمر في إرهاب الأهالي لاسيما الأطفال المراهقين. فهو الذي أوقف حوالي (٢٠) طالباً تتراوح أعمارهم بين (١٢- ١٥) عاماً وهددهم بإغتصابهم إن لم يعترفوا بأنني تلقيت السلاح من (البارزاني) "لطرد العرب من المناطق الكوردية". وذلك بحجة أن طلاب الثانوية هتفوا بحياة البارزاني، حتى أن العديد من الأطفال وتحت تأثير الرعب إعترفوا بذلك وضربوا بالفلقة. وأصيب آخرون برضوض مما أدى بهم الى المعالجة الطبية. ولقد تجرأ الآباء على رفع أصواتهم ضد هذه الإجراءات ذات الوحشية الجديدة. لكنهم جُلدوا بالسياط أمام الناس ثم نُقلوا الى سجن المزة.

وتحاشياً لأية مظاهرة جماهيرية، أحاط وكيل الوالي مدينة عامودا بالدبابات، حتى أنه صعد بنفسه على دبابة إقتحام وإعتاد على التجول متحدياً إرادة السكان بالخروج والمبارزة له.

وبعد إنقلاب ٢٣ شباط ١٩٦٦، إرتقى الى منصب المحقق في إدارة المباحث. هذا هو الإنسان المشؤوم الذي تواجد أمامي ويحتقرني:

- آه، ألا تعرفني؟ أعلم أنني كنت أهز جميع كورد الجزيرة بدبابة واحدة، دبابة واحدة، أتفهم؟ دبابة واحدة كفتني لأدوس وأبيد وأسحق كورد سورية، أتسمعني؟ أبيدكم!

فقلت له:

- لديك أسلحة كافية لكي تفعل ذلك، ولكن هل تعتبر ذلك فخراً ومجداً لدولة لإبادة قسم كبير من رعاياها لأنهم من عرق آخر؟

فصاح قائلاً:

- بالتأكيد، عندما يرفض هؤلاء الرعايا الإنصهار في بوتقة القومية العربية ويبحثون عن ضمان لكيانهم ويدعون أنهم أمة متميزة، مثلما يحاول أن يفعله البارزاني حالياً في العراق، ومثلما تطمحون إليه أنتم يا كورد سورية. وأضاف مزبداً من العنف:

- من جهة أخرى لدينا أدلة بأنك ذهبت لرؤية البارزاني شخصياً وأنك عدت من عنده بتوجيهات محددة لربط شمال سورية بالدولة الكوردية التي تطمح بتأسيسها في العراق.

فأجبته:

- إن ما تؤكده ليس إلا خيالاً، لسبب بسيط وهو أن البارزاني لاينوي أبداً الإنفصال عن

العراق وإنني لم يحصل لي الشرف أبداً بلقائه. وتستطيع السلطات اللبنانية أن تثبت لك بأنني لم أغادر لبنان قط منذ رحيلي من سورية.

– سنرى ذلك فيما بعد وبإنتظار ذلك أكتب تقريراً عن كل ما قمت به خلال إقامتك في لبنان وأريده غداً.

بهذه الكلمات إنصرف فجأة مثلما جاء.

وبدأت أكتب تقريري على الفور. فذكرت في البداية الأخوة الكوردية- العربية التاريخية والدعم الذي قدمه الكورد للعرب في أحرج عصور التاريخ، وكذلك زمن الحملات الصليبية وعهد الإنتداب الفرنسي. وتحدثت عن حسن الجوار بين كورد وعرب سورية حتى وصول قوات الفكر البعثي الى السلطة. وإنتقدت أيضاً آيديولوجية حزب البعث وكذّبت مفارقته التاريخية وضلاله السياسي. وكتبت بصراحة عن نشاطي السياسي في لبنان وعبّرت عن إرادتي في النضال لإحترام حقوق الشعب الكوردي الأكثر شرعية من أجل الأخوة الصادقة بين الكورد والعرب. ولكي أنهي تقريري، طلبت إطلاق سراحي دون أي شرط.

وبعد يومين أُخذت بسرعة الى حجرة ذات جدران سميكة من القرميد المشوي، لا نافذة فيها وسيئة الإضاءة. أما وكيل عامودا السابق، فقد كان في مكتب يحيط به العشرات من الجلاوزة (الشرطة في أيديهم عصي طويلة من الأسَل). وإستفهم الملازم الأول قائلاً:

– إذاً، أخبرني أنت! إنك ليس فقط ترفض الكشف لنا عن جميع تصرفاتك السيئة بل بلغت بك الوقاحة لإنتقاد حزبنا والإفتراء علينا. ثم خاطب رجاله قائلاً:

– إطرحوا هذا الوقح أرضاً، وإضربوه الفلقة حتى يوضح لنا لقاءه بالبارزاني ويدحض كتابةً ألفاظه المهينة تجاه حزبنا حزب البعث.

فأمسك بي حينئذ رجلان وطرحاني أرضاً. ورفع ثالث قدمي ولف رابع الفلقة على ساقيّ وشدهما بقوة حتى إنني شعرت بأنهما مقطوعتان. وهجم رجلان آخران على أخمص القدمين وفي الضربة الثالثة إرتخى الجلد ومُزقت العروق وبدأت الدماء تسيل بتدفق. وحينما رأى الملازم الأول ذلك صاح برجاله:

– توقفوا، كفى!، لا نريد أبداً أن نجعله شهيداً. إتصلوا هاتفياً وبسرعة بالإدارة ليرسلوا لنا طبيباً.

وبإنتظار الطبيب وجد أحد جلاديّ قطع قماش ولفها حول قدمي. وبعد بضع دقائق، كانت كلها مخضبة بالدماء، وبما إن الإدارة لم تستطع إيجاد طبيب، فقد وضعت في سيارة (لاندروڤر) ونُقلت الى القسم الجراحي في مشفى المزة العسكري. وحينما إستعدت وعيي وجدت نفسي ممداً على سرير نظيف وأشعر بآلام شديدة في قدمي وكان (قد رُكب لي إبرة سيروم في العناية المشددة). وأمضيت خمسة عشر يوماً في هذه الغرفة قبل العودة الى زنزانة

الشيخ حسن.

وبعد هذا الحادث، أظهر رجال المباحث نوعاً من التسامح تجاهي. فظلت كوتي مفتوحة، وهذا ما سمح لي بمشاهدة الرواق والتحدث الى السجناء الآخرين ولاسيما جاري الأقرب. في ذلك العصر لم تكن الزنزانات تفرغ. فكان الجهاز الجديد في حزب البعث يطارد أعضاء القيادة القومية التي هُزمت حديثاً. وحينما نُقلوا الى مكاتب رجال المباحث أكرهوا على الخضوع وبيان إخلاصهم للنظام الحالي وإدانة النظام السابق ومسؤوليه. وبعد بضعة أيام أُفرج عنهم جميعاً، بينما المناهضون النادرون، وجدوا أنفسهم مشتتين في سجون دمشق وبقية البلاد. والذين ظلوا في سجن الشيخ حسن، كانوا جامعيين ونقابيين ثاروا ضد أسياد سورية الجدد.

والذين أقسموا على المقاومة ضد قسرهم وجدوا أنفسهم مسجونين مدة عشرين يوماً في غرف إنفرادية مثل زنزانتي التي كانت نافذتها مفتوحة منذ اليوم الأول، وكانت السلطات تتصرف بقساوة بالغة مع النقابيين العنيدين في معارضتهم. وفي منتصف الليل حدث أن أوقضوا لنقلهم عبر الصحراء الى سجن تدمر. وكان من بين جيراني في السجن مدرسون ومهندسون ورؤساء نقابات والأمين العام السابق للثقافة الشعبية. فصرخت بهم:

– إذاً الفاشيون مطلقو السجن (أي مسببو أحداث يعجزون عن إيقافها) وها أنتم راضون عن أعمالكم!

فسألوا بذهول:

– الى أي فاشي وأي عمل تشير؟

– إليكم أيها البعثيون والى مسارعتكم في إستخدام الجيش للوصول الى السلطة وفرض إشتراكيتكم القومية على الشعب.

في البداية، كانت كلماتي تزعج وتثير محدثي، ولكن أخيراً بينوا لي السبب شفهياً دون التخلي عن أمل العودة ذات يوم الى السلطة بإنقلاب عسكري آخر.

في هذه الأيام، كان الجميع مقتنعين أن بطلهم المنقذ هو الدرزي (سليم حاطوم) زعيم رجال الكوماندوس (الفدائيين) الذي، بالإتحاد مع الضباط العلويين، كان قد قام بالدور الأساس في إستلام الجنرال (أمين حافظ) رئيس الجمهورية السورية وزعيم القيادة القومية لحزب البعث السلطة.

إن ظروف الإعتقال كانت قاسية جداً في سجن الشيخ حسن، فلم نكن نتلقى الزيارات قط، ولم يكن يحق لنا الخروج الى الإستراحة. ولكي أنشّط ساقي قليلاً، توسلت الى السجان ليسمح لي بكنس وتنظيف الرواق.

وذات يوم إستجاب السجان (فوزي) لإلتماسي. ففتح الباب وأعطاني مكنسة وخرطوم ماء، وحينما رآني السجناء أذهب وأعود بحرية في الممر، وأنا أنفذ مهمتي بسرور، ألحوا عليّ للحصول على تلك المزية. ولكن فوزي الذي كان يخشى إستياء الإدارة، طلب مني العودة الى زنزانتي، ولم يفتحها حتى يوم خروجي النهائي منها. نظراً لشدة القوانين لم يبق السجناء بصورة عامة سوى شهر واحد في سجن الشيخ حسن. أما من جهتي، فقد مكثت فيه قرابة سبعة أشهر. ذات صباح في منتصف شهر أيلول، رن جرس الهاتف فجأة في الممر، وفوزي الذي ناب عن زميله، رفع السماعة وأصغى بهدوء وهو يشير اليّ ثم أقبل نحوي مرتاحاً وهو يضحك:

- نبأ سار، ستخرج، إستعد!

- ولكن ماذا سيفعلون بي؟ هل أخبروك بذلك؟

حسبما فهمت، ستُنقل الى السويداء في جبل الدروز حيث ستعيش فيه تحت المراقبة والإقامة الجبرية.. ولن تكون تلك الحرية تامة ولكن سيكون وضعك هناك أفضل من هنا. وبعد بضع دقائق، نُقلت برفقة شرطيين مدنيين بلا قيود في يدي في شاحنة صغيرة قديمة. وبحلول الظلام وصلنا الى مركز محافظة جبل الدروز. وكانت حجارة المنازل البازلتية السوداء تجعل المكان أكثر سواداً وظلمة. وفي مكتب المباحث صافحني الضابط المسؤول ووقع الأوراق المتعلقة بي وأمرني بالمجيء الى مكتبه كل يوم. لقد كنت حراً أينما أسكن في المدينة، وقادني رفاقي الى أفضل فندق وبعد أن أوصوا المدير بشأني عادوا الى العاصمة.. كان الفندق الكائن في الطابق الأول لبناء من الحجارة السوداء، يقابل سراي الحكومة ويطل على ساحة واسعة، وكان مظهره الخارجي وأثاثه وأسرته توحي بفقر مؤلم وقذارة منفرة.

لقد وجدت صعوبة بالغة في النوم في الليلة الأولى من "الحرية" ولحسن الحظ في اليوم التالي، أمضت شغالة الفندق كل النهار في الغسيل والكوي. وفي المساء حصلت على سرير مريح ونظيف. وفي ذلك الوقت كان إعتبار المرء نفسه محكوماً مدى الحياة في السويداء يعتبر هلاكاً دائماً وعذاباً. في السابق كان الفرنسيون قد نفوا إليها القوميين العرب، فطُردوا منها وحل محلهم الكورد الذين كانوا يعتبرون مزعجين. وقبل شهر أُرغم عشرة من الكورد أُدينوا لأسباب سياسية، على الإقامة إما في فندقي نفسه أو في سجن السويداء. وبعد وصولي بأسبوعين، مُليء الفندق فجأة بحوالي خمسة عشر معلماً كوردياً من الجزيرة، وبين عشية وضحاها نُقلوا الى محافظة السويداء.

كانت منطقة جبل الدروز تُعرف بهذا الإسم منذ أمد طويل، ولكنها حُولت بعد ثلاثين سنة الى جبل العرب، فسألتهم:

- أما زال هناك معلمون كورد في الجزيرة؟

فأجابوني وكأنهم في جحيم أبدي:

- حسب معرفتنا ليس هناك أي موظف كوردي في الجزيرة، فقد فُصل الجميع أو نُقلوا الى جهة أخرى مثلنا.

لقد كان الدروز ناقمين تماماً، حتى إن منطقتهم كانت تُستخدم من قبل دمشق كمنفى.

- إن السبب الوحيد لجذب مواطني المناطق الأخرى الى المنطقة بنية معاقبتهم، هو وجود الفقر والفاقة الأخلاقية والإدارية والثقافية لمنطقتنا. وأضاف صاحب الفندق وأصدقائه قائلين:

- إننا حانقون وثائرون لأن الحكومة لم تفعل شيئاً لتحسين أوضاعنا.

- صحيح ولكن مثقفيكم وضباطكم كانوا السباقين لدعم نظام البعث مع العلم أنكم لستم من أصل عربي، ففي الإنقلاب الأخير، وجه الدروز مع (سليم حاطوم) الضربة القاضية للنظام السابق.

- صحيح أننا لسنا من أصل عربي، حتى إن مؤرخينا يؤكدون أن بعضنا يمكن أن يكونوا من أصل كوردي. وبالرغم من أننا كنا نسمي الكورد "أبناء عمومتنا" فإننا اليوم تعربنا تعريباً تاماً. فلا نتكلم سوى اللغة العربية وثقافتنا عربية بحتة ويعتبرنا المسلمون طائفة من الإسلام. ومع ذلك في مجال الإيمان، لانستطيع أن نبدي وحدة الشعور مع بقية المسلمين. فنحن نعتقد بتناسخ الأرواح، وإننا واثقون أنه إذا مات أحدنا، فإن روحه ستندمج في روح طفل درزي يولد في نفس اللحظة. ونرى أيضاً أن الله يظهر بأوقات معلومة على شكل إنسان وفي المدارس، وإن كنا نتعلم الفقه الإسلامي دون نفور، فلأننا مرغمون على ذلك. وفي الحقيقة أن الدين الدرزي هو عقيدة ونظام إعتقاد وعبادات مستقل تماماً عما خضع لتأثير الهندوسية والأفلاطونية واليهودية والمسيحية بالإضافة الى العقيدة الإسلامية الراشدة.

ولا يمنع من أن تمارس القومية العربية جاذبية قوية علينا أو بالأحرى على مثقفينا. فإلى جانب قومية البعث الصوفية، فإنه يشدنا أيضاً بوعوده حول العدالة الإجتماعية والرفاهية المادية التي يمكن أن تنعم بها محافظتنا في يوم ما. كان (سليم حاطوم) يعلل نفسه بهذه الأحلام وإذا به يقتحم قصر (أمين الحافظ) الرئيس السابق لسورية. وأضاف درزيون آخرون:

- صدقنا، لم ينم سليم حاطوم وسيصبح عما قريب ذا صيت حسن.

وبعد بضعة أيام راجت إشاعات مختلفة حول التصرفات السيئة عن الإشاعة التي قادها جهاز (جديد- أتاسي)[٨٣]، وأشارت إذاعة إسرائيل والأردن اللتان أخذتا عن تنقلات (حاطوم) الى أنه موجود في منطقة حوران وستصبح السويداء عما قريب في قلب الأحداث. وبعد يومين من هذه المحادثة مع الدروز، كنت شاهداً لبلبلة غريبة. فقد جمع الجنود الأسلحة المضادة للطائرات في الساحة الكبرى للمدينة. وشيئاً فشيئاً، أغلقت المخازن أبوابها وخلت الشوارع من المدنيين وإختفى جلاوزة المباحث المكلفين بالتجسس عليّ، كما إختفى صاحب

الفندق. ولم يبق في الفندق سواي وتاجر عجوز من دمشق جاء ليعرض أحذية على تجار الجملة في السويداء، وحينما سألته ما إذا كان موجوداً أثناء نشاطات (حاطوم)، لم يجرؤ حتى على النظر إليّ، وإرتعد كورقة حينما رآى (DCA) وهرع الى غرفته ليختبيء فيها وهو يترنم:

– يا إلهي أرشدني الى طريق الصواب وسلمني من بين أهلي!

وحاولت أن أعرف عن ذلك الكثير بإستماعي الى المذياع ولكن تلك الليلة لم تُشر أية إذاعة الى الأحداث التي كانت تُدبّر في السويداء. وعند الفجر، ظهر صاحب الفندق لوقت قصير ووشوش في أذني بعد أن أدار لسانه أكثر من سبع مرات في فمه:

– سليم حاطوم هنا، كان جميع موقع السويداء قد إنضم إليه، وإستطاع أن يأسر (صلاح جديد ونورالدين أتاسي) ويجعلهما رهينتين، هذان الزعيمان اللذان قدما للمناقشة مع فرع البعث في جبل الدروز ومنذ أمس، وهو يتحادث مع دمشق فإن لم تقبل شروطه، فإنه أقسم بالزحف على العاصمة، وأضاف دون أن يكتم فرحه:

– إن الكثير من فيالق الجيش قد أقسموا على السير معه. لقد كنا نعتقد إن إنتصار الدروز على العلويين وشيك الوقوع.

ومضت الفترة الصباحية وقسم كبير من الفترة المسائية دون أن يتحرك الجنود المتمركزون أمام الفندق للدفاع الجوي، وحوالي الساعة الرابعة عصراً، بدأت أربع طائرات (ميگ–٢١) قادمة من دمشق تحلق على إرتفاع منخفض على المدينة، فظلت الأسلحة المضادة للطائرات صامتة بصورة غريبة. وبعد نصف ساعة من التحذير الصادر عن العاصمة، فرّ جنود الساحة العامة ووصلوا الى ثكنتهم، وفي السهرة، أخبرتنا إذاعة عمان أن (سليم حاطوم)[٨٤] قد لجأ الى الأردن بصحبة بضع مئات من رجاله. أما إذاعة دمشق، فقد أعلنت إنتصارها على "عصابة من الخونة ومرتشي الإمپريالية وعملائها".

وفي دمشق وبعد يومين من ذلك، باشر العلويون بتطهير كبير في الجيش والإدارة والضباط الذين كانوا قد تعاونوا مع (سليم حاطوم) أو تعاطفوا معه، إعتُقلوا وإختفى عملاء المباحث الذين كانوا يراقبونني يومياً، وكان الضابط المسؤول في مكتب المباحث الذي كان عليّ الحضور إليه كل صباح، غائباً أيضاً، أما الشرطي الوحيد الذي بقي هناك، إكتفى بأن يقول لي:

– شكراً لقدومك، لقد رأيتك، عد الى فندقك. بينما كان علي الحضور أمام الضابط شخصياً فيما مضى.

في دمشق لكي يلعب (حافظ الأسد) الذي كان حينئذ وزير الدفاع ورئيس الطيران، الدور الرئيسي في خنق مؤامرة (حاطوم)، فقد بسط نفوذه وعزز مركزه في الحزب الحاكم.

لقد كان فصل الشتاء أثناء منفاي في جبل الدروز قاسياً جداً. وتساقطت الثلوج مرات

عديدة، وذات ليلة بلغت سماكتها حوالي نصف متر. وفي الغداة، إستمرت العواصف الثلجية. وبما أن مصلحة الطرقات لم تكن تجهز أية وسيلة آلية لتنظيف الشوارع، فإن الناس ظلوا محبوسين في منازلهم. وبالرغم من هذه الظروف الإستثنائية، طلب المباحث هاتفياً أن أذهب الى مكتبهم، هذه الجولة إستغرقت أكثر من ساعة. وبمساعدة رجال المباحث، أرسلت عدة رسائل الى وزير الداخلية لأطالبه بإنهاء نفيي وتسليمي جواز سفر، ولكن عبثاً. فقد كان قد حُكم عليَّ أن أرتعش برداً طوال الشتاء في السويداء وأكتب رسائل جديدة. والغريب أن الرسالة الأخيرة المُرسلة بواسطة محافظ السويداء، كانت أكثر فعالية من الرسائل الأخرى. ففي نهاية نيسان عام ١٩٦٧، نُقلت الى دمشق تحت الإقامة الجبرية والمراقبة على أن أتعهد بتحديد مكان إقامتي للسلطات المختصة. لقد كان ذلك الفصل الميت، فقد وجدت بسرعة غرفة في فندق يديره فلسطينيون وقد أبدى هؤلاء الفلسطينيون فرحاً كبيراً لدى إستقبالي. ولكن ما إن مضى أسبوع على وصولي حتى أظهروا موقفاً عدائياً وتهجمياً تجاهي.

ونظراً لوجودي، فإن رجال الشرطة كانوا يحرسون البناء حراسة مشددة وأمروا صاحب الفندق بأن يعطيهم أسماء كافة زواري. وقلما كانت مهمة المراقبة هذه تدهشني. وأخيراً عثر لي أصدقائي على شقة صغيرة واقعة على مقربة من الحي الكوردي.. وكانت بساتين دمشق الشهيرة تمتد على مساحة واسعة وتُروى بروافد نهر بردى وذلك على بعد بضعة مئات من الأمتار أسفل البناء. وأثناء أشهر الصيف المشمسة والطويلة، كانت رؤية هذه المساحة الواسعة من الخضار تمدني بإحساس البرود والطمأنينة. فبإستثناء سحر مناظرها، كانت هناك أسباب أخرى تربطني بدمشق. كنت أود أن أتابع فيها النضال ضد الفاشية العربية التي كانت تهدد كيان ووجود الشعب الكوردي في سورية. فكيف سأتمكن من القيام بمعركة كهذه في بلد محروم من الحرية ويسيطر عليها جيش قوي لازال يتزعم الوحدة العربية الهاذية؟ كنت مرغماً على العيش تحت المراقبة الدائمة واليقظة من الشرطة أو العودة ثانية للتعفن في زنزانات المباحث. إن عدم جدوى هذه الحياة اللامعقولة، هذه الحياة التي بلا آفاق ولا خلاص منها، حتّم علي أكثر فأكثر البحث عن وسيلة لمغادرة سورية بالرغم من إنني لا أحمل جواز سفر، ولكن للذهاب الى أين؟ الى لبنان "البلد الديمقـراطي"؟ أم الى الأردن؟ أو الذهاب الى العـراق والإنضمام للقسم المحرر من كوردستان؟ لقد كان ذلك غير معقول لأن المعارك قد نشبت بعد بضعة أشهر من الهدوء. وكانت الشوارع تحت مراقبة الجيش العراقي، وكانت هناك دولة أخرى تشاطر حدودها المشتركة مع سورية ألا وهي تركيا، بلد ولادتي وطفولتي... ألم تكن الفكرة الوحيدة لذهابي إليها سالماً، جنوناً حقيقياً؟

فأجابني إبن عمي الذي جاء خصيصاً من تركيا ليراني والذي إلتقيت به سراً:

– لاشيء أبداً من ذلك، إن تركيا اليوم ليست تركيا منذ عشرة أعوام. فمنذ عام ١٩٦٣ هدأ نظامنا هدوءً تاماً، وحتى الآن يُدلَّل المواطن ويتمتع بكل الحريات الديمقراطية مثل: حرية

الكلام، حرية التجمع والإجتماع، والتنقل ...الخ. ففي أربع وعشرين ساعة، يستطيع الحصول على جواز سفر إذا ما رغب بالسفر. فإذا عزمت على المجيء الى تركيا، أستطيع أن أزودك بجميع الوثائق اللازمة. لقد علمت كل شيء عن موضوعك، فلم تُجرد بعد من الجنسية التركية، أعطني فقط صورة وخلال شهر سأعود الى هنا ببطاقة شخصية نظامية. وسأتعهد أيضاً بإجتيازك الحدود ونقلك الى أي مكان توده في تركيا.

- نعم ولكن في تركيا، هل تعتقد بأنهم سيدعونني بحرية وسلام؟

- سيهتم بك أعضاء آخرون من عائلتك(٨٥)، أما من جهتي فإنني أتعهد إذا ما تعرضت لمتاعب، أن أحصل لك على جواز سفر تركي يسمح لك بمغادرة تركيا بحرية والذهاب الى أي مكان تشاء.

فقلت له وأنا أصيح فرحاً:

- إن كان الأمر هكذا، تصرف بسرعة قبل أن أسقط ثانية في أحد السجون السورية.

9
تركيا

- الهروب الى تركيا سيراً على الأقدام وعبر حقول الألغام
- كوردستان تركيا بعد ثلاثين عاماً واللقاء مع العائلة
- إستانبول في سرية شبه تامة
- فقدان الجنسية التركية
- لاهروب الى أوروپا
- اللجوء السياسي الى سويسرا ثم المواطنة السويسرية

كان ربيع عام ١٩٦٧ مشحوناً للغاية في منطقة الشرق الأوسط. وقد بلغ التوتر بين إسرائيل والدول العربية المجاورة ذروته. وبعد أن ساهم النظام السوري في إعادة تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية، أعلن عن عزمه على إبادة إسرائيل عن طريق الحرب الشعبية. أما جمال عبدالناصر الذي كان في أوج قوته العسكرية، فقد كان ينوي "إلقاء اليهود في البحر". وفي مواجهة هذه التهديدات، عززت إسرائيل قوتها العسكرية وضاعفت من عمليات إنتقامها ضد عمليات التخريب التي كان يقوم بها الفدائيون الفلسطينيون في إسرائيل. وخاطرت الطائرات الحاملة لنجمة داوود بنفسها فوق سماء دمشق لمطاردة طائرات الميگ السورية. وقصفت النقاط الإستراتيجية الموجودة في أطراف العاصمة السورية.

أما بالنسبة للإذاعة والتلفزيون والصحافة السورية التي كانت بيد العسكريين، فقد كانت تهاجم الإمپريالية وأعوانها الصهاينة وهي تدعو الى الإنتقام والى "تدمير محتلي الأرض العربية"، وتقطع برامجها للأناشيد العسكرية والنداءات الى الحرب الشعبية. وفي ٥ حزيران ١٩٦٧، حينما شعرت إسرائيل بأنها مهددة بإغلاق مضيق (تيران) وإنسحاب قوات الأمم المتحدة، إنطلقت الى الهجوم. ولقد فوجيء الجيش السوري بالهجوم الإسرائيلي السريع والمفاجيء، وتخلى عن السلاح والعتاد والثياب والأحذية. وسار على طريق دمشق بينما كانت السلطات السورية، التي تخشى دخول القوات الإسرائيلية الى دمشق، قد لجأت الى حمص بعد أن نقلت ذخيرة الدولة الى حلب. وفي ٦ حزيران قررت الحكومة توزيع السلاح على الشعب للدفاع عن العاصمة. وكان الناس يتدافعون زرافات الى مراكز التوزيع. وبعد أن سُلّمت كمية قليلة من البنادق الى المتطوعين، خشيت السلطات دون شك من أن يصوب

الشعب سلاحه ضدها، فطلبت إسترجاعها.

وبعد يومين وبتدخل الإتحاد السوفيتي لدى الأمريكيين، تخلت إسرائيل عن مشروعها بإحتلال حوران وجبل الدروز والإستيلاء على دمشق. وفي ١٥ حزيران عادت الحكومة السورية الى دمشق وأسرعت بإخراج البلاد من النكبة. لقد كانت لرجال المباحث هموم اخرى تشغلهم.. ولم أكن ملزماً بالمضي الى مكتبهم. لقد سهل هذا الفتور إتصالاتي مع عائلتي في تركيا(٨٦). ففي ٢ آب، عاد إبن عمي من تركيا الى دمشق وهو يحمل لي بطاقة شخصية نظامية، تحتوي أيضاً على وثيقة إعفاء من الخدمة الإلزامية. كما كان قد وضع خطة لعبوري الى تركيا سراً. كان يجب أن نتصرف بسرعة لأن الإدارة السورية كانت لا تزال تعيش في إضطراب وفوضى. في ٤ آب أعلن سائق سيارة أرمني عن إستعداده لإيصالنا الى قامشلي. وبعد الظهر غادرنا دمشق سراً بإتجاه حلب. وحين وصلنا إليها في الساعة الثامنة مساءً، إحتج السائق فجأة بأنه مرهق تماماً. ورفض متابعة السير بالرغم من رجائي وتوسلي بزيادة الأجرة. فجاء سائق أرمني آخر ليحل محل زميله وأجلسنا في سيارته. لقد مضت ليلة ٦-٧ آب من رحلتنا من حلب الى قامشلي بمسافة (٧٠٠) كيلومتر دون حادث. وعند طلوع الشمس قرعت باب منزل صديقي المحامي، فإرتمى على عنقي قبل أن يقودني الى فناء داره الواسع كما جرت العادة آنذاك، كانت جميع العائلة تنام على أسرة خشبية مرتفعة مغطاة بالناموسيات. وأطلعته على الفور على مشروعي بمغادرة سورية والذهاب الى كوردستان تركيا، هذه الفكرة أدهشته، فقد كان أيضاً من كوردستان تركيا. وخلال أكثر من إثني عشر عاماً، كانت أسرته قد حاربت فيها جيوش أتاتورك. فأعاد القول مرات عديدة:

-هل فكرت في الأمر جيداً؟

- نعم، لن تمنحني سورية إلا حياة الكسل والخمول والموت البطيء في السجون ولن أستطيع فيها قط أن أفيد شعبي.

- في تركيا، هل تعتقد حقيقة بأنك ستستفيد من السلام والحرية وتنجو بنفسك؟

- هناك إبن عم لي أتمنى أن يحقق ذلك، إنه جدير بالقيام بذلك. أما الآن فالمهم هو عبور الحدود. فهل تعرف أحداً ذا ثقة من بين المهربين الكورد؟ لا تقلق لهذا الأمر. لأن "عليكي الأمير" سيتولى أمرك. لقد إستطاع أن يمارس سلطته المطلقة على رجال الگمارك السورية والتركية في آن واحد، وكذلك على رجال طرفي الحدود، فهو يعرف الممرات عبر حقول الألغام التي زرعها الأتراك على طول الحدود. وأنا واثق إنه سيعينك على الإجتياز الى الجهة الأخرى وأنه سيأخذ جميع الإحتياطات اللازمة. وسأذهب لأعرض عليه هذا الأمر. فإرتدى صديقي ثيابه وخرج فوراً. وعاد بعد ساعة بصحبة شاب ضخم.

فقال الشاب:

- أنا في خدمتك ياسيد، أخبرني فقط متى ومن أين تريد العبور.

لقد كان إبن عمي من تركيا قد وضع خطته مسبقاً.... وفي وقت متأخر من بعد ظهر ٨ آب، نقلني (عليك) الى قرية كوردية تدعى (گرديم). وحينما إقتربنا من هذه القرية، توقفت سيارته تحت أحد جسور الخط الحديدي لإستانبول - بغداد الذي كان يشكل الحدود بين تركيا وسورية. وفي هذا المكان، خرج رجال عليكي خفية وإهتموا بحقيبتي المليئتين بالثياب والكتب وبعض الوثائق والهدايا لأفراد أسرتي الكثيرين، وخلال هذا الوقت سار (عليكي الأمير) حتى الأسلاك الشائكة التي وضعتها السلطات التركية على طول الحدود لأننا كنا على حافة منطقة ملغومة. أما حراس الحدود الذين كان من رفاقهم فقد رشوهم مسبقاً، فقد حيوني بفرح وباللغة التركية وهم يرفعون الأسلاك الشائكة ليفتحوا لنا الطريق. وإستطاع (عليكي) أن يقنعهم بأنني كنت تاجراً تركياً ثرياً وكنت أعبر من هنا لخدمتهم في أغلب الأحيان. وحينما خرجنا من حقل الألغام، كان الليل قد أسدل خيوطه وسبقني أحد الأدلاء ليقودني بسرعة الى القرية، فيما حمل الثلاثة الآخرون أمتعتي، وفي قرية (گره سور)، طار إبن عمي الذي سبقني بإجتياز الحدود شرعياً الى (نصيبين)، فرحاً ولكنه قلق لغياب أمتعتي.

- إن الوقت يمضي بسرعة لأنني أجرت سيارة ستنقلنا هذه الليلة الى دياربكر....

فما أن أنهى كلامه حتى سمعت أصوات طلقات آتية من المكان الذي عبرناه وجعلتنا ننتفض خوفاً فتمتمت قائلاً:

- إنهم حمالونا.

فقال إبن عمي وهو يطمئنني:

- ربما تكون هناك مناوشة. لا أعتقد أن يكون الحمالون مسلحين ويقومون بهجوم مضاد بهذا الشكل. ربما يكون إشتباك بين المهربين المسلحين ومفارز الجيش.

فقلت:

-إذاً وحمالونا؟ ماذا سيجري لهم هناك؟ وإذا سقطت حقائبي في أيدي السلطات التركية مع الصور والمستندات التي تحتويها، فلن يبقى لي سوى العودة الى سورية. من جهة أخرى، أعتقد إنه من الأفضل مغادرة القرية لكي أتحرز في جهة آمنة من الريف.

- ليست مشكلة، ولا تنسى إنني مسؤول عن أمنك وسلامتك. وأضمن لك بأن أي شخص لن يأتي لتفتيش القرية.

وبينما كنا نتبادل هذه الكلمات، سمعت صوت خطوات ثقيلة تدنو منا... وبعد قليل عرفنا حمالينا وهم يضعون أمتعتي على الأرض.

– نحن سالمون ولم نصب بأذى وأمتعتك سليمة تماماً. لقد تبودلت الأعيرة النارية بين مفرزة درك الحدود يقودها ضابط وبين المهربين الذين كانوا على وشك إدخال عدد كبير من المواشي الى سورية. وحسبما علمنا أن معظم الماشية أصبحت في الطرف الآخر من الحدود وأن المهربين إستخدموا أسلحتهم لمنع الجنود من الإستيلاء على بقية الماشية. إن الأعيرة النارية كانت ترعب نساء القرية التي كان الأخ والزوج والأب وإبن العم من بين هؤلاء المهربين الذين كانوا قد إنضموا الى هذه التجارة الخطيرة.

فقالت إحدى النساء باكية:

– أشقائي المساكين، كم توسلنا إليكم بعدم اللعب مع الموت!

فيجيبها أحد الرجال:

– أين تريدين أن نجد عملاً ياأختاه؟ هل سنجده في معامل النسيج أو في مصنع الكيمياء أو صناعة الحديد أو الكونسروة أو الإسمنت؟ لاتنوي أنقرة أبداً أن تبني مثل تلك المصانع في مناطقنا. لقد ذهب عشرات الألوف من إخوتنا للعمل على بعد آلاف الكيلومترات من هنا، حيث يقومون بأعمال وضيعة وقاسية جداً. إذاً ماذا تريدين أن نفعل يا أختي الصغيرة؟ أليس من الأفضل أن نعمل في التهريب بدلاً من أن نموت جوعاً وحرماناً؟

– إن ماتقوله صحيح يا أخي، ولكننا أُصبنا بالإعياء والإرهاق لأننا نعيش بإستمرار على أعصابنا، إننا لا نستطيع أن نشاهد كل ثلاثة أيام جثة طفل لنا منتفخة في حقل للألغام. ساعدنا يا إلهي على الخروج من هذا الوضع، ساعدنا!

كانت تتضرع وهي ترفع يدها نحو السماء السوداء. وبعد ساعة توقف إطلاق النار، وإستطاع أحد الفلاحين الذي تعاون على عبور القطيع الى سورية، أن يصل الى القرية. وأسرع ليطمئن القرويين وهو يلهث:

– لم يصب أحد بأذى ووصلت جميع المواشي الى أسفل الخط.

إن كلمة (حدود) غير موجودة بين كورد المنطقة. فبالنسبة لهم يزيل أعلى وأسفل الخط الحديدي الحدود بين سورية وتركيا. وهدأ الجمهور المتجمع في ساحة القرية الصغيرة. وتوقف نحيب وبكاء النساء، أما بالنسبة لسائقنا فقد كان مرتعاً لقلق لا يوصف. ورفض صراحة مواصلة السير الى دياربكر متذرعاً بكل أنواع الأخطار:

– ربما تأتيني طلقة في رأسي. فبعد كل هذا الإشتباك، تلقى الجيش الأمر بإطلاق النار خلال الليل على كل ما يتحرك في المنطقة. إني أنصحك بقضاء الليل في القرية وسيكون الرحيل إعتباراً من فجر غد.

ولكني وإبن عمي لم نكن نريد سوى مغادرة المكان دون تأخير. لقد كان قرار سائقنا نهائياً

لا رجوع عنه. ويبدو إن أصوات الطلقات كانت قد شلت حركته. ولم يكن لنا سوى الإذعان لرغبته.

– نعم، ولكن الى أين سنذهب لننام في هذه القرية التي لا تحتوي فندقاً أو نزلاً؟

فأجاب القرويون الذين كانوا يحيطون بنا بصوت واحد:

– حيثما تريدون وفي أي منزل من منازلنا. نحن دوماً في خدمة الضيوف بتقديم المسكن والمأكل لهم.

فإقترب أحدهم من إبن عمي وقال:

– لقد مات آغانا في مشفى ماردين وإلا لبتم في دار ضيافته.

– دعني أستضيفكم، ستنامون على السطح، ففي هذا الفصل تكون الليالي عليه رائعة جداً، فقبلنا عن طيب خاطر وسرنا الى منزله المبني من اللبن والطين. وفي لمح البصر، قُدم لنا البرغل مع اللبن الرائب. وبعد ذلك إستسلمنا الى النوم بسبب الإرهاق وبرودة ريح الشمال المداعبة. وفي الغد، إستيقظنا قبل شروق أشعة الشمس الأولى. وسرنا في سيارة (شيفروليه) قديمة بإتجاه دياربكر. وبسبب وجود الأخاديد والطرق الحجرية، لزمنا أكثر من ساعتين لقطع مسافة ستين كيلومتراً والوصول الى ماردين، وهي مدينة واقعة على قمة جبل ومشرفة على السهول الفسيحة لبلاد مابين النهرين العليا. في الحقيقة إنها مدينة ليست عادية بقلعتها المبنية منذ آلاف السنين ودورها المبنية من الحجارة البيضاء المنحوتة باليد، بالإضافة الى شوارعها الضيقة والمتعرجة وأهاليها الذين يتكلمون العربية الممتزجة بكلمات وعبارات كوردية. فتوقفنا فيها فترة يسيرة قبل مواصلة طريقنا الى ديار بكر.

وفي الطريق لاحظت وبمرارة الحالة المؤسفة التي تعيشها القرى الكوردية، فهي ليست سوى تكويم أكواخ طينية محرومة من الكهرباء والهاتف والمدارس والمشافي. ومع ذلك خفق قلبي حين رأيت نساء كورديات وهن يحملن الجرار على رؤوسهن ويحلبن نعاجهن تحت حرارة الشمس مرتدين ثياباً فولكلورية ورثنها عن أسلافهن، الثوب الطويل والصدرية والحزام والسراويل الفضفاضة والعمامة المتعددة الألوان. ومن بين الرجال عرفت أيضاً بعض العمامات الكوردية، كانت هذه السمات كلها تشير الى إخفاق سياسة التتريك لأنقرة. لقد ظل الشعب الكوردي هناك حقيقة، يعيش سالماً على مسقط رأسه. ولكن كان يجب أيضاً تنظيم حركة المقاومة الغريزية والعفوية ليتمكن من فرض إرادته القومية والخروج من حالة الإهمال والضيق. كنت أفكر بهذه المهمة الشاقة حينما لمحت أسوار دياربكر العملاقة السوداء. فدخلنا الى القلعة عبر باب ماردين، بإستثناء جادة واسعة كانت ممتدة على طول الأسوار، فإن الدور القديمة المبنية من الحجارة البازلتية السوداء إحتفظت بمظهرها الغابر. وكانت الشوارع مكتظة ومزدحمة جداً بالمارة. ومنذ عام ١٩٣٠ تضاعف سكان دياربكر خمسة أضعاف، فقد تجاوز

العدد من (٤٠) ألف نسمة الى (٢٠٠) ألف نسمة.

بالرغم من ندرة الصناعة فيها، فإنها كانت تتمتع بسلطة إدارية وزراعية وتجارية أنعشت عدداً هائلاً من الفلاحين والحضريين وسكان القرى المجاورة. وكانت عائلة إبن عمي الإقطاعية والبورجوازية الكبيرة تنتظرنا في (أرغاني). وفي سهل (گوران) وبينما كان سائقنا يبدل عجلة لسيارتنا، إقترب منا بخجل صبي يبلغ من العمر عشرة أو أحد عشر عاماً، كان يرعى أغنامه، فقلت له باللغة التركية:

– أهذه الأغنام لك؟

فأجابني بلغة كوردية وبلهجة متحدية:

–لاأفهم اللغة التركية.

فقلت له بالكوردية وأنا أتظاهر بالدهشة:

– كيف؟ ألا تذهب الى المدرسة؟

فأضاف بهدوء قائلاً:

– لا، ولماذا؟ لأنهم يرغموننا على تعلم اللغة التركية ونسيان لغتنا.

– أليس من الأفضل الذهاب الى مدرسة تركية بدلاً من أن تبقى جاهلاً؟

فأجاب منزعجاً:

– لن أبقى جاهلاً، ففي النهار أرعى أغنام القرية، وفي المساء أذهب الى (الملا).

– آه، نعم، لتفعل ماذا؟

– لأتعلم الكوردية طبعاً.

– وهل الحكومة تسمح لك بذلك دون أن تتدخل؟

– آه، كما تعلم، إن معلمنا (الملا) ذكي جداً، فهو يقول ظاهرياً بأنه يعلم القرآن والفقه.

– وماذا يعلمكم في الحقيقة؟

– يتكلم لنا بشكل خاص عن الشعراء ويعطينا أبيات شعر لنحفظها عن ظهر قلب.

– هل يمكنك أن تستظهر لي بعضاً منها؟

فبدأ الصبي حالاً ينشدني أبياتاً لأدباء كورد قدماء.

– أخبرني هل هناك الكثير من الملالي مثل معلمك (الملا) في هذه المنطقة؟

– لا أستطيع أن أقول شيئاً من ذلك لأنني لم أغادر قريتنا قط، ولكنني أعلم بأنه لمعلمنا (الملا) تلاميذاً يأتون لرؤيته من وقت لآخر.

– وأنت، هل تريد أن تبقى كوردياً أو أن تصبح تركياً؟

فأجابني وهو يحدق في بعينيه الواسعتين الداكنتين والمضيئتين:

– كلا ياسيدي، لا يستطيعون أن يجعلونا أتراكاً.

كنت أود أن أطيل حواري مع هذا الطفل ولكن السائق دعانا لنأخذ أماكننا. وبعيد الظهر وصلنا الى (أرغاني) ، وهي ضيعة يبلغ عدد سكانها حوالي عشرين ألف نسمة تمتد على أحد مرتفعات جبال طوروس. وأوصلتنا السيارة فوراً أمام منزل إبن عمي في أعلى المدينة. وكانت ڤيلتهم (قصرهم) تطل على حديقة واسعة منحدرة يسقيها حوض كان يُملأ بواسطة نبع غزير. إنه مرتع غزلي يشبه تلك الأماكن التي أمضيت فيها طفولتي. وبحلول الظلام، أوصلتني سيارة أخرى الى (إيلازيغ) حيث كان أخي (ريزو) الذي لم أره منذ سنوات طويلة، يعيش فيها منذ عام ١٩٥٠. وكان إسمه قد دون على قوائم الحزب الديمقراطي وإنتخب مرتين للمجلس النيابي وعاش بعيداً عن أي نشاط كوردي.

وبعد مراحل من الإشتباه وعدم الثقة، إستطاع أن يحوز على ثقة السلطات التركية ويعيش في وفاق تام معها. كان مناهضاً أيضاً لأية حركة تؤدي الى تعظيمها. وكنت أمثل خطراً واضحاً، ومع ذلك فقد إستقبلني بدموع الفرح. ومضى الأسبوع الأول في إيلازيغ في الفرح والغبطة. وتوافد العديد من أبناء وبنات عمومتي الذين لم أرهم منذ أكثر من ثلاثين عاماً، والذين ولد قسم كبير منهم بعد رحيلي، وذلك من كل مكان. لقد كان الجميع يريدون مشاهدتي والتحدث إلي. ثم دعيت الى الريف على لحم الخراف المشوي بالأسياخ والفواكه الطيبة التي كنت آكلها في طفولتي.

إستطعت أن أتجول بحرية في إيلازيغ وأقارنها بالمدينة التي كنت أعرفها سابقاً. ولسوء الحظ فقد كبرت إيلازيغ ضمن إطار الفوضى والبشاعة. فخلال السنوات العشرين الأخيرة، إتسعت بشكل كبير حتى أن معمل الإسمنت الذي كان الوحيد آنذاك في المناطق الكوردية في تركيا، بُني بفضل جهود نواب المحافظة، ولايزال قائماً حتى الان في المدينة. كان عدد سكانها عام ١٩٢٠ يبلغ (٢٠) ألف نسمة، أما الان فقد وصل الى (٩٠) ألف نسمة. بسبب قدوم معظم الفلاحين من القرى والضيع المجاورة، ولقد أدى هذا التدفق الى مشكلات إجتماعية خطيرة وهي: تضخم تجارة البيع بالمفرق، البطالة والجنوحية (مجموع الجرائم والجنح). وفي وسط المدينة، تحولت المنازل القديمة المبنية من اللبن والطين والمحاطة بأفنية مخضرة الى أبنية إسمنتية عملاقة تاركة بذلك مظهرها الهادىء. وكانت الشوارع المؤلفة من التربة المطروقة أو المجردة من الأسفلت، قذرة ومغبرة. كانت إيلازيغ قلما تهب مظهراً جذاباً، فلم أرغب قط البقاء فيها ولا في أية مدينة أخرى. فمنذ نعومة أظفاري كنت أحلم بالإقامة في (برماز) وهو سهل صغير ورائع على إرتفاع (١٢٠) متراً، تحيط به الجبال الجرداء ولكنها متلألئة، كانت

بحيرته تهدد سنوات صباي، وكانت الأراضي التي تركها لنا والدنا، تقع على بعد بضعة كيلومترات فقط من البحيرة.

كنت أتلهف لرؤية تلك الأماكن ثانية. وبينما كنت أفرح بقدوم ذلك اليوم لأحقق أحلامي، جاء أصدقاء أخي وهمسوا في أذنه أن الشرطة الإدارية إطلعت على وجودي في إيلازيغ وستبلغ سلطات الأمن المختصة بذلك (ميت - جهاز الإستخبارات). فأشار هؤلاء الأصدقاء على أخي بأن أبتعد عن المناطق الكوردية. ونتيجة هذا الإنذار حزم أخي أمتعتي ووضعني في باص على أهبة السفر لإستانبول. وإن ما يدعو الى الغرابة هو أننا لم نتعرض أبداً الى تفتيش البطاقات الشخصية. فقد كانت تركيا تعيش حينئذ فترة من أفضل فترات تاريخها ديمقراطية. وفي إستانبول، كان إبن عم لنا موظفاً سابقاً ذا مكانة سامية، له صلات وثيقة مع الإدارة، حتى إنه كان يعرف رئيس جهاز (ميت). فباشر القيام على الفور بإجراءات وبمخابرة هاتفية الى دياربكر، علم مسؤول أستخبارات إستانبول عن وجود ملف كبير بإسمي كان فيه نشاطي السياسي في بيروت قبل تسليمي سورية. وحذر إبن عمي من دعوتي للعودة الى تركيا.

لقد كان هذا النبأ مخيفاً ومحيراً في آن واحد. فقد كنت في تركيا ويستحيل علي العودة الى سورية، ما العمل إذاً؟ هل أحصل على جواز سفر تركي وأذهب الى أوروپا؟ وما العمل إذا كان جهاز (ميت) قد أعطى أوصافي الى المخافر الحدودية؟ أخيراً إذا كنت قد جئت الى تركيا، فذلك بنية البقاء والعيش في المناطق الكوردية وبين أحضان الشعب الكوردي.. هذا المشروع الذي كان يبدو معرضاً للخطر من ساعة لأخرى وإرتأى أخي بأن يلتقي بكبار مسؤولي الحكومة لكي يعرض عليهم المشكلة فرحل الى أنقرة وإستُقبل إستقبالاً حاراً من قبل الزعيم (ديميريل) الذي كانت تربطه به علاقات الصداقة، وإستُقبل أيضاً من قبل وزير الداخلية.

- سوف نسأل مدينة (ماردين) ما إذا كان شقيقك مازال يحمل الجنسية التركية. أكتب له رسالة ليعود الى وطنه الأصلي دون تأخير وسيُستقبل بحفاوة. وما أطلبه منك هو أن توجه طلباً خطياً محدداً فيه أن أخاك غادر تركيا وهو طفل صغير وإنه يريد الآن العودة إليها. وبعد شهر تقريباً سوف أعطيك الجواب. وحينما سمع أخي كلام مسؤولي الدولة الكبار، قدم طلبه حالاً. وفي اليوم التالي عاد الى إستانبول وقلبه مفعم بالأمل والتفاؤل. وبما أنني كان مفروضاً علي أن أكون في سوريا، فقد تقرر أن أعيش في إستانبول شبه مختفي، بإنتظار رد وزارة الداخلية الذي كنا نعتقد بأنه سيكون إيجابياً لأنني لم يشطب إسمي من السجل المدني. وحينما إقتنع أخي بصدق الوزراء. إستأجر لي شقة صغيرة في أحد الشوارع (بيوغلو) وعاد الى إيلازيغ. ولقد طالت إقامتي في إستانبول دون أن يظهر عن السيد الوزير شيء، وفي الشهر الثامن زارت شرطة إيلازيغ الإدارية أخي وقالت له:

- إننا نعلم بأن أخاك يتمتع بالجنسية التركية وأنه موجود في تركيا منذ بعض الوقت. هذا

من حقه ولا نستطيع أبداً أن نقف في طريق إرادته. نريد أن يأتي من تلقاء نفسه ليرانا ويجيب عن بعض الأسئلة. فأطلعني أخي على هذه المقابلة وإقترح عليَّ بفطنة أن أعود الى إيلازيغ. وبما إنني كنت أخشى من فخ حكومي، فقد رفضت أن أُلقي نفسي في خطر مداهم بلا تروٍ وتابعت العيش في إستانبول بشكل سري أكثر من السابق، لاأنزل الى الشارع إلا نادراً وبعد حلول الظلام. وما إن مضى أسبوعان حتى جاءني مبعوث جديد من أخي يخبرني بأن الشرطة تريد أن تراني وأنها لن تجد أية صعوبة لإيجادي إن شاءت ونتيجة لهذا التهديد، لم يبق لدي ما أفعله سوى الذهاب الى إيلازيغ.

وغداة وصولي، ذهبت الى مفوض الشرطة الإدارية بصحبة أحد أصدقاء العائلة، وطرح عليّ أسئلة تافهة جداً. وحسب الطريقة التي كان يوجّه بها الأسئلة، فهمت بأن معظمها كانت تتعلق بالجنسية السورية، فهل كنت قد حصلت عليها؟ حسب القوانين التركية، كنت أعلم بأن الحصول على جنسية أجنبية دون موافقة حكومة أنقرة، كان يمكن أن يؤدي الى فقدان الجنسية التركية. أيضاً كان يجب أن يكون التجنس إرادياً وحسب مشيئة الرجل البالغ وليس مفروضاً على صبي مثلي. ولفتُّ إنتباه المفوض الى هذه الناحية راجياً منه أن يركز عليها جيداً. ونصحني بأن أنام قرير العين هادئاً لأن كل شيء سيتم حسب رغباته. وفي البيت كان أخي وعائلته وأخواتي وأبناء عمومتي ينتظرون بقلق أخبار لقائي مع المفوض. وحينما علموا بما جرى بالإضافة الى كلام المفوض المطمئن، طاروا فرحاً، وإرتموا على عنقي.

– لقد إنتهت الهموم! سيدعونك تعيش بسلام بيننا، لقد تأكدنا من ذلك الآن.

لكن فرحتهم لم تدم طويلاً. ففي الغد، إستدعاني رئيس جهاز الإستخبارات (ميت) في إيلازيغ، وكان السيدان اللذان إستقبلاني، متضايقان ولاسيما مدير الشرطة، أما مسؤول الإستخبارات فقد كان يضع نظارات شمسية غريبة وداكنة جداً بينما كانت الغرفة سيئة الإنارة....... ولقد بقيت في مقابلة أكثر من ثلاث ساعات، وألقى علي وابلاً من الأسئلة وإستجوبني أيضاً حول إقامتي في سويسرا وحول نشاطي الكوردي في أوروپا. وتيقنت أن ملفي كان يحتوي على جميع هذه التفاصيل وأن القائد قد تلاه بتمهل وروية. وكان بقائي الذي دام طويلاً لدى رئيس الإستخبارات قد سبب جنوناً تاماً في منزل أخي. فكانت النساء يبكين ولم يستطع الرجال أن يكتموا قلقهم وقالوا:

– ماذا جرى لكم؟ إطمئنوا، لقد أصبح جهاز الإستخبارات وديعاً كالحمل.

فأجاب أخي:

– نعم، أصحيح ذلك؟ إذاً أخبرنا بسرعة عما جرى مع القائد.

فعرف أخي أن هؤلاء الناس كانوا يعلمون عني كل شيء وأن ما يهمهم الآن هو معرفة ما إذا كنت قد تعقلت تماماً أو بقيت "مغامراً للقومية الكوردية".

فقال لي القائد:

– إعلم إن الأوساط التركية المسؤولة تخشى من كل ما يسمى كوردي، وأن المهمة الأساسية لجهاز (ميت) هي مراقبة ومحاربة أي طيف قومي لهذا الشعب. فإن شئت البقاء في تركيا وإيجاد السلام فيها، فلا يجب أن تفكر بذلك مطلقاً.

فقلت له:

– إن التخلي عن قضية سببت لي المتاعب خلال قسم كبير من حياتي ليس أمراً ممكناً. ونظراً للظروف التي أعيشها، سأبذل أقصى جهدي لئلا ألفت إنتباه السلطات خلال بضع سنوات على الأقل. فقال أخي وهو يرفع عينيه الى السماء متوسلاً:

–سوف أتوسل وأرجو لتتمكن من أن تتمالك نفسك ولكي لا تصبح مهوى أفئدة الشباب القوميين الكورد والذين وقعوا في نزاع مع الحكومة.

كان (ريزو) مؤمناً وممارساً مخلصاً في واجباته الدينية ويرجو دوماً، بصفاء طفل، الرحمة الإلهية في المواقف الصعبة والمعقدة. وبما إنني كنت مرغماً على قبول مصيري، فقد آثرت البقاء في منزل أخي لأنتظر قرار الحكومة.. وأمضيت شهرين لا أخرج من المنزل ولا أستقبل إلا زيارات نادرة جداً. وفي بداية تموز عام ١٩٦٨، كان إبن عم لي يملك ملكاً واسعاً في (برماز) دعاني لقضاء فصل الصيف فيه وكان ذلك أجمل ما رأيته في حياتي.

وفي الخريف، وبما إن أخبار السلطات إنقطعت، فقد إستنتجت بأنها قد رضيت ضمنياً بإقامتي في تركيا، وعزمت على الدخول في عالم الزراعة بإستثمار أملاك والدي التي لازالت باقية في سهل (گوران) بين (أرغاني ودياربكر). ففي عهد أبي، كنا نملك فيه أكثر من (١٠) آلاف هكتار من الأراضي الزراعية الملائمة جداً لزراعة القمح القاسي.. ولم يبق منها لدينا سوى (٢٠٠٠) هكتار، حيث كان أخي يؤجرها، مكتفياً بفائدة قليلة نظراً للإتلاف الذي كانت حشرة (السونه) تسببه. وإتصلت مع المزارعين الذين يملكون جرارات ولكنهم لا يملكون سوى أراضي قليلة وأبلغتهم عن نياتي. وإقترح شريكان ليتعاونا معي بشرط مناصفة الأرباح وأن أضع الأرض والبذار تحت تصرفهم، فقلت:

– إتفقنا، ولكن إن ظهرت حشرة السونه قبل الحصاد، ما العمل؟

فأجابا وهما يهزان كتفيهما:

– إنها مغامرة، ولكن يبدو أن الحكومة عزمت هذه السنة التصرف بحزم وذلك برش مبيد الحشرات المناسب بواسطة الطائرات في الوقت المناسب. ولن نزرع سوى القمح القاسي. سوف نخصص قسماً من الأرض لزراعة الذرة البيضاء التي تكون بمنأى عن حشرة السونه.

وبعد بضعة أيام بدأت الأعمال، ولكي نضمن دخلاً عالياً، إستطعنا الحصول على كمية

كافية من السماد الكيمياوي. ولكي أقوم بهذه المهمة على أكمل وجه، عزمت على البقاء في (أرغاني) وهي على بعد (١٥) كيلومتراً من أراضينا. لقد سار كل شيء على ما يرام وهطلت الأمطار في الأوقات المناسبة. وفي بداية شهر أيار، كانت زراعتنا تنمو بشكل مدهش بإخضرار بهي ينعش الروح. كنا على ثقة من نجاح محاصيلنا، ونفرح بها كثيراً. وفي ذلك الوقت، أطلعني مقال مقتطف من (الجريدة الرسمية) أن حكومة أنقرة قد حرمتني من الجنسية التركية. لقد كانت تلك صدمة رهيبة.

وحينما ثبت الى رشدي، هرعت الى السراي لأجد فيه (نيازي إينجه) وهو كاتب المحكمة، وكنت على صداقة وثيقة به. كان من أصل كوردي ولكنه لم يجرؤ أن يصرح بذلك علناً. كان (إينجه) رجلاً في غاية النزاهة والطيب وكان يهبّ لخدمة كل من يقرع بابه ولاسيما عامة الناس الذين يكونون عادة ألعوبة الموظفين. كان يعلم أنني قومي كوردي. وفي ذلك اليوم ، وحينما أظهرت له الجريدة الرسمية، نظر الي بحزن عميق وقال:

– لك الحق باللجوء الى مجلس الدولة. يجب عليك دون إضاعة الوقت، الذهاب الى دياربكر ومنها الى أنقرة. ولكن عليك أن تفهم أولاً الأسباب الشرعية لحرمانك من الجنسية التركية. سأعطيك بطاقتين لصديقين لي، أحدهما في دياربكر والآخر في أنقرة. وكلاهما يعمل في السجلات العامة للأحوال المدنية ويمكنهما مساعدتك.

فحملت بطاقتيّ (نيازي إينجه) وذهبت أولاً الى دياربكر حيث إلتقيت بموظف السجل المدني. وما إن عرفني حتى قال لي بجفاء:

– لقد أخطأت في العنوان ياسيد، تلك الأمور غريبة على وظيفتي.

بهذه الكلمات مزق بطاقة (نيازي إينجه) ورماها في سلة المهملات. فنظرت اليه بحزم، وإذا به يصفر لونه ويرتعش..... لقد كان هذا الموظف كوردي الأصل قد أُخذ في دوامة التتريك وكان يخشى من كل ماهو كوردي وبالنتيجة، كنت ألاحظ بأن السلطات التركية إستطاعت أن ترسخ هذه العقيدة في نفوس عدد كبير من الكورد المستخدمين في الإدارة وخاصة بين الموظفين على مستوى عال.

وفي السجل المدني في أنقرة، قرأ صديق (نيازي إينجه) تركي الأصل البطاقة التي وُجهت إليه وذهب ليستخبر ودام غيابه بشكل مدهش.. ولدى عودته لاحظت شيئاً من الرعب في حركاته وصوته. ولقد تجرأ على أن يهمس لي بمحاولة مقابلة المدير. وبعد بضع دقائق، أدخلني أحد الحجاب الى مكتب السكرتير الذي وجد ملفي فوراً.. فقال بصوت متعجرف:

– هذا بسيط، لقد حُرمت من الجنسية التركية لأنك قبلت جنسية الدولة السورية دون موافقة حكومتنا.

– ولكن كنت طفلاً ولا يُطبّق القانون على وضعي.

– هذا ليس من شأننا، إذهب وخاطب مجلس الدولة!

لقد كنت حائراً ولكن لم تثبط عزيمتي بعد. فقال لي الصديق المحامي (غالب) الذي إستشرته:

– إن مشكلتك معقدة لأن المسألة الكوردية هي الكابوس الذي يرعب الناس في بلادنا فوراً. يجب أن نجد شخصاً جريئاً يثبت عدم شرعية قرار الحكومة تجاهك. فإذا إستطعنا أن نكسب (رمزي) الى جانبنا، فإن قضيتنا ستفوز.

كان (رمزي) عضو مجلس الدولة ورئيس المكتب الحادي عشر، وهو إبن عم بعيد لعائلتنا. فقال لي:

– لا أُبدي رأيي عن ماضيك السياسي، ولكن حول المستوى القانوني، إن الحكومة مخطئة وأتكفل بأن مجلس الدولة سيُلغي قراره المتعلق بك.

لقد سُرّ (غالب) من موقف (رمزي) وحثني على الذهاب الى أقرب كاتب عدل لأوكله. وهكذا وحسبما إتفُق عليه، رفع (غالب) الإستئناف وإنتظرنا إجتماع المجلس الذي سينعقد بعد عشرين يوماً. ولقد رُفض الطعن لسبب بسيط وهو أنه لم يكن هناك أي شخص يدافع عني. ووجد (رمزي) وصديق كوردي آخر من دياربكر أعذاراً لعدم حضور إجتماع المجلس، ولم يكن غالب يقبل مثل هذا الجبن وصاح وهو يوجه ضربات بقبضة يده على طاولته:

– بسبب نذالة مثقفينا والمنحطين يسيطر علينا الأتراك ويضطهدوننا، ولكن لا تخف، يحق لنا أن نطعن في القرار مرتين أخريين. سأقدم الطعن الثاني في هذا اليوم، وبإنتظار ذلك، عد الى (أرغاني) وحافظ على زراعتك.

أما (نيازي إينجه) الذي شرحت له الأحداث، فقد قلق ولعن الناس الذين ذهبت إليهم:

– إذا ما فُسخ قرار الطعن مجدداً من قبل مجلس الدولة، يجب أن ننتظر قرار إعتقالك ونفيك من تركيا. وذلك القرار الذي سأكون أول من يتسلمه ويجب أن أسلمه بدوري الى وكيل الوالي. وفي غضون ذلك أحذّرك. حاول أن تسوي أمورك الى ذلك الحين.

قلما كانت أعمالي وزراعتي مشرفة لأن حشرة السونه بدأت أعمالها التخريبية وبدلاً من أن يواجه شريكاي الموقف، كانا يتأملان بأسى مجموعات من الحشرات المصفرّة التي إستقرت على السنابل. فقلت لهما ويكاد قلبي يتمزق:

– إذاً، ستبقيان هكذا مكتوفي الأيدي؟

– ماذا يمكننا أن نفعل؟ ليس عندنا أي شيء لنتقي هجومها.

– الطائرات؟

– لقد أرسلت الحكومة طائرتين صغيرتين فقط وهما تعسكران على بعد خمسة كيلومترات

الى الجنوب، على أرض (ناجي يلماز).

– من هو؟

– هو تركي من أزمير، إشترى منذ بضع سنوات مساحة واسعة من الأراضي في المنطقة وتدبر أمره مع الطيارين لئلا تحلق إلا على حقوله....

– هيا لنرى هؤلاء الطيارين!

فأجاب شريكاي:

– بلا جدوى، لن يصغوا إليك. ومن جهة أخرى لقد فات الأوان.

فإمتطيت حصاني وحينما وصلت أمام خيمة الطيارين، أخبرني أحد الحراس قائلاً:

– لقد عملوا طوال الفترة الصباحية والآن يستريحون ولدى إستيقاظهم، عاتبتهم على رأيهم المُبتَسَر (رأي لا رجوع عنه) وطلبت منهم أن يهتموا أيضاً بالحقول المهددة الأخرى، وحاول أحد الطيارين أن يهدىء من روعي:

– لا تغضب بلا سبب لأننا مُرسلون الى هنا لنحارب حشرة السونه أينما كانت، فإن لم نأت إليك، فهذا يعود الى أن وسائلنا محدودة، وأنه مازال أمامنا الكثير من العمل من هذه الناحية. ولكن أشّر لي أماكن زراعتك لكي آتي إليها وأعالجها غداً ومنذ الصباح الباكر.

في الحقيقة، وفي اليوم التالي وصلت الطائرة في الساعة الثامنة وحلقت فوق حقولنا مدوية، وألقت على الحقل دخاناً كثيفاً مائلاً الى البياض وما إن عالجت ربع مساحة الأرض حتى إنتهى المبيد الحشري.

وبدت جميع محاولاتي لحث الطيارين بلا طائل. فالبرقيات المُرسلة الى أدنة وأنقرة لكي يطلبوا منهما كميات جديدة من المبيدات لم تجد آذاناً صاغية بسبب فقدانها من المستودعات الحكومية وأنه يجب إرسال طلبات جديدة الى ألمانيا، التي كانت تحظرها على الحكومة التركية نظراً لقلة النقد.

وبعد أسبوعين وبواسطة الحصادة، لم نحصد سوى أربعة أطنان من القمح المصاب بحشرة السونه، أي حبوب مثقوبة ونصفها فارغ، وذلك مقابل عشرة أطنان من البذار. لقد كانت الصدمة قاسية. بقيت لدينا الذرة البيضاء التي، لحسن الحظ، استمرت في النمو كما يحلو لها. كنا نأمل أن تعوض على الأقل الخسارة الحاصلة من القمح. ولقد تسارعت الأحداث لدرجة أنني إستحال علي الحضور لحصادها. وفي ٢ تموز ١٩٧٠ أخذني صديقي الشجاع (نيازي إينجه) بسرعة الى مكتبه، والوثيقة التي سلمني إياها صدرت من وزارة الداخلية، وتوجب ترقين إسمي من السجل المدني في (أرغاني). وكان التنبيه الوزاري يحذر من أنه يجب على الشرطة أن تعلم بهذا التحول وكانت تأمر بإعتقالي وإبعادي من البلاد مادمت

أجنبياً. وهكذا، وبعد إعتقال يطول ولا أدري في أي مكان في تركيا، سأُسلم الى سورية ولا أستطيع تصديق ذلك. فهدّأ نيازي إينجه من روعي وقال:

– لا تخف أبداً، لن أطبق هذا الأمر حرفياً. سأضع هذه الوثيقة تحت كل الوثائق الأخرى التي سأسلمها الى وكيل الوالي وسأحتفظ بالوثيقة التي تخصك خلال خمسة عشر يوماً. وخلال هذا الوقت، ألا يمكنك أن تدبر نفسك لمغادرة تركيا؟

– نعم لدي جواز سفر. كان صديق لي قد أخرجه لي برشوة أحد رجال الشرطة في دياربكر. ولم يعلم جهاز الإستخبارات (ميت) بذلك. ومع ذلك وقبل مغادرة تركيا سأذهب وأجد محامياً في أنقرة لأعلم ما إذا كان يملك بصيصاً من الأمل لتسوية الأمر بالطريقة القانونية.

وبينما كنت أتحدث، أخرج نيازي إينجه زجاجة صغيرة من جيبه وبلع قرصاً (برشاناً)

– ولكن هذا (ترينبترين)، لماذا تستعمله؟ هل تشعر بأزمات قلبية؟

– منذ بضعة أيام أشعر بوعكة صحية. وأخبرني الطبيب الذي إستشرته بأنها ليست خطرة ووصف لي هذا الدواء. وحينما أشعر بضيق في القلب، أتناول قرصاً.

فقلت له بإلحاح:

– ولكن كان عليك أن تستشير طبيباً إختصاصياً بأمراض القلب.

– من أجل ذلك كان يجب أن أذهب الى أنقرة أو إستانبول وليس لدي الوقت ولا الوسائل. ومن ثم فإن إضطرابي لا يحتاج بالتأكيد الى رحلة كهذه.

فإقترحت على نيازي إينجه نقله الى أنقرة ليُعايَن من قبل طبيب مختص ذائع الصيت، ولكن عبثاً. فبعد أن أصررت عليه عدة مرات، غادرته وأنا أذرف الدموع وصعدت الباص بإتجاه أنقره عن طريق إيلازيغ. لقد كان صديقي المحامي مُثبَط العزيمة ومتشائماً بشأني، فقد كان ظل الاستخبارات (ميت) يخيم على مجلس الدولة. ولم يكن أي قاض يجرؤ على أن يأخذ قرار الطعن بعين الإعتبار ضد قرار الحكومة. فلم أستحسن تشاؤمه ونويت البحث عن محام أكثر حباً للدفاع والقتال. ولم يكن لدي الوقت. وفي اليوم التالي، جاءني خبر مؤثر، ألا وهو أن صديقي الوفي الذي عمل كل ما بوسعه لإنقاذي إنتقل الى جوار ربه. فقص لي إبن عمي قائلاً:

– بعد ثلاثة أيام من رحيلك، جاء أمر جديد ومستعجل هذه المرة بشأنك الى مقر وكيل الوالي في (أرغاني) وكان (نيازي إينجه) قلقاً ولايدري ما يفعل. وبينما كنا نبحث عن حل للمشكلة وإذا به يصاب بنوبة قلبية حادة. وسقط أمامي على طاولة عمله. ولم يستطع الطبيب الوحيد في المدينة الذي إستدعيته سوى أن يؤكد وفاته الطبيعية، فلم يكن قلبه يخفق. إنها مصيبة عظيمة، فقد كان (نيازي إينجه) رجلاً رائعاً ومثلاً يُحتذى به في النزاهة.

ولقد قمنا بتبرعات لندفع ديونه للبقالين والخبازين وأصحاب مقاهي المدينة.

لقد حاولت أن لا أشهق من البكاء. كان نيازي مريضاً ولم أستطع أن أفعل له شيئاً. حقاً إن تفانيه والهموم التي سببتها له أسرعت في موته، وكان قلبي يمتليء بالشعور بالذنب والأسى. فلم أقو على النضال لأحقق مطالبي وأنا مستعد الآن لمغادرة مسقط رأسي وأجمل سنوات طفولتي. وإقترح في إيلازيغ بمرافقتهم في حافلتهم التي على وشك الإنطلاق الى (ميونخ) فقبلت ذلك، وبعد أن أخبروني بأنهم يستطيعون دوماً أن يطلعوا عائلتي إن حصلت لي متاعب على الحدود. ولم تغادر حافلتنا إستانبول وإستولي عليّ حينئذ حزن مبهم. كنت وربما للمرة الأخيرة أرى الأماكن التي أحببتها وهي المقاهي التي كنت ألتقي فيها سراً بالشعراء والكتاب القوميين الكورد، وبالطلاب الثوريين الجامعيين حيث كانوا يقاتلون العصابات الفاشية التي شُكّلت ووُجهت ضدهم. كما إنني كنت يائساً لمغادرتي مسارح إستانبول...

كنت أتذكر جميع هذه الأحداث حينما سمعت فجأة إسم (كابيكالا) لقد كان ذلك نقطة المراقبة التركية على الحدود البلغارية. وكانت الساعة تشير الى العاشرة والنصف ليلاً...وما إن توقفت الحافلة حتى صعد موظف مدني إليها وطلب جوازات سفرنا وأخذها الى نقطة المراقبة. وكان دركيان يحملان بندقيتين آليتين يحرسان الحافلة من الجهتين، بينما كان رئيسهما يفحص وثائقنا ويستدعي مسافراً من وقت لآخر. في كل مرة كان قلبي يدق كطبل وأكاد أختنق كما لو أن حية تُلفُّ حول عنقي وتخنقني. وإستمر هذا التوتر أكثر من ساعتين، وبدا لي أنه أبدي وسيطول حتى الصباح.

وخطرت على بال أحد السائقين فكرة جيدة وهي الذهاب الى مخفر الشرطة. وعاد منه على الفور مبتسماً. لقد سُلّمت إلينا جميع جوازات السفر وإرتسمت البسمة على شفاه الجميع. وتمنى لنا رجال الگمارك والشرطة التركية رحلة سعيدة. ولم أصدق ما حدث وكنت لا زلت أخشى من أن يغيّر الموظفون رأيهم في اللحظة الأخيرة قبل أن يُغلق الباب المعدني الكبير. وحينما وصلنا فعلاً الى الأراضي البلغارية، شعرت أخيراً بأنني بعيد عن الخطر وأردت التعبير عن فرحتي وأن أصيح بصوت عال:

– حر، حر، أنا حر طليق!

وبعد ذلك خلدت الى النوم مطمئناً، ولم أستيقظ إلا صباح اليوم التالي.

كنا في (صوفيا)، هذه المدينة التي كنت قد زرتها عام ١٩٤٩ والتي لم تكن حينئذ سوى ضيعة ريفية صغيرة. أما الآن فأراها مدينة عصرية ذات جادات واسعة وأنفاق مضاءة جيداً. ولقد أثار الريف البلغاري إعجابي ببساتينه المحفوظة بعناية بالغة وكرومه المتألقة.

كنت أسير من رؤيا لأخرى... وفي النمسا، دُهشت للتطور الذي تم منذ عام ١٩٥٦. وفي ألمانيا وجدت نفسي في مواجهة المجتمع الإستهلاكي الذي وُصف كثيراً وذُمّ من قبل الصحافة

الغربية. وكانت رؤية التاجر الكبير مع جمع من المشترين تبدو لي غير واقعية.

وكنت أسرع بالذهاب الى سويسرا، بلد دراستي وأعز أصدقائي. لقد إستقبلني المجتمع إستقبالاً حاراً وأخوياً. كان ذلك في صيف عام ١٩٧٠. وبعد بضعة أشهر، حصلت على حق اللجوء السياسي. وفي عام ١٩٧٢ تزوجت من فتاة سويسرية كانت تعرف القضية الكوردية، وكانت قد جابت كوردستان تركيا. وفي ربيع عام ١٩٧٣، وقبل عيد (النوروز) بيومين، وُلد لي طفل أحبّ أن يغني أغاني كوردية كما يغني أغاني فرنسية وتركية وعربية وأرمنية.

أخيراً وفي خريف عام ١٩٧٨ أصبحت مواطناً لبلد كنت دوماً أضرب به المثل في النظام الديمقراطي وأشعر فيه دوماً بأنني في بلدي. كنت أرتبط كل يوم إرتباطاً وثيقاً بسويسرا. لقد كانت مناظرها تذكرني بالطبيعة الجبلية والبحيرات ومساقط المياه في كوردستان. أنظر حينما يسقط الثلج على شكل عواصف وزوابع ثلجية وعندما يصفع الهواء البارد والجاف خدي مثلما كنت طفلاً صغيراً في كوردستان، كنت أود أن أتدحرج على الثلج من البهجة والسعادة. إني سعيد أيضاً حينما تزهر الأشجار وترقص حقول القمح، لاتغرب كوردستان عن بالي قط. كوردستان لازالت تعيش ولكنها مجزأة بين تركيا وإيران والعراق وسورية. وهي الآن عرضة (عام ١٩٨٢) للقمع والإضطهاد كما كان في الأمس.

رجل طليق في بلد ديمقراطي، لاأقدر عدم مشاهدة وجوه الكورد المعدمين والمعذبين اليوم في منطقة الشرق الأوسط بسبب إنتمائهم العرقي. هذه النظرات من الأطفال والنساء والرجال والشيوخ كانت تسألني كل يوم. متى سيهب الرجال وحكامهم حقاً وحقيقة بحل جميع مشكلات القمع والإحتلال العالمية؟ أجهل ذلك وما أعرفه هو أنه مادام الكائن البشري يُداس بالأقدام ويُضطهد في كل أنحاء العالم، فإن البشرية لايمكن أن تحلم بأيام سعيدة أفضل.

بوسيني، شباط عام ١٩٨٢

كوردستان والكورد

كوردستان بلاد دولية مجزأة بين تركيا وإيران والعراق وسورية، يبلغ تعداد سكانها (٢٢) مليون نسمة، وتبلغ مساحتها حوالي (٥٠٠) ألف كيلومتر مربع، وهي على شكل منجل أو هلال، تمتد من البحر الأسود والخليج العربي (الفارسي) ومن الهضبة الإيرانية الى خليج الإسكندرونة، وهي تشكل العمود الفقري للشرق الأوسط.

بلاد جبلية:

أشتهرت هذه البلاد بجمالها وعلوّ جبالها، فجبل أرارات الذي رست عليه سفينة نوح يتجاوز إرتفاعه (٥٤٠٠) متر ويبلغ إرتفاع جبل قرةداغ ثلاثة آلاف متر وپيرةمگرون في العراق (٣٢٠٠) متر، وجبل سيپان الذي يتردد ذكره في الأغاني الأسطورية يبلغ إرتفاعه أربعة آلاف متر، وقد ورد ذكر كوردستان في التوراة ايضاً.

وينبع نهرا دجلة والفرات في أواسط البلاد الكوردية ولهما العديد من الروافد، ومنها مراد صو، الزاب الصغير، الزاب الكبير، ونهر ديالى (سيروان) وروافد أخرى. وتشكل هذه الروافد ممراً ضيقاً عبر الجبال وتروي ودياناً وسهولاً خصبة جداً مثل سهل أورفا ودياربكر والجزيرة وموش وأربيل وكركوك.

تمتلك كوردستان، المكونة من مناطق جبلية في معظمها، ثروات نفيسة فمرتفعاتها مغطاة بالأحراش والمراعي بينما تنجح زراعة الحنطة والشعير والرز والقطن والتبغ في سهولها ووديانها الى جانب الأشجار المثمرة كالتفاح والخوخ والأجاص والتين والجوز واللوز ومختلف أنواع الكروم التي تبلغ أصنافها أكثر من ستين صنفاً. كما تمثل تربية المواشي والأغنام أهم مصادر الدخل في كوردستان. والثروات المعدنية موجودة بكميات لايستهان بها مثل النحاس والكروم والحديد والفحم الحجري والرصاص والذهب والفضة، لكن هذه الثروات المعدنية لم يتم إستغلالها إلا على نطاق ضيق جداً، فالنحاس والكروم لايتم إستخراجهما إلا في مدينة مادن بكوردستان تركيا، ولايستفيد منها الكورد بل تذهب عائداتها الى الحكومات المركزية التركية والعراقية والإيرانية والسورية. كذلك الحال بالنسبة للنفط الذي يعد كنز ومصيبة الشعب الكوردي والذي لولاه لما تعرض الكورد لما تعرضوا له من جانب بعض الدول العظمى. فأشهر حقول النفط في العراق تقع في الموصل وكركوك وخانقين، وفي تركيا تقع حقول النفط في باطمان وگوران وفي سورية توجد حقول النفط في الجزيرة في حقول كراتشوك ويتم نقله عبر خط أنابيب الى طرطوس على البحر الأبيض، إضافة الى حقول نفط كرمنشاه وهمدان في إيران.

حياة الحضر:

إن معظم المدن الكوردية مبنية في مواقع رائعة ولها تاريخ عريق فدياربكر تقع على نهر

دجلة، ويبلغ عدد سكانها اليوم (٣٥٠) ألف نسمة، وهي محاطة بأسوار سميكة لاتزال قائمة منذ آلاف السنين، ومدينة بدليس تقع على إرتفاع (١٥٠٠) متر وهي العاصمة القديمة لإمارة شرفخان وقد بنيت منذ حوالي عشرة آلاف سنة، ومدينة أربيل التي إنتصر فيها الإسكندر الأكبر على داريوس مازالت قلعتها قائمة، وهناك مدن أخرى يتجاوز عدد سكانها (١٥٠) ألفاً مثل ملاطية وأرضروم في كوردستان تركيا، وكرمنشاه في كوردستان إيران، والسليمانية وكركوك في كوردستان العراق، ويعيش القسم الأكبر من الكورد الحضريين على التجارة والحرف اليدوية من قبيل الحياكة وصناعة السجاد واللباد والصياغة والدباغة، وقد إنتقل الكثير منهم الى المدن التركية والعربية والفارسية بحثاً عن العمل وهناك أكثر من (٢٦٥) ألف عامل كوردي يعملون حالياً في أوروپا الغربية منهم مائتا ألف في ألمانيا.

٢٢ مليون كوردي على الأقل:

إن تحديد العدد الحقيقي لسكان كوردستان ليس بالأمر السهل لأن إحصائيات الحكومات التي تهيمن على كوردستان تغفل في كثير من الأحيان الإشارة الى الأصل العرقي للسكان، لكن يمكن تقريب العدد الى (٢٢) مليون كوردي موزعين على النحو التالي: (١٢) مليوناً في تركيا، وستة ملايين في إيران، و٣,٥ مليون في العراق، ونصف مليون في سورية. ولا يدخل في هذا الحساب كورد الإتحاد السوڤيتي، الذين يتجمعون بشكل رئيسي في أرمينيا، ولا كورد المناطق المعزولة في خراسان في بلاد فارس وفي الأناضول الغربية ولبنان ومناطق أخرى. ولكن من هم الكورد؟

أحفاد الميديين:

ينحدر الكورد من الأصول الهندو-أوروپية التي كونت دولاً عظمى في الشرق الأوسط منذ أقدم العصور كالميتانيين والگوتيين والبليين والكاشيين والميديين. إستطاع الميديون توحيد الأشقياء من سكان جبال زاگروس وطوروس وشمال غرب الهضبة الإيرانية، وكان لهم زعيم حربي وحاكم عظيم هو سياكزار الذي نظم جيشه على غرار الجيش الآشوري وحافظ دوماً على نوعية فرسانه.

في عام ٦١٢ ق.م تمكن سياكزار من التحالف مع البابليين والإستيلاء على نينوى وقضى بذلك على الإمبراطورية الآشورية، أما آخر ملك مستقل لهم فهو أستياج الذي هزم سنة ٥٤٩ على يد سيروس الأكبر، وبعد وصول الفرس الذين كانوا أبناء عمومة الميديين الى السلطة إرتبط مصير الكورد بمصير الإمبراطوريات الإيرانية التي قادها الفرس حتى الفتوحات العربية.

من زرادشت الى الإسلام:

لم تصمد الإمبراطورية الفارسية الساسانية في وجه القبائل العربية التي دب فيها النشاط

بفضل إعتناقهم الإسلام، وقد أدى إنهيارها عام ٦٥٢ ميلادية الى إضعاف العقيدة الزرادشتية والدخول التدريجي للإيرانيين في الإسلام. وفي تلك الفترة كان الكورد في جبالهم يبدون مقاومة عنيفة ضد جيوش الخلفاء، وخلال القرنين العاشر والحادي عشر ولأسباب غير واضحة إعتنق أغلبهم الإسلام.

لقد كان الدين الأصلي للكورد الديانة الزرادشتية وهي ديانة تدعو الى التوحيد. أما اليوم فإن الغالبية من الكورد هم من المسلمين السنة، وهناك ايضاً نصارى ويهود وإيزيديون (الذين يعتنقون زرادشتية تأثرت بالإسلام والمسيحية) وفي تلك الفترة وبسبب من ضعف السلطة المركزية للخلفاء أنشأ الكورد عدة ممالك مستقلة ومزدهرة منها الشداديين والمروانيين والحسنيين والأيوبيين وممالك أخرى كان ملوكها نصراء للعلم والعلماء والفنانين والأدباء، وقد إنتهى أمر تلك الممالك جميعاً إثر الغزو المغولي الذي إكتسح كل شيء.

في أواسط القرن الرابع عشر ولدت إمارة كوردية مستقلة، وفي مقابل ذلك ظهرت إمبراطوريتان كبيرتان في شرق وغرب كوردستان هما الإمبراطورية الفارسية الصفوية الشيعية والإمبراطورية العثمانية السنية فطمع ملوك فارس في كوردستان وأغاروا بإستمرار على إماراتها لكن الكورد لم يتمكنوا من الإتحاد فيما بينهم ومواجهة الخطر الفارسي، فبادر العثمانيون السنة الى إقتراح إقامة تحالف مع الأمراء الكورد بهدف التصدي لغارات الفرس على أراضيهم فاتفق الأمراء الكورد مع السلطان سليم الأول. وفي سنة ١٥١٤ تمكن الكورد والعثمانيون في معركة چالديران من تحقيق النصر على جيش الشاه إسماعيل الفارسي وعقدوا ميثاقاً بين الأمراء الكورد والسلطان العثماني يؤكد الحقوق الموروثة للأمراء الكورد ويرسخ تعاونهم العسكري مع الإمبراطورية العثمانية، ومن جانبه أقر الشاه إسماعيل بالحقوق نفسها للأمراء الكورد الذين ظلوا تحت نفوذه.

حملات جريئة:

إن وفاء الكورد لميثاق معركة چالديران دفعهم الى المشاركة في حملات جريئة للسلاطين العثمانيين إمتدت من اليمن حتى ڤيينا، لكن دسائس ممثلي الباب العالي جزّأت السلالات الكوردية الحاكمة وأوقعت بينهم العداوة والبغضاء، وفي بداية القرن التاسع عشر إختار العثمانيون اللحظة الحاسمة لإنهاء إستقلال الإمارة الكوردية وإخضاعها للإدارة المركزية.

ومنذ ذلك التاريخ خاضت كوردستان سلسلة من الثورات المتواصلة التي لازالت قائمة حتى أيامنا هذه، وفي نهاية القرن التاسع عشر تأكد السلطان عبدالحميد من عدم فعالية الوسائل العسكرية المستخدمة ضد الكورد فغير خطة الحرب واستبدلها بالدعوة للمصالحة وسمح بتسوية بعض الخلافات، ومن الناحية الإدارية أصبح الولاة يكتفون بالمراقبة العامة للأوضاع تاركين الكورد أحراراً في ممارسة عاداتهم وتقاليدهم الثقافية، فهل كان ذلك البداية لتحالف

أكثر تحرراً وإحتراماً للكورد ؟

عرف السلطان الهرم كيف يستطيع من خلال المجاملة إستغلال الروح القتالية للكورد وولائهم للإسلام. وفي عام ١٩٠٨ قامت ثورة الشباب الأتراك بتأسيس النظام الدستوري في الإمبراطورية العثمانية وكان من المتوقع أن ينجز النظام الحديث ما خطط له السلطان عبدالحميد، تنظيم الدولة على أساس يضمن الحكم الذاتي للشعوب غير التركية في الإمبراطورية. لكن الواقع لم يكن كذلك فالحكومة التركية الفتية كانت أكثر إستبداداً وعنصرية من الأنظمة السابقة وكان الأرمن أول ضحاياها تلاهم اليونانيون فالعرب فالكورد. وخلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٥-١٩١٨) تم إبعاد حوالي سبعمائة ألف كوردي، فما الذي جرى لهم؟

لقد أصبحت إبادة العناصر غير المرغوب فيها مبدأ حكومة (الإتحاد والترقي) للشباب الأتراك. وفي نهاية الحرب العالمية لم تكن كوردستان غير ركام وأنقاض يسودها البؤس والموت.

معاهدة تتبعها أخرى:

وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها بإنهيار الإمبراطورية العثمانية، وإعلان الحلفاء نيتهم في إعادة رسم خارطة العالم على أساس مباديء ولسن: أن تتصرف الشعوب في حقوقها ويحكموا أنفسهم بأنفسهم.

فأعلن الشعب الكوردي من خلال ممثليه مطالبته بحقه في الإستقلال الذي منحوه فعلاً في العاشر من آب سنة ١٩٢٠ من خلال معاهدة سيڤر (القسم الثالث المواد ٦٢ و٦٣ و٦٤).

لكن لسوء الحظ ظلت معاهدة سيڤر حبراً على ورق بالنسبة للشعب الكوردي، فالمصالح الإستراتيجية والنفطية للدول العظمى فسّرت المعاهدة بخلاف ما كان مرجواً (ولقد رأينا سابقاً أن كوردستان تحتوي كميات هائلة من النفط).

وفي عام ١٩٢٣ تم إستبدال معاهدة سيڤر بمعاهدة لوزان التي تجاهلت الطموحات الكوردية بشكل متعمد. فقسم القرار الدولي الجديد بلاد الكورد بشكل يقضي على آمال الحرية والإستقلال، وعلى النحو التالي: ألحق جزء من كوردستان بالجمهورية التركية التي قامت على أنقاض الإمبراطورية العثمانية، وضم قسم الى سورية وآخر الى العراق، الدولتان اللتان أنشئتا حديثاً من قبل فرنسا وإنگلترا، أما بالنسبة للفرس فقد أعانهم الإنگليز على الإحتفاظ بعناية بالمناطق الكوردية التي كانوا قد إكتشفوا فيها حقولاً غنية بالنفط وتأهبوا لإستثمارها.

تركيا: لايوجد كورد!

أثناء مناقشة مؤتمر لوزان كانت أنقرة قد سعت لتهدئة الكورد حتى أنها سمحت لهم

بصياغة دستور دولة فدرالية تركية-كوردية. لكن بعد التوقيع على معاهدة لوزان لم يتوانَ مصطفى كمال، أحد الشباب الأتراك والذي أصبح رئيس الجمهورية التركية الحديثة، في النكوث بوعوده وإلتزاماته. فأمر بإغلاق المدارس الكوردية وإعتقال الوطنيين والشخصيات المرموقة، وعادت ممارسة أعمال التعذيب والإضطهاد وطبقت إجراءات تعسفية في جميع أنحاء كوردستان فثارت ثائرة الكورد. إلا أنهم ذُبحوا لأنهم محرومون من أي عون أو مساعدة، وبعد قمع الثورات دون شفقة أو رحمة تبنّت حكومة أنقرة نهج إبادة الشعب الكوردي.

ولم تتم الإشارة الى الكورد إلا بعبارة "أتراك الجبال" الشهيرة، وأي فعل يصدر من كوردي يعتبر جريمة لاتغتفر فقد أتخذت الإجراءات ضد كل من تجرأ على التحدث باللغة الكوردية. وكان رئيس الوزراء عصمت إينونو قد قال في جريدة ميلليّت التركية، عدد ٣ آب ١٩٣٠: "الأمة التركية هي الوحيدة التي لها الحق في المطالبة بالحقوق القومية في هذا البلد. ولايحق ذلك لغيرهم أياً كان". وبالرغم من حياة الرعب هذه وسياسة الإبعاد والمذابح الجماعية لم تستطع الحكومات التركية المتتابعة إبادة أو تتريك الكورد، وفي السنوات الأخيرة إزداد الوعي القومي بدرجة كبيرة بين الشباب الكورد بشكل أرغم الجيش التركي على التدخل في الحياة السياسية مجدداً وفرض الأحكام العرفية وإخضاع المناطق الكوردية للحكم العسكري وهناك اليوم أكثر من خمسين ألف كوردي في السجون التي إكتظت بهم لدرجة أن المدارس حولت الى معتقلات فيها المئات من المثقفين الكورد الذين يتعرضون الى التعذيب وجريمتهم الوحيدة أنهم يقولون أنهم كورد ويطالبون بالإعتراف الرسمي بهويتهم القومية.

في العراق: نوع من الحكم الذاتي

كيف يعمل كورد العراق

في عام ١٩١٨ تم إحتلال كوردستان العراق، التي كانت تسمى بكوردستان الجنوب، من قبل بريطانيا العظمى، ولكي يحافظ الإنكليز على مصالحهم النفطية لم يترددوا في ضمها الى الجزء العربي من العراق، وأقاموا دولة موحدة نصبوا الأمير فيصل، وهو من عائلة الملك حسين ملك الأردن، ملكاً عليها، ومع ذلك لم يتم ذلك الإلحاق بدون شروط فقد تعهدت الحكومتان البريطانية والعراقية بمنح الحكم الذاتي للشعب الكوردي وإحترام حقوق هذا الشعب لكن الدولتين نكصتا بتعهداتهما تجاه الكورد مثلما فعل الأتراك، فوجد الشعب الكوردي في العراق نفسه خاضعاً لسياسة الحرمان من الحقوق والإضطهاد الأمر الذي أرغمهم على التمرد فتعاقبت سبع ثورات خلال الفترة بين عامي ١٩١٩ و١٩٤٥ إلا أنها جميعاً تم قمعها بالإعتماد على التدخل الكبير للقوات الجوية الملكية البريطانية لمساعدة القوات العراقية، وآخر الثورات جاءت في عام ١٩٦١ بإشراف الحزب الديمقراطي الكوردستاني وزعيمه مصطفى البارزاني وبالرغم من تدمير البلاد من قبل الجيش العراقي المزود بأحدث أنواع الأسلحة تمكن الكورد من دحر ذلك الجيش والمؤامرات ضد الكورد.

وفي ١١ آذار من عـام ١٩٧٠ أوقفت سلطات بغداد أعـمالهـا العـدوانيـة ومنحت المناطق الكوردية نوعـاً من الحكم الذاتي. لقد كان ذلك عبارة عن وعـود جميلة ومكتـوبة... ولكن في الحقيـقة بدأت بغداد تراوغ في تنفيذ بنود إتفاقية عام ١٩٧٠ التـاريخية نصاً كما تم التوقيع عليهـا وحاولت إثارة الكورد وفي ٢٩ أيلول عـام ١٩٧١ نجا مصطفى البـارزاني من محـاولة إغـتيـال دبرها المسـؤولون العـراقيـون. وفي ١١ آذار ١٩٧٤ وبعـد محـاولات إغـتيـال عـديدة موجهة ضد البارزاني من قبل المسؤولين العراقيين الكارهين للمفاوضات تم إنذار الكورد بقبول حكم ذاتي مصدق عليـه من جانب واحد (هو الحكومـة العـراقيـة) وإنطلقت القوات الحكوميـة لتهاجم الكورد.

قـاوم الكورد، وخلال أكـثـر مـن عـام تمكنـوا من إحبـاط الجـيـش العـراقي، وفـي هذه الأثناء تقارب شاه إيران، الذي كان يسوي خلافاته مع العراق، مع كورد العـراق وفتح حدوده في وجه نسـاء وأطفـال المدن والقرى الكوردية المهـدمـة من قبـل المدفـعـيـة والطيـران العـراقـيين. ولما لم يتـمكن العـراق مـن إحراز النصـر على أرض المعـركـة حـاول الإتفاق مع إيران لضـرب الحـركـة الكوردية، وفي ٦ آذار ١٩٧٥ كـان شاه إيران الأخير محـمد رضـا پهلوي ورجل العراق القـوي صدام حسين يتعانقان في الجزائر ويدبران مؤامرة ضد الكورد.

بعد بضـعـة أيام وفي ١١ آذار ١٩٧٥ أنذر الشـاه البـارزانـي بالتـوقف عن القـتـال وإلا فـإنه سيقاتله الى جانب العراقيين، وأمـام هذا الأمر الواقع آثر البارزاني إيقاف العمليات العسكرية بدلاً من تعريض شعبه للإبادة، وفي نهـاية آذار توجه مع أركـان حربه وعـائلته وقسم كـبير من رجاله (الپيـشـمرگـه) الى إيران التي كـانت قـد إسـتـقـبلت قـبلهم مـائتي ألف لاجيء كـوردي، ونتيجة لذلك إحتل الجيش العراقي معظم أراضي كـوردستان ودعـا الكـورد اللاجئين الى إيران للعـودة الى العراق بعد أن تعـهّد بمعاملتـهم معاملة حسنة وبإعـادة بناء بلادهم وتطبـيق الحكم الذاتي فـيـهـا، وفي هذه المرة ايضـاً لم يف العـراق بوعوده، فـاللاجئـون الكورد الذين عـادوا الى العراق، وصدقوا أن نية المسؤولين العراقيين حسنة، تم نفي غالبيتهم الى جنوب العراق كما أن قسـمـاً كبيـراً منهم احتـجزوا في معـتـقلات بالصحـراء، أما الفـلاحـون الذين كـانوا يعيـشـون في القرى المجاورة للحدود الإيرانيـة فـقد طردوا من قـراهم ونقلوا الى داخل العـراق كـما تم إعـدام المئات من المثقفين الكورد أو ألقي بهم في غياهب السجون.

رغم كل ذلك وفي عـام ١٩٧٦ إنتظمت المقـاومـة الكوردية وبدأت النضـال من أجل حكم ذاتي حقيقي ضمن إطار عراق ديمقراطي، وبينما دخل العراق الحرب مع إيران دحر الپيشـمرگـه وبإستـمرار الجيش العراقي الذي كان يتـمركز في كوردستـان العراق وكـانت حرب الأنصـار في أوج نشاطها في ظل ظروف صعبة وقاسية جداً.

إيران، جمهورية كوردية:

منذ القرن السادس عشر إنقسم كورد إيران على إمارتين شبه مستقلتين هما إمارة أردلان وإمارة لورستان بالإضافة الى مناطق نفوذ الخانات. كانت تلك الإمارات ترتبط بالسلطة المركزية بتبعية إسمية رمزية وكانت مدن (سنه وكرمنشاه وساوج بلاغ) تشكل المراكز الثقافية والأدبية والفنية الكوردية في تلك الحقبة. وفي نهاية القرن التاسع عشر بدأت أسرة خاجار الفارسية تعمل على تعزيز السلطة المركزية فأنهت الحكم الذاتي الشكلي في المناطق الكوردية الأمر الذي أضطر الكورد في إيران الى حمل السلاح لإستعادة حريتهم والحفاظ على كيانهم.

إندلعت أكثر من عشر ثورات في كوردستان الفارسية (التي تعرف اليوم بكوردستان إيران) قبل الحرب العالمية الثانية، وفي عام ١٩٤١ عندما دخلت جيوش الحلفاء الى إيران وجد الكورد الفرصة ملائمة لتحرير بلادهم من سلطة طهران لدرجة أنهم تمكنوا من إرساء أسس جمهورية صغيرة مستقلة في منطقة مهاباد. لم تتجاهل الدول العظمى هذا التحرك الكوردي، بسبب إهتمام الدول العظمى بهذه المنطقة من العالم، وفي عام ١٩٤٧ ساندت تلك الدول مساعي إيران للقضاء على جمهورية "مهاباد"، حيث قتل رئيس الجمهورية القاضي محمد الى جانب المئات من معاونيه دون محاكمة، وفي عهد الشاه محمد پهلوي حاولت طهران شل الوعي القومي الكوردي من خلال آيديولوجيا الجامعة الإيرانية التي تعتبر مجموع الشعوب الإيرانية، ومنها الشعب الكوردي، أمة واحدة متذرعة في زعمها ذاك بالحقائق العلمية كالتقارب اللغوي بين اللغتين الكوردية والفارسية والعلاقات التاريخية بين الشعبين.

وفي عام ١٩٧٨ عندما باشر الخميني صراعه العلني ضد الشاه ونظامه وعد كورد إيران بالإعتراف بكيانهم القومي ومنحهم حكماً ذاتياً حقيقياً ضمن إطار الجمهورية الإسلامية، لكنه بعد عودته الى إيران منتصراً صرف النظر عن الكورد ومطاليبهم.

وفي صيف عام ١٩٧٩ أرسل جيشه وحرس الثورة (پاسداران) لضرب الكورد الأمر الذي أسفر عن مقتل حوالي عشرة آلاف من النساء والأطفال والشيوخ دون رحمة أو شفقة، لكن مقاومة الكورد ظلت أقوى من أي وقت مضى، وفي مواجهة بسالة المناضلين الكورد قصفت القوات المسلحة الإيرانية بقنابل الناپالم القرى والمدن الكوردية وأخضعت كوردستان الإيرانية لحصار إقتصادي شامل.

أما المثقفون والديمقراطيون الإيرانيون الذين إشمأزوا من إستبداد نظام الحكم فقد تعاطفوا مع المقاومة الكوردية وبذلوا كل ما في وسعهم لمؤازرتها.

سورية: ما من مدرسة ولكن هناك جيش

لحين وصول العسكريين الى السلطة عام ١٩٤٩، كان كورد سورية يرتبطون بعلاقات إجتماعية جيدة مع غالبية السكان العرب في البلد فقد كان هنالك كورد في پرلمان دمشق

وكان هناك موظفون كبار يشغلون مناصب في الحكومة وضباط يخدمون في الجيش. ورغم عدم السماح للكورد بفتح مدارس لهم فقد كان يحق لهم نشر الكتب والمجلات الدورية باللغة الكوردية.

إلا أن كل شيء تغير بعد الإنقلابات العسكرية لاسيما بعد ظهور حزب البعث في الساحة حيث هاجت القومية العربية وبدأت تنتهج نهجاً عنصرياً مستوحى من النازية والفاشية. وبعد عام ١٩٥٨ كان هم الأنظمة المتعاقبة على الحكم في سورية مهاجمة الكورد، فقد فصل الضباط والموظفون والمدرسون والمعلمون الكورد من وظائفهم بلا رحمة، وتم منع نشر أي شيء باللغة الكوردية والكورد الذين خالفوا تلك السياسة تعرضوا للتعذيب الوحشي والسجن لسنوات عديدة ثم تم نفيهم من البلاد، وفي المناطق الكوردية في الجزيرة بدأ تنفيذ مخطط يهدف الى إنتزاع الأراضي من الفلاحين الكورد وإبعادهم الى داخل البلاد.

كما سحبت الجنسية السورية من مئات الآلاف من الكورد وحرم أولادهم من حق التعلم، ولما بلغ هؤلاء الأولاد عديمي الجنسية السن القانونية لأداء الخدمة العسكرية الإلزامية وجدوا أنفسهم على الفور مجندين في الجيش السوري وتم إرسالهم الى الحدود السورية-الإسرائيلية.

وهكذا في تركيا كما هو الحال في إيران، وفي العراق كما في سورية، وفي الوقت الذي إلتزمت فيه المنظمات الدولية الصمت ولم تحرك ساكناً تحت ستار قداسة ونزاهة الدول الأعضاء فيها، يواصل الشعب الكوردي نضالاً شاقاً ومريراً من أجل حقوقه دون مساعدة أو مساندة.

الأدب الكوردي

اللغة الكوردية:

يتكلم الكورد، كأجدادهم الميديين لغة هندو-أوروبية هي نفس اللغة التي كتب بها كتاب زرادشت (آڤيستا) وتنحدر هذه اللغة من فرع (زند- اللغة الزرادشتية) من المجموعة الإيرانية، في حين أن اللغة الفارسية القريبة جداً من اللغة الكوردية تنحدر من العائلة (المذرية) وتؤكد بعض الأمثلة أن اللغة الكوردية حافظت على روابط متينة مع اللغة السنسكريتية وتبرز قرابة شديدة مع اليونانية واللاتينية بالإضافة الى اللغات الجرمانية:

كوردي	لاتيني	ألماني	إنگليزي	فرنسي	عربي
پدر	مادر	فاتَر	فاذر	بير	أب
مادر	ماتر	موتر	مادر	مير	أم
برادر	فراتر	برودر	برادر	بزير	أخ

كما يمكن أن نجري دراسة مقارنة على أجزاء الكلمة الكوردية (ژين) التي تعني الحياة، والكلمات اليونانية واللاتينية والفرنسية المستعملة اليوم مثل: ژونيسيس وژونوس التي تعني

مـورّثة (جين) علم الأنسـاب ونسل وتكوّن وكلمات أخرى. وكذلك على الكلمـة (ژن) التي تعني إمرأة أو زوجة وتقابلها في الروسية كلمة ژونا. والكلمتان الفرنسيتان اللتان تعنيان علم أمراض النساء تعودان الى أصل يوناني-لاتيني.

إن اللغـة الكوردية كلغة مركبة تقدم تسهيلات كبيرة لإستحداث أسماء وأفعال وصفات جديدة، يقـول (ر. ليـسكو): "إن الإبتكار العفـوي والعلمي للألفـاظ الجديدة يسـمح للغـة الكوردية بالتطور مع مرور الزمن والتعبير عن المعاني المجردة التي تأتي بها الحضارة الحديثة بإستمرار".

إن تقسـيم كوردسـتان منع الشـعب الكوردي من توحيـد لغتـه ومع ذلك فـهناك لهجـتـان رئيسـيـتـان سائدتان همـا: اللهـجة الكرمـانجيـة التي يتكلم بها الكورد في تركـيا والإتحاد السوڤيتي وسورية والمناطق الشمالية من كوردستان إيران والعراق، واللهجة السورانية التي يتحدث بها الكورد في جنوب كوردستان العراق وكوردستان إيران، ومن الطبيعي أن تحتوي اللهجتان العديد من المتغيرات كما هو الحال مع جميع الشعوب الجبلية، لكن الكتابة هي فقط باللهجتين الكرمانجية والسورانية.

أبجدية صوتية:

كان الميديون ومن بعدهم الفرس والساسانيون يستخدمون أبجدية مسمارية توافق اللغة الهندو-أوروپيـة وتكتب من اليسـار الى اليمين، لكن العرب بعد فتوحاتهم طمسوا حضارة وثقافة الشعوب الإيرانية وفرضوا عليهم لغتهم وعقيدتهم ايضاً، في وقت تمالك فيه الكورد أنفسهم محاولين الحفاظ على لغتهم من الهيمنة العربية، ولم يكن أمامهم بد من إقتباس الحروف العربية الى لغتهم وبعد ذلك قلدهم الفرس ثم إتبع الأتراك الطريقة نفسها.

وبالرغم من الصعوبات التي تظهرها الأبجدية العربية في تقبل اللغات الهندو-أوروپية فإن الكورد إستخدموها لقرون طويلة ولازالوا يستعملونها في العراق وإيران، أما الكورد في سورية وتركيا فيستخدمون منذ أربعين عاماً أبجدية وضعها مثقفون كورد في مقدمتهم الأمير جلادت بدرخان وهي عبارة عن أبجدية صوتية مبسطة سهلة التعلم والإستعمال، وقد تم طبع الكثير من المؤلفات بهذه الأبجدية وبشكل سري في الغالب. واللهجة الكرمانجية تدرس بهذه الأبجدية في مدرسة اللغات الشرقية بپاريس وفي جامعة (إيزالا) في السويد بينما آثرت جامعات بغداد وأكسفورد وبرلين وواشنطن التي تدرس اللهجة السورانية الأبجدية العربية، لكن نزعة إستخدام الأبجدية اللاتينية تزداد يوماً بعد يوم، وقد تم نشر القاموس الكوردي-الانگليزي لمؤلفه توفيق وهبي باللهجة السورانية في بريطانيا بالأحرف اللاتينية.

هل هناك أدب كوردي؟

قبل الإحاطة بالأدب المدوّن والمكتوب لابد أن نلقي نظرة على التراث الشعبي (الفلكلور)

هذا التراث الفني جداً الذي يمكن أن نتحدث عن إنتشاره السريع من خلال ما كتبه العالم **اللغوي الكوردي (أ. ڤيلچفسكي):**

النزعة الإنسانية ورزانة الأقوال المأثورة:

لقد تأثر الكثير من العلماء المهتمين باللغة الكوردية بتنوع الأدب الشعبي الكوردي واهتموا به إهتماماً بالغاً ومنذ أمد بعيد جمعوا ونشروا مستندات هامة عنه، ومن بين هؤلاء البولوني جابا، والألماني بيرم سوسان فان، والروسي نيكيتين، والفرنسي ليسكو، والإنگليزي ماكنزي. وفي السنوات الخمسين الأخيرة قام الكورد ايضاً بهذه المهمة وأنجزوا أعمالاً مثيرة للإهتمام.

إن ثراء التراث الشعبي الكوردي يظهر أولاً في الأقوال المأثورة والأمثال والألغاز والأغاني والأساطير الملحمية. إن الأقوال الكوردية المأثورة كثيرة ومثيرة للإعجاب لأن على الإنسان الكوردي أن يبيّن ويدعم كلامه بالحكم والأمثال المناسبة الموزونة والمفعمة بالحكمة والإنسانية والواقعية والدعابة ايضاً، مثل:

١- من يجلس قرب الحداد يتعرض للشرر.

٢- الأسد أسد ذكراً كان أم أنثى (الأسد أسد ولو كان أنثى).

٣- عندما تتقاتل الجمال تسحق البغال والحمير تحت أقدامها.

٤- الدنيا وردة، شمّها وأعطها لأصدقائك.

كذلك فإن الأغاني الكوردية لاتعد ولاتحصى وهي متنوعة كما يقول (ت. بوا):

"في الريف وأثناء العمل، يدوي غناء الفلاح وبائعة اللبن والحاصد والحائك والأم. إن أناشيد الحب أو الحرب، أغاني مأساوية أو أغنيات راقصة لاتغادر شفاه الراعي أو مدبرة شؤون المنزل".

والترنيمة التالية عبارة عن حوار بين فتاة جميلة وصائغ طلبت منه الفتاة أن يرصع لها وردة ذهبية (في بعض مناطق كوردستان تزين النساء مناخيرهن بهذه الوردة الذهبية):

- يا معلم حنا، إصنع لي وردة ذهبية

لاتفتلها بالملقط

ولاتضعهاعلى السندان

ولاتضربها بالمطرقة

وبقدرة الله لن تندم على ذلك!

- سأصنع لك وردتك الذهبية

دون وضعها على السندان
ولا فتلها بالملقط
ولاضربها بالمطرقة
وبقدرة الله لن أندم على ذلك
إن أعطيتني قبلتين
- لابأس، إعتبر قبلاتي بلا ثمن
إن أعطيتني بدلاً عنها:
سبعة قطعان من النعاج
وسبعة قطعان من الماعز ذي الوبر المجعد
سبع قطع من الأرض
سبع طواحين
سبع معاصر تديرها الحمير
سبع فناجين من لبن العصفور
إنها رخيصة بلا ثمن

الأدب المدوّن:

بالرغم من عظمة تراث الشعب الكوردي وتاريخه المأساوي، فإنه أنشأ أدباً مكتوباً قيّماً وأنجب كتاباً وشعراء ذوي صيت عالمي، فكان منهم الرواة والقصاصون والروائيون وكتاب السيَر والرحالة وآخرون.

وبسبب تقسيم كوردستان فقد كتب كثير من الكورد باللغات العربية والتركية والفارسية واحتلوا مكان الصدارة بين شعراء وكتاب هذه الشعوب. فأمير الشعراء أحمد شوقي الذي توفي في مصر كوردي، وجامي الذي يعد من كبار شعراء الفارسية كوردي، وفيزولي الذي يمجده الأتراك على أنه أحد كبار شعرائهم كوردي ايضاً، والكاتب محمود تيمور الذي كان من الروائيين القلائل الذين كتبوا بالعربية وترجمت أعمالهم الى اللغات الأوروپية كوردي.

إستطاع العرب فرض عقيدتهم والقواعد المعقدة لشعرهم على الشعوب الإيرانية وقد خضع الشعر الكلاسيكي الكوردي ايضاً الى تلك القواعد حتى القرن التاسع عشر عدا بعض الإستثناءات، فاستخدم بعض الشعراء مقاطع من أربعة أو خمسة أبيات في حين آثر البعض الآخر من الشعراء الفصل واستعمال العروض في الأغاني الشعبية الكوردية، وأخذ الشعر منذ القرن التاسع عشر شكلاً أكثر غنائية وظهر على شكل خيال مبدع من ناحيتي الشكل

والمضمون على حد سواء. أما بالنسبة للشعراء المعاصرين فلايتبعون أية قاعدة ثابتة بل يعلقون أكبر الأهمية على محتوى وإيقاع مؤلفاتهم.

شعراء صوفيون وقوميون:

كان على الشعراء الكلاسيكيين أن يحترموا قواعد الشعر العربي ويمجدوا عبادة الله بروح صوفية شرقية، لكنهم لم يكونوا على وتيرة واحدة وتأثرت أشعارهم بالمذهب الواقعي وحب الطبيعة والمشاعر الوطنية وردود الفعل ضد الإستبداد والظلم الإجتماعي. وبعد الفتوحات الإسلامية كان أول من ألّف شعراً بلغته الأم هو بابا روخ همداني الذي توفي عام ٨٤١م، فدعا الشعب بشيوخه وشبابه الى:

حمل أسلحة باترة

ومهاجمة العدو كالأسود

والإنتصار عليه

لتكون بلاد الكورد

ربيعاً خالداً

مزدهراً وزاهياً

وكان الشاعر بابا طاهر همداني (٩٣٥-١٠١٠) ثائراً ضد الظلم الإجتماعي والموت، ورأى أن من غير المعقول أن يعاني الإنسان من كل الآلام المتوقعة لتزيين العالم ليخطفه الموت فيما بعد:

لقد شقي الفلاح على هذه الأرض

وزرع فيها وروداً من دموعه

وبذر فيها الحبوب

أملاً بجمع المحصول

ولكن المنية داهمته

قبل أن يجني ثماره

ويعد الملا الجزيري (١٤١٧-١٤٨١) الذي عاش في إمارة بوتان المستقلة من كبار الشعراء الصوفيين والفلاسفة الوجدانيين، لكنه شعر بأنه حزين من عظمته فقال:

أنا وردة فردوس بوتان

أنا مشعل كوردستان

في البلاغة أنا ملك

أغني الحب
وأريده للناس أجمع
لهذا أنا مغتم ومفعم بالآلام

أما أحمد الخاني (١٦٥٠-١٧٠٦) فهو نبي القومية الكوردية ومؤلف رواية روميو وجوليت الكوردية (مم وزين)، يندهش الشاعر في مقدمة هذا المؤلف العظيم الذي يبلغ مجموع أبياته ألفين وسبعمئة بيت من أن الكورد لازالوا بلا وطن يجمعهم كلهم مع أنه يعتبرهم أرفع منزلة من الشعوب التي تهيمن عليهم فيقول:

أفوض أمري الى حكمة الله
والكورد في الدنيا
لِمَ حُرموا من حقوقهم؟
لِمَ يُضطهدون؟
بجرأتهم العظيمة
فتحوا مدينة الشهرة
واحتلوا أقطار المجد
كل أمير من أمرائهم حاتم (وهو بطل عربي اشتهر بكرمه)
كل رجل فيهم في ساحة الوغى رستم (وهو جبار الشعوب الإيرانية)
أنظر، بدءً من العرب وحتى الجورجيين
كلهم كورد مثل قلعة
حاصرها هؤلاء الأتراك والفرس
من الجهات الأربع في آن واحد
وجعل المعسكران الشعب الكوردي
هدفاً لسهم القدر

ويحث الشاعر الكورد على التوحد لأنهم من خلال تحالفهم سوف يتمكنون من أن:

يهيمنوا على الأتراك والعرب والفرس
يؤسسوا دولة مثالية
يحملوا العلوم والفنون الى ذروة الكمال
ويحبهم كل الناس

ويذكر علاءالدين سجادي في كتابه (تاريخ الأدب الكوردي) الذي نشر باللغة الكوردية في بغداد عام ١٩٥٢ أكثر من مائتين وخمسين شاعراً، من بينهم عشر شاعرات.

وفي كتابه "إقرار خطيبة" يقول جاسم جليل، وهو من كورد أرمينيا السوفيتية:

أنا وردة برية
لازال برعمي مغلقاً
الشمس والندى ألقيا عليّ نورهما
إن لم تلمسني
فلن أتفتح
إن لم تلمسني
فلن أفوح بالعطر
أنا وردة الجبال
حاشاك!
يتفتح الحب بمداعبات:
رطّب بحبك أرض جذوري
إن لم تلمسني
فلن أتفتح
إن لم تلمسني
فلن أفوح بالعطر
أنا وردة برية
أنا وردة الجبال
حاشاك!
أيها البستاني النشيط، يا عاشق الوردة
تعال: أقطفني، خذني فوق الجبل........... (١٩٦٠)

الهوامش

١ - أبدى الرحالة التركي الشهير في القرن اسادس عشر (أوليا چلبي) إعجابه برؤية كورد منطقة بتليس وهم يسيرون بحرية على الثلج الطري بواسطة نعال الثلج.

٢ - كان العثمانيون قد دخلوا كوردستان في بداية القرن السادس عشر إثر إتفاق بين الأمراء الكورد المستقلين وبين السلطان سليم الأول.

٣ - الحركة القومية الكوردية: تأسست في نهاية القرن الماضي، ولم تكن تستطيع الظهور بحرية إلا عام ١٩٠٨ بعد أن وضعت الإمبراطورية العثمانية لنفسها نظاماً دستورياً حراً. وشهدت السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى ولادة أول التنظيمات الطلابية الكوردية منها (هيڤي) وبعض الصحف. وأدت حرب عام ١٩١٤ الى إيقاظ هذه الحركة التي كانت تشتد كل يوم وجُند معظم الطلاب الكورد كضباط في الجيش العثماني على حدود الدردنيل والقوقاز.

٤ - أشجار الحور البيضاء: وهي الكائنة في مكان رطب ومروي جيداً ولاتحتاج إلا الى عشر سنوات لتصبح جذوعاً تسد حاجات النجارين.

٥ - التوت الأبيض: تشبه حبات الرز الإيطالي المطبوخ. كانت هذه الثمار نادرة في ذلك العصر، وكان هناك إحتفال حقيقي أثناء قطافها وبيعها. وكان قسم من هذه الثمار يُجفف تحت الشمس، وفي الشتاء وبالإضافة الى اللوز والجوز، كانت ثمار التوت تشكل فاكهة لذيذة وتمد المرء بطاقة حرارية كبيرة. وكان يُصنع منها وهي مطهية ومعجونة باللوز المسحوق نوع من البسكويت.

٦ - گاوران: سهل مطوق ومحمي من البرد القارس بواسطة الجبال المحيطة به. وهذا السهل هو المكان الوحيد في شمال كوردستان الذي تستطيع حيوانات الصحراء (المجترة) أن تعيش فيه. وفي كوردستان إيران، في مناطق (سنه وكرماشان) تُربى الجمال.

٧ - أوسمانلي: خلال قرن لم يخطر على بال أي كاتب تجميد ما يكون تركياً. وكان التركي هو رجل الريف المسكين، الرجل الفظ الجاهل. إن شعور الإنتماء لإمبراطورية أكثر من الإنتماء القومي سيطر بقوة حتى منتصف القرن التاسع عشر. وإعتباراً من هذا التاريخ، تأثر الشباب الأتراك الذين كانوا يكملون دراساتهم في أوروبا، بأفكار الثورة الفرنسية والقومية والشوفينية.

٨ - إخوتي الأعزاء: وهي الرسائل التي بعثها مصطفى كمال الى الأغوات والى بعض الشخصيات الكوردية منشورة باللغة التركية في مذكراته. وحينما قُمعت الثورة الكوردية، إنقلب مصطفى كمال ضد معاونيه الكورد وحاول إبعادهم، فأُوقف بعضهم وأُعدموا شنقاً وإستطاع آخرون الفرار من الملاحقة واللجوء الى سورية.

٩ - كوردستان: شاهد مأخوذ من كتاب هـ.س.آرمسترونگ (الذئب الرمادي).

١٠- النار الحمراء قرب مدياد: أنقذت طفلة عمرها عشرة أعوام وتدعى (گوليزار ره شو) ظلت تحت جثث الضحايا. وبعد رحيل الجنود نجحت في الخروج من ركام الجثث وسارت على الأقدام ليلاً ونهاراً حتى وصلت الى قرية كوردية تدعى (دووگر) في سورية. هذه الفتاة التي أصيبت

برضوض في هذه المجزرة، وكانت ترتعد كلما سُئلت عن هذه الحادثة.

١١- كان المحامون والأطباء وعلماء اللاهوت مذنبين لأنهم إنخرطوا في التنظيم الطلابي الكوردي (هيڤي) المؤسس قانوناً في إستانبول عام ١٩١٠، أو لأنهم أظهروا مشاعر قومية كوردية وأعلنوها في وضح النهار.

١٢- إن عدم إلتزام أخي الأكبر لم يكن يعني إنه مجرد من الشعور الوطني أو القومي، فقد كان يحترق رغبة في تحطيم الأغلال التي كانت تخنق الشعب الكوردي وتهدد كيانه، ومع ذلك فهو هادىء الطبع ورزين، وتأثر بوالدي جداً، وكان يتلمس طريقه وبما إنه كان طبيباً أراد أن يقاوم برصانة البؤس الجسدي والمادي والمعنوي لشعبه. كانت قوميته تكمن في الإصغاء لمرضاه والتحدث إليهم بلغتهم عن أمراضهم وأحزانهم وحرمانهم.

١٣- ريزو: وهو إسم مستعار لشقيقي الثاني الذي لايزال يعيش في كوردستان تركيا.

١٤- بعد عشرين عاماً علمت إنهم كانوا قد أعدوا خطة لخطف السجناء وتحريرهم من براثن محكمة الإستقلال، ولكن هذه الخطة أُعيقت بأسراع السلطات التركية بالوصول الى (إيلازيغ) بالرغم من قساوة الطقس وحالة الطرقات السيئة وإرهاق السجناء الذين أجبروا على السير ليلاً دون توقف في قرية (مادن).

١٥- حتى اليوم هناك في تركيا قانون يعاقب بالسجن عامين الى خمسة أعوام كل شخص ينتقد ويشتم مصطفى كمال الذي مات عام ١٩٣٨.

١٦- إذا كان قسم كبير من الجبال الكوردية قد تعرّى من الأشجار اليوم، فإن الماعز تتواجد فيه عبثاً، وإن شجرة الجوز هي إحدى الأشجار النادرة التي تُدخر أوراقها من قبل الماعز وذلك بسبب طعمها المر، وبالمقابل فإن شجرة الصفصاف محببة جداً الى الماشية.

١٧- غسل الأموات: يتم هذا الغسل على لوح خشب يعرف بإسم (تانازير - تاناشيد) والميت الذي يُمدد يُصوبَن ويُغسل بالماء الساخن كما لو كان حماماً عادياً. وبعد ذلك يُغلف الجسد بكفن ثم يوضع في النعش.

١٨- العادة الكوردية: في اليوم الثامن، ينتهي عزاء المحزونين فيساعدون في العودة الى نشاطاتهم اليومية، ولكن الحداد لاينتهي بهذا، فهو يدوم مبدئياً أربعين يوماً. وفي ليلة الأربعين تجهز عائلة الفقيد كمية كبيرة من الحلاوة (أنظر الى المصطلحات) وتغلفها بالخبز الذي يسمى (بورق المحفظة) لأنه رقيق جداً وتوزعها على كل الذين جاؤوا لتقديم تعازيهم. وفي بعض مناطق كوردستان، ظلت التقاليد أكثر حيوية مما هي في مادن. حيث يُرى فيها نسوة يرتدين السواد سنة كاملة، وفي مناطق أخرى، يُعيّد الميت كما يُحتفل بالمولود الجديد. وخلال فترة تتراوح بين أسبوع وأربعين يوماً، يأتي الموسيقيون الذين يعزفون على الطبل والزرناي (أنظر الى المصطلحات)، ليؤدوا ألحاناً مرحة في الرقصات والرقص الدائري الشعبي وذلك ليلاً ونهاراً. وتتزامن هذه الحفلات والرقصات مع ولائم مستمرة. إن سبب هذه الأفراح يُفسر بالإعتقاد بحياة أبدية للجميع

والإقتناع بأن الموتى يجب أن يدخلوا في هذه الحياة الجديدة بإستبشار وفرح.

١٩- أرغم على العودة الى الإيرانيين مع قسم من رجاله وعاش تحت الإقامة الجبرية في طهران، ولم يحصل على خبزه اليومي إلا من أعمال التطريز ومن دروس زوجته وهو مؤلف كتاب عن التاريخ الكوردي بالفارسية.

٢٠- في سورية العثمانية القديمة الواقعة غرب نهر الفرات، كانت فرنسا (التي تمارس إنتدابها منذ عام ١٩٢٠) قد ضمت بلاد مابين النهرين الشمالية، أو الجزيرة. وهذه الجزيرة كانت تسكنها الأغلبية الساحقة من الكورد والحضريين الذين سكنوا على طول الحدود وكذلك بعض القبائل العربية البدوية التي تعيش على تربية الأغنام والإبل. ففي السنة التي كانت الأمطار فيها غزيرة كان عشب هذه الأراضي الخصبة لاينضب، وكان لكل قبيلة ما يكفي لتغذية قطعانها. ولكن لوكانت الأمطار نادرة، وهذا ما كان شائعاً في منطقة البدو أكثر من منطقة الكورد، كان يجب سكب الدماء لإيجاد المراعي للحيوانات أوالقبيلة الأكثر عدداً أو الأكثر قوة كانت تستطيع دوماً الإستيلاء على أراضي الأكثر ضعفاً وتطردهم الى مناطق بعيدة جداً في الجنوب. وفي عهد العثمانيين كانت إحدى قبائل البدو تخضع أحياناً للأخريات وتنشأ قوة تهاجم الأراضي المزروعة لكورد المنطقة الشمالية، وكان السلاطين الأتراك قد جعلوا من الحرب الدائمة أحد الأسس الرئيسية لإدارتهم. إن السلطان عبدالحميد (السلطان الأحمر) هو الذي جعل ذلك فناً كاملاً. وكان قد أصدر لقب (باشا) لثلاثة أسياد من المنطقة: إثنان منهم كورد وهما إبراهيم علي ومصطفى ميران، والثالث عربي هو هادي الشمري. ونجح في الإثارة بينهم. بعد تأسيس الفرنسيين لسورية. لم يغيروا التنظيم القبلي لمنطقة الكورد. والعرب، إحترموا وبجلوا زعماء القبائل الذين تعاطفوا معهم ولكنهم لم يثيروا نزاعات مسلحة بين هذه القبائل إلا نادراً. وكان لتقسيم الإمبراطورية العثمانية عواقب وخيمة على الكورد بصورة عامة وكورد الجزيرة بصورة خاصة. فكانت القبائل، إضافة الى عائلات كاملة، تقسم الى قسمين وحتى ثلاثة ممزقة بين تركيا والعراق وسورية.

٢١- والذي لم يكن قد علم برحيلنا. وبعد سنوات علمنا إنه كان قد تأثر تأثراً كبيراً بهذا الحدث. "أخيراً لم يكن يتوقف عن التكرار وهو شديد الحزن فيقول: رحل الكبير، حسناً، ولكن هذا الصغير لماذا أصطحبه معه؟". ومات بعد ذلك بعامين.

٢٢- نظام الدين كيبار: هذا الجورجي العثماني الذي كان موظفاً كبيراً في الإمبراطورية العثمانية، كان في الماضي يدخل الى بلاط إستانبول ويخرج منه، وكان ضد الكماليين بشراسة. هرب من إستانبول عام ١٩٢٤ مع إبن أخيه (ممدوح سليم) قبل دخول قوات مصطفى كمال بقليل. فأبحر الإثنان على متن قارب إنكليزي، وذهب الى مصر أولاً ثم الى لبنان ومن هناك الى سورية.

٢٣- الحي الكوردي: أسسه العظيم صلاح الدين، وعرف كيف يفرض نفسه خلال قرون على دمشق وضواحيها، وخلال فترة الإمبراطورية العثمانية، دُلل البطل وإستُخدم لقمع المناطق المناهضة مثل

جبل الدروز وحوران.

٢٤- الأمير جلادت بدرخان: في عام ١٨٤٦، كان الباب العالي قد أنهى إستقلال إمارة عائلة بدرخان ونفيت كل العائلة الأميرية الى جزيرة (كريت)، ومن هناك الى إستانبول حيث أراد السلطان عبدالحميد أن يتصالح مع الكورد، ومنح لقب (باشا) للأمير الكوردي بدرخان وقلد كل ولد من أولاده الأربعين منصباً هاماً. وحاول أحفاد بدرخان أن يستعيدوا الإمارة ولكنهم لم يفلحوا وأدت هذه المحاولة الى مقتل العديد منهم، وعاد آخرون ومنهم جلادت وكاميران الى أوروپا حيث درسوا فيها وحاولوا أن يرهفوا إحساس الرأي العام العالمي حول القضية الكوردية.

٢٥- أكرم وقدري جميل باشا: أُرسل إبنا العمين كضابطين الى جبهة القوقاز وجبهة (غزة) ولكن الإنگليز أوقفوا قدري ثم حُكم عليه بالسجن مدة عام في معسكرات مصر. بعد ثورة عام ١٩٢٥ الكوردية، أُوقف إبنا العمين بالإضافة الى أخي، ومثلوا أمام محاكم الإستقلال الخاصة وحُكم عليهم بالسجن لمدة خمسة أعوام. وأخيراً أُعفي عنهم بعد عامين من الإعتقال في سجون شواطيء البحر الأسود. وحينما عادوا الى بيوتهم، كان الوضع لايُطاق فآثروا اللجوء الى سورية.

٢٦- قبيلة هرڤيكان: وهي تحتوي على كورد مسلمين وإيزيديين ومسيحيين (سريانيين)، ولكن هذه القبيلة كانت مقسمة وممزقة بعادة الأخذ بالثأر كجميع العائلات الكوردية الكبيرة.

٢٧- حاجو آغا: حتى عام ١٩٢٥ لم تقترب السلطات العثمانية ولا الكمالية أبداً من منطقة مدياد وسمحت لحاجو بأن يهتم بقبيلته بحرية وفي عام ١٩٢٥، أثناء هيجان الكورد نجح مصطفى كمال في خيانة حاجو الذي أرسل قواته الى جانب قوات الشيخ سعيد. وبعد عام من إعادة السلام الى كوردستان، عاد أتاتورك ضد الزعماء الكورد الذين كانوا قد ساندوه ونجح حاجو في اللجوء الى سورية حيث منحه الفرنسيون عشرات القرى بالإضافة الى أقساط شهرية منتظمة. وفي عام ١٩٦٣، وبعد وصول البعث الى السلطة، حُرم تقريباً كل الملاكين الكورد من أراضيهم وخيراتهم.

٢٨- الفرنسيون: أعطوا وعوداً نسبية لتوسيع الحريات وإحترام الحقوق القومية، وتخلى علي آغا زلفو عن الكفاح المسلح لينظم الى الجبهة الوطنية.

٢٩- القرميد الخام (الكلبيج): في هذه المنطقة السهلية الفقيرة بالحجارة بصورة عامة، حيث تبلغ درجة الحرارة فيها صيفاً (٥٠) درجة في الظل، يشكل القرميد الخام مادة البناء المثالية ويمكن إنتاجه بكثرة وإستُعمل من قبل كل الحضارات العريقة التي سكنت بلاد ما بين النهرين مثل الحضارة السومرية والأكادية والميتانية (الكوردية) والبابلية والآشورية وحضارات أخرى. ويُصنع من تراب المنطقة والتبن والماء، والكتلة الحاصلة توضع في قالب خشبي مستطيل، ثم تُجفف تحت الشمس. والبيوت المبنية بهذه القراميد تُقام في مستوى الأرض وسط مساحة واسعة. وفي القرى التي لايكون الماء فيها على عمق كبير، نجد بئراً وسط هذه المساحة. ولكن في القرى التي تتطلب حفر بئر حتى عمق (١٠٠) متر للوصول الى الماء، فإنه لايُحفر إلا بئر واحد لكل قرية،

حبل طويل مربوط بالدلو يجره بغل، أو جمل تقوده إمرأة أو إثنتان بصورة عامة. ومنذ بضع سنوات، كانت هذ العملية تُجرى غالباً بواسطة مضخات تعمل بمحركات الديزل.

٣٠- بمكننة الزراعة، إختفت الغزلان شيئاً فشيئاً من هذه المنطقة ولانعثر عليها إلا في المناطق التي لاتصلح الأراضي فيها للزراعة ولاسيما في الصحراء الممتدة من شرق دمشق الى الحدود العراقية. وكان قسم كبير من تلك الغزلان فريسة متحمسي الصيد.

٣١- كانت قامشلي حينئذ بلدة كبيرة يسكنها حوالي (٣٠) ألف نسمة، محرومة من الكهرباء والمياه الجارية والقنوات. وكان الكورد والسريان والأرمن والعرب واليهود والكلدان والآشوريون وآخرون يعيشون فيها جنباً الى جنب. وكان الأرمن (البشيريون) يسكنون في حي خاص بهم. وكان يُقصد بالأرمن قبيلة كوردية في تركيا، مستكردة تماماً ولاتتكلم سوى الكوردية وتردي الزي الكوردي وتعيش في جو كوردي بحت، لكنها تدين بالديانة الأرمنية من طائفة الأرثوذوكس. وكانت الكتب المقدسة لقساوستهم مكتوبة باللغة الكوردية ولكن بالحروف الأرمنية. وكانت الأحزاب السياسية الأرمنية تبذل جهوداً جبارة لتعليم اللغة الأرمنية وإبعادهم عن تأثير الثقافة الكوردية.

٣٢- في الحقيقة وبعد بضع سنوات ستكشف شركة فرنسية النفط فيها ولكنها لن تستثمره وبعد ثلاثة عقود إستطاعت سلطات دمشق بمساعدة خبراء سوڤييت أن تستخرج الذهب الأسود (النفط).

٣٣- عين ديوار: وهو مكان ديني إسمه العربي الكوردي (نبع الجدار) بسبب تدفق الماء الى أسفل هضابه.

٣٤- اللغة الأرمنية: كان شقيقي يعرف الأرمنية أيضاً لأنه أثناء السنوات القليلة التي سبقت الحرب العالمية الأولى، كان تعليم الأرمنية مكتوباً في منهاج المدارس الثانوية في الإمبراطورية العثمانية.

٣٥- الفولكلور: إن الفولكلور الكوردي غني وحافل سواء كان في مجال الرقص والموسيقى أو الشعر. ولقد إستوحى منه المؤلف الموسيقي الأرمني (آرام خجادوريان) بشكل كبير ليشكل (الباليه) (گايانه) ومنها بعض الألحان (رقصة الكورد) و(رقصة الشباب الكورد) و(رقصة الهدهدة لتنويم الأطفال) التي تكون كوردية بشكل نموذجي.

٣٦- الجمعيات الأخوية الدينية: هذه الجمعيات التي دخلت الى الإسلام مؤخراً ومنها القادرية والنقشبندية، تأصلت بقوة لدى الكورد. وكانت لهذه الطوائف سلطة روحية مطلقة على تلاميذها (المريدين والصوفية). وإذا حاول البعض منهم أن يقوموا بدور المحرّر في تاريخ شعبهم مثل الزعيم الشهير شيخ سعيد من (پيران)، فإن معظمهم بذلوا جهودهم في إبقاء الشعب في حالة جهل وخضوع.

٣٧- هاوار: وهي الصحيفة الكوردية التي تعني (النداء)، لم تظهر إلا عام ١٩٤١، لدى وصول

الإنگليز الى سورية. وكان الأتراك في هذه الآونة يميلون الى جانب الألمان وساند الإنگليز الأمير (جلادت بدرخان) في إعادة نشر الصحيفة الدورية الكوردية.

٣٨- علمنا مؤخراً أن السلطات الفرنسية كانت تنوي إبعاد شقيقي ولكنها تخلت عنه نتيجة إحتجاج وجهاء جميع طوائف قامشلي. ومع ذلك وبما إنها لم تستطع أن تقبل إدانة السياسة الفرنسية في سورية، فقد قررت اللجوء الى أناس سيئي الأخلاق لإقصائه بلاقيد ولاشرط.

٣٩- علي يونس: كان قد بدأ المعارك ضد الأتراك عام ١٩٢٥ بالتعاون مع أبنائه الستة الذين كانوا يقودون جبهات مختلفة وبموته المفاجيء أثناء إحدى المعارك، خلفه إبنه الكبير عبدالرحمن. وفي عام ١٩٣٨، وبإصرار من حكومة أنقرة، حاولت السلطات الفرنسية تسليمه الى الأتراك، وأخيراً سُمح ليونس بالبقاء في سورية والعودة الى الجزيرة حيث مات عام ١٩٥٦، وهو تواق لجبال ساسون وكئيب لرؤية شعبه مجزءً وتحت هيمنة الغير.

٤٠- إبنة مصطفى كمال المتبناة (صباحت) التي كانت طيارة تبجحت أثناء المقابلات الصحف التركية ومنها صحيفة (جمهوريت) في أنها حلقت على إرتفاع منخفض وأطلقت نيران الرشاشات على الأطفال الذين كانوا يبحثون عن ملجأ في الجبال.

٤١- نوري ديرسملي: نشر قبل بضع سنوات كتاباً ذاع صيته وسط شباب كورد تركيا وهو (ديرسم في تاريخ كوردستان).

٤٢- بالرغم من نتيجة الإستفتاء العام الذي أجرته عصبة الأمم، كانت فرنسا قد تخلت بعد عام واحد عن لواء الإسكندرونة لتركيا وسببت في وضع عشرات الآلاف من العرب والكورد والأرمن والشركس وجهاً لوجه مع الجيش التركي. وبعد ضم لواء الإسكندرونة أصبح إسمه (هاتاي) وأصبح مقاطعة تركية حيث كانت أنطاكية مركز محافظتها. في هذا الوقت كان (ممدوح سليم) مدرس الأدب التركي في ثانوية أنطاكية وممثل الكورد لدى لجنة عصبة الأمم، يناضل ليبقى هذا اللواء مقاطعة سورية، فأخذ طريق المنفى وجاء ليستقر في دمشق.

٤٣- (PDKS) : هو الحزب الذي أسسته وكنت رئيسه الأول، يتابع نشاطه اليوم سراً بالرغم من أعمال التعذيب للأنظمة المتعاقبة وبين ألف صعوبة وصعوبة.

٤٤- مدارس (كتاتيب): تكون الكتاتيب لدى الكورد عبارة عن مدارس عبادة ومدارس فقهية وليست مدارس عادية. وكانت أشهر هذه الكتاتيب موجودة في عامودا، حيث كانت الدراسة تدوم فيها إثني عشر عاماً. وبالإضافة الى الفقه الإسلامي، كان يُدرس فيها الأدب العربي والفارسي، وكانت دراسة الرياضيات تحتل فيها مكاناً كبيراً، بينما العلوم الأخرى كالكيمياء والفيزياء وعلم الأحياء لم يكن يُهتم بها إلا نادراً. وكانت الكتاتيب تلعب دوراً هاماً في الحياة الثقافية الكوردية، وكوّنت رجالاً علامة، منهم شعراء وأدباء رفيعي المستوى، والشاعران (ملاي جزيري) و(أحمدي خاني) هما الأديبان الخالدان للأدب الكوردي اللذان تخرجا من هذه الكتاتيب التي كانت منتشرة جداً في جميع أنحاء كوردستان. كانت هذه الكتاتيب بإدارة رجل علامة

بصورة عامة، وكان الشعب يعين هذه المدارس مالياً حيث يسكن الطلاب فيها ويطعمون. وحينما لم يكونوا جياعاً، يقتصدون بصورة عامة.

٤٥- جگرخوين: بالإضافة الى قصائده الملحمية والهجائية والغنائية، فإن جگرخوين اليوم لاجيء في السويد يكتب القصائد وألحان السير على الخطى.

٤٦- كنت أدرس حينئذ اللغة الإنگليزية في الجامعة الأمريكية وحللت مكان الأمير كاميران بدرخان في منصب المذيع الكوردي لإذاعة الشرق. وكنت أهتم أيضاً بتجمع الكورد. وفي الليل كنت والأمير بدرخان ننظم دروساً على شرفهم ونعلمهم القراءة والكتابة باللغة الكوردية.

٤٧- السونه: هذه الحشرة القادمة من جنوب روسيا تهاجم سنابل القمح والشعير ومحاصيل أخرى حينما تكون خضراء وطرية. وتخلصت سورية منها بإيصال القمح الإيطالي (الطلياني) الذي ينضج قبل طيران السونا. بالمقابل لم تستطع تركيا محاربة هذه الآفة التي لاتصيب إلا المناطق الكوردية.

٤٨- رمزي: كان في حالة مؤثرة والإنگليز الذين إمتنعوا عن الحكم عليه، هددوه بعقوبة الإعدام. وبالرغم من تدخل العديد من الشخصيات الكوردية والعربية، لم يُحكم على رمزي كما لم يُعف عنه. وبما أنه لم يستطع تحمل الآلام النفسية والجسدية لإعتقاله، فقد توفي في السجن عام ١٩٤٦ عن عمر يناهز السابعة والعشرين. **(والاصح ان رمزي نافيع رشيد توفي عام ١٩٤٧ في اربيل متأثراً بالامه النفسية والجسدية بعد خروجه من السجن - الناشر).**

٤٩- توفيق وهبي: أستاذ اللغة الكوردية في جامعة لندن.

٥٠- رشدي بيگ: كوردي من تركيا، ولد رشدي هڤيركي في (مادن) حيث أمضى فيها قسماً من طفولته. ولكنني إلتقيته في دمشق للمرة الأولى عام ١٩٣٥. وبعد الثورة الكوردية عام ١٩٢٥ لجأ والده الى العراق حيث أتم رشدي دراسته في الهندسة.

٥١- مير حاج: أُطلق سراحه عام ١٩٤٥، وإنضم الى البارزاني ورافقه في تجواله في إيران وفي الإتحاد السوڤيتي.

٥٢- عوني يوسف: كان قد صرح في قراره أن هؤلاد الكورد كانوا يأتون من كوردستان ويذهبون الى كوردستان وإن الحدود التي تفصل كوردستان العراق عن كوردستان تركيا لم تكن سوى حدود إصطناعية. وكانت هذه الكلمات كفيلة بإيداعه السجن.

٥٣- عبدالله شرفاني: كان قد إقترف جريمتين. لكن الإنگليز الذين يخشون تعاطفه مع الألمان، حكموا عليه بالإحتفاظ به في المعسكر بدلاً من أن يكون على رأس القبيلة. وخلال الثورة الكوردية عام ١٩٦١ أصبح عميلاً خطيراً (جحشاً) وهو إسم أطلقه الثوار الكورد على الذين يضعون أنفسهم تحت تصرف القوات العراقية.

٥٤- صديق شنشل: في عام ١٩٥٨، بعد إنقلاب عبدالكريم قاسم وإعلان الجمهورية في العراق، رأيت صديق شنشل ثانية في دمشق. فكشف حينئذ عن مشاعره الكوردية لكنه كتم شوفينيته

العربية. وفي عام ١٩٦٢ أصبح وزيراً في بغداد.

٥٥- الشيعة: لكي يكفر الشيعة عن أنفسهم لأنهم تركوا الأمويين يقتلون إبني علي (إبن عم وصهر النبي محمد -ص)، كانوا يقومون بأداء فريضة الحج في كربلاء. وخلال المسافة كلها كانوا يعاقبون أنفسهم وهم يصرخون: ياحسن! ياحسين! ويجرحون أنفسهم بسلاسل حديدية ضخمة ويضربون أجسادهم بالخناجر. كان هذا التعذيب الجسدي يؤدي بالنتيجة الى مئات القتلى. وبعد دخول الإنگليز الى العراق بعدة سنوات سمحوا أيضاً بهذه الأعمال التي حاول العراقيون خنقها بعد ذلك.

٥٦- كانت الشرطة المتجولة في ذلك الوقت أقوى بكثير من الجيش الذي نقص نقصاً كبيراً لصالح الشرطة ليُظهر عداوته للإنگليز وجهاً لوجه عام ١٩٤١، وكانت الدولة وشركاؤها تعتبر الجيش أكثر ضماناً.

٥٧- في هذا الوقت، فكرت إنگلترا في تأسيس الجامعة العربية وحققت ذلك وأرادت توحد الدول العربية فيها تحت حمايتها. ومن هناك إنبثقت أسباب معارضتها للمطاليب الكوردية.

٥٨- قتال الشرف: علمنا مؤخراً أن القائد البريطاني العام للشرق الأوسط كان قد أصدر إنذاراً للجيوش الفرنسية يلزمها بإيقاف عملياتها العسكرية في ٣٠/أيار/١٩٤٥، فإمتنع الفرنسيون عن إطلاق النار على المدن وسكانها وإستعدوا لمغادرة بلاد المشرق بشكل تدريجي. ولكن جيوشهم وجيوش بريطانيا لم تنسحب بشكل نهائي إلا في نيسان عام ١٩٤٦.

٥٩- البارزاني: في ٧ آب ١٩٤٥ هاجم الجيش العراقي قوات البارزاني لكنه تعرض للهزيمة. وسارع الكورد الى إحتلال مدن عديدة وإتجهوا نحو سهل أربيل. فإختارت القوة الجوية الملكية البريطانية (R.A.F) هذه اللحظة للتدخل وأشاعت الموت في صفوف القوات الكوردية المفتقرة الى الأسلحة المضادة للطيران، فقرر البارزاني حينئذ الجلاء عن شمال العراق واللجوء الى القسم المحرر من كوردستان إيران. وبعد قليل، أُعلنت تلك المنطقة منطقة حكم ذاتي ضمن إطار إيران. ومُنح البارزاني لقب الجنرال (القائد العام) وتولى قيادة القوات المسلحة. وبعد عام كانت القوات الإيرانية المنظمة من قبل الولايات المتحدة تهاجم الجمهورية الكوردية الصغيرة وتدخل الى عاصمتها (مهاباد) حيث قاموا بأعمال وحشية فظيعة وشُنق الرئيس (قاضي محمد) مع بعض المسؤولين الآخرين. أما البارزاني الذي لم يعتمد إلا على قواته الكوردية العراقية، فقد قاوم عدة أشهر وإستطاع العودة الى منطقته العراقية حيث ترك فيها العائلات. وعلى رأس (٥٠٠) مناضل من رجاله، مر عبر تركيا وإيران ليلجأ الى الإتحاد السوڤيتي وبقي فيها حتى عام ١٩٥٨، تلك السنة التي أطاح فيها الجنرال عبدالكريم قاسم بالنظام الملكي في العراق.

٦٠- ظلت هذه الهيئة خاملة فيما يتعلق بالكورد، ولكن في عام ١٩٦٣، وبينما كانت الحرب في أوج عنفوانها في العراق، وكان العراقيون يقصفون القرى والمدنيين بقنابل الناپالم. طلبت (منگوليا الخارجية) أن توضع القضية الكوردية في موضع إهتمام وعناية. وهددت الدول العربية

وتركيا حينئذ الإتحاد السوڤيتي بقطع علاقاتها الدبلوماسية معه مالم تلغ منگوليا طلبها فوراً. وهكذا سُحبت القضية الكوردية دون مناقشة.

٦١- في عام ١٩٧٦ فقط إعترف الحزب الشيوعي التركي رسمياً بوجود الشعب الكوردي في تركيا وبشرعية مطاليبه الديمقراطية. وإعترف الحزب الشيوعي العراقي والسوڤيتي بذلك عام ١٩٦٦. ولكن خلال الحرب مابين عامي ١٩٧٤- ١٩٧٥، تحالف مع الحكومة البعثية في بغداد لسحق الثورة الكوردية بقيادة البارزاني. وعلى هذه النقطة ظل حزب (توده) الإيراني في حيرة وإستمر في المراوغة. أما بالنسبة للحزب الشيوعي السوري المتعاون مع الحكومة، فقد ظل صامتاً دوماً حيال سياسة حزب البعث الهادفة الى طرد الكورد من منطقتهم وحرمانهم من الجنسية السورية.

٦٢- في عام ١٩٥٦ وقبل عودتي الى سورية وأنا على إقتناع بضرورة تأسيس رابطة الطلاب الكورد في أوروپا، تضم عدة مئات من الأصدقاء.

٦٣- كنت قد إخترت موضوعاً فلسفياً بعنوان (دراسة نقدية لمفهوم الإلتزام لدى عمانوئيل مونييه) عام ١٩٥٧- مطبعة دورز- جنيف.

٦٤- الفلقة: نوع من التعذيب المنتشر في الشرق الأوسط واليونان، ويكون بربط القدمين بحبل مربوط بعصا، ويُشدّ الحبل على القدم ثم يُضرب على أخمص القدمين.

٦٥- سجن الباستيل السوري: بُني عام ١٩٢٧، وأثناء ترميمه وتحسينه، تواصلت أعمال التعذيب من قبل السلطة المنتدبة. ومنذ عام ١٩٥٨، أصبح عبدالناصر ومنفذ أوامره في سورية (عبدالحميد سراج) أكثر شراسة وإسم هذا السجن أكثر إثارة للرعب.

٦٦- خلال حكم عبدالناصر أصبح الوضع الإقتصادي في سورية مأساوياً، حيث غزت المنتجات المصرية الأسواق السورية. ولكن حسبما رأى السوريون فإن سياط المباحث كانت تباع بشكل كبير. وكانوا يستخدمونها كثيراً حينما يتوجب تجديد البضاعة المخزونة.

٦٧- في سجون المباحث كان يجب على السجناء تأمين إحتياجاتهم بوسائلهم الخاصة وإلا ماتوا جوعاً لأنهم مرغمون على أن يرضوا بكسرات من الخبز، وفي أحسن الحالات يعتمدون على كرم السجناء الأقل فقراً.

٦٨- كوردستان بلاد مجزأة: كتاب ألفه كوردي عراقي وطُبع في إنگلترا. كان يحتوي على فصل يشرح الطريقة الواجب إتباعها في كل دولة تضم كوردستان، للوصول تدريجياً وبسرعة الى إنشاء دولة كوردية مستقلة.

٦٩- الماء: خلال شهر أيلول كله، كان السجن محروماً من الماء الجاري بسبب معرض دمشق الدولي الذي كان يستهلك قسماً كبيراً من مياه المدينة ليغذي أحواضه ونوافيره التي لاتحصى. وخلال هذا الوقت كانت أحياء عديدة في دمشق محرومة من المياه.

٧٠- الدروز: بالرغم من إنهم يعتبرون أنفسهم مسلمين، فهم في الحقيقة بعيدون عنهم كل البعد. وبعد بضعة أشهر بُرئت ساحتهم تماماً حيث لم يكن هناك أي دليل مادي على تعاونهم مع

إسرائيل. في غضون ذلك لقي درزيان مصرعهما تحت التعذيب وعاش حوالي ثلاثين منهم في الهم والقلق ثمانية أشهر من السجن الإحتياطي.

٧١- كنت قد كتبت: "أنا في سجن المزة لأنني كوردي. وطالبت بالحقوق الشرعية للكورد الذين يعيشون في شمال الجمهورية العربية المتحدة. ولكي لايمارس مثل هذا التمييز العنصري والظلم في المستقبل ولتتعزز الأخوة التاريخية الكوردية- العربية، أطلب من الدستور الجديد إقرار هوية الشعب الكوردي وحقوقه الثقافية كلها".

٧٢- علي عيسى: كان علوياً. ويشكل العلويون النُصيريون طائفة شيعية بعيدة عن الإسلام المستقيم كل البعد. وكانوا قد خضعوا كبقية الطوائف الدينية الأقلية والسلالات المعربة كالدروز والإسماعيليين أو اليونانيين الأرثوذوكس، تحت لواء القومية العربية، وذلك منذ الحرب العالمية الثانية، إندفعوا بطريقة جامحة على المزاد العلني للعروبة المتزمتة والعنيدة. ونجح حزب البعث أيضاً في ترسيخها في نفوس المثقفين من هذه الأقليات. وتميز أعضاء هذه الأقليات غالباً بحقدهم تجاه الكورد وهم بذلك يريدون أن يكونوا قوميين أكثر من العرب المسلمين السنة.

٧٣- العربية: وهي جريدة رابطة الطلاب العرب في سويسرا. ثم أصبحت رابطة الطلاب العرب في أوروپا.

٧٤- صلاح الدين: عاش صلاح الدين الكوردي خلال إقامته في دمشق في إحدى مقصوراته وتوفي فيها.

٧٥- تتسامح المحاكم في أغلب الأحيان بخصوص القتلة من هذه الفئة، فمثلاً، شاب حائز على شهادة البكالوريا، كان قد قتل شقيقته (الفاجرة) ولم يُحكم عليه بالسجن إلا ثلاثة أعوام.

٧٦- أم عدنان: إعتاد العرب على تسمية الرجال المتزوجين الذين يعرفونهم والذين لديهم أولاد بإسم ولدهم الكبير مضيفين إليه كلمة (أبو) والمرأة تصبح (أم). وحينما يكون الزوجان بلا أولاد أو صبي، تضاف (أبو) و(أم) للإسم الأول لوالد الزوج. وغالباً ما يكون كورد البلاد العربية مرغمين على الخضوع لهذه العادة. وبدلاً من الألفاظ العربية، يستبدلونها أحياناً بمثيلاتها الكوردية (باڤي-أبو) و(ديا- أم).

٧٧- لم تكن الخالة زهرة من جهة أمها خالتي، ولكنها كان صديقة وفية، وكانت إبنة حفيد الأمير بدرخان. وكانت والدة وجدة الخالة زهرة قد تزوجتا لبنانيين من أصل كوردي. وبالرغم من أنها ولدت في لبنان وتزوجت من لبناني، فإنها حافظت على لغتها الأم وعاداتها الكوردية بعناية قصوى.

٧٨- حسبما يرى (جان پيير آلم) في جريدة (لبنان) مطابع فرنسا الجامعية، قد يكون عدد كبير من العائلات الدرزية بما فيها عائلة جنبلاط وأرسلان من أصل كوردي.

٧٩- إعتنى المركز الإجتماعي بالعرب والكورد. أما بالنسبة لنشاطات المركز الثقافي فقد إتسعت كثيراً ولكن الحرب الأهلية اللبنانية أعاقت مسيرته.

٨٠- لقد كانت هذه الخطة قد أُنجزت بدقة لولا إن الإتحاد السوڤيتي أطلق تحذيراً لإيران وتركيا بعدم التدخل في شؤون العراق الداخلية. ووقف في وجه البعث بسبب مذبحة الشيوعيين العراقيين.

٨١- كنت أعرف (دانا شميت) شخصياً وهو مراسل صحيفة (نيويورك تايمز) في الشرق الأوسط، وكذلك (ريچارد أندريگ) مراسل الإذاعة السويسرية - الروماندية. كان الإثنان قد رحلا في وقت سابق الى كوردستان العراق وجلبا مقالات وأفلاماً للتلفزيون بالإضافة الى مسودات كتب. وفي ربيع عام ١٩٦٢، إستطعنا أن نُدخل (دانا شميت) الى كوردستان العراق عبر سورية، بينما كان (ريچارد أندريگ) قد ذهب إليها عن طريق إيران. وأصدر كتاباً رائعاً طُبع في الولايات المتحدة بعنوان (بين رجال شجعان)، إستند فيه على ملاحظاته وصوره أثناء الرحلة.

٨٢- في نهاية شهر حزيران، كانت وحدة سورية على اليرموك مؤلفة من عشرة آلاف رجل ، قد إنسحبت من الحدود الإسرائيلية بقيادة الجنرال (فهد الشاعر) لينقل دعمه الى القوات العراقية. وبعد أن تكبدت خسائر فادحة في الأرواح والمعدات توجب عليها الإنسحاب من المعركة والعودة الى سورية في منتصف كانون الأول عام ١٩٦٣.

٨٣- كان من بينها كتابان كنت قد نشرتهما في بيروت سراً. أحدهما بعنوان (حرب الحرية) وهي ملحمة بالكوردية عن الثورة الكوردية في العراق وتحتوي على ترجمة بالعربية. أما الكتاب الثاني فهو (المسألة الكوردية والصحافة العربية)، كان يضم مقتطفات مما نشرته الصحافة اللبنانية والمصرية عن أحداث العراق وتنتقد سياسة السلطة في بغداد.

٨٤- صلاح جديد، أمين سر الإدارة الإقليمية لحزب البعث ونورالدين أتاسي رئيس الجمهورية.

٨٥- في عام ١٩٦٧ وأثناء حرب الأيام الستة، عاد سليم حاطوم الى سورية يرافقه بعض الضباط الذين كانوا أوفياء له. وحينما أراد الإستيلاء على السلطة، أُعتُقل وأُعدم قبل أن يتمكن من الدخول الى دمشق.

٨٦- لدي في تركيا شقيقتان وأخ واحد. وفي عام ١٩٦٨ أُخبرت في بيروت عن وفاة أخي الأكبر (نافذ)، فأراد أخي (ريزو) أن ندفنه في كوردستان تركيا. وأخيراً وتحت ضغط كورد سورية دُفن أخي في أحد الأماكن المرتفعة (لدى السلطات العليا) للقومية الكوردية في سورية.

الفهرس

حياتي الكوردية أو صرخة الشعب الكوردي

"حياتي الكوردية" مغامرة إنسانية كبيرة، إنها سيرة حياة شخصية لكاتب وزعيم سياسي ضحى بكل شيء من أجل القضية الكوردية، وتألم في فكره وجسده ليتمكن شعبه من التمتع بالحقوق الإنسانية والثقافية الأصلية والثابتة، وذلك منذ عهد الإمبراطورية العثمانية الى أيامنا هذه.

"حياتي الكوردية" هي ايضاً وثيقة سلالية حول المجتمع الكوردي من كوردستان تركيا الى المناطق الكوردية في سورية، ومن العراق الى لبنان، هذا المجتمع الذي يخضع اليوم لسياسة خطيرة للتمثيل الإجباري والإبادة الجماعية أكثر من أي وقت مضى.

هذا الكتاب هو تاريخ أمة بسهولها وجبالها السحرية، وهو ذاكرة الشقاء والعذاب، وهو ايضاً لوحة جدارية إنسانية حقيقية وأكثر من (١٢٠) شخصية كوردية وأرمنية ويهودية ويونانية وعربية ودرزية وتركية وفرنسية وسويسرية وآخرين كانوا ضحايا وجلادين.

أخيراً "حياتي الكوردية" شهادة مباشرة على الحياة اليومية في سجون الشرق الأوسط.

هذه الرواية للسيرة الذاتية متَمّمة بلمحات تاريخية وأدبية ومرفَقة بمصوَر كوردستان وبسلسلة من الصور الأصلية الجديدة.

- ولد نورالدين زازا في كوردستان العثمانية التي تدعى تركيا حالياً.
- واجه المأساة الكوردية في السادسة من العمر مع قدوم مصطفى كمال.
- سجن والده وشقيقه.
- في العاشرة من العمر أصبح يتيماً ولجأ الى سورية حيث درس اللغة الفرنسية في دمشق.
- حاول الإنضمام الى الزعيم (البارزاني) الذي ناضل ضد الإنكليز والحكومات العراقية للحصول على الحكم الذاتي.
- سجن سنة واحدة قبل إكماله دراساته في الجامعات الفرنسية والأمريكية ببيروت.
- درس العلوم الإجتماعية والتربوية في جامعة لوزان ومنها حصل على شهادة الدكتوراه.
- أسس رابطة الطلاب الكورد في أوروبا قبل العودة الى دمشق.
- عندما عاد الى دمشق أسس فيها الحزب الديمقراطي الكوردي في سورية، وأصبح أول رئيس للحزب، مما أدى الى إعتقاله مجدداً حيث عُذّب وحُكم عليه.
- في عام ١٩٦٧ عاد الى مسقط رأسه في كوردستان تركيا، لكنه اضطر الى الفرار منها ثانية من ألوان التعذيب التركية.
- لجأ الى لوزان ودرّس فيها، وأصبح سويسرياً.